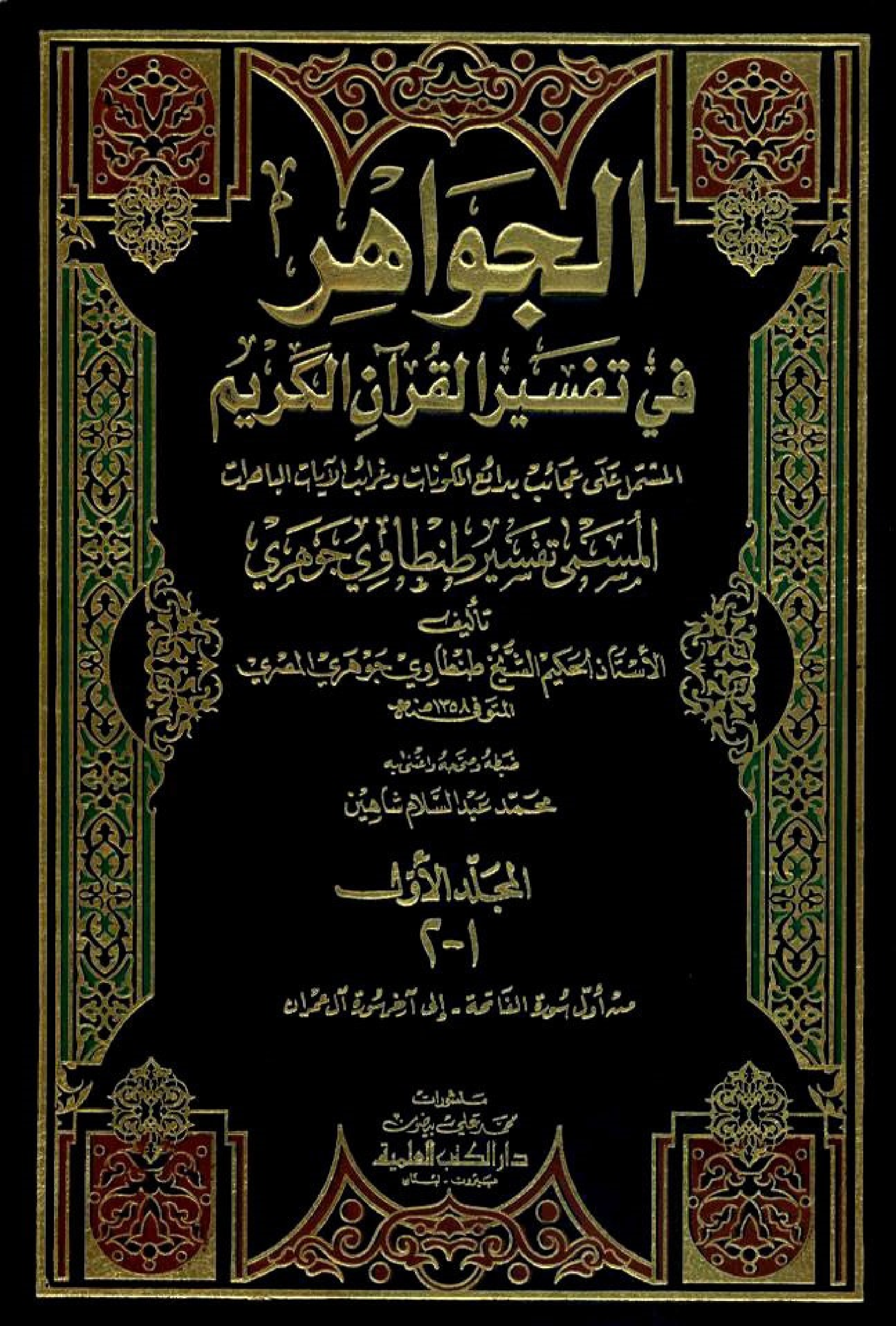

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الأول
١-٢
من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة آل عمران
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

١ - ٢

المحتوى :

من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة آل عمران

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

طنطاوي بن جوهري المصري

١٢٨٧-١٣٥٨هـ - ١٨٧٠-١٩٤٠م

هو طنطاوي بن جوهري المصري[1] : فاضل، له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة. ولد في قرية كفر عوض الله حجازي، من قرى الشرقية بمصر، وتعلم في الأزهر مدة، ثم في المدرسة الحكومية.

وعني بدراسة اللغة الإنكليزية. ومارس التعليم في بعض المدارس الابتدائية، ثم في مدرسة دار العلوم. وألقى محاضرات في الجامعة المصرية.

وناصر الحركة الوطنية، فوضع كتاباً في (نهضة الأمة وحياتها ـ ط) نشره تباعاً في جريدة اللواء وانقطع للتأليف، فصنف كتباً أشهرها هذا الكتاب (الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ ط) في ٢٦ جزءاً، وقد نحا فيه منحى خاصاً ابتعد في أكثره عن معنى التفسير، وأغرق في سرد أقاصيص وفنون عصرية وأساطير.

وجعل لسائر كتبه عناوين ضخاماً، وأكثرها رسائل، منها :

جواهر العلوم ـ ط، والنظام والإسلام ـ ط، والتاج المرصع ـ ط، والزهرة ـ ط، ونظام العالم والأمم ـ ط، والأرواح ـ ط، وأين الإنسان ـ ط، وأصل العالم ـ ط، وجمال العالم، والحكمة والحكماء وسوانح الجوهري، وميزان الجواهر في عجائب الكون، والفرائد الجوهرية في الطرق النحوية، وبهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية.

توفي بالقاهرة[2].

---

(١) الأعلام ٣/ ٢٣١.

(٢) مرآة العصر ٢/٢٢٥، وجريدتا البلاغ والأهرام ٣ ذي الحجة ١٣٥٨هـ، ومعجم المطبوعات ١٢٤٣، والأعلام الشرقية ٢/١١٦، ومذكرات المؤلف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإني خلقت مغرماً بالعجائب الكونية، معجباً بالبدائع الطبيعية، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال، وما في الأرض من بهاء وكمال، آيات بينات، وغرائب باهرات، شمس تدور، وبدر يسير، ونجم يضيء، وسحاب يذهب ويجيء، وبرق يأتلق، وكهرباء تخترق، ومعدن بهيّ، ونبات سنيّ، وطير يطير، ووحش يسير، وأنعام تسري، وحيوان يجري، ومرجان ودرّ، وموج يَمرّ، وضياء في مخارق الأجواء، وليل داج، وسراج وهاج، وكتاب من العجائب مسطور، في لوح الطبيعة منشور، وسقف مرفوع، إن في ذلك لبهجة لذوي البصائر، ونوراً وتبصرة لصادقي السرائر.

ثم إني لما تأملت الأمة الإسلامية، وتعاليمها الدينية، ألفيت أكثر العقلاء، وبعض أجلّة العلماء عن تلك المعاني معرضين، وعن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم، وما أودع فيها من الغرائب. فأخذت أؤلف كتباً لذلك شتى، كنظام العالم والأمم، وجواهر العلوم، والتاج المرصع، وجمال العالم، والنظام والإسلام، ونهضة الأمة وحياتها، وغير ذلك من الرسائل والكتب. ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق، وأشرقت الأرض بنور ربها، وتقبلها أجلّة العلماء قبولاً حسناً، وترجم منها الكثير إلى اللغة الهندية المسماة بالأوردية، وإلى لغة القازان بالبلاد الروسية، وإلى لغة جاوة في الأوقيانوسية، ولكن كلّ ذلك لم يشف مني الغليل، ولم يقم على غنائه من دليل.

فتوجهت إلى ذي العزة والجلال، أن يوفقني أن أفسر القرآن، وأجعل هذه العلوم في خلاله، وأتفيأ في بساتين الوحي وظلاله، ولكم طلبت منه جلَّ جلاله بالدعوات في الخلوات، وابتهلت إليه وهو المجيب فاستجاب الدعاء.

وكان ابتداء التفسير : إذ كنت مدرّساً بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقي بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يكتب في مجلة الملاجئ العباسية ، وها أنا ذا اليوم أوالي التفسير مستعيناً باللطيف الخبير ، مؤمّلاً بما وقر في النفس ، أن يشرح الله به قلوباً ، ويهدي به أمماً ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية ، وإني لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليقرأنّ في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول ، وليولعنّ بالعجائب السماوية ، والبدائع الأرضية : الشبان الموحدون ، وليرفعنّ الله مدنيتهم إلى العلا ، وليكوننّ هذا الكتاب داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومنّ من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة ، في الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات ، كيف لا ، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية .

ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق ، وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق ، مما يشوق المسلمين والمسلمات ، إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات ، في الحيوان والنبات والأرض والسماوات .

ولتعلمنّ أيها الفطن : أن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقيّ المستضعفين في الأرض ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] ، وهذا أوان أن أشرع في المقصود ، فأقول وبالله التوفيق .

سورة الفاتحة
وبيان آيات العلوم والأخلاق فيها
وهي مكية، وآياتها سبع

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبيّ: «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

نزلت هذه السورة لتعليم العباد كيف يتبرّكون باسم الله عزَّ وجلَّ في سائر أحوالهم، وكيف يحمدونه ويستعينون به، فيبتدئ القارئ قائلاً: أقرأ متبركاً باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم، كالسماوات والأرض والصحة والعقل. الرحيم المنعم بدقائقها، كسواد العين، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذي لها، مع أن النور يلمع من خلالها، وينقل صور المرئيات إلى حدقتها فشبكيتها، فالدماغ، فهذه الدقة في الصنع والحكمة في الوضع التي أباحت لضوء الشمس والكواكب مثلاً أن يلج، ومنعت الغبار أن يدخل، يعبر عنها بلفظ الرحيم تتميماً للنعمة وتكميلاً للهناء والسعادة. ولما كان أكثر الناس لا يلحظون العجائب الكامنة فيهم، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم، وهم أكابر الحكماء والأولياء، وجب أن أبين في هذا المقام بعض رحمة الله عزّ وجلّ في العالم المشاهد، فمنها ما أشار إليه العلامة الأستاذ ميلن ادوارد: أن حيواناً يسمى أكسيلوكوب، يعيش منفرداً في فصل الربيع، ومتى باض مات حالاً، فمن رحمة الله وجميل صنعه، ورأفته بالخلق أن ألهم هذا الحيوان أن يبني بيتاً قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله عاد من اتخاذ البيوت بالحفر، ولكن هذا في خشب، وأولئك في صخر، فيعمد ذلك الحيوان إلى قطعة من الخشب، فيحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب، ثم يبيض على ذلك بيضة، ثم يأتي بنشارة الخشب ويجعلها عجينة، ويجعل منها سقفاً لذلك السرداب، والحكمة في ذلك: أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة، وهي المدة التي لا تستطيع تلك الدودة أن تحصّل فيها قوتها، ومتى أتم الحيوان ذلك، صنع سرداباً آخر فوقه على هذا المنوال، وهكذا يضع جملة أدوار. فانظر كيف شملت الرحمة ما خلق وما لم يخلق، فإن ذلك الطعام المخزون في السرداب رحمة ألهمها ذلك الحيوان من الحشرات لولده الذي سيخلق.

ومن هذه العجائب، ما شاهده العلماء الباحثون في أمر النحل والنمل والعنكبوت.

فأما النحل فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلاً مذللة، فإنه متى فتح زهرة أول النهار ليمتص رحيقها المختوم ويرجع به إلى الخلية فيضعه فيها، يلهم أن لا يفتح زهرة في ذلك اليوم، إلا ما كان من جنس تلك الزهرة لرحمة النحل ورحمة الناس، أما رحمة النحل، فإنه لا يعوزه أن يحتال في فتح زهرات أخرى من نوع آخر، فيطول عناؤه، وأما رحمة الناس، فإن ما يعلق برجلي النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات، إذا وصل إلى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع بعضه، فأثمر ذلك النبات لحصول الإلقاح بهذه الرحمة العجيبة.

وأما النمل، فمن عجائب الرحمة الخاصة به، أن الله خلق له حشرة تسمى «افس»، باللسان الإفرنجي، يحار بها النمل ويغلبها، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربيها ويسيمها في ورق الورد، ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتص منها مادة حلوة. فكأنه بقر له يشرب لبنه.

وأما العنكبوت، فإنها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الإنسان، وعلل ذلك العلماء بقولهم: إن هندسته إلهية، وهندسة الإنسان بتعليم البشر، فلذلك يغلط الإنسان، ولا يغلط العنكبوت في الهندسة. ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التي نسجتها فتكسبها لزوجة، فلذلك لا تمزقها الرياح إذا فاجأتها، ولا الأعاصير إذا ساورتها، وإذا مرّ بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة.

فانظر إلى آثار رحمة الله، كيف كانت المادة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق إذا هبت الزعازع، واهتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرب المساكن، ثم تكون شبكة صائد وحيلة محتال، هذه هي الرحمة والحكمة. وهكذا ألهم الله الأنبياء وأوحى إليهم أن يعلموا العباد كيف يتبرّكون باسم الله في أول أعمالهم كالقراءة والأكل ذاكرين ربهم ورحمته الواسعة التي عمت سائر العوالم، فيمتلئ قلب العبد إيقاناً بالرحمة، واستبشاراً بالنعمة، وفرحاً برحمة الرحمن الرحيم.

فإذا ابتدأ القارئ بالتسمية، وامتلأ قلبه بتلك الرحمة، فلا جرم ينطق لسانه بالحمد، بعد أن أفعم قلبه بالإجلال، فيقول: الحمد لله، يقول القارئ: ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية في سائر العوالم ولقد علمت أن كل من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها، فالولد يشكر أبويه على التربية، والضعيف الذليل يشكر القادر الشجاع الذي أنقذه من الذلة، والمتعلم يشكر العالم الذي أسبغ عليه نعمة العلم.

إن الأمم كالأفراد، فإننا نرى كل أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها في التاريخ والمجامع، وهكذا شجعانها الجحاجيح، وأبطالها المقاديم، وكذا أنبياؤها وحكماؤها الذين أضاؤوها بنعمة العلم والدين. فهذه نعمة واصلة من المحسنين والشجعان والعلماء إلى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر، ولا جرم أن الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح، وأهمها اللسان، فينطق بالحمد: وهو الثناء بالجميل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين.

يجيش في نفس القارئ تلك الرحمات العامة، فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه، وهي قسمان: رحمات واصلة على أيدي الناس، كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين، ورحمة واصلة من غيرهم كإشراق الشمس، ونعمة السحاب، وجريان الماء، وعجائب النبات، وجمال الطبيعة، وبهاء النجوم، وهذه النعم والرحمات بقسميها، ليس لها مصدر إلا الله، ولا جرم أن الحمد والثناء إنما يكون للمحسن الحقيقي.

فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه، فإذا مدحنا الوالدين، وحمدنا الشجعان، وشكرنا العلماء والأنبياء، فالحمد والمدح والشكر لله لأنه مولى هذه الرحمة، وإذا تمتعنا بنعمة السحاب والمطر وماء الأنهار ومعادن الجبال ونور الشمس، فالحمد والشكر لمسديها: وهو الله، فكأن القارئ يقول: ها أنا ذا عرفت أن الرحمة الواصلة للعباد مرجعها الله، فليكن كل حمد صادر من الألسنة راجعاً لله عزّ وجلّ، لأنه هو المختصّ بالرحمة التي كانت سبباً في الثناء.

نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والملوك واختصاص الحمد والعبادة بالله إطلاقاً للحرية والمساواة

اعلم أن العرب كان من عادتهم أن ينصتوا للشعراء، ويسمعوا المدائح، ويصغوا لمن هم في كل واد يهيمون، الذين يقولون ما لا يفعلون، وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقساه وأقواه وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحاً فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة، ويشيد بذكرها، ويقول بيتاً ذماً، فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها، فمن الأول ما قاله الشاعر في بني أنف الناقة:

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غَيرُهُمُ ... ومَنْ يُسَوِّي بأنفِ النَّاقةِ الذَّنَبَا

ومن الثاني قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

ولقد كان ذكر بني أنف الناقة مما يعير به، فلما قيل هذا البيت رفعوا رؤوسهم وفخروا بلقبهم وشرفوا بنسبهم، وكان الرجل منهم إذا سئل يقول: أنا من بني أنف الناقة، ويميل صوته عجباً وتيهاً وافتخاراً، وكذلك بنو نمير كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم، فلما أن شاع البيت طأطؤوا رؤوسهم وغضوا من صوتهم، وانخذلوا أمام عدوهم، وصغروا في المحافل، ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى في شعر حسان مادح ملوك الغسانيين، وزهير بن أبي سلمى مادح هرم بن سنان، والنابغة الذبياني مادح النعمان وغيرهم، فترى النابغة يقول في النعمان:

كَأَنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

ويقول أيضاً:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعْطَاكَ سَوْرَةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

ويقول أيضاً:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

ويقول زهير في هرم:

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الخَيْرَ فِي هَرِمٍ ... وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا

وقال في قومه أيضاً:

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَهَلْ تَنْبُتُ إِلَّا بِمَغْرِسِهَا النَّخْلُ

يريد أن الفقراء منهم كرماء، والأغنياء يعطون ما يسألون، ثم يقول: وهل الرماح الخطية التي تجلب من الخط، وهو مرفأ ببلاد البحرين كانت ترد له الرماح تنبت إلا في شجرها، وهل النخل ينبت إلا في منابته.

هذا قلّ من كثر، ومثل من عادات العرب في الجاهلية، فكانت المحامد من الشعراء تلقى إلى الملوك، وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله: لا تحمدوا الملوك والمحسنين ولكن احمدوا الله، كما قال الأعشى في قصيدته:

وَصَلِّ عَلَى حِيْنِ العَشِيَّاتِ وَالضُّحَى ... وَلَا تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ وَاللهَ فَاحْمَدَا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يصدوا عن المدائح الملكية ولذوي الشرف إطلاقاً لنفوسهم من الأسر ولعقولهم من الغفلة، وتعويداً لهم على الحرية العقلية، وأن ينسوا الإحسان القليل الصادر من المخلوق الضعيف، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذي هو المربي لجميع العالمين من الملوك والمثرين وغيرهم، فإذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم، لأنهم بنظرهم في العوالم، وبحثهم في نظامها وعجائبها، وما أودع فيها من حكمة وغنى وشرف، ينالون الخير من المربي العظيم والخالق الحكيم بجدِّهم واجتهادهم، لا بالاستجداء من الملوك، ولا بالتوسل للمحسنين، ولقد حقق الله بعض ما ذكرناه، ألا ترى أنهم فتحوا الأمم شرقاً وغرباً باتحادهم ونالوا من الخيرات فوق ما يبتغون، وفي هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد وبالعبادة، كما جاء في سورة «البقرة» إذ أمرهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو أشد ذكراً إذا قضوا مناسكهم: إذ قال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[الآية: ٢٠٠] فرجع الأمر إلى توجيه العبادة والحمد والذكر لله، وتحريم عبادة المخلوق والخضوع فتتوفر الهمم على الأعمال العظيمة، ألا ترى ما قاله النعمان ابن مقرن إلى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسية في زمن عمر رضي الله عنه: «أن نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشرّ أهون من آخر شرّ منه الجزية فإن أبيتم فالمناجزة» الخ.

وتأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك: «إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة». فقال له رستم: ما دين الإسلام؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». قال: وأي شيء أيضاً؟ قال: «إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم». قال: ما أحسن هذا، ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر يكلمهم، فأرسل ربعي بن عامر، فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير، وامتنع أن ينزع سلاحه، وأخذ يمزق الوسائد والبسط، ثم ركز رمحه على البسط، ومما قاله: «قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» الخ. فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه، وقال لهم: هل رأيتم كلاماً أعزّ وأوضح من هذا؟ فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب. ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة، فجلس مع رستم على سريره، فأنزلوه، فقال: « ما أرى قوماً أسفه أحلاماً منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً. وإني رأيت أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم » اهـ.

ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ما ذكرناه في فاتحة الكتاب، وأن العبادة والحمد مختصان بالله عزَّ وجلَّ، وأنه هو الذي يطلب منه الإعانة والهداية إلى الصراط السويّ، أو لا ترى أن الإسلام كان له في الصدر الأول معنى غير الذي يفهم المسلمون الآن، وأن الأمة الإسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا في القرون الأولى، وإلا فكيف نسمع منهم العدل والمساواة، وأن لا يستعبد بعضهم بعضاً، وأنهم خلفاء الله في أرضه ليعطوا عباده الحرية، فالإسلام إذ ذاك مبنيّ على الفهم والعلم والعقل، فأما الآن فإنه مجرد ظواهر وأعمال لا تصل إلى أعماق القلوب، فلذلك انحطت الأمة الإسلامية اليوم، وقد آن أن ترجع إلى عزها القديم ومجدها العظيم.

الشريعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس

قد تبين لك مما ذكرناه أن الحمد والعبادة مختصان بالله، والقرآن طافح بهذه المعاني، وقد ظهرت آثاره في أقوال السلف الصالح كما رأيت، وهكذا كانت أفعالهم وبالشريعة من الحدود والأحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء التي تقوم مقام الجنايات والجنح والمخالفات بل هي أفضل منها في كتب الفقه، حكموا الأمم وعدلوا، فملكوا شرقاً وغرباً، هذا كله بالشريعة، وهي الأحكام الشرعية المعروفة التي تدرس في بلاد الإسلام وآياتها محدودات.

فأما آيات العلوم الكونية، فإنها تبلغ نحو ٧٥٠ آية، كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه، والذي أراه أن المسلمين في مستقبل الزمان سيقرؤون هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب، وكما أن الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها، ثم دالت دولتهم، فهكذا سيكون في هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه، وقد ذكرها الله في كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية. والعناية الإلهية توجهت إليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه، فيدرسون علوم الهيئة، والفلك، والحساب، والهندسة، وعلم المعدن، والنبات، والحيوان، وسائر علوم هذه الدنيا، ويرون أن ذلك من الدين، فيكون علم الدين على قسمين حينئذ: العلم الأول علم الآفاق والأنفس، أي معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة في هذا التفسير وعلم النفس. والعلم الثاني، علم الشريعة.

فنرى العالم الديني شارحاً النبات والحيوان، والآخر مدير المعمل الكيماوي، وهذا من قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣] ومن هنا قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾. والعالم علوي وسفلي، والله ربهما والمسلمون خلفاؤه في الأرض بالقضاء والعدل بين الناس وبالبحث ومعرفة العوالم، فكما برع آباؤنا في القضاء والحكم بين الناس فلنقم نحن بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به، وإلا فما الفرق بين: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١] وبين قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[هود: ١١٢] كلاهما أمر، والأمر للوجوب، فإذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها فلنقرأ العجائب الكونية، ولنعمل بها فترقى الزراعة والصناعة والتجارة. وإني أدعو جميع أمم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول، وإلا فكيف يقول الله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣] وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية، وهي أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان.

ليعلم كل عالم أو ملك أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الإسلام كما سيظهر إن شاء الله في هذا التفسير، فإذا أبى المسلمون ما ذكرناه فإني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى، والشيوخ، والصبيان، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومنّ إلا نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[الرعد: ١١] ألا وإن أرباب المذاهب من شيعة، وسنية، ومالكية، وحنابلة، وحنفية، وشافعية، وزيدية، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة، فإذا قرؤوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها، لأنها مكشوفة ظاهرة، والله هو الذي منحهم إياها، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الإفرنج، وهي علوم الأنفس والآفاق، وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جداً بالنسبة لما اتفقوا فيه.

إلى هذا أدعو جميع المسلمين، والله يهدي إلى سواء الصراط، إن علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ودوّنوه في دفاترهم، ولكنّ المسلمين كانوا في غفلة ساهين، ليقف العالم بين الناس شارحاً لهم جمال الزهر، وبهجة القمر، وبدائع النبات، وغرائب الطب، والمعادن ليفهم غيره، وليكثر من هذا، أو لا يرى علماء الإسلام من سنيين، وشيعيين، وزيديين، أن علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء، وأن علوم الشريعة، وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم دواء، وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء، وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك، بل الغذاء هو الدائم الطلب، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة. فيا أيها المسلمون: اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء، أي العلوم الكونية، والعلوم الشرعية، وجميعها يطلبها القرآن، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشدّ من عنايته بالدواء.

فما لي أراكم عما قدمه الله معرضين، وعلى ما أخره الله عاكفين؟ قدّم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهداية الصراط المستقيم، كأنه يشوقكم إلى دراسة رحماته، ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية، وآياته الرحمانية وعجائبه الحكمية، وبدائعه الفطرية، وما ذرأ من البهجات، وما زوّق من المصنوعات، ولقد ساءني والله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق، ولقد كنت أودّ أن أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين، ولعجائب الخليقة مسارعين، ولكني رأيتهم منصرفين، إلى الوظائف الوقتية، والأعمال الإدارية، وما رأيت أحداً منهم بالعلوم الكونية مغرماً، فتشابه في بلادنا العلماء الدينيون، والشبان الذين هم للكون دارسون، فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون وهؤلاء بالوظائف قانعون، و﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣] إلا قليلاً من الفريقين نالوا حظاً عظيماً ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص:٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣].

فإذا تأمل المسلمون ما ذكرناه كان حمدهم حقيقياً إذا عملوا بمقتضاه، ولما كان كل حمد لا بد له من سبب يستوجبه، وقد ذكرنا السبب إجمالياً، وهو الرحمة، وكان الإجمال لا يغني عن التفصيل ذكر الله أهم النعم، وهو أنه مربي العالمين، فقال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مربي العوالم كلها ومرقيها من حال النقص إلى حال الكمال وغايات التمام، فهو الذي يتعهد النبات بالتغذية، والإنماء، وهكذا الحيوان والإنسان، وكذا العوالم العلوية، وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة، ولأذكرنّ لك مسائل من التربية:

المسألة الأولى: الذرة

إن المسلمين في أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها، وأكثرهم يجهلون ما دبر الله عزّ وجلّ فيها، وكيف ربى الحبة الواحدة في «المطر» وهو المسمى «الكوز» عند العامة في بلادنا المصرية وهو مجمع الحب الذي يتكون حوله سطوراً منظمة، لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم، وفهموا كيف يربي العوالم كلها، إن لكل عود من أعواد الذرة ذكوراً في أعلاه وإناثاً في وسطه، أما الذكور، فهو ما يسميه العامة «الكذاب» وهو أغصان بيضاء فيها طلع مخفي عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك «المطر» الذي هو مجمع الحب، وله خيوط طويلات حريرية حمر أو بيض، تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقباً لا يشعر به الناس، فينزل الطلع من أعلى العود إلى تلك الخيوط التي يسميها العامة في مصر «شرابه» فيدخل ذلك الطلع في التجويف الذي في تلك الخيوط، ويسري حتى يصل إلى محل الأنثى في «المطر» أي محل الحب فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير.

فانظر وتعجب كم في ذلك المطر من حبة، وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل في التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة، ولقد ذكرت هذا في كتابي «جواهر العلوم» وأوضحته أيما إيضاح.

المسألة الثانية: حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة، فأروني حبة القمح مكبرة مجسمة بشكل الكفرّي: أي الغلاف الذي في جوفه طلع ذكور النخل، فرأيت أن لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها، وفي أعلى تلك الأغشية «السفا» جمع سفاة، كأنها أسنة تحمل أكياساً مملوءة طلعاً كطلع النخل، أو كطلع الذرة المتقدم، وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محل الأنثى، وهي موضع تلك الحبة من السنبلة، ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة. ألا فليعجب المسلمون من تربية الله مربي العالمين، وكيف كانت عنايته تامة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح، وكيف جعل لها أنثى وذكراً وألف بينهما، وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة، وكيف يقرأ المسلمون في صلواتهم كل آن إن الله مربي العالمين وأكثرهم يجهلون تربيته، إني لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته، ثم يجيء الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية.

يا أمة الإسلام كيف نقرأ في صلاتنا إن الله رب العالمين، ونحن نجهل تلك التربية في صغيرات الأمور وكبيراتها، وإذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت في حبة ذرة وحبة قمح، فكم من حبات فيهما يزدردها الإنسان، وهو أشبه بالبهائم، ألا لا فرق بين الإنسان والحيوان إلا بهذه العلوم، لو كان المدار على الخبز، والماء، والملابس، والزينة، لقال لنا الله: الحمد لله الذي أروانا، أو الذي أشبعنا، أو الذي ألبسنا، أو الذي جاء لنا بولد، أو بمال، بل قال لنا: الذي شمل العالم بالتربية، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء، لا أن نأكل كما تأكل الأنعام، ونموت كما يموت الدود، ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط، لقال لنا: الحمد لله رب الحسنات والسيئات.

إن الله واسع الرحمة، عظيم الهبة، واسع العطايا. فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب. اللهم إني أفرغت جهدي في إيقاظ الأمة، وأديت ما عليّ، وإني أسألك أن تعينني على إتمام هذا التفسير إنك أنت السميع المجيب.

المسألة الثالثة: تربية التمرة في النخلة

ذلك أن النخلة تجذب ما رقّ وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتتغذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذي جذع النخلة بما غلظ منه، وأما خلاصته فتذهب صاعدة إلى الجريد فيغتذي بها، ويبقى ما هو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان فيغتذي القنو بتلك اللطائف، ثم ما رقّ وراق من ذلك يرتفع إلى شماريخ التمر فتتغذى به، وترتفع الخلاصة إلى التمرة فتقابلها في أولها تلك التي على فمها المسماة بالقمع، وذلك القمع مصفاة تصفي الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله إلى جرم التمرة، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ما غلظ منها، فيصير نواة، وما لطف يكون جرم التمرة الحلو اللذيذ، ثم جعل هناك منسوج حريري رقيق صفيق فوق النواة فاصلاً بينها وبين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة من النواة إلى ما فوقها فتذهب بالحلاوة، وجعل في شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء التمرة.

فتأمل كيف صفي الغذاء سبع مرات حتى وصل إلى ما يأكله الإنسان من التمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور في الأرض من خلاصة العناصر، ثم جذع النخلة، ثم الجريد، ثم القنو، ثم الشماريخ، فالمصفاة، فالنواة، فتعجب من تربية الله للتمرة والرطبة، وكيف راعاها حق رعايتها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من اللذة والمنفعة.

المسألة الرابعة: تربية الله للؤلؤ في البحر، ويسمى الدرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء، ثم يهبط في الأعماق، وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الأخطار، والدر يتكون في لحمه. ومن عجيب صنع الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا الحيوان مخالفاً لما نعرفه من سائر الحيوانات: أن الحيوان يشم بأنف ويأكل ويشرب بفم، ويتنفس بهما، ويمنع المضار عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه. أما حيوان اللؤلؤ فإن له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متداخلة عجيبة النسج تكون مصفاة له، فيدخل إلى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء، ويمنع الرمال وغيرها من المضار من الدخول في جوفه، وتحت تلك الشبكات أفواه لكل فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك المواد وتدفع غيره، واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارة تدخل قسراً الصدفة فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها، ثم تجمد وتتحجر، ومن اللؤلؤ ما هو أصغر من العدسة، ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام، وينبت في خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان، فتعجب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والتمرة والدرّة في البحر التي تتحلى بها الحسان وتيجان الملوك، ألا وإن حليتها في صدور الحكماء، وعلم تربيتها في أفئدة العلماء أبقى أثراً، وأشرف ذكراً، وأرفع مكاناً.

المسألة الخامسة: تربية الجنين في بطن أمه

إن للأجنة علماً خاصاً يدرس في مدارس العالم الراقي، وهي من التربية الإلهية الداخلة في قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. إن الحيوان المنوي الجاري من الحيوانات التي تعدّ بالآلاف ومئات الآلاف

في الماء المهين يسارع في مجراه عند مصبه حتى يلاقي حيواناً من التي سارعت جارية من ماء الإناث فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ثم تكبر بالانقسام ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة في علم الارتماطيقي ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر إلى تسعة أشهر . ومن عجب أن هذا الانقسام العددي في الخلايا يتبعه نظام مدهش في الأعضاء والشرايين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواس المدهشة الدقيقة الصنع ، عجب وأيّ عجب . انقسام الخلية المكونة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث إلى المضاعفات بنظام تام آلافاً مؤلفة يتبعه نظام في الأعضاء ، فكان ظفر ومخ وماء زجاجي في العين . إن في ذلك لعجباً عجاباً ونظاماً غريباً ، حرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للأجنة في بطون أمهاتها .

حكاية

حكي في أيامنا هذه أن رجلاً أمريكياً أراد أن يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض في حرارة تضارع الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح : يا أيها السيد لا بد لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرة ، لأني رأيت الدجاجة تقلبه هكذا ، فسخر منه ذلك العالم ، وقال له : إن الدجاجة تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته ، أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته ، فأنى يستوي عملنا وعمل الدجاجة؟ ثم استمر في عمله ، فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخاً ، فقال : لا بد أن أفعل في المرة الثانية ما أشار به الفلاح ، ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح ، ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة ، فطار الخبر في أنحاء المعمورة ، وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة ، وآخر ما رأوه أن قالوا : إن الفرخ حينما يخلق في البيض إذا بقي بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من جسمه فتتمزق أوعيته ، فإذا بقيت رأسه لم تحرك مثلاً تمزقت من الأسفل لكثرة المواد في الجهة السفلية ، وهكذا بقية الأعضاء . فهذه وأمثالها مما لا يتناهى يدلنا على أننا في حومة الجهالة في وسط بحر لجي من الحكمة لا يعرف قراره ولا يدرى منتهاه .

المسألة السادسة: تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن في الثدي قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن في الثدي حتى إذا ما تم حمله وكانت الولادة درّ له لبن مناسب لسنه ، فكلما كبر سناً اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوته ، حتى إن علماء الطب حرّموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لا يتحمل لبنها ، وقالوا أيضاً : الأولى بكل طفل أمه في الرضاعة ، فإن لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التي تضمنها لفظ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] . ومن عجب أن العجوز والصغيرة جداً لا تشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عزّ وجلّ ، لأنهما لا قبل لهما بالحمل ولا الولادة ولا الإرضاع ، فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ما جعل الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان إلا للإنتاج ، فأما الشهوات واللذات فإنما هي مقدمات وممهدات للنسل .

المسألة السابعة: التربية الطبية

ولنذكر منها قليلاً فنقول: قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء يعني أنك إذا حافظت على جسمك وراعيت صحتك ونظمت أغذيتك لم تحتج إلى الدواء. وقالوا: إن جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب إذا أكثر استعماله أبلاه سريعاً وأكثر المسهلات سمية قاتلة إذا لم يعرف القدر المستعمل منها، وربما يحرك المسهل أخلاطاً رديئة كامنة في الجوف فيثور منها علل عظيمة وداء لا دواء له، فترك المسهل والاستفراغات جميعاً أولى وأوفر ما وجد الإنسان سبيلاً إلى السلامة إلا عند الضرورة الملجئة، فيستعمل منها القدر اليسير الأسلم.

وقال الأطباء: متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئاً من الأدوية، ومتى قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوي ولا تستعمل الأدوية الغريبة المجهولة ما أمكنك إلا أن يصح لك منها شيء بالتجربة، وإذا مالت شهوة المريض إلى غذاء لا يوافقه فأعطه منه اليسير.

هذا ما أردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذي لم تراعَ أصوله في بلاد الإسلام، والعالم كله لا يزال فيه طفلاً لا يدري ما منتهاه.

المسألة الثامنة: التربية في المدارس والتعليم

إن علم التربية في المدارس يدرس للمدرسين، ولأذكرن لك منه مسألة واحدة، لأنها من تربية الله للعالمين.

اعلم أن الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحافظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها، وقد ربى الله مخ الناس فجعل أدناهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية، وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخ فيهم أربعاً وستين أوقية.

وقد تبين لك فيما تقدم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام، والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها نتوءات صغيرات.

فمن عجائب صنع الله عزَّ وجلَّ أن جعل هذه الخلايا لوحاً محفوظاً في الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس. فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات، فمنها ما هو للسمع، ومنها ما هو للبصر، ومنها ما هو للشم وهكذا، ومنها ما هو للتفكر والتعقل، ومنها ما هو للتذكير، ومنها ما هو للقوة الكاتبة والصانعة في اليد، فإذا اختل منها بعض الخلايا تعطلت القوة الكامنة فيها، ولا ينفع فيها التعليم البتة، فلو أن الخلايا المعدّة لعلم الأعداد فقدت، فإنه لا يمكنه أن يتعلمه. فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأبّ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل، فهكذا هنا في خلايا المخ.

ونتيجة هذه المعرفة في التعليم أن المعلم إذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوباً بخط جميل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جميل فهناك تكون آثار أربعة: آثار البصر، وآثار السمع، وآثار النطق، وآثار الكتابة. كل ذلك في المخ، وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها، ويحصل بينها علاقات فتمتد خلايا النطق بخيوط رقيقة إلى خلايا السمع، وخلايا البصر، وخلايا الكتابة، فتتعاون وتحفظ الكلمة في ذهن التلميذ ويصير الدرس مفهوماً جداً، وإن قصر في بعض هذه كأن قبح

خط الكاتب أو لم يصغ التلميذ أو لم يكتب بيده كان الأثر في العقل ضعيفاً والحفظ ضائعاً. وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محالّ لما يسمى «الحس المشترك» الذي يجمع ما تأتي به الحواس ثم تأخذه القوة المتخيلة فتحلل فيه وتركب، ثم القوة المفكرة فستنتج، ثم القوة الحافظة فتحفظه وهكذا، فهذه المسألة من علم «البيداجوجيا» وهو فنّ يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه، وهو يستمد من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت، وهذه التربية داخلة في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

المسألة التاسعة

تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية

فنقول: اعلم أن كل حاسة من الحواس الخمس لا يمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذي يحكم هو العقل، مثلاً إذا رأى الإنسان سراباً وسط النهار فليست الباصرة مخطئة في رؤيته، وإنما المخطئ الفكر في استنتاجه، إذ ظنه ماء، وإنما سبيل المفكرة أن تتربص وتنظر حكم القوة اللامسة والقوة الذائقة فإذا لمسه باليد وذاقه باللسان فعرفه ماء، فبها وإلا فلا. وهكذا إذا نظر الإنسان بقوة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كلون التفاح فورد خبرها إلى المتخيلة فالمفكرة، فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة فلا بد أن تستخبر قوة الذائقة والشامة واللامسة، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالإثبات أو النفي. هذه من تربية الله للعالمين العقلاء، فإذا سقط الفراش في النار ومات فالعيب على ضعف قوته المفكرة الضئيلة لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس وقنعت بالقوة الباصرة، وهنا كان يجب أن يحكم القوة اللامسة ليعرف الحار من البارد. وهكذا ترى سائر البشر يذهبون في الدنيا والدين ضحية جهلهم وحكمهم بأحكام مقدماتها ناقصة، وهذا من قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الحمد يكون على مقدار علم الحامد

ألا وإن الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق حمداً، وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب إلى الكذب في حمده، ولذلك نجد الناس إذا أرادوا تأبين ميت أو تكريم حي جمعوا من الكتب ما كان له من محمدة، وإذا أرادوا ذماً نقبوا عن الأعمال السيئة، فهكذا هنا لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرؤوا نظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعه، وهي كتاب التاريخ الذي حفظ في سجل الدهر، فإذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علماً إلا درسوه، ولا فناً إلا عرفوه، وحينئذ يحمدون الله حق حمده كما تحمد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر مآثرهم التي انتفعوا بها، فإذا قالوا: الحمد لله، كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرد اللفظ.

ولعلك تقول: ها أنا ذا قد عرفت أنه لابد من معرفة نعم الله حتى أكون حامداً له حق حمده بحسب طاقتي البشرية، فما مجامع تلك النعم؟ أقول: كل العلوم مجامع الحمد وسأفصلها لك في التفسير، بل كل ما أشار له القرآن هو ما أثر تربية العالمين التي تستوجب الحمد، ولأذكرنّ لك مجملها فأقول:

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم، وهو ما سوى الله تعالى والعالم قسمان: عالم علوي، وعالم سفلي.

العالم العلوي

هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها، ولا يتسنى لك معرفتها إلا بضرب مثل: تصوّر امرأة جميلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلي والحلل مشرقة الوجه، وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهنّ أقلّ منها قامة وحلياً وحللاً وإشراق وجه، وقد أحطن بها كالهالة بالقمر، وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محدودة، وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقل منها قامة وحلياً وحللاً وإشراق وجه، وهنّ يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقلّ منها طولاً وجمالاً وإشراق وجه وحلياً وحللاً وهكذا فالجيل الأول عشر فتيات، والثاني مائة، والثالث ألف، والرابع عشرة آلاف، والعاشر عشرة آلاف ألف ألف «عشرة بلايين» وكل جيل أقل مما قبله جمالاً وقامة وحللاً وإشراق وجه وأرقى مما بعده.

فالمرأة الأولى ذات الجمال هي المجرّة التي ترى في الليالي المظلمة مستطيلة في السماء كسحابة بيضاء لبنية، وهذه أصل جميع الشموس ومنشؤها ومستقرها ومستودعها، وهي شموس لا يعرف عددها، بعدت عن الأبصار وتباعدت في الأقطار حتى صغرت في العيون وتضامّت، فصار كل ألف ألف ألف منها يكاد يكون ذرّة من اللبن في أعين الرائين، فهذه المجرّة فيها هناك على أبعاد لا يتصورها العقل أصل الشموس وأمها التي عبرنا عنها بالمرأة الجميلة، وحولها شموس كل شمس حولها شموس، وهكذا إلى أن ينقطع الفكر عن التصور ويقف العقل عن التعقل، وآخر هذه الشموس مقابل للفتيات اللاتي في الجيل العاشر، وشمسنا كفتاة منهن لا نعرف عدد أترابها من الشموس كما كثر عدد فتيات ذلك الجيل.

وإذا نسبت هذه الفتيات في الحسن والقامة والحلي والحلل والإشراق إلى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة إلى الإنسان بل أقل فهكذا نقول في الشمس المضيئة عندنا: إنها بالنسبة إلى الشمس الأولى كالفجر بالنسبة للنهار، وفي الحجم كالبطيخة بالنسبة للجبل، وسيأتي في هذا التفسير أن إحدى شموس الجوزاء أكبر من شمسنا ٥ ٢ مليون مرة، وضوء الشمس بالنسبة لضوئها كضوء الحباحب بالنسبة لضوء شمسنا.

وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة، وفيها من الجمال والبهاء ما يبهر العقول، إنها ترسل ضوءها على الأرض فينير السبل، ويوضح المسالك، ويفتح الأعين فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجري الماء وينمو النبات والحيوان والإنسان، وتصبح الأرض مخضرّة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء، ثم إن سيرها وانتقالها من مكان إلى مكان بحساب متقن يعرّف الناس السنين والحساب فلا يضلون في أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية، هذه بعض محاسن الشمس.

وهذه من عجائب جمالها الذي لا نسبة بينه وبين جمال الشمس الأولى، وقد قلنا إن لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى، وهذه الأخرى لها نظائر وهكذا.

فما مقدار السنة التي تسيرها حول شمس أخرى في الكواكب المسماة بالجاثي على ركبتيه، وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها وبعدها،

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٢١]، وهذه الشمس التي هذا وصفها حولها السيارات الثمانية، وهي: نبتون، وأورانوس، وزحل، والمشتري، والمريخ، والأرض، والزهرة، وعطارد.

فأرضنا سيارة تسير حول الشمس، فالشمس أم، والسيارات فتيات حولها كما أنها فتاة لأم قبلها، والأرض قد ولدت القمر، فجرى حولها كما أن زحل والمشتري وغيرهما لها أقمار تجري حولها، والأقمار أقل جمالاً وحجماً وبهجة من السيارات، والسيارات أقلّ من الشموس، والشموس ترتقي طبقاً عن طبق إلى الأم التي في المجرّة، وما يقال في هذه المجرّة يقال في مجرّات أخرى، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[المدثر: ٣١]، فتلك عرائس في الجوّ سائرات وجنود مصطفات إلى أن تقف العقول، وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها إلا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر. ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[يونس: ٥].

ولعلك تقول: إنك ما قرأت مسألة الشمس وإنها تدور حول شموس أخرى، وهكذا دائرة بعد دائرة إلى أن ينقطع الفكر ويقف العقل أنك لم تقرأ ذلك إلا من تعاليم الفرنجة وهم الذين قالوا إن تلك الشموس أكبر من شمسنا فهل ورد في ديننا ما يؤيد ذلك؟ فقلت: إن ديننا لا يمنع ذلك ولا يثبته، وفيه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]. إلى هنا قد أجملنا الكلام على العالم العلوي.

العالم السفلي

العالم السفلي ما في البحر من مخلوق حي وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وإنسان فأما عالم البحر فقد جعل له العلماء في هذه الأيام علماً مستقلاً ليطلع الناس على غرائبه، ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيواناً يعيش في الظلمات في تلك الأصقاع الغائرة وقد وجدوا له آلة للضوء إذا حركها أضاءت ما حولها، وقد خلق لها على جسمها في مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزاوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية، فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له في قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء، وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

وفي البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط، وشحمه أبيض نقي يصيده سكان ألاسكا ويجففونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللمعان، ومن السمك نوع ببحر الصين إذا أكله الإنسان أخذ يضحك حتى يموت، وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء إذا حكم عليهم بالإعدام فيشترونه سراً وبه يموتون من الضحك، وحكومة الصين تمنع بيعه.

ومن عجائب البحر الدرّ والمرجان، ثم من العالم السفلي: عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخارصين والبلاتين والزئبق والمغنيسيا والملح والزنك والرصاص وغيرها، ثم الآثار العلوية من حوادث الجو وتغير الهواء من النور والظلمة والحر والبرد وتصريف السحاب المسخر بين السماء والأرض، ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطّل والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات.

عالم النبات

ومن العالم السفلي عالم النبات، وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه وأوراقه وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغه ولحائه وبنية تكوينه ونتاجه وتربيته لأولاده.

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البرّ منه والتراب والهواء والبحر، كالأنعام والحشرات والطير والسمك ومعرفة تزاوجها وتوالدها ومستقرّها ومستودعها، ويتبع ذلك معرفة تشريح الإنسان.

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الإنسان ٢٤٨ عضواً، وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التي في الدماغ، وتقدّم الإيماء إليها عند تفسير لفظ ﴿ رَبِّ ﴾ من ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهي الحس المشترك والمخيلة والمفكرة والذاكرة والواهمة. هذه هي بعض العلوم الطبيعية في العوالم السفلية.

وأما العوالم الإلهية فلها علوم خاصة بها تبحث في أمر الملائكة كما ستراه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، فسيظهر هناك إن شاء الله أن في معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله والملائكة وبهذه العلوم أيضاً تعرف الأمور العامة والمقولات وتقسيم العلوم. انتهى الكلام على العالم السفلي وما بعده.

هذه هي العوالم العلوية والسفلية التي تضمنها لفظ ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، والله هو المربي لها والمكمل لذواتها، ألا فليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره إلا إذا درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما تفرّع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها، وإذن يحق لهم أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين، أما إذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حمدهم لفظي وشكرهم ظاهري. ولأضربنّ لك مثلاً: إذا أنت مدحت امرأ في مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن بعض صفاته فوجدك بها جاهلاً فإنه لا جرم يقول أنت به جاهل، ثم يشرح صفاته فتقرّ له بالفضل عليك.

يحكى أنه في زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لا يتركان مجلساً إلا مدحا هذا المؤلف، ولا نادياً إلا أثنيا عليه، وهما في كل واد يمدحان ويحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن إلى أمته وأنالها شرفاً غالياً وفخراً تالداً، فلما أن حلّ بساحتهما وهما لم يرياه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه غاية الإكرام. ولما قاما إلى بعض شأنهما، نظر فوجد كتابه لم يفض ختامه ولا يزال ورقه متصلاً غير منفصل دلالة على أنهما لم يقرأا منه حرفاً ولم يعرفا منه كلمة، فلما ودّعهما وانصرف أرسل لهما مقصاً ليفهمهما أنه أدرك أن المدح والحمد كانا على جهالة عمياء، وأن الثناء رياء، وانقلب سروره غماً وفرحه حزناً، أفلا يكون نصيب المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف، أفلا يقول الله للمسلمين: أنتم تحمدونني ولكنكم لا تعرفون من صفاتي وأفعالي إلا قليلاً فلأعطينكم من نعمي على مقدار ما عرفتم، وأخذ يقص أرضنا معاشر المسلمين ويعطيها

للأمم الأخرى التي درست العوالم . الله لم يرسل مقصاً للمسلمين كما أرسل المؤلف ، ولكنه أرسل رجالاً وأمماً قصوا من أرضنا وحرمونا منها جزاء وفاقاً ، وقد آن أن يرجع مجدنا ويبزغ نجمنا ونعرف ربنا ، وأن الأرض يرثها عباده الصالحون . فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل ، وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل ، والعمل يتقدّمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العالم فهي أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد .

أسباب الحمد

زيادة إيضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل حمد سبباً كما أشرنا إليه آنفاً ، فالجائع يقول : الحمد لله الذي غذاني ، والظمآن يقول : الذي أرواني ، والفقير يقول : الذي أغناني ، والجاهل يقول : الذي علمني ، وفي القرآن على لسان إبراهيم : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾[إبراهيم : ٣٩] ، وفيه على لسان يوسف : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾[يوسف : ١٠٠] ، وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ، ولَمَّ شمل أسرة يوسف عليه السلام ، وقال الشاعر الجاهلي لما أسلم :

الحَمْـدُ للهِ إذْ لَـمْ يَأْتِنِي أَجَلِـي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلَامِ سِرْبَالَا

فأما الحمد في هذه السورة فسببه أن الله مربي جميع العوالم ، فإذا قال إبراهيم الخليل : أنا أحمد الله لأنه أعطاني ولداً أيام كبري ، يقول المسلم في صلاته : أنا أثني على الله لأنه هو الذي ربى جميع العوالم من العلويات والسفليات . إن إبراهيم يعرف نعمة الله في ابنه ، والجائع يعرف نعمة الله في أكله ، والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله في تربية العوالم ، وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة ، وإنما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجميع العلوم كالفرنجة أو أكثر ، ألا تراه يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، ولم يقل : «أعبد» للإشارة إلى أن المقصود الجماعة .

وإذا بقي المسلمون على ما هم عليه من الجهل بنظام الله في العالم فلا حظ لهم من حمد الله وشكره إلا حظ الجائع من النسيم ، ولما عزَّ الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون ، قال الله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣] .

سؤال وجوابه

وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله في العالم

لعلك تقول : ما لي أراك تحمل «الفاتحة» ما لا تحتمل ، وتدخل فيها من العلوم ما لا يعقل ، مع أن الناس يقرؤونها ولا يلحظون ما تذكرون ، ويكررونها صباحاً ومساءً ولا يتهيأ لهم ما تصفون ، وإنما أنتم تقولون هذا استطراداً لا استنباطاً ، وتطويلاً لا تأويلاً ، وتعليماً لا تفسيراً ، وإكثاراً لا استخراجاً .

أقول : على رسلك ، وأصغ لما ألقي عليك من مثل أضربه تذكرة لأولي الألباب : تأمل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ، ولما وصل إلى الحقل رأى مهندساً للري وعالماً طبيعياً وحكيماً إلهياً ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم متفقون في الرأي ، متحدون في الفكر ، كلا ، فإن الدابة لا ترى في الحقل إلا حاجتها من البرسيم ليسد جوعتها ، والصبي يتعالى عن الدابة فينظر

إلى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يميناً وشمالاً، ويرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه، والفلاح يتعالى عن ذلك، فينظر في أمر الزرع والحصاد، والمكسب والخسارة، وريّ الأرض، وحساب المزارعين، وما شاكل ذلك، والمهندس يتعالى بنظره إلى نظام الريّ العام في هذا الجدول وفي سواه من نظائره، ويقارن المصارف والترع ببعضها، ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافاً من المزارع ليحفظها من العطب، ويحرسها من الهلاك، والعالم الطبيعي أو الزراعي يتأمل في العناصر كيف تكوّن منها النبات ويحللها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتي في سورة البقرة، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول: إن السماد يكون على مقدار الحاجة، فكل عنصر قلّ في الأرض يعتاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم.

ثم إن الحكيم الرباني يتعالى عن هذه الطبقات، فيرى أن هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلفت طعومها، وروائحها، وأثمارها، ولحاؤها، وأوراقها، وأزهارها، وأعمارها، وبلدانها، وطقوسها ومناخها، ومنافعها الطبية، والعناصر واحدة لا تتجاوز الثمانين عدًّا منبثة في الأرض والهواء والماء، ثم إن تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة، وهي الأثير الذي يكون ضوءاً وكهرباء وحرارة. ثم إن الجوهر الفرد الذي كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكون من ذرات كهربائية منها الموجبة ومنها السالبة، ولهما نواة حولها ذرات تدور كدوران السيارات حول الشمس، ثم يقول إن هذه كلها مرجعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم، وإلا فما بالنا نرى نظاماً عالياً وحكمة باهرة، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. هذه هي النظرات في الحقل. فقس عليها نظرات الناس في الفاتحة: إن الفاتحة كلام الله، والحقل وما فيه من الزرع فعل الله، أفلا ترى أن تختلف الأنظار في الثاني كما اختلفت في الأول. أوَلست ترى أن حافظ القرآن الذي لا يعنيه إلا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفاراً، وكالجاموسة في المثال المتقدم لم يعنها إلا البرسيم، أوَ ليس العامة الذين يفرحون بنغمات القرآن في مآتمهم وأعراسهم، أشبه بالصبي الذي راقه مناظر النبات وأزهاره، أوَليس العابد الذي يخاطب ربه بالفاتحة ويثني عليه ويتجه إليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه أوَليس المفسر للقرآن الناظر في معانيه العامة، وهو أرقى من العابد أشبه بالمهندس الناظر في سائر الحقول أوَلست ترى أن من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كل فنّ طرفاً أرقى من المفسر وأعلم منه، وأنه أشبه بالرجل الطبيعي أو الزراعي الذي عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر، أوَ ليس الذي يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم، فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة في الدنيا لتحفظ كيانها وتصون بلادها وتستغني عن غيرها وتمدّ الأمم بعلمها وصناعاتها، فضلاً عن أنه عرف تلك العلوم، أليس ذلك في مثالنا كالحكيم الرباني في المثال المتقدم الذي وصل إلى الله من طريق الحكمة والعلم.

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارقَ ورتِّلْ كما كنت ترتل في الدنيا». فظاهره معلوم للناس والعامة، وحقيقته ما ذكرناه لك. ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير في الإسلام الذي يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ويقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله في الأرض في المثال الثاني، وذلك الحكيم العظيم الرباني في المثال الأول

الذي أدرك سر الخليقة بقدر طاقته، هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه في الأرض وخلفاء أنبيائه. فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. هؤلاء هم الذين يكونون في أعلى الجنة. وقد تركوا أدناها للجهلاء كما في الحديث: «وعليون لأولي الألباب» فالجنة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف، وما يعقلها إلا العالمون.

ها أنا ذا قد أبنت العوالم التي تولى الله تربيتها وترقيتها، وأنت تعلم أن التربية يعوزها أمران: الرحمة والشدة، فإذا لم تكن رحمة أو عدم الجزاء والمكافأة بالإحسان والإساءة كانت التربية ناقصة، ولقد جعل الله الأم أقرب إلى الرحمة والأب أقرب إلى الشدة والمجازاة، فإذا فقد أحدهما ساءت التربية فأشار إلى الأول بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أعني مالك الأمر في يوم الجزاء، أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقدم، وأما الجزاء فإنه تابع للأعمال كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويزدريه الناس، وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم، وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة، وأقامت الجند، وجعلت لها دوراً للحبس، وأخرى لإكرام الوافدين من الأقطار، ووضعت القوانين والحدود، وذلك سائر على نظام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما كان القانون البشري يلحقه الخطأ لخلل فيه أو لضلال القضاة والحكام أو جهلهم، جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة، لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، فالله عزَّ وجلَّ مالك جميع الأمور محيط بالخلق في الدنيا والآخرة، يثيب الطائعين والعاملين، ويقهر العاصين والكاسلين ويذلّ الباغين، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وإما فيهما معاً، وبهذا تمت التربية ونظم العالم.

إن هذه الصفات التي حصرت الرحمة والملك في ذات الله وأنه هو المربي للعوالم كلها، المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلي والذاكر في الله تعالى، وتجعل الحمد خاصاً به، فجميع المحامد التي يفوه بها الناس لمحسنين راجعة إليه، لأنه المحسن الحقيقي، وفوق الحمد يختص بالعبادة التي هي غاية الخضوع، ومنه طريق معبد: أي مذلل، فكأن القارئ يقول: يا من اتصف بهذه الصفات التي يمتاز بها عما عداه ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، أي نخصك بالعبادة والخضوع فضلاً عن الحمد، فالنصف الأول من السورة أحضر في قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية، فلما تمثلت في ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب، وكأنه يشاهده ويراه، وفي الحديث: «اعبد الله كأنك تراه» ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية في قلبه.

وإلى هنا وصل القارئ إلى آخر درجات التقرب، وهو الخضوع والتذلل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩] فلم يبق بعدها إلا السؤال والطلب من المتقرب إليه، فقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ في أمورنا الدنيوية والأخروية، كالصحة والغنى والمال والولد، وأهم الحاجات أداء العبادات والهداية إلى الصراط المستقيم، فكأنه يقول: نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة إلا إذا أعنتنا، ولما طلب العبد الاستعانة بالله، كأنه قيل له: ما أهم ما نستعين فيه. فقال العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والهداية دلالة بلطف، وهي على أقسام:

الأول: هداية الغريزة التي اهتدى بها الحيوان في غدوّه ورواحه، والطفل لرضاع أمه، والنحل لبناء المسدسات التي يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون.

الثاني: هداية العقلاء الأولية بأن يميزوا بين الحسن والقبيح والجمال وضده وتعرّف الأوليات ومبادئ لعقول التي يرجع إليها في العلوم، مثل الكل أعظم من الجزء، والضدان لا يجتمعان.

الثالث: معرفة العلوم وفهمها والتصرف في أصولها وفروعها.

والرابع: الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التي عرفت أنى شاء العارف، ويتبع ذلك قوة التصرف والحذق في الأمور والإلهامات وسداد الرأي والوحي الخاص بالأنبياء، والمراد بالهداية هنا هذا الأخير وما قبله.

فإما أن يقال أدمنا على الهداية، وإما أن يقال زدنا في مراتبها لنرتقي إلى أعلاها ونال الزلفى لديك والقربى. ويقرب من هذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[الأنفال:٢٩]. والمراد بالفرقان نور يقذفه الله في قلب العبد يفرق به بين الحق والباطل، والصراط المستقيم هو الطريق المستوي، وهو مثله في التذكير والتأنيث، ثم أبان ذلك الصراط فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهم عظماء كل أمة وأشرافها، أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسلمون ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم النصارى.

وتبيانه أن يقال: إن الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط، وهو في علوم الأخلاق: العفة: التي هي وسط بين الوقوع في الشهوات والفسق والفجور، وبين الجود والبخل والإمساك والشح. والشجاعة: وهي وسط بين التهوّر والطيش والظلم وبين الجبن والخوف والحزن والجزع وأمثالها. والحكمة: وهي الوسط بين الجهل والغباوة والبلادة، وبين المكر والخداع، والاحتيال والطيش في الآراء. والعدل: وهو المساواة بين هذه الأمور.

وقد فرع العلماء على هذه الأربع فروعاً شتى تربو على المائة، وكلها داخلة في الصراط المستقيم وهو الوسط وما جاوز الوسط، فإما إلى زيادة فهو التهور والطيش والتبذير وما أشبهها، وإما إلى نقص كالجبن والبخل والخوف وما أشبهها، والمسلمون وسط في أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوته.

أما اليهود فإنهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية. وأما النصارى فإنهم أفرطوا في اعتقادهم وجاوزوا الحد في دينهم وغلوا في أمر المسيح فقالوا: إنه إله، فهؤلاء هم الضالون في أمر عيسى فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم، واعتقاد اليهود تفريط، واعتقاد النصارى إفراط، أي: مجاوزة الحد.

وقد قلنا إن الحكمة وسط فلا تغالي كما قالت النصارى، ولا جمود وإنكار كما قالت اليهود، ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ؛ وهذا الذي قلناه توجيهه، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل للصراط المستقيم، وإلا فهذا الوسط في الاعتقاد في مسألة المسيح يماثله مسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم. فافهم.

وقوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بدل من ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، و﴿ لَا ﴾ في قوله: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ للتأكيد. «آمين»: اسم للفعل الذي هو استجب، وليس من القرآن بالاتفاق، ولكن يسنّ ختم السورة به.

واعلم أن النعم إما مال، وإما أصحاب وأهل وأعوان، وإما صحة بدن، وإما عقل وحكمة وصدق روية، وكل نعمة مقدمة لما بعدها، فأعلاها العقل والحكمة، وأدناها المال الذي لا بد منه لحفظ الثلاثة بعده من الأصحاب والصحة والعقل، والمراد بالنعمة هنا أعلاها التي تقوى وتبقى بما قبلها.

وقد يراد بالمنعم عليهم المطيعون، وبالمغضوب عليهم العصاة، وبالضالين الجهال. واعلم أن المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بني آدم، وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وإرشادهم. وكأنهم آباء والناس أبناؤهم ويتشبهون بالله في أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقال: إن غاية الحكمة حب الله، فيعرفون نظام العالم وحكمة الخالق ويتركون آثاراً في البرايا ويتحملون ما ينالهم من الآلام في سبيل إسعاد الأمم، فينالون أجرهم مرتين فهم في الآخرة مكرمون، وفي الدنيا مذكورون بالثناء والإكرام، تشتاق إليهم النفوس، وتحنّ إليهم القلوب، وتطمئن إليهم الأفئدة، وتذكرهم الأجيال.

وأضرب لك مثلين: الأول ما جاء في القرآن في سورة «الصافات»، فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ٧١] وأقام عليهم الحجة فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٢] وأخذ يذكرهم بالثناء واحداً واحداً فذكر نوحاً بالثناء ولما انتهى من القصة قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩]، ثم ذكر إبراهيم وتاريخه وما لقي من المحن في قومه، وختمها بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٩-١١٠]، ثم ذكر موسى وهارون ونجاتهما من فرعون وقومه، ثم ختمها بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٠-١٢١]، ثم ذكر إلياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٩-١٣١] ثم ذكر لوطاً ونجاته ويونس وختم السورة بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزماً وأطول بلاء، قال فيه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩] فلان، فكأن الله عزَّ وجلَّ يجعل الثناء الباقي في الأعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء.

وهذا هو الذي ينبغي أن يكون في أمة الإسلام. يعلمنا الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء، وعلم العلماء، وحكمة الحكماء، وجهاد الأبطال، وننشر فضائلهم ليقلدهم من بعدهم وليؤخذ عنهم كما تفعل الأمم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل ولو كان سفيه النفس سيئ الخلق ضيق الفطنة، ويذكرون علمه ليقتدي به الناشئون.

ولعلك تقول : ما للفاتحة ولسورة الصافات؟ أقول : على رسلك إن الفاتحة تسمى أم الكتاب ، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم في القرآن ، فهل هذه القصص واردة لغير غرض أم للهو واللعب ، أم لمجرد الحكاية؟ كلا ، فالمنعم عليهم ، مثنيّ عليهم ، والمغضوب عليهم ، مذمومون ، وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والأمم الغربية ، فعليهم أن يتبعوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته في خدمة الأمة ، أو ينشر العلم أو يضحي ماله ، فليرفعوا قدره ، بهذا أمرهم الله ، وإلا فكيف يقول في سورة أخرى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [مريم : ٤١] ، ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾[مريم: ٥٤] ، ويقول : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ [مريم : ٥١] ، ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم:١٦] أليس هذا أمراً بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم . فليقم بذلك المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وإلا فليبقوا جامدين جاهلين. إلى هنا انتهى المثل الأول للمنعم عليهم .

المثل الثاني : ما قرأناه في كتب المتقدمين عن اليونان أن «سولون» الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق . م المائت سنة ٥٥٩ ق . م لما خرج من أثينا مغاضباً لقومه إذ عصوا نصيحته أرسل إليه الملك «كرسيوس» خطاباً ، فلما قدم عليه حقر ما رآه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس في نظرك؟ فقال له : الملك طيلوس كان محبياً إلى أهل أثينا مسبغاً النعم عليهم ، فلما أن مات حزنوا عليه كلهم أجمعون ، فتعجب كرسيوس من سولون وقال : فمن بعده؟ قال : أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ، ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة في المعبد ، فاتفق أن سائق العربة لم يوافها يوماً فجرّ الأخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله لهما فعاشا قريري العين وأحبهما الناس حباً جماً ، ولما ماتا حزن عليهما أهل أثينا ، فقال الملك : أفلا تعدّني سعيداً يا سولون؟ فقال : أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة . فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دارت رحى الحرب بين الملك وبين ملك العجم فوقع كرسيوس في الأسر ، فأمر بإحراقه وأوقدت النار ، فصاح كرسيوس : سولون سولون ، فسأل فيروس ملك العجم ما معنى هذا؟ فقصّ عليه القصص ، فرقّ قلب فيروس وأنعم عليه وواساه .

وإنما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون في أقاصي الأرض أن الذين أنعم الله عليهم بحب الإخوان والصبر على أذاهم ، والزهد في الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم ممدوحون على كل لسان أينما كانوا ، وأولئك المنعم عليهم شموس وأقمار ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا حزنوا عليه لعموم نفعه لهم ، وأن الشابين اللذين أكرما أمهما احبهما الناس ، ولما ماتا حزنوا عليهم لأن المحسنين محبوبون ، والنفوس الشريفة يشرق ضوؤها في الأرض ، وتلك النفوس العالية إنما جاءت إلى الأرض لتحرس أهلها وتخدمهم ، فإذا ما أدوا ما خلقوا له سارت بذكرهم الركبان ، فما أجمل العلم وما أجمل الحكمة .

الفاتحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني ، لأنها تثنى في كل صلاة ، وتسمى الوافية والكافية .

ولقد يعجب القارئ من تسميتها بأم القرآن وبأم الكتاب وبالكافية وبالوافية، وكيف تقرأ في كل صلاة، فليعلم ذو اللب أن الذي يتلى على اللسان دائماً، ويتلوه الجاهل والعالم سراً وجهراً، يصبح في أنفس التالين من المألوفات التي لا يسعى إلى شيء وراءها، وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الإنساني عند الجهلاء، فالناس لما رأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض، لم يظنوا فيها عجائب ولا غرائب لأنها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين، كالعالم في بلده والنبي في قريته، فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وأكثرهم جاهلون لا يعقلون، ولذلك داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن في غفلة معرضون.

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء، فعالم النبات وعالم الطب يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم، فكذلك هنا المفكرون في القرآن الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعلومها. فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الإشارات لجميع ما ورد في القرآن، والذي ورد في القرآن عشرة علوم عامة كما قاله الغزالي، وكل علم تحته علوم:

الأول: معرفة ذات الله.

الثاني: معرفة صفاته. فأما الذات فبالتقديس والتنزيه فهو الذي ليس كمثله شيء، وأما الصفات فإنه قادر ومريد وعالم وحي وسميع الخ.

الثالث: أنه خالق العالم ومبدعه وهو الذي رفع السماوات وبسط الأرض.

الرابع: ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب.

الخامس والسادس: ذكر الصراط المستقيم بترك الأفعال المخزية والأخلاق المزرية، وبالتحلي بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة.

السابع: ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم.

الثامن: ذكر الظالمين والطاغين والكافرين.

التاسع: ذكر محاجة الكفار.

العاشر: ذكر حدود الأحكام. هذه هي العلوم التي ورد ذكرها في القرآن، والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأي الإمام الغزالي:

الأول: ذات الله تعالى في قوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾.

الثاني: الصفات بذكر: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فإن الرحمة والملك يستلزمان القدرة والإرادة والعلم، وهي من الصفات الواردة في أكثر سور القرآن كقوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [الحشر: ٢٣] الخ.

الثالث: علم الأفعال، وهو العلم الذي أشرت إليه فيما تقدم، المندرج في قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ المنطوي تحته اكثر العلوم، وقلت إن العالم قسمان علوي وسفلي ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة في آثار رحمته وتربيته للعالمين. ونقول الآن أيضاً فوق ما تقدم أن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا في تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة، فمنها

علم «البنكامات» آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة، وعلم جرّ الأثقال، كقطر السكك الحديدية، وعلم إنباط المياه، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها، والغازات الخانقة الموقظة للأمم النائمة، فأيقظت أهل الشرق من سباتهم. وهذا من عجائب التربية، وكالمدافع الفتاكة بالغافلين، وعلم المرايا المحرقة، وعلم عقود الأبنية لتنضيد المساكن وشق الأنهار، وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها، وعلم مراكز الثقال، وعلم المساحة، وعلم الطب، وعلم الزراعة. وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة وأما ما قبلهما فعن الرياضيات تتفرع، وكلها داخلة في تربية العالمين.

واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات، فإذا رأيت النجار والحداد والخراط والزجاج والجوهري والصيرفي، فاعلم أن الأول تابع لعلم النبات، لأن عمله في الخشب. والثاني لعلم المعادن لأنه في الحديد. والثالث في النبات كالأول. والرابع في المعدن لأنه في الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن. والخامس والسادس في الجوهر المستخرج من الصدف، والسادس في الذهب والفضة، هذا ما أردت ذكره في العلم الثالث، وهو علم الأفعال، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات.

العلم الرابع: ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب، والقرآن طافح بذلك، وهو هنا في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

العلم الخامس والسادس: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهو قسمان: الأول: ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكذب والخيانة والزنا. والثاني: التحلي بالطاعات كالكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك.

العلم السابع: قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء، وهو داخل في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

العلم الثامن: قصص المغضوب عليهم والضالين، وفي القرآن كثير من قصص الغاوين وتاريخ أعمالهم التي أورثتهم البوار والخسار. هذه هي العلوم التي اشتمل عليها القرآن، ودخلت في ضمن الفاتحة.

فهل إذا سميت أم القرآن، أو الكافية، أو الوافية، لا تكون بذلك حرية؟ بلى، فالفاتحة أم القرآن بما بيناه، كافية بما أبرزناه وافية كما قررناه، فتعجب من المسلمين. واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذي يجري في الجو ولا يظهر إلا على سطح الأرض أو على جسم قابل، فأما الهواء فإنه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر في جو السماء. كذلك الأفئدة الخالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن وأم القرآن، ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها، وهم يقرؤونها صباح مساء، كذلك الطائر في الجو، السائح في مخارقه، حتى إذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حق فهمه. واعلم أن هذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن في بلاد الإسلام، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ولم يبق من العلوم التي في القرآن إلا محاجة الكفار ويقوم مقامه علم التوحيد، وعلم الأحكام الفقهية التي يقصد بها حفظ النظام الاجتماعي للأمة، وإنما احتيج لهذين العلمين لحفظ العقائد ولحفظ

نظام المجموع، ثم إن هذا التقسيم الأخير مستمدة أصوله من كلام الإمام الغزالي مع زيادة وتصرف، ومن هذا تعلم أن علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وهي العلوم المعروفة اليوم، والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد، والأمم الإسلامية اليوم أحوج إلى معرفة الكائنات لمعرفة الله تعالى، ولبقائهم في الدنيا ليزاحموا الأمم الغربية، وهي أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد، وجميع هذه العلوم فرض كفاية، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهروا ظهوراً جلياً في الفاتحة، اللهم إلا في العادات، أما الفقه فيما عدا ذلك، فلم تشتمل عليه، والمسلمون يجب عليهم النبوغ في علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصاً لدخولها ضمن تربية العالمين.

فإذا سمعت قول القائل: إن سرّ القرآن في الفاتحة، وقرأت الحديث المتقدّم، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبيّ: «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل مثلها»، ثم قال: هي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، ثم قرأت ما كتبناه بإمعان أدركت السر المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة، وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الفاتحة: «إنها القرآن العظيم»، وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم: سرّ القرآن في الفاتحة، فمن هذا الطريق فلتسر، ولتعلم أن ما كتبناه شذرة مما نعلمه، ثم ما نعلمه ذرة من علم العلماء، ثم علم العلماء ذرة من علم الله عزَّ وجلَّ، فتعجب للنبوّة وحكمتها وعلمها الواسع.

إن هذا يفتح لك أبواباً تدخل منها إلى سر عظمة الفاتحة، وسرها أنها سبع آيات تؤدي معنى ست آلاف آية، وهي جملة القرآن كله تقريباً، ثم إن خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأي الإمام الغزالي، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبناه فعسى أنك في غضونه تلقاه، هذا ما فتح الله به وأردت إثباته في تفسير الفاتحة، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

لقد سبق الكلام على ما في الفاتحة من الإشارة إلى العلوم وما تضمنت من الحكمة، فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وتبصرة لذي لب، وإنما قدمنا الكلام في العلوم لأنها أعم وأهم وأدعى إلى رقي الأمم الإسلامية وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها. فنقول:

تأمل أيها العاقل الفطن، وانظر بعقلك وإياك التقليد، بل ليكن نظرك عقلياً وفهمك نفسياً، واحذر أن تكون إمّعة، فها أنا ذا سأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وما شاكلها لتقارن بصفاء ذهنك، ونور عقلك، وصادق سريرتك، بينها وبين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحي وكلام الشعراء الذين كان لهم القدح المعلى في سوق عكاظ وذي المجنة وذي المجاز، وهم الخافضون الرافعون بذمهم ومدحهم، كامرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، ومن على شاكلتهم، ممن طأطأت لهم الرؤوس، وخلا لهم الجو، وخشعت لهم الأصوات، وذلت لهم الرقاب، وكانوا شموس الجماعات وسادات الشعراء.

إن للوحي لسمة ظاهرة وعلامة بينة، ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة، ويتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد، فأما كلام الشعراء في فواتحهم فهاك مقال امرئ القيس بن حجر بن حارث إذ ابتدأ قصيدته المعلقة، وهي فاتحته، فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذي بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة، وهي الدخول وحومل وتوضح والمقراة، فقال:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال إن خولة محبوبتي لم يبق لها إلا آثار الديار الخفية التي صارت كآثار الوشم في ظاهر اليد، وهذه الآثار في موضع، وهو برقة ثهمد، وهي مكان لبني دارم، إذ قال:

لِخَوْلَةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

وزهير بن أبي سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال:

أَمِنْ أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

أم أوفى: كنية محبوبته، والدمنة: آثار الديار وما فيها من البعر والرماد وغيرها، والحومانة: ما غلظ من الأرض، والدراج والمتثلم: موضعان من العالية. يقول: هل من منازل محبوبتي أم أوفى تلك الدمنة التي سألتها فلم تجبني.

ولبيد بن ربيعة العامري من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية، كانت فاتحة قصيدته أن قال: اندرست ديار محبوبتي، وهي ما تحل فيه وتقيم، وهي بالمكان الذي يسمى منى، وقد توحش الموضعان اللذان فيها، وهما الغول والرجام، إذ قال:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحلُّهَا فَمُقَامُهَا ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

وعمرو بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته، أن قال لجاريته: قومي من نومك، واسقيني الخمر أول النهار بقدحك العظيم، ولا تدخري عني شيئاً من خمرة القرية المسماة الأندرين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته، إذ قال:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... ولَا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

وعنترة بن شداد العبسي يقول: ما ترك الشعراء شيئاً يرقع إلا رقعوه، أي: ما تركوا فناً من فنون الشعر إلا سلكوه، ثم قال: أنا لم أعرف دار محبوبتي لطول عهدي بها إلا بعد عناء شديد إذ قال:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والحارث بن حلزة اليشكري قال في فاتحة معلقته في حضرة الملك عمرو بن هند: أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشق علينا، ومن المقيمين من يُمَلّ قربهم، ولكن أسماء ما مللناها إذ قال:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والنابغة الذبياني، وهو زياد بن معاوية، كانت فاتحة قصيدته أن قال:

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَمَدِ

العلياء: المكان المرتفع، والسند: حيث يسند إلى الجبل: أي يرقى، وأقوت: خلت، والأمد: الدهر. يخاطب دار محبوبته مية متوجعاً متأسفاً على ارتحاله عنها وابتعادها عنه.

والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيْمُ مُسَهَّدَا

أرمد: أي رجل أرمد، والسليم: اللديغ، والمسهد: الذي شرد عنه النوم، يقول: إنه أرق ليلة فلم تغتمض أجفانه كالأرمد الذي لا يطيق إطباق أجفانه من حرّ ما بها من الألم، ولم ينم كأنه لديغ.

وعبيد بن الأبرص، الشاعر الجاهلي، أحد المعمرين، يقال إنه عاش عشرين ومائتي سنة كانت فاتحة قصيدته أن قال:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدُّفَيْنِ بِبَالِي فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ ذِيَالِ

الدفين: واد قريب من مكة، واللوى: منقطع الرمل، وذروة: واد لبني فزارة، وذيال: رملة أخرى، يقول: إن الدفين والذروة وذيالا، وهي منازل الأحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكرنا ما سبق لنا من لذيذ العيش.

فها أنا ذا أتيت لك بفواتح لعشرة من فحول شعراء الجاهلية، وهل خرجت فواتحهم عن آثار الديار، وفراق المحبوبة، والتحسر، والتوجع عليها، وذكر سهر العين ورمدها، وشرب الخمر بالقدح، وهل رأيت إلا مداراً واحداً داروا جميعاً فيه، أو ليست الفواتح يكاد يتحد معناها وإن اختلف مبناها، وهل ترى هذه المعاني التي طرقوها في فواتحهم رافعة رأس الإنسانية، أو بانية لها صرحاً، أو شائدة لها ذكراً، أو ناظمة لها عقداً، أو مربية لها أمة، أو سانّة لها قوانين؟ كلا، وإنما هي كلمات محدودات في معان ضئيلات يذكرها الفتى أيام صوته، ولا تبقى له أيام كهولته لم تخرج عن مداعبات غرامية، وأنات شوقية، قد يقولها الشاعر تكلفاً لا غراماً، واتباعاً لا ابتداعاً، واحتذاء لا ابتداء، فلعمري لقد بهر العرب، وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة، فقيل لهم أيها الناس تبركوا باسم إلهكم الرحمن الرحيم، ولا تتنزلوا إلى صغائر الأمور بمدح الملوك، واربؤوا بأنفسكم عن ذلك، فاحمدوا من رفع السماء وبسط الأرض، واطلبوا منه الهداية.

أقول أيها الذكي اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة في القرآن، وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب، وقد مهدت لك الطريق، وبسطت لك السنن في البلاغة، فانظر في أوائل السور، وأوائل قصائد الجاهلية مثلاً، وكذلك نمط القرآن في المعاني والمقال، ونمط كلام شعرائهم، وهذا هو النمط الذي جرى عليه العرب في تعظيمهم القرآن، ألا ترى كيف يقول بعض سادات قريش لما انطلق إلى رسول الله ﷺ ليفتك به، فسمعه يقرأ: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر: ١-٣]، وكان ذلك في صلاة المغرب، فلم يصبه بأذى، ورجع إلى قومه، وقال: والله لو كان من كلام العرب لعرفناه، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه يعلو ولا يعلى عليه الخ.

وتأمل في قصة إسلام عمر رضي الله عنه: أن رجلاً من قريش لقيه في بعض طرق مكة، فقال:

أين تذهب، إنك الصلب القوي في دينك، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك «أي دين الإسلام».
قال: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت «خرجت عن دينك»، فرجع مغضباً فقرع الباب على أخته فدخل عليها وقال: يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صبأت، ثم لطمها لطمة شج بها وجهها، وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض، ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت، وقالت: أتضربني يا عدو الله على أن أوحد الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلاً فافعل. قال عمر رضي الله عنه: فاستحييت حين رأيت الدم فقمت وجلست على السرير وأنا مغضب، فنظرت فإذا كتاب في ناحية البيت، فقلت: أعطوني هذه الصحيفة، فأبت أخته أن تعطيه إياها، وقالت: إنك رجس فانطلق واغتسل فإنه كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فلما اغتسل ناولته الصحيفة، فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال عمر: فلما مررت بالرحمن الرحيم، ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، وجعلت أفكر من أي شيء اشتق، قال: ثم رجعت إلى نفسي وأخذت الصحيفة فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [الحديد: ١-٤] إلى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واطلع على أخرى فوجد فيها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١-٨]. قال رضي الله عنه: فعظمت في صدري، وقلت من هذا فرّت قريش.

قال مؤلف هذا الكتاب: وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة، وبهذا كان العرب يدركونها فإنهم يعرفون الفرق بين قوله:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ....

وبين قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦] وكلاهما في فاتحة الكلام، ثم لما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] قال ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد غيره، دلوني على محمد الخ.

ومن ذلك: أنه ﷺ ومعه أبو بكر لقي سادات بني شيبان بن ثعلبة، وهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو أجملهم وجهاً وأفصحهم لساناً فعرّفهم أبو بكر بشأن رسول الله ﷺ، فقال مفروق: إلامَ يدعو؟ فتقدّم رسول الله ﷺ وقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤووني، وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت - أي تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق - والله هو الغني الحميد». قال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥١] . قال مفروق : ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، ثم قال : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] ، فقال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا : أي عاونوا عليك .

آيات العلوم والأخلاق في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات وعلوم ، ولنا أن نجعل القسم الثاني منها أخلاقاً ، فإن الهداية إلى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس .



تفسير سورة البقرة

مدنية، وهي مائتان وستة وثمانون آية

تقسيم سورة البقرة إلى بابين عظيمين

الباب الأول من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢]، إلى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[١٧٧]. وهذا القسم غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود، وفيه عشرة مقاصد.

والباب الثاني من قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[١٧٧] إلى آخر السورة، وغلب فيه الأحكام الشرعية، وفيه عشرة مقاصد.

مقاصد الباب الأول:

المقصد الأول: مدح القرآن وبشارة المؤمنين.

المقصد الثاني: ذم المنافقين.

المقصد الثالث: ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين.

المقصد الرابع: نداء عام للناس أن يؤسسوا الإيمان على قاعدة النظر في السماوات والأرض.

المقصد الخامس: كيف بدء الخلق.

المقصد السادس: خلق آدم وكيف تشير القصة إلى قوة الغضب والشهوة وقوة العقل بإبليس وحواء والعلم.

المقصد السابع: ذكر بني إسرائيل وأنهم ضلوا واتبعوا الشهوات، وذلك في فصلين:

الفصل الأول وبه عشرة يواقيت: تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون. فرق البحر لهم. إغراق فرعون. إعطاء التوراة لموسى. توبة الله عليهم بعد الذنب. تظليل الغمام. إنزال المن والسلوى. الأعين المنفجرة. تعنتهم وطلبهم الشرف. مسألة البقرة وكيف ظهر بها القاتل. تلك عشرة كاملة. وهذا آخر يواقيت الفصل الأول من المقصد السابع في الباب الأول من سورة البقرة.

الفصل الثاني من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة، وبه خمسة مقاصد: المحرّفون لكتاب الله منهم وهم العلماء. المنافقون والأذكياء صرفوا ذكاءهم للمفسدة. الأميّون وهم العامة المقلدون. مجمل الآداب المنزلة على بني إسرائيل وبها سعادة الأمم. تقريعهم على هنات ارتكبوها وارتطموا في أوحالها، وهذا الخامس يشتمل على ١٠ زبرجدات: قتلهم الأنبياء. إشرابهم العجل في قلوبهم. دعواهم الاختصاص باليوم الآخر. عداوتهم لجبريل. نقضهم للعهود. كفرهم

بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا به . اتباعهم علم السحر . إيذاؤهم للنبي بلفظ راعنا . تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبي كما تعنتوا على موسى بقولهم : أرنا الله جهرة . إرادتهم السوء بالمؤمنين ، ودعوى النصارى واليهود أنهم هم الناجون لا غير ، ثم ذكر المساجد وظلم أهلها الخ .

المقصد الثامن : قصة إبراهيم الخليل وإسماعيل وبناء الكعبة بعد ذكر إسحاق وبنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين برهاناً ، وأخذ يؤسس الإسلام على قواعد إبراهيم ويذكر بناء الكعبة ، ولم يكن دين اليهودية دين إبراهيم ولا يعقوب ، ثم دعوة الناس جميعاً لدين واحد اتفق عليه الأسباط ونبذ النصرانية والتعميد .

المقصد التاسع : ذكر الله قصص آدم وقصص بني إسرائيل وهدم اليهودية وبناء الإسلامية عليها بين النداء الأول العام وبين النداء العام الثاني ، وهو : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١٦٣ـ ١٦٤] فقد قال أولاً : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [٢١] ثم أعاد الكرّة فأوضحه ، وقال : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١٦٤]ليبرهن بعلم الطبيعة .

المقصد العاشر : تقليد الرؤساء والآباء في الدين والحلال والحرام جهلاً ، وتقريع المقلدين الغافلين بعد تبيان الحقائق الناصعة فيما تقدم نفياً وإثباتاً . وهنا تمّ بيان مجمل المقاصد في الجزء الأول ، فلنشرع في تفصيله .

ابتداء التفسير

المقصد الأول

مدح القرآن وبشارة المؤمنين في قوله عزّ وجلّ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ الٓمٓ ﴾ ستقرأ الكلام عليها وعلى غيرها في أول آل عمران وفي أول كل سورة مبدوءة بمثل هذه الحروف ، وسنستوفي الكلام على أسرارها الخاصة بهذه السورة في الملحق ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾القرآن ﴿ لَا رَيْبَ ﴾لا شك ﴿ فِيهِ ﴾ أنه من عند الله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يهديهم إلى الحق ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون به ، وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يصدّقون بما غاب عنهم كأمر البعث والحساب ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يداومون عليها في مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ومما أعطيناهم من الأموال يتصدقون ويؤدون زكاة أموالهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ كعبد الله بن سلام معطوف

على الذين قبله ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ على رشاد ونور واستقامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الناجون الفائزون، نجوا من النار وفازوا بالجنة. يقول عزّ وجلّ: إني أرسلت رسولاً حكيماً، فصيح اللسان كما سترون في هذه السورة من القصص ونتائجها، والحجج وبدائعها، والآيات وشرائعها، وما في هذه الآيات المنزلات إلا جمل بليغات، وهي حروف مركبات ا ل م، فما منعكم أن تنسجوا على منواله، وتبنوا مجداً كما بنى ذلك الكتاب، يهدي المتقين الذين جمعوا ثلاث صفات: الحكمة والعلم وإليهما الرمز بالإيمان بالغيب وتسخير البدن في العبادة كالصلاة، وبذل المال مما رزقوا، ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفاً لهم، وهم الذين آمنوا بما سبق إنزاله من الكتب وما نزل من الدين، وما سيكون من اليوم الآخر: أي الماضي والحال والاستقبال تلميحاً إلى أن الإنسان صاحب الدهر، وعليه النظر في حقيقة جميع الأشياء.

المقصد الثاني وفيه غرضان

الغرض الأول: ذمّ الكافرين، وتبيان أن فريقاً منهم حرموا من الهداية، وسجل لهم الحرمان والطرد، فإن أنذروا أو لم ينذروا فهم لا يؤمنون، وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لا تمتاز عما للحيوان ولا تعلو بهم إلى مصاف نوع الإنسان فقد طبع على قلوبهم، فهم لا يفقهون الخير، وعلى موضع سمعهم فلا ينتفعون بالحق، وحيل بينهم وبين الانتفاع بما يبصرون، كأن على أعينهم أغطية، وهو معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾

التفسير اللفظي

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا وأنكروا ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي متساو لديهم ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ أي خوّفتهم وحذرتهم ﴿أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يصدّقون ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ طبع عليها ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي وختم على موضع سمعهم، فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ غطاء فلا يرون الحق ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ شديد في الآخرة.

الغرض الثاني: بيان حال المنافقين، وأنهم ذوو باطن وظاهر متناقضين، ووجهين مختلفين، وأطال في وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث نفوسهم، وكيف يظهرون ما لا يخفون، ويضمرون ما لا يظهرون، وكيف تسوء عاقبتهم وتخبو نارهم، لنعتبر بذلك فلا نقع فيما يحتالون، فكم جلب الصديق الملق اللسان ضرراً لا يجلبه الأعداء، وكم للعدو من فضل على الصديق المنافق، وما أقل الصديق وما أكثر المنافقين في كل زمان وهو:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُم

عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهم المنافقون: كعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأضرابه ﴿ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ وبالبعث بعد الموت ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ في السر ولا مصدّقين ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾، الخداع: الحيلة والمكر، والمخادع يظهر خلاف ما يبطن، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا، وضرر الخداع راجع إليهم. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣] والمتمادي في الذنوب المعتاد لها، لا يشعر بنتائجها الكامنة فيه، البادية في سائر أحواله، فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل بها، فصار ذلك مرضاً لازماً لها ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾ بإعلاء شأن النبي ﷺ وتضاعف النصر وتكرار الوحي ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالكفر وتعويق الناس عن دين محمد ﷺ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ يعني يقولونه كذباً ﴿ أَلَآ ﴾ كلمة تنبيه ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ في الأرض بالكفر ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ لأنهم يظنون أن نفاقهم صلاح ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني المهاجرين والأنصار ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ ﴾ الجهال ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ الجهال ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كذلك ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ كأبي بكر وأصحابه ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ كإيمانكم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ ﴾ أي رجعوا ﴿ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ الشياطين كبار المنافقين، والمستهزئ: المستخف، ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ يجازيهم ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ يزيدهم، والطغيان تجاوز الحد، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر ﴿ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، والربح في الأصل الفضل على رأس المال.

المقصد الثالث

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى
ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ

ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ أي مثل المنافقين مع محمد ﷺ ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ أوقد ناراً ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾ أي النار ﴿ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي حول المستوقد ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ جواب لما والضمير للذي، وجمعه للحمل على المعنى، كقوله: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ [التوبة: ٦٩] ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ الهدى ﴿ صُمٌّۢ ﴾ عن سماع الحق ﴿ بُكْمٌ ﴾ خرس عن النطق به ﴿ عُمْىٌ ﴾ لا بصائر لهم ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ عن ضلالهم ونفاقهم ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ أي كأصحاب صيب، وهو المطر ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من السحاب ﴿ فِيهِ ﴾ أي الصيب ﴿ ظُلُمَٰتٌ ﴾ جمع ظلمة ﴿ وَرَعْدٌ ﴾ هو الصوت الذي يسمع من السحاب، «اقرأ إيضاحه في سورة الرعد» ﴿ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ الضمير لأصحاب الصيب ﴿ مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾ جمع صاعقة، وهي قصيفة رعد هائل معها نار، وهذه المعاني كلها واضحة في سورة الرعد مثل سابقتها فاقرأه هناك. ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ خوف الهلاك ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ عالم بهم وجامعهم في النار ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ يختلسها ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم ﴾ البرق ﴿ مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ في نوره ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ بقوا في الظلمة كذلك المنافقون ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ بصوت الرعد ﴿ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ بوميض البرق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو الفاعل لما يشاء. اهـ التفسير اللفظي.

هاهنا أنشأ فصلاً انتزعه من أصول هذه المشاهدات تخييلاً لعقولنا وتدريباً على الأمثال وضربها وتشبيهاً للمعقول بالمحسوس، مثل حال المنافقين وقد تبوؤوا الإسلام، وأظهروا الإيمان فسعوا في الحياة بنوره، وحرموا بعد الموت من ثمره لما أضمرته النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا في ظلام، فأوقدوا ناراً أضاءت لهم الحالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وآنستهم بوجهها الجميل ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحلك ليلهم ذلك مثلهم.

المثل الثاني يقول: انظر السحاب المعصرات وهي تمطر، والظلمات حالكة، والرعد يزمجر، والبرق يخطف. تصوّر السحاب مظلمة مخيمة في جو السماء وقد اكفهر وجهها، وأرعدت وأبرقت وأمطرت، إن هذا وصف حال القرآن والكافرين، فالعلوم في الكتاب كودق السحاب، وتوصيف الكفر والنفاق وذمّ الأصنام أشبه بالظلمات والحجج العقلية، والبراهين الطبيعية على صدق الإيمان أشبه بالبرق الخاطف للأبصار، والوعيد والتخويف أشبه شيء بالرعد القاصف، فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين سحاب نشر ملاءته على الأنظار، والظلام حالك، والرعد يزمجر، والبرق يومض، وهم بين حزن وفرح، وخوف وطمع، وإدبار وإقبال، وظلام ونور، وهذا من أعجب الأمثال، فإن سمعوا البراهين العقلية أصغوا إليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم، وإن سمعوا ذمّ الأصنام نفروا معرضين كما يفعل أولئك السائرون في الظلمات إذا برقت لهم بارقة تبعتها ظلمة حالكة.

المقصد الرابع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٢٧) ﴾

التفسير اللفظي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ خطاب لأهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة، هو هنا خطاب عام لسائر المكلفين ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ وحدوه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ من نطفة ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وخلق الذين من قبلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، أي لكي تتقوا السخطة والعذاب ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ بساطاً ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ سقفاً مرفوعاً ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ السحاب ﴿ مَآءً ﴾ مطراً ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ ﴾ بالماء ﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ من ألوان الثمرات ﴿ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ وعلفاً لدوابكم ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أمثالاً ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ في شك ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ محمد ﷺ ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أي مثل القرآن، أو من مثل محمد ﷺ ممن لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم ﴾ استعينوا بآلهتكم ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من غير الله ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في مقالتكم ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ ﴾ فيما مضى ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ فيما بقي ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ فاخشوا النار إن لم تؤمنوا ﴿ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ﴾ حطبها ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ الكفار ﴿ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ حجارة الكبريت أو جميع الحجارة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ هيئت لهم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بمحمد ﷺ ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الطاعات ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ بأن لهم بساتين ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي من تحت شجرها ومساكنها ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي كلما أطعموا من الجنة ﴿ مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ﴾ أي طعاماً ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا. وقيل إن ثمار الجنة متشابهة في الهيئة مختلفة في الطعم فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى، ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ ﴾ بالرزق

﴿ مُتَشَٰبِهًا ﴾ في اللون مختلفاً في الطعم، وهذه الجملة اعتراضية لتقرير ذلك ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ ﴾ في الجنة ﴿ أَزْوَٰجٌ ﴾ حور ﴿ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ من الحيض ونحوه ومن كل دنس ﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ دائمون لا يموتون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ لا يمنعه الحياء ﴿ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي يبين للخلق مثلاً في بعوضة فكيف ما فوقها؟ يعني الذباب والعنكبوت، وذلك أن الكفار واليهود كانوا يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً، وكيف يذكر الله هذه الأشياء الخسيسة، فردّ الله عليهم بأنه لا يستحيي من ذلك، وكيف يستحيي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ما قدروا عليه.

واعلم أيها الذكي أن هذا المقام مشروح موضح بالتصوير الشمسي في آخر سورة الحج، وهناك ترى أسرار هذه الآية وكيف كانت الذبابة وتشريحها موضوع درس في المدارس العظيمة في زماننا، ومنه استخرج تقسيم أنواع الحيوان فاقرأها هناك واعجب من جمال الله وبدائعه هناك، وفي سورة العنكبوت وصورها الشمسية وعجائب الخلقة والحكم المودعة فيها، فهناك ترى عجائب كتابنا المقدس ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ ضرب المثل ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ الصدق الثابت ﴿ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي بهذا المثل ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ أي من الكفار لأنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً ﴿ وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ يعني المؤمنين يصدّقونه ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ ﴾ بالمثل ﴿ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ الكافرين والمنافقين واليهود، ثم وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ أمر الله ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ من بعد عقده وتوكيده ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ بقطع الأرحام والأعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والكتب في التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير فذلك كله قطع الوصلة بين الله وبين العبد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المغبونون حيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب. انتهى التفسير اللفظي المجمل.

إيضاح وتفصيل

قيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها ليروا نقيض ما كانوا يتوقعون، وقوله: ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي أن الثمر الذي في الجنة يشابه الذي كان في الدنيا لأن النفوس توّاقة إلى ما كانت تألفه، ولتعلم أن ذلك أقرب لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ [فصلت:٣١] ولذلك أمر الناس بالعبادة، وضروب الحكمة ليرتقوا إلى الدرجات التي تناسب ما رفعوا أنفسهم إليه في الدنيا فتأمل. وطهارة الأزواج تكون من دنس الطبيعة وسوء الخلق، وما يستقذر من أحوالهن كالحيض والنفاس كما تقدم.

عجب لهذا النظام، وما أبدع هذا الترتيب، انظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين، وأتبعهم بالمنافقين وجاء المثلان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكمية في الآفاق وإيضاح تلك المعاني التي خفيت في النفوس بما يماثلها في العالم المشاهد المحس من سحاب وماء وظلام وضياء، فلا جرم أن ذلك دعاء حثيث إلى تذكار العجائب الكونية وحب ما في العالم من البدائع

الخلقية، ذكر المثلين لتباين أخلاق المنافقين على نموذج البلغاء، فتأمل كيف أتبعه بما هو المقصود الأتم والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات، انظر وتعجب كأنه يقول: هاأنا ذا أبنت لكم سبل ذوي النفاق والكافرين وشرحت حالهم، وليس ذكرها هو المعنى بذاته، فلا تضع وقتك في مناوشة الأعداء، ومقاومة الخصماء، وتعال عن تلك الطائفة العمياء، واسلك سبل الحكماء، وكأنّما المثلان وسط متناسب بين المقامين، مقام نبذ الضالين، ومقام العلم والفضل المبين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾، يقول: اعبدوا ربكم فإنه خلقكم وخلق آباءكم، وجعل فوقكم سماء تظلكم، وتحتكم أرضاً تقلكم. وقال لكم: ها هو ذا سحاب يمطر، وهذه الأرض تنبت وتثمر ومنها تأكلون. يقول: آويتكم إلى بيتي فسكنتموه فسماؤكم ممطرة ماء وأرضكم مثمرة، هاأنتم أولاء تبنون وتسكنون فهل تستطيعون أن تنزلوا من سمائكم ماء عند حاجتكم وأن تبنتوا من حجركم فتأكلون خبزاً وفواكه، تأكلون من تحت أرجلكم، وتشربون من فوق رؤوسكم، تنظرون فترون الأرض يابسة، فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية، وتفرش أنماطاً ملونة زبرجدية، ثم تمدكم بما تأكلون، وتعطيكم ما به تشفون، الأرض مهاد لكم، عليها تنامون، وجمال لكم ولها تنظرون، وغذاء منها تأكلون، ودواء وجمال وحسن ونظام، السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدراري الحسان والهواء بينهما يحمل الأضواء، ويزجي السحاب، ويقدر المطر، وينزل الودق رحمة عظيمة، وحكمة عميمة، بهاء وجمال تخرّ لعظمتها العقول، وتخضع لجلالها النفوس، وتقرّ بأن هذه البدائع لا مندوحة لها عن مبدع فطرها وحكيم نظمها وإله أتقنها ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أيها الناس أنتم أسرة واحدة أسكنتكم داري وآويتكم إلى فراشي، وكسوت الأرض لكم حللاً بهجة للناظرين، وصبغتها من كل صبغ وزينتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد، وجعلت سقفكم بهجاً أزرق بهياً لطيفاً نظيفاً، لم تبنوه بأيديكم، أليس من عجب أنه قديم حديث، وجديد عتيق، لم يتغير منظره، ولم تقدم جدته، ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وإن شاب الزمان وهرم الهرمان، ومن ذا يتصور سقفاً يبنيه بلا بناء، وينظمه بلا عناء، ويبقيه بلا فناء، ويبقى حسنه بلا خفاء، ألا إن نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم، كنسبة عمله الضئيل إلى سقف السماء ذات الجمال والصفاء.

فصل آخر في هذه الحكم الكونية

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل للعلم والكفر، والوعيد بذلك المثل مثل بديع رائع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلاً لما عقلته النفوس وفقهته الفكر، مثل الأنفس بالآفاق وتعالى على ما نظمه الشعراء في الجاهلية والإسلام، ألم تر إلى امرئ القيس الجاهلي، وقد ضرب مثلاً لقوة العقاب بقوله:

كأنّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطباً ويَابِساً ... لَدَى وكرها العناب والحَشَفُ البالي

وحسده بشار حتى قال بيته المشهور:

كأنَّ مثارَ النَّقعِ فوقَ رؤوسِنَا ... وأسْيَافَنَا لَيْلٌ تهاوَى كَوَاكِبُهُ

مثل الغبار، وقد علا، تتخلله بيض السيوف بالليل الحالك تتساقط فيه الكواكب، ولقد جاء من بعده ابن المعتز في نحو القرن الثالث وأبدع فقال:

وسَاقَ صَبيح للصبوح دَعَوْتُهُ

إلى أن قال:

وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الجَنُوبِ مَطَارِفَا   على الْجَوِّ دكْناً وَالْحَوَاشِي عَلَى الأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَصْفَرَ   عَلَى أَخْضَرٍ فِي أَحْمَرَ تَحْتَ مبيضِ

وصف السحاب بالسواد، وأنها كست الجوّ وأسبلت حواشيها على الأرض، وقد زوّقت تلك الحواشي بقوس قزح وكان منه جدد بيض وحمر وصفر وخضر وبنفسجي وبرتقالي وأزرق، هذا أحسن ما تخيله قدماء العرب والمحدثون وتبينه المتقدمون والمتأخرون. فأما القرآن فقد امتطى غارب البلاغة وتعالى في الفصاحة وسما إلى مقام لا يصله منطيق ولا يدركه مصقع لبيب، ألا ترى أن مقالهم في وصف عقاب أو خمر، أو شراب، أو حرب، أو ضراب، ولم تحم يوماً هذه المعاني الشريفة بعقولهم، ولم تسمُ قط إليها نفوسهم رقة المعاني وجزل اللفظ في القرآن وحسن العبارات، فمثل الأخلاق النفيسة وأبرزها في صورة محسة مشاهدة تهدي إلى هدى، وتدفع عن ردى، وترفع أذى، وتزيل غمة، فيالله ما الذي يرفع من همة إنسان من وصف طعام وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعاطي القداح، ها هنا تجلت البلاغة وسطعت شموسها، ولما كان المثل المذكور مقتبساً من الكون منظوماً من المشاهدات معروفاً من المحسات، أخذ فيما بعد ينقل النفس من الخيال إلى الحقيقة والوجدان. وقال: نحن وإن ضربنا لكم الأمثال من الكون فإنا واصفوه لكم لتفقهوه يا أيها الناس اعبدوا ربكم الخ. هذه هي العبارة الحكمية، والآيات العلمية، والعجائب الخلقية.

بدائع العلم

الأول: روي أن النبي ﷺ قال لعمران بن حصين: كم لك من إله؟ قال: عشرة، قال: فمن لغمك وكربك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جملتهم؟ قال: الله. قال عليه الصلاة والسلام: ما لك من إله إلا الله.

الثاني: جاء جماعة من الدهرية لأبي حنيفة رضي الله عنه فقال: ما تقولون في خشب قطع من الأشجار بلا نجار، واجتمع ثم كوّن سفينة تجري في البحر، وهي مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقت.

الثالث: سأل جماعة من الدهريين الشافعي رضي الله عنه، ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال:

ورقة الفرصاد «التوت» طعمها، ولونها، وريحها، وطبعها، واحد عندكم؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم، والنحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر ويأكلها الظبي فينعقد في نوافجها المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد. فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده، وهم سبعة عشر. قال أبو نواس:

تَأَمَّلْ فِي رِيَاضِ الأَرْضِ وَانْظُر ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... وأزهار كَما الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قَضبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

الرابع: قال الفيلسوف هربرت سبنسر المتوفى في بريطن مدينة من بلاد الإنجليز سنة ١٩٠٣، في كتابه في التربية: العلم الطبيعي لا يناقض الدين، ونقل عن الأستاذ هكسلي ما يأتي: «العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توءمان إذا انفصل أحدهما من الآخر خرّا صريعين وماتا حتف أنفهما». ثم قال سبنسر: متى اتفق العلم والدين نموا نموًّا صحيحاً، فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية أصوله في رياض العلم الصحيح، والعلم الصحيح يؤيده الدين ويشد أزره، فيكون قوياً متيناً.

ألا وإن الفلاسفة الذين أثمرت أذهانهم أجمل الأثمار، وأفادوا النوع الإنساني بجميل علومهم، إنما كان ذلك بباعث ديني بعثهم على التفكر والبحث، وذلك أحرى من أن ننسبه لتلك الأذهان وحدها. ثم قال: «من ذا الذي يرى منافاة الدين للعلم، إلا إنما المنافي للدين هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من المخلوقات». ثم ضرب مثلاً، فقال: لو أن الناس أخذت تمدح مؤلفاً عظيم الشأن، عالي الصيت، رفيع المنزلة، وهم لم يفتحوا له كتاباً، ولم يقرؤوا له حرفاً، وإنما كانوا ينظرون إلى ظواهر شكله، وتزويق جلده، فما قيمة تلك المدائح، وما معنى ذلك الثناء؟ إنما هذا هراء، إذا عرفت هذا فالناس جميعاً هم هؤلاء المادحون، والله منظم الكون والكون تأليفه، فلعمري ما أجهلهم حين يثنون عليه، وهم عن عجائبه معرضون، وما كفاهم أن صرفت أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماماً بشأنها وصرف وقته في تحصيلها. ثم قال: لذلك أكرر القول: إن مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعي، بل هي في تركه والانصراف عنه.

ألا وإن التوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة وتسبيح عملي. ثم قال: إن العلم الطبيعي موافق للدين ومقوّ له ومؤيد له من جهات كثيرة، أو لا يرى الإنسان عالماً منظماً بحركات ثابتة جارية بقانون لا تتخطاه، وناموس لا نتعداه، وهذا النظام يدل على قوة وراءه، وحكمة أبدعته، وسوّته أحسن تسوية.

العلم الطبيعي يعرفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة، ويعرفنا أن النتائج تتبع المقدمات والمسببات الأسباب، وأن العقاب والثواب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب إيقاناً تاماً بهما، وأن ذلك ارتقاء في معارج الكمال والسعادة العليا.

والعلم الطبيعي يعرفنا أن لنا حداً محدوداً لا نتجاوزه في العلم، فلا نتخطى إلى معرفة السبب الأول وحقيقته، فالعلم لا يستبدّ بنا في تعريفنا صانع الكائنات، ولكنه يهدينا إلى الحدود التي لا نتجاوزها ونقف دونها، فلا نصل إلى كنه ومعرفة حقيقته.

إن هذا العلم يرفعنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية، ولكننا عندما نصل إلى حدود المحيط العلمي الذي وراءه ذلك السبب الأول، وهو صانع الكون أقررنا بالتواضع ورجعنا بخفي حنين.

ثم قال: وإيّاك أن تظنّ أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الكيماوي أو يقرأ الهندسة، وإنما نعني به ذلك العالم الذي يتخذ أسافل الحقائق سلماً لأعاليها حتى يبلغ الحقيقة العليا، ومن ذا سواه يعرف الهوة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم الذي جعل الطبيعة، والحياة والعقل من مظاهر ذاته، وبين العقل الآدمي والفكر الإنساني، إن الفرق لعظيم. اهـ باختصار.

أقول: أيها الفطن اللبيب، أعلم أني عند كتابة هذا الموضوع في هذه الأسطر كنت أشعر بألم في النفس وأسف، واعترتني دهشة ما كنت أشعر بها واهتاجت أعصابي، وقلت في نفسي يا ليت شعري: أيُّ الفريقين أحق بالشكوى والأسف، أنحن أم فلاسفة الإنجليز كالعلامة سبنسر الذي نحن بصدد الكلام فيه، يقول إن أقواماً يزدرون المبتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعبؤون بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لا يهتدون، يقول هذا شاكياً بائساً، ولئن شكا مرة لأشكون ألفاً كيف لا؟ وأمّته عالمة، وأمّتي جاهلة، وأمّته حاكمة، وأمّتي محكومة، وأمّته قوية، وأمّتي ضعيفة، وأمّته راقية في التجارة، والصناعة، والزراعة، والإمارة، والسلاح، والكراع، وأمّتي على نقيض ذلك، فهو يشكو أمّته طالباً المزيد، وأنا أشكو لضنكها وضعفها. أنا أحق بالجدّ والتشمير لذلك يشكو، ودينه المسيحي لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة، وأنا أشكو لأن دين الإسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخلوقات الطبيعية، خالفنا الدين والعلم فكنا أول فريسة للقانصين.

ما لي أرى أمّة الإسلام نائمة، ما لي أرى سفينتها تجري بلا ملاح، أيجوز في دين المروءة، ومنهج العقل أن يسبقنا الفرنجة بذلك، والعلم علمنا، والدين ديننا، ومن أعجب العجائب بل من أبكى المبكيات أن كثيراً من الشبان يحقرون الديانات اتباعاً لسبنسر، ويقولون إنه ينكر الله، أوَ ليس مما يذيب القلب ويوقع الأسى في النفس أن بعض الشبان يجهلون العلوم التي عند الفرنجة ويدّعون أنهم بها عالمون، يدّعون أنهم قرؤوا مذهب سبنسر، ومذهب داروين، وهم كاذبون فيما يدّعون، فوالله ما أغراني بقراءة الكتب الإنجليزية إلا ما رأيت من دعوى هؤلاء الجهال.

يقول سبنسر: العلم الصحيح والدين توءمان، أوَ ليس هو دين الإسلام، أوَليس قوله تعالى فيما نحن بصدده: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ثم شرح الأرض والسماء وجمالها «علم الطبيعة» أوَ ليس دين الإسلام هو هذا العلم.

يا أمّة الإسلام ألهذا الحدّ وصل جهلنا بديننا، إني أرفع صوتي أمامكم أيها المسلمون، وأقول: أبعد ألف وثلاثمائة سنة نكون أجهل الأمم بالدين ونجتزئ بعلم التوحيد، وتلك الكلمات الجدلية فيه، وهي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولقد وضعت لغرض خاص، فكيف تكون للعموم.

أيها المسلمون: إن الخزي الذي حاق بنا، والسوء الذي أحاط بنا إنما منشؤه جهلنا في القرون الأخيرة، ويقول سبنسر: إن الدين هو السبب في سوق النفوس إلى علم الطبيعة، فيا للعجب، إني قرأت التوراة والإنجيل فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة إلا آثاراً ضئيلة منحرفة، والقرآن هو الذي يأمر بالطبيعة

وفهمها، فإذا كان الدين الذي لا علم فيه يصبح غنياً بالفلاسفة والحكماء، فما بالك بالقرآن الذي لو علم حق علمه لكان أكثر أتباعه ربانيين منهم أكابر الحكماء، أفلا ينبغي أن يكون أكثر العقول الكبيرة من أتباعه، أوَ ليس قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨] يشير إلى المعنى الذي قاله سبنسر: وإن علم الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناظرة في الماء، والأشجار، والثمار، والجبال، واختلاف الألوان، فتخشى الله وأولئك هم العلماء، أفليس هذا هو دين الإسلام.

وأما المثل الذي ضربه سبنسر بالمؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما في الكتاب، فلقد رأيت نظيره في كتب أسلافنا، كقول بعض القدماء في إخوان الصفاء ما معناه: العلوم التي نقرؤها أربعة: كتاب الله، وكتاب الطبيعة، وكتب الحكماء، وكتاب النفس الإنسانية، ومعرفة عجائبها.

وأما ما تعجبه من إعراض الناس عن العلم وعجائب الطبيعة فذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف:١٠٥].

وأما قوله: إن العلم الطبيعي عبادة صامتة، فاعلم أن هذا هو الذي عليه مدار الإسلام، كما في هذه الحكمة: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»، وجاء في حديث أن النبي ﷺ قال: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتدبرها، ويل له ويل له، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾[البقرة:١٦٤] الآية».

واعلم أن هذه الآية كانت السبب في محبتي بحث الطبيعة، وإني وجهت وجهي تلقاءها في أوائل أيام تعليمي، ولو لم أطلع عليها ما توجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب.

وأما قوله: العلم الطبيعي مقوٍّ للدين والدين مقوٍّ له، فاعلم أن الإمام الغزالي يقول: الدين دواء والعلم غذاء، وليس الدواء بمغنٍ عن الغذاء، ولا الغذاء بمغن عن الدواء.

وأما قوله: إن علم الطبيعة يعرفنا بلا استبداد أن لنا حداً لا نتجاوزه، فلا نصل إلى معرفة صانع العالم وحقيقته، فهو الذي ورد في الحديث: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فإن التفكر في ذات الله إشراك»، وورد أيضاً أنه ﷺ قال: «إن الشيطان ليقول لأحدكم: من خلقك؟ فيقول الله، فيقول: ومن خلق الله، فإذا قال ذلك، فليقل أحدكم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا يعرف الله إلا الله».

حكاية

سألني تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية، فقال وفي يده كتاب إنجليزي: إن سبنسر ينكر الله، فقلت: أسمعني قوله، فقال: يقول: إن الله إما أن يكون خلق نفسه، وإما أن لا يخلقه أحد، فإن كان الأول فهو مستحيل، لأن الشيء يكون متقدماً على نفسه وهو باطل، وأما الثاني فباطل أيضاً لأنه لا موجود بلا موجد، فقلت: أوَ تظن أن هذا كفر؟ قال: نعم، قلت: كلا.

واعلم يا بني أن هذا شذرة من أقوال علمائنا، بل قطرة من بحر وذرة من جبل، فقد حققوا هذا المقام وأفرغوا فيه جهدهم، فلقد برعوا في المباحث العقلية كما برع الفرنجة في الصناعات الحربية الآن، ألا ترى ما قرّروه أن المعلومات التي تصل لنا لا تكون إلا من طرق أربع: طريق الحواس كالسمع والبصر وطريق ما ندركه من أبداننا بالوجدان، كالألم واللذة، والجوع والعطش، والفرح والحزن، والغيظ والحقد والابتهاج، وطريق العقل كالعلم، بأنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فالمجموعان يكونان غير متساويين، وكذلك إذا نقص من المتساويين شيئان غير متساويين فالباقيان يكونان غير متساويين، والطريق الرابع ما ندركه مستنتجاً بطريق المنطق من هذه الثلاثة، فهذه الطرق الأربعة هي التي لا علم للبشر بالتحقيق إلا منها.

وهنا يقال كيف عرف الناس الله، أذاته تعالى عرفوا أم وجوده، أم سائر صفاته؟ وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس إلا أنه موجود أولاً، وأنه دائم الوجود ثانياً وأنه منزه عن المادة وجميع الحوادث، وهي المسماة صفات الجلال ثالثاً، وأنه متصف بصفات الإكرام، وهي من صفات المعاني كالقدرة والإرادة والعلم الخ. هذه هي الصفات التي عرفها الإنسان بالطرق المتقدمة، أما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لا يتهيأ لها الوصول إليه، وليس ذلك بداخل في الطرق المتقدمة الأربعة للمعرفة فلا هي بطريق حواسنا ولا وجداننا ولا البديهيات ولا ما يستنتج منها، وهذه هي الطرق التي بها سائر العلوم والكشف والاختراع، فأما ذات الله فلا تعرف بواحد منها.

وقالوا أيضاً إن المعرفة على قسمين: معرفة ذاتية، ومعرفة عرضية، فإذا رأينا تمثالاً هندسياً منظماً متقناً جميل المنظر حسن الشكل بهيّ الطّلعة حصلت لنا هنا معرفتان: معرفة ذاتية ومعرفة عرضية، أما المعرفة الذاتية فإنا نقول هذا اللون، وهذا المقدار، وهذا الشكل التي نظرناها بأنفسنا، وهذه النعومة، وهذه الخشونة، وهذا الثقل، وهذه الخفة التي لمسناها بأيدينا كلها حقائق ذاتية فإنه لا حقيقة للون ولا للمقدار، ولا للشكل، ولا للنعومة، ولا للثقل، ولا للخفة، إلا هذا الذي أدركناه، وأما المعرفة العرضية فإننا نقول هذا الشكل الجميل لا بدّ أن يكون له فاعل وعلمه وقدرته على مقدار ما برز لنا في صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فإنا لا ندري ذات ذلك الصانع ولا طوله ولا عرضه ولا أوصافه الظاهرية والباطنية ولا طباعه، وإنما نعرف منه على مقدار ما وصل إلينا من ذلك التمثال فمعرفة الله لنا من القبيل العرضي، وليس من الذاتي «هذه أقوال علمائنا رحمهم الله في إثباتهم العجز عن إدراك ذات الله تعالى» وهكذا ورد عن رسول الله ﷺ قال: وكيف ذلك؟ قلت: لأن النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، ومعنى هذا: لا يعرف قدرك إلا أنت، فكيف يمكنني أن أعرف صفاتك بل أنت الذي تعرفها، فيكون منك الثناء وإليك يعود. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «العجز عن الإدراك إدراك».

وأما قول سبنسر العالم الطبيعي: ليس من يعرف التحليل والهندسة الخ، وإنما هو من يرتقي في الأسباب فقصده بذلك العلم الأعلى في فن الفلسفة الذي حرمت منه الأمة الإسلامية فزاغ الطلاب

وتاهوا في بيداء الجهالة لأنهم قرؤوا قشوراً من العلوم الجزئية وجهلوا العلم الكلي أو العلم الأعلى الذي يبحث في سائر العلوم وهي تستمد منه.

وقال القدامى من علمائنا إن قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال، فأما قراءة العلوم الكلية فإنها تعرّف الإنسان ربه، وقالوا أيضاً في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨]، إن مرتبة الملائكة في العلم بعد الله، ويليهم أولو العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفتهم حقيقة هذه الصنعة وتركيبها وإنها مسيرة بنظام متقن.

واعلم أن العلم المنتشر في مدارسنا المصرية مبعثر منثر لا يهدي الطالب ولا ينير المسالك بخلوه من العلم الأعلى، فتأمل وتعجب من أمّة الإسلام النائمة. وقد آن أن تقوم من نومتها وتستيقظ من غفلتها، وأما قول سبنسر: إن الثواب والعقاب نتائج للأعمال، ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك، فقد شرحه أكابر علمائنا كالغزالي، فمما قال في ذلك ما معناه: إياك أن تقول إن الله يغفر لي، وإنما الثواب والعقاب نتائج لا بد من حصولها.اهـ.ولكن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نائمون. اللهم اهدِ أمتنا وأيقظها من غفلتها إنك أنت السميع العليم.

وإنما أطلت في هذا المقام لنعلم أن أكثر الشبان المتعلمين في ديار الإسلام لم يبقوا مع العامة مقلدين، ولا هم من الحكماء المحققين، وإنما هم في وسط الطريق، فلا إلى العلو وصلوا، ولا إلى أسفل نزلوا، فما أحراهم أن يعكفوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقي مدنهم ويتم نظامهم وتكون أمتهم من الأمم العظيمة القوية المتينة، بهذا أمرنا الله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾إلى آخر الآية.

ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والثمار والعجائب التي ذكرها والحكم التي صوّرها أخذ يذمّ الأصنام وينهى عن عبادتها.

تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام

أريد في هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسألة الأصنام وعبادتها كما شرحت في أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما سترى في تفسير قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ مسألة الجنة والنار ومراتب السعداء ومسألة ترتيب النجوم في عصرنا عند قوله: ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ ومسألة نفس الإنسان وجسمه عند قوله: ﴿ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:٣٠].

والكلام على الملائكة، وهل هم يثبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[البقرة:٣٠] حتى إذا طال الأجل ووصلنا في التفسير إلى آيات أخرى في هذه المعاني أشرنا إلى الرجوع إلى ما ذكر هنا ليقلّ التكرار وليقف القارئ على عجائب العلم وغرائب الحكمة في غضون التفسير، والله يهدي من يشاء إلى الصراط السويّ، فلنشرع في موضوع الأوثان فنقول: لألخص لك ما عثرت عليه في هذا المقام قديماً وحديثاً حتى لا يشذ عنك شيء منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال الغابرة والحاضرة.

اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة، وأنت لو سرت في بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان ماثلة أمامك معبودة، والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون، وأنت ترى أن أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديماً وحديثاً، وهكذا الهند، وإذا أبيت إلا المدنية الحديثة والنبوغ في فنون القتال والحرب وجندلة الأبطال وغلبة الأمم والتفوق في الحرب، فهاك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل، تلك الأمة التي تعبد إلهاً له جوادان عليهما يركب ذلك الإله جاثمان دائماً بإدارة المعبد بجوار تماثيله، وهذان الجوادان من أسعده الحظ وقدم إليهما قبضة من شعير يوم خروجهما في الأوقات المعلومة، فقد نال حظاً عظيماً لأنه قبلت هديته لجواد الإله، هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم. وهنا يقال: هل يعقل أن أمراً تأباه الفطرة وينقضه العقل وهو بديهي البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال ويعمر في الأرض ويبقى هكذا إلى يوم العرض؟ هل يعقل أن يكون هذا الإنسان قد بلغ من البلاهة حداً بحيث لا يعرف أن هذا الحجر الذي نحت أمامي من الجبل لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه. إن العقل يأبى أن يصدّق أن هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم علماؤها تبقى مخدوعة هكذا آلافاً وآلافاً من السنين، إذن لا بد أن يكون هناك أصول رجعت إليها وعوامل عوّلت عليها وأحوال فقهتها حتى بقيت تلك الديانات فيها. وهل يدوم ما لا أصل له؟ وهل الخداع له ثبات؟ فلأذكر ما عثرت عليه للجواب على هذا، فأقول: يقول الإمام الرازي: إنه لم يكن في الأرض أمة تقول إن لله شريكاً يساويه في الوجود والقدرة والعلم والحكمة، وهذا مما لم يوجد إلى الآن، ولكن الثنوية يثبتون إلهين اثنين: أحدهما حليم يفعل الخير، والآخر سفيه يفعل الشر، وأما اتخاذ معبود سوى الله ففي الذاهبين إلى ذلك كثرة اهـ، وهاأنا ذا ألخصها لك، فأقول:

أولاً: من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة، وقد اعتقدوا فيه أنه مجاب الدعوة فعبدوه ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره، ثم اتخذوا له تمثالاً، ثم مضت الأجيال تلو الأجيال، فصار معبوداً، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهم دائبون على عبادته، فانظر كيف كان أصله أنه آدمي مجاب الدعوة، ثم انتهى الأمر بأن نسوا الأصل فهم ضالون.

ثانياً: إن الصابئين كانوا يرون أن الله عزَّ وجلَّ خلق ملائكة مجردة عن المادة، وهي المتصرفة في العالم، وهذه الملائكة هي المسيرة للكواكب، والكواكب مؤثرة في الأرض وأهلها، وقالوا إن الشمس والقمر والكواكب ترسل أشعتها إلى الأرض وأهلها، وبها الحياة، ولولا ضوء الشمس ما عاش حيوان ولا نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعدها في ذلك، وزعموا أن السعد والنحس للأشخاص تابعان لتلك الكواكب، كما أن حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس وإشراقها على الأرض، وهذه الأجرام المتلألئة المشرقة يحركها ويتصرّف فيها الملائكة فعبدوهم ليكونوا شفعاء عند الله، ولما طال الأمد عبدوا نفس الكوكب الذي هو كجسم والملك روحه، ثم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم صوّروا للكوكب صوراً على حسب ما تخيلوه لها من النعوت والأوصاف، وهي الأصنام، فعبدوها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها وبين الكواكب، والكواكب واسطة للملك، والملك واسطة لله، ثم لما طال

الأمد نسوا الكواكب وعبدوا نفس الصنم ولهم أبخرة خاصة واستحمامات ودعوات وملابس، حتى أن حفلات الزار المعروفة في مصر إنما هي صورة محورة من صور دين الصابئين، وهذه الطائفة تقول: إن البشر لن يكونوا واسطة بين الله وخلقه وينكرون الأنبياء ويقولون: لا واسطة إلا الملائكة، ويقولون: إنهم أفضل من البشر لتجردهم عن المادة. وهناك محاورة بين هؤلاء وأتباع الأنبياء مذكورة في كتاب الملل والنحل للشهرستاني، وختم القول فيها بفضل الأنبياء على الملائكة، لأنهم جمعوا بين القوة الروحية والقوة الجسمية، ومن جمع بين فضيلتين أفضل ممن له واحدة، ولقد كان لقدماء المصريين من الأوثان والأصنام ما يضرب به المثل بين الأمم، ولقد كانوا يقولون إن الله هو الواحد الحق، ورتبوا العالم بعده مراتب، فالمادة لها عدد ٢، وزحل ٣، والمشتري ٤، والمريخ له عدد ٥، والشمس لها عدد ٦، والزهرة لها عدد ٧، وعطارد له ٨، والقمر له ٩، وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها في صفائح من ذهب في أوقات خاصة لمنافع زعموا أنهم ينالونها، وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد في نفسه، فالله واحد مربعه١، والمادة٢ مربعها٤، وزحل مربعه٩، والمشتري١٦ وهكذا إلى القمر٨١، وكل هذه لها حساب بديع مربعات يكون طول أضلاعها الأفقية والرأسية والقطرية متساوية، وهذه لعمرك عبادة يتقربون بها إلى الكواكب، وإن أردت الاطلاع على ذلك الحساب البديع فعليك بكتاب خواص الأعداد للمرحوم علي مبارك باشا، وهذا العلم نقله فيثاغورث وأدهشه عجائب خواص الأعداد، فقال: إن العدد أصل العالم.

ثالثاً: دين التثليث. كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الإسكندرية بعد المسيح واتصل بأسلافنا العرب يقولون: إن الله خلق العقل الأول، لأنه لا يليق بالمجرد عن المادة أن يخلق إلا ما هو أقرب إليه، وبواسطة العقل الأول خلق الله النفس، والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة، وكانت نفوسنا أشعة من تلك النفس، ولذلك تراهم دائماً يقولون: الله العقل النفس.

قال العلامة «دوان»: كان القسيسون في هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ إن الله الأول خلق الثاني والثاني مع الأول خلقا الثالث، وكانوا يسمون الثاني «الكلمة» المعبر عنها بالعقل عند الفلاسفة، ولما سأل الملك تولسيو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه، أو يكون بعده أحد أعظم منه. قال له الله، ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يا فاني، يا صاحب الحياة القصيرة، والآلهة الثلاثة الهندية هم: برهمة، وفشنو، وسيفا، ويقولون لما أراد برهمة «خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات» أن يخلق الخلق، اتخذ صفة الفعل وصار «برهمة الخالق»، ثم زاد في العمل فانقلب إلى الصفة الثانية، فكان فشنو «الحافظ» ثم انقلب إلى الصفة الثالثة فصار سيفا، أي المهلك، ويسمونها «تري مورتي» الأقانيم الثلاثة ويشبهونها بالنار، وفشنو هو الابن، وسيفا المهلك، والمعيد وهو روح القدس، وقد اطلعت في بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولاً من كتاب العلامة موريس في آثار الهند القديمة، وقال لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنماً له ثلاثة رؤوس على جيد واحد، والمقصود منه التعبير عن الثالوث. وهكذا نجد عند البوذيين ثالوثاً فإنهم يقولون بوذا مثلث

الأقانيم، والصينيون يعبدون بوذا ويقولون مثلث الأقانيم، ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة «أ و م» فالهمزة أولها والميم آخرها من أقصى الحلق إلى الشفتين، فهؤلاء هم الأول والآخر والظاهر والباطن، وهكذا تعبر الهنود بنفس هذه الحروف عن برهمة، وسيفا، وفشنو، وقد جاء في الكتب الصينية الدينية أن أصل كل شيء واحد، وهذا الواحد الذي هو أصل الوجود اضطر إلى إيجاد ثان، والأول والثاني انبثق منهما ثالث، ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء، وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس، لأن قائله وثنيّ، ولقد تنزل الهنود بتثليثهم إلى درجة مخجلة مخزية، فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدّس كشف حديثاً مثلث يمثل برهما وهو بحالة الذكورة والأنوثة معاً، وعلامة التأنيث وبعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوة الإيجاد، وأنه خالق الأشياء. فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس إلى ما تباشره الأنعام، ويقولون إن هذا الثالوث المقدس حاضر في كل مكان بالروح والقدرة.

وقد وجد التثليث أيضاً عند الفرس القدماء. قال العلامة هيجن: كان الفرس يدعون متروسا «الكلمة» والوسيط والمخلص، وكان القدماء من اليونان يقولون إن الله مثلث الأقانيم، وهذا التعليم الثالوثي أصله من مصر. وقال مؤلف كتاب «الخرافات ومخترعوها»: كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح.

وقال العلامة «نيت» هكذا وجد سكان الجزائر في الأوقيانوس والمكسيكيون الذين ظلمهم الإسبان فحرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة: الأب والابن والروح القدس، والابن اسمه «باكاب» مولود من عذراء، وصنمهم المعبود يمثل ذلك، وأهالي النيبال يعبدون إلهاً اسمه «اندرا» وهو كان مصلوباً كما صلب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كي يخلص البشر من ذنوبهم، وصورة الصلب في كتبهم. أقول: وقد رأيت صورتها في بعض الكتب المنقولة، ويقول المصريون: أوسيريس مخلص الناس وبإخلاصه يقتل، ويسمى الولد والفادي والولد الوحيد. وكان قدماء اليونان يقولون: إن الله مثلث الأقانيم، وكان القسيسون يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، وكان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود، وهم أورموزد، ومترات، واهرمان. فأورموزد الخلاق، ومترات ابن الله المخلص والوسيط، واهرمان المهلك، وسكان سيبيريا القدماء كانوا يعبدون ثلاثة آلهة، فالأول خالق كل شيء، والثاني إله الجنود، والثالث روح المحبة السماوية.

وكل هذه الديانات قائمة بأوثان وأصنام، وأنت ترى أن هذه الوثنية قسمان: قسم يرجع لعبادة الملائكة، فالكواكب فالأصنام، وقسم يرجع إلى عبادة ثلاثة اتّحدت فصارت واحداً، ولها قوة الخلق والحفظ والإهلاك والإعادة، وهذا هو القسم الذي تنوّع حتى ملأ الكرة الأرضية، فتراه في الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة، وكلّ يقول إني أعبد الخالق، فتبين أن سائر الناس جعلوا الأوثان والأصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣]، ولكن جاء في القرآن ما يفيد يا أيها الناس إنكم تقيدون أنفسكم

وتكونون عبيد الأصنام أرقاء الأوهام، فكونوا أحراراً والأرض لله، والله معكم أينما كنتم، فلا تتقيدوا بصنم ولا حجر ولا تمثال ولا وثن ولكن انظروا ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٨] ﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ٢٠] ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾.

فانظروا في هذا الجمال وفيه من الصور والتماثيل وأنواع الجمال الدال على قدرتي وعلمي وحكمتي ولا تكونوا مقيدين بتلك التماثيل التي صنعها البشر فإن جمالها ضئيل بجانب الجمال الذي أبدعته في سماواتي وأرضي والجبال التي عليها، والجمال الباهر في محاسن الصور المنقوشة في زينتها تبصرة لكم وتذكرة لأولي الألباب ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ١١٥].

الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن

يقال إن عمرو بن لحي لما ساد قومه ورأسهم وولي أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة إلى البلقاء فرأى قوماً يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب نستنصر بها فتنصرنا، ونستسقي بها فنسقى، فالتمس إليهم أن يكرموه بواحد منها، فأعطوه الصنم المعروف بـ«هبل» فسار به إلى مكة ووضعه في الكعبة ودعا الناس إلى تعظيمه، وذلك في أول مُلْك سابور ذي الأكتاف، ومن بيوت الأصنام المشهورة غمدان الذي بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخرّبه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومنها نوبهار بلخ الذي بناه منوشهر الملك على اسم القمر، وكان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل: ودّ بدومة الجندل لكلب، وسواع لبني هذيل، ويغوث لبني مذحج، ويعوق لهمدان، ونسر بأرض حمير لذي الكلاع، واللات بالطائف لثقيف، ومناة بيثرب للخزرج، والعزى لكنانة بنواحي مكة، وأساف ونائلة على الصفا والمروة، وكان قصي جد رسول الله ﷺ ينهاهم عن عبادتها ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل، وهو الذي يقول:

أرباً واحداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علماً يخاطب الناس بقوله: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

ولما لم يكن عند المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم، ويدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخذ يصف لهم ما جاء على لسان الرسول من البلاغة، ويتحدى بما يعجزهم، كأنه يقول: إذا عجزتم عن إدراك ما أبدعته في الأرض والسماء، ولم تبلغ عقولكم كنهه، وغلبت عليكم الجهالة، ولم تفهموا إلا ما دار في أنديتكم من أحاديث البلاغة، وآيات الفصاحة، فاسمعوا لهذا القرآن وإلا فأتوا بمثله، فلما عجزوا أوعدهم بالنار، ووعد المتقين بالجنة، وأخذ يصف نعيمها وحورها وجمالها وبهاءها وثمارها من بعد ما قدم وصف العالم الدنيوي، إيماء إلى أن علم الحكمة يدعو إلى النجاة، ولا يرقى إلى عليين إلا من نظر في خلق العالمين: فقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فتحرق الأصنام معهم في جهنم نكاية بهم، وإذلالاً لنفوسهم وتخييباً لآمالهم، فقد كانوا

يظنون أنها تشفع لهم، فخاب فألهم وضلّ سعيهم، وهذه هي الحسرات ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي إن الثمر الذي في الجنة يشابه الذي كان في الدنيا لأن النفوس توّاقة إلى ما كانت تألفه، وذلك اقرب إلى نظم القرآن ونسقه وإلى علم الحكمة، وفي هذه الآية مفتاح لعلوم الآخرة، وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدمات، فإذا كانت الثمرات التي يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاطونه في الدنيا ليأنسوا به، وليستلذوا بتناوله، وليكون لهم نعيماً وبهجة، فذلك نموذج لما في الآخرة والأولى من التناسب والتوافق والتشابه، وبيانه أنا نرى أن درجات الإنسان في حياته متناسبة متشابهة فدور الصبا يتبعه الشباب فالفتوة فالكهولة. فأن يكون شيخاً فهرماً، وهو في ذلك كله يحفظ صورته الأصلية وإن اختلفت أحوالها، من مرض وصحة وهزال وامتلاء وشباب وشيب، ونرى المتعلمين لا يدرسون في الثانوي، إلا ما يناسب ما سمعوه في الابتدائي، والدراسة العليا تتبع الثانوية. ونرى علماء فن التربية يحرصون الحرص كله أن تضرب الأمثال للصبي في أول حياته في المدرسة بما يأنس به من هرة يداعبها، وشاة يلعب بها، وكرة يضربها، وما أشبه ذلك.

ويقول علماء الحكمة: إن أحوال النفس بعد الموت لا تعدو هذا المنهج ولا تعدل عنه بوجه. فالجهال والفسقة وأهل الضغائن والمنافقون والكسالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد في جو من نار تلك الأخلاق والأعمال والجهالات. وأهل الإحسان والفضل وأولو الألباب والعلم وذوو الإخلاص والصدق والإحسان للناس في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا، وجو من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون، ولم يكن الله ليعذب الكافر والفاسق تشفياً وانتقاماً كما ينتقم أهل الأرض، ويشفوا غيظهم الكامن في نفوسهم من أعدائهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإنما جاء ذلك في القرآن ليفهم بألفاظ يعرفها الناس على قدر طاقتهم، وإنما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[الشورى:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٦]، وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٨١]، وكقوله في أهل النعيم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة:١٧] وذلك بعد قوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة:١٦] فكأنهم لما أنسوا بربهم وأحسوا بروح ولذة بالعبادة، وذلك أمر لا يطلع عليه إلا صاحبه، كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظل للشبح، والهواء لسكان الأرض، فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]، وترى في الدنيا أن أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقاة والمحادثة والمشاكلة وترى قطاع الطرق والمجرمين يساقون إلى السجون، ويعاقبون على ذنوبهم في الدنيا كما تكون حالهم في الآخرة، إذ قال تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:٩٤-٩٧]. ولذلك جاء في علم الأخلاق أنه ينبغي للإنسان

أن لا يجالس أربع فرق: الصبيان والنساء والجهال وذوي الأخلاق الفاسدة. اللهم إلا لتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو إنعام أو ما أشبه ذلك.

وورد في الحديث: «أنت مع من أحببت»، وفيه: «إنما هي أعمالكم تعرض عليكم»، وجاء في الآية: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء:٦٩].

قال الإمام الغزالي في الإحياء، وكما أنك في الدنيا تجد من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السماوات والأرض، وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً، فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به، ولذلك قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار، فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة، وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به، بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته، فإن ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته. فأصل السعادات: هي المعرفة التي عبّر الشرع عنها بالإيمان. اهـ.

وبالجملة فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأي إلا لها آثار في نفوسنا، ويقول الحكماء: العلم والأخلاق الفاضلة تكون سعادة وروحاً وريحاناً، والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء في الدنيا والآخرة، ولهذا الرمز يقول تعالى هنا: ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ ﴾ من دنس الأخلاق ورداءة الطباع وما ابتلي به نساء الدنيا من الحيض والنفاس والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به في الدنيا، وإن كان الفرق شاسعاً بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس، والذرة والفيل.

ضرب الأمثال

واعلم أن فيما سبق من هذه السورة أمثالاً منها ما هو ظاهر، ومنها ما يحتاج إلى تأمل، فأما ما هو ظاهر فقوله: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ ﴾، وقوله: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ ﴾[العنكبوت:٤١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ﴾[الحج:٧٣]، وهذه كلها أمثال مضروبة لأحوال الكفار.

وأما ما يحتاج إلى تأمل فأوصاف الآخرة وأحوالها فإن قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ فيه المشابهة والمماثلة، وأن عالم الآخرة يمثل له بعالم الدنيا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد:١٥] فهناك صرح بأنها أمثال، وأن هذه التي في الدنيا مضروبة مثلاً لأحوال الآخرة، ولقد قال تعالى المعنى في آية أخرى إلى ما فوق هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ﴾[السجدة:١٧]، وجاء في الحديث: «إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وفي الحديث: «أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله، وعليون لأولي الألباب». وفسره علماؤنا بأن المفكرين في خلق السماوات والأرض وذوي النفوس العالية هم الذين يزهدون في الجنة الحسية ويرغبون في جوار ربهم مع الأرواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بنقصها، فأما أولئك الذين لا يعبدون الله إلا لأجل الشهوات بعد الموت فإن نفوسهم تحن هناك إلى اللذات الحسية ومعلوم أن المرء يحشر على ما مات عليه من خلق ورأي وعقيدة، وأن العبادة الظاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته والتفكر في هذا العالم، وأن المادة سجن للذين فيها لا ينال المرء بها إلا الجنة المحسوسة التي يرغب في أعلى منها الأنبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥]، وبقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢،٢٣]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦] فالزيادة: هي النظر لوجه الله الكريم، وقد مثلوا لهذا بالقصر المشيد للملك، وقد حضر فيه أقوام فذوو النفوس العالية والمقامات الشريفة لا يفرحون إلا بمجالسته، فأما الصعاليك فلا يهتمون إلا بما يسد جوعهم ويفرج كربتهم لاختلاف الناس في معارفهم وفي الأمثال المضروبة.

اعلم أن الناس مختلفو الأخلاق والمشارب والعادات والأحوال ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]، ولولا اختلاف المشارب والأهواء ما انتظم هذا العالم فيما يحبه زيد يكرهه عمرو، وما يليق لأحدهما لا يناسب الآخر، ولهذا الاختلاف كان النظام عجيباً، ولولا زهد زيد في التجارة والصناعة ونحوها ما كان فقيراً عالة على الناس.

الناس مختلفون في أكثر الأشياء وعلى ذلك نرى أناساً نبغوا في اختراع، أو علم، أو تجارة، أو عمل عام، وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم، ولم يكن نبي ولا عالم ولا صالح إلا كان في مبدأ أمره محل سخرية واحتقار وازدراء، ذلك أن الناس قلما يفقهون ما يفقهه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار، ومن هذا القبيل الأنبياء، ومنهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ، فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين، فلما سمعوا ضرب الأمثال بالنار وبالماء وبالذباب وبالعنكبوت عدّوها فرصة للسخرية، وقالوا: هل يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات، وهو العظيم العلي الكبير، هذا لا يعقل، ولو أن الاستهزاء توالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لانحلت عزيمته واختلت أعماله، ولذلك نجد النابغين قليلاً، لأن الساقطين في ميادين العمل المجندلين في ساحات المناظرة والمباراة كثير، وليس ينجو منهم إلا القليل ومنهم الأنبياء، فأخذ نبينا ﷺ يثابر على الرد

عليهم ونبذهم وقهرهم بالوحي، ومنه ما جاء هنا إذ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي أيّ مثل كان، وإذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالبعوضة التي هي أقلّ من الذبابة، بل بما هو أقلّ منها مقداراً وأعلى في تمثيل الحقارة عند إرادة تحقير الأشياء، فالنبوة ورد فيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذمّ الدنيا.

وأنتم أيها الناس قسمان: قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء، وقد غشي على سمعه وبصره، فيرى الخير شراً والشر خيراً، ولما رأيتم الرسول يعلمكم وقد دخل الحسد في قلوبكم وأكل الغلّ أفئدتكم أبيتم واستكبرتم وأخذتم تعيبون الكتاب وتسخرون من القول، والقسم الآخر متواضع لا يتعالى عن الحق فيقبله ويسعى للنجاة من الجهل والإثم والعار والهلاك في الدنيا والآخرة، وإذا سمع الأمثال اتعظ بها فهو من المفلحين.

أقول: ولأضرب لك مثلاً تتبين منه اختلاف مشارب الناس في الفهم، فاعلم أن ما يراه الإنسان في كل يوم من الأحوال الإنسانية وغيرها، فيه علوم جمة لمن تفكر وتدبر.

فتفكر في حال امرأة جميلة فترى للناس في شأنها طرقاً شتى ولأذكر لك شيئاً من هذه الطرائق فأمّها تنظر إليها نظر الإشفاق والعطف والودّ والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها، وأبوها ينظر إليها نظر المساعدة الأبوية، والأخ أقل منه، وابنها نظره إليها من قبيل الالتجاء والاستعانة، وأنها حصنه ومأواه ومرجعه، وزوجها ينظر إليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة، وخاطبها القديم ينظر إليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك، فهذا مثل ضربته مما يراه الناس فهكذا كل حكمة وعلم ومحسّ ومعقول يدركها الناس على درجات شتى لا حصر لها، وهذا سرّ الوجود.

فالأمثال التي جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يعتورها ما يعتري الموجودات من اختلاف النظر فينظر الجاهل استهزاء، وينظر العاقل اعتباراً، ولقد ورد من الأمثال نحو ذلك من كلام العرب مثل: أسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوض، وإذا اختلفت الأنظار في كلام الله كغيره لا جرم يضلّ به قوم ويهتدي به آخرون، كما أن من النبات ما يقتل، ومنه ما يشفي، ومنه ما يغذي، وهو من فعل الله، والقرآن من كلامه، فكما يضرّ الله بالسم، ويشفي بالسنا، ويغذي بالحنطة، يضلّ قوماً بالقرآن إذا نقص استعدادهم وخبثت نفوسهم كما يمرض الرجل بشرب الشهد إذا كان محموماً، ويزيد الضعيف المعدة مرضاً بالامتلاء من اللحم والمآكل الغليظة وشرب الماء المثلوج، ومثال ذلك في القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ثم تطرح أمامهم مسألة السلاح في الحرب، فيقول أحدهم: إن لنا في رسول الله أسوة حسنة فلا نخالفه ورسول الله إنما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه، كما أخبرت بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين إذ استفتاهم أمير بخارى فأجابوا بذلك، وأفتوا بقتل التاجر الذي حضر من الروس إذ ذاك، وقال: إن لهم مدافع فلنقلدهم، فحكموا بقتله فقتله الأمير، ثم دخل الروس بعد خمس سنين، ويقول الآخر: كلا فلنتوكل على الله والنبي ﷺ خُلُقه القرآن، وقد أمره الله بالتوكل فعلينا أن نرضى بقضاء الله

وقدره، ويقول الثالث: كلا فلنقرأ البخاري وسورة يس، وقد حصل ذلك في بعض الحروب منذ عشرات السنين، وهذان رأيان لذوي الكسل والبلاهة، ويقول الرابع: كلا فالنبي ﷺ كان يحارب بالسلاح الذي يحارب به أعداؤه، ولو أنهم حاربوا بالمدافع والطيارات لحاربهم بها، وهذا هو الفقيه النبيه. فانظر كيف ضلّ ثلاثة واهتدى الرابع. ولّما كثر الضلال في الأمة الإسلامية قلّ فيها النبوغ وساء مصيرها، فليكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المتدبرون، فبذلك وحده تنجو من الخطر الداهم.

ولقد زارني منذ عشر سنين أمير، يقال له «جمال الدين» من مدينة مدراس على ما أذكر ومعه تراجمته فقال: جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فإني فتحت هناك مدرسة، وقد حرم علماء الإسلام هناك أن يدرس هذان العلمان. فعجبت كل العجب وكتبت له أن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين، فمتى ترك المسلمون علماً أو صناعة فالإثم واقع على جميعهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالذلة والاختلال والاحتلال، وأما في الآخرة فبعذاب النار ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه:١٢٧].

وقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت:١٦]، وقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر:٢٦]، وهذا إنما جاء من نقص العلم في بلاد الإسلام، وهذا داخل في قوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن إصلاحه أعقبه موبخاً على عدم التفكر بقوله في:

المقصد الخامس

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ذكر الناس بما كان من عدمهم، ثم حياتهم، ثم يموتون، ثم يحيون، ثم يحاسبون. هذه قصة الإنسان ومبدؤه ومنتهاه. وقص قصة العلم، فذكر الأرض وما فوقها، والسماء وزينتها ونظامها، وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للإنسان، ساعية لسعادته وهنائه، فهل يجمل به أن يكفر بالله؟ وهل يحسن بمن كان عدماً فأصبح موجوداً وهيئت له السماوات والأرض، وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه، ولم يكن له ملك ولا حياة؟ هل يحسن به أن يكفر بالله، ويقطع رحم الفضيلة وينسى المنعم ولا يشكر المتفضل؟ وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين؟.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ تسجيل على المسلمين في أنحاء المعمورة، فيا ليت شعري، كيف يخاطبنا الله بقوله: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء، وكيف تكون المعادن في باطنها والجبال عليها والغابات والممالك، وكيف تكون الكهرباء شاملة لأجزائها والأضواء والحرارة والخواص الطبيعية الكامنة في هذه المخلوقات ونحن لا نعرف منها إلا ما جادت به علينا يد الأمم الغربية، فوالله إن العلوم التي كشفوها في الأرض والسماء لتسجل علينا الخزي والعار أمام الله والناس.

أيها الناس: كيف يقر لكم قرار أو يكون عندكم اصطبار وربكم يخاطبكم فيقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وأنتم لا تملكون قطميراً. منها المرجان النابت في البحر في يد غيركم، والدر يصطاده سواكم، والغابات لغيركم، فهل ظننتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب هم أمم الفرنجة فيقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم ﴾ يا أمم الفرنجة، أولستم داخلين في كاف الخطاب أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم، ولعمري إن هذا لكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل، وكيف نقول: إنا لله شاكرون، والشكر إنما يكون باستعمال العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، والله قد صرح لنا بقوله: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾. وإذا أنعم عليك الملك بنعمة فحقرتها كان غضبه عليك شديداً، وها هو ذا إلهنا لما رأى إعراضنا عن نعمه فازدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبة فسلط علينا الأمم، وهذا جزاء الكافرين بالنعم، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله وما نزل من الحق، أفيقوا أيها المسلمون من غفلتكم واستيقظوا من رقدتكم، واعلموا أن ما فات فات وانقضى، وأن الزمان قد استدار، وستكونون علماء بهذا الوجود، وستنالون منه حظاً عظيماً بفهم القرآن ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣] ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٤٨] وانظروا في الأرض وما حوت، والسماء وما وعت، وتأملوا ما أتلو عليكم في مسألة السماوات إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

إيضاح هذا المقام

الكلام على السماوات السبع

اعلم أننا على هذه الأرض محبوسون مغمورون في حمأتها تحيط بنا أنواع الآلام والشهوات، فتحجبنا عن معرفة العوالم وإدراك حقائقها والتفرج على عجائبها، ولما كان عالم السماوات أعظم ما نشاهد، وفيه أنواع الجمال والضياء والبهجة والحسن، اتجهت إليه أنظار العقلاء ورجال الدين، وأقدم ما وصل إلينا من العلم بذلك ما ذكره اليونان وقفي على آثارهم علماء الإسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الأرض في مركز العالم، وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل سيارات حولها، وكل واحد منها في فلك دائر حول الأرض من الشرق إلى الغرب، فأما السيارات فإن لها سيراً خاصاً بها، تسير إلى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للأفلاك السبعة، وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بنملة دائرة على عجلة تسير في طريق يخالف سيرها، وبهذه

الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون لسائر الكواكب، ويقولون إن هناك فلكين آخرين يحيطان بالأفلاك السبعة، وهما: فلك الثوابت فالأطلس، وقالوا: نحن علينا أن نفرض فلكاً ثامناً لتكون فيه الكواكب الثابتة، وفلكاً تاسعاً يكون مبدأ الحركة اليومية، وأما ترتيب الأفلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جداً، حتى إن فلك الشمس لما جعلوه رابعاً شبهوه بشمس القلادة في جيد الحسناء لأنها تكون في الوسط، وأما بقية الأفلاك فقد يستدلون عليها بأن الكوكب الأسفل يكسف الأعلى، والكاسف يكون تحت المكسوف، هذا ملخص علم أولئك العلماء.

ولقد ظهر أثر هذا في إنجيل برنابا ـ وهو أقرب الأناجيل إلى الحق ـ قال المسيح: «الحق أقول إن السماوات تسع موضوعة بينها السيارات التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى، ولكن قف عند قياس السماء الأولى التي تزيد عن الأرض برمّتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل، وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية، وهلمّ جراً حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها، والحق أقول لك إن الجنة أكبر من الأرض برمّتها والسماوات برمّتها، كما أن الأرض برمّتها أكبر من حبة رمل».

ثم قال في الإنجيل: «حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع وأراه مرآة براقة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات: لعمري أنا الأبدي كما أن الجنة أكبر من السماوات برمّتها والأرض، وكما أن الأرض أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيراً من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء في البحر وعشب الأرض وأوراق الأشجار وجلود الحيوانات، بل أكثر من ذلك كثيراً عدد حبوب الرمل التي تملأ السماوات والجنة بل أكثر». اهـ. هذا ما في كلام القدماء وما في الإنجيل.

ثم إن فلسفة اليونان نقلت إلى العربية على يدي الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا، وقررت أن الأفلاك تسعة، فوثق بذلك علماء الإسلام الذين درسوها، وقالوا هي سبع سماوات والكرسي والعرش فالسماوات السبع تقدم ذكرها، والكرسي فلك الثوابت، والعرش هو الفلك المحيط الذي به الحركة اليومية لسائر الأفلاك وبها الشروق والغروب.

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الأمة الإسلامية ورأوا أن هذا المذهب باطل لمخالفته الشرع والعقل، وقالوا إن القول بأن السماوات سبع في القرآن ليس حاصراً، فالعدد ليس له مفهوم، فإذا قال رجل: عندي فرسان، لا ينافي أن يكون عنده ألف، وهذه الأفلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم، وكذلك الكواكب، وهذا مخالف للعقل والدين معاً. وقالوا: إن الأرض تدور حول نفسها، وليس هناك فلك أطلس ولا غيره، وإنما هذه الكواكب دائرات في الفضاء.

وهذه الآراء كانت في القرن السادس والسابع أيام انقراض الدولة العربية وظهور الدول التركية وغيرها. ولقد كان ذلك توطئة للرأي الحديث الذي ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام، وملخصه: أن هذه العوالم كلها من شموس وأقمار وأرضين كانت في قديم الزمان كالدخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكونت الشموس ودارت ملايين من السنين، ثم انفصلت عنها السيارات، وشمسنا إحدى تلك الشموس، فولدت عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري،

وزحل، وأورانوس، ونبتون، فهذه ثمان سيارات، ثم إنهم وجدوا بين المريخ والمشتري نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جداً، ولو اجتمعت كلها لم تصل لمقدار جرم القمر، وأكبرها المسماة «سرس» لا يزيد قطرها عن خمسمائة ميل، وبعضها لا يزيد قطره عن عشرة أميال، وربما كان هناك نجمات أصغر منها لا يمكن رؤيتها. ثم إن هذه السيارات تدور حول الشمس، فعطارد يتم دورته في ٨٨ يوماً من أيامنا، والزهرة في ٢٢٦، والمريخ في ٣٢١، والأرض في سنة، والمشتري في ١١ سنة و٣١٣ يوماً، وزحل في ٢٩ سنة و١٦٧ يوماً، وأورانوس في ٤٨ سنة و٧ أيام، ونبتون في ١٦٨ سنة و٢٤٨ يوماً، ويظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر.

ومن عجائب العلم وغرائبه: أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجمات الصغيرات التي بين المشتري والمريخ بحسب القاعدة التي وضعوها لبعد السيارات عن الشمس فإنهم رأوا أنها هكذا:

	العدد	يضاف إليه	يكون المجموع	يضرب في ٩	مليون ميل
عطارد	٠	٤	٤	× ٩ = ٣٦	»
الزهرة	٣	٤	٧	× ٩ = ٦٣	»
الأرض	٦	٤	١٠	× ٩ = ٩٠	»
المريخ	١٢	٤	١٦	× ٩ = ١٤٤	»
٠٠٠٠	٢٤	٤	٢٨	× ٩ = ٢٥٢	»
المشتري	٤٨	٤	٥٢	× ٩ = ٤٦٨	»
زحل	٩٦	٤	١٠٠	× ٩ = ٩٠٠	»
أورانوس	١٩٢	٤	١٩٦	× ٩ = ١٧١٤	»
نبتون	٢٨٤	٤	٢٨٨	× ٩ = ٢٥٩٢	»

هذه هي أبعاد السيارات عن الشمس، أي أنها منظمة تنظيماً تقريبياً، فإذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل، فقد فرضوا أن بعده ٤ بعد الصفر، وهكذا الزهرة ٣، والأرض ٦، والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤، وهذا العدد يضرب في ٩ مليون ميل، فلما وصلوا إلى ما بين المريخ والمشتري وجدوا هناك مكاناً خالياً، فكان يجب أن يكون فيه كوكب، فلما وجدوا تلك النجمات المتقدمة ظنوها شظايا من تلك النجمة البائدة.

واعلم أن هذه الأرقام الدالة على الأميال تقريبية، فإن بعد الزهرة ٦٧ وبعد الأرض ٩٣، وبعد المريخ ١٤٣، وبعد المشتري ٤٨٤، وبعد زحل ٨٨٧، وبعد أورانوس ١٧٨٢ وبعد نبتون ٢٧٩٢، وهي تختلف عن الجدول السابق قليلاً، وهذه الأعداد ملايين الأميال.

واعلم أن الزهرة وعطارد هما السياران الأدنيان، لأن فلكهما ضمن فلك الأرض، أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا، لأن فلكها خارج عن فلك الأرض. هذا ما أردت ذكره في المجموعة الشمسية. أما الكواكب الثابتة، فإنها لا يحصر عددها إلا الله، ولقد بحثها العلماء فوصلوا منها إلى معرفة مئات الملايين بالمنظار المعظم، وبالآلة الراسمة المسماة فتوغرافيا.

واعلم أن نور الشمس يصل إلى الأرض في ٨ دقائق و١٨ ثانية، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلاً ونهاراً لم يتمكن من وصوله إليها في أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة، وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عزَّ وجلَّ، وتفهم ما سأذكره لك في أبعاد النجوم الثوابت.

واعلم أن نور الشمس يسير في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفي السنة ٦ بليون.

واعلم أن أقرب نجم يصل نوره إلينا في ٤ سنين نورية، فإذا كان ضوء الشمس يصل لنا في ٨ دقائق و١٨ ثانية وبعدها عظيم جداً، فما بالك بأقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين، وأين ٨ دقائق من ٤ سنين. ومن الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا في أقل من ألف سنة نورية، والشعرى العبور يصل ضوؤها إلينا في ٩ سنين نورية، والنسر الطائر يصل ضوؤه إلينا في ١٤ سنة نورية، والنسر الواقع في ٣٠ سنة، والعيوق في٣٢ سنة، والسماك الرامح في ٥٠ سنة، واعلم أنهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوئها، فما كان منها أضوأ سموه القدر الأول وما يليه القدر الثاني، والقدماء أوصلوها إلى ستة أقدار والمحدثون أوصلوها إلى ٢٠. فالقدر الأول ضوؤه كامل، وعدد نجومه ٤ منها: الشعرى العبور، والنسر الواقع، والسماك الرامح. والقدر الثاني عدده ٢٧ نجماً، ومنها سعد السعود. والقدر الثالث عدده ٧٣ نجماً منها الفرقدان. والقدر الرابع عدده ١٨٩، والقدر الخامس ٦٥٠، والقدر السادس ٢٢٠٠، وهكذا يتزايد العدد ويقل الضوء، فيكون القدر العشرون ٧٦ مليوناً وضوؤها ضعيف جداً، ومجموع الذي علمه نوع الإنسان إلى الآن ٢٢٤ مليوناً من النجوم. وسيأتي في بقية أجزاء هذا التفسير في الطبعة الأولى أن الكشف أظهر أضعاف أضعاف هذه النجوم بعد طبع هذه السورة. هذا هو الذي عرفه الإنسان من السماوات، فقايس رعاك الله بين ما ذكره علماء الإسكندرية وما جاء في إنجيل برنابا، وبين ما عرفه الإنسان الآن.

إن عظمة الله تجلت في هذا الزمان، ألا ترى إلى ما جاء في الإنجيل مما أشبه كلام القدماء أن بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام. وذكر أن السماوات تسع، وهي عند المسلمين سبع يزيد عليها الكرسي والعرش، فيكون مجموع المسافات ٤٥٠٠ سنة بسفر الإنسان، وهو قدر يسير جداً بالنسبة لما عرف الآن. ألا ترى أن هذه المسافة يقطعها الضوء في أقل من أربع دقائق، فكأن ملك الله المعلوم للناس فيما مضى لا يزيد عن نصف المسافة بيننا وبين الشمس البالغة ٨ دقائق وثواني، وأي شيء بعد الشمس، إن بعدها يسير جداً، إن الشمس لقريبة، وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التي هي لأقرب كوكب ثابت، بل أين بعدها من بعد الكوكب الذي يستغرق ألف سنة في وصول ضوئه إلينا. تاهت العقول وزاغت الأبصار وحارت الأفكار.

فأين ما ذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التي عرفت، وأنك لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذي يصل فيه ضوء الكوكب إلينا ونحن نشاهدها كل ليلة لم تشك أن كثيراً منها سافر ضوؤها إلينا قبل خلق الأرض حتى وصل إلى أعيننا الآن، ومنها كواكب قد بادت وهلكت قبل خلق الأرض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهد ضوءها الذي أرسلته قبل خفائها، وهو مسافر إلينا. إذن ما جاء في الإنجيل المذكور المبني على علم علماء الإسكندرية أصبح لا قيمة له بالنسبة للكشف

الحديث الذي يوافق القرآن، إذن دين الإسلام صار الكشف الحديث موافقاً له، وهذه معجزة جديدة جاءت في زماننا.

أسئلة وردت على المؤلف

ولما وصلت إلى هذا المقام زارني عالم فاضل، فاطلع على ما كتبته فسرّ، وقال: لله درّك، فقد أثبتّ جلال الله وجماله وعجائب صنعه ولكنك في الحال قد خالفت القرآن، فقلت: وكيف ذلك؟قال: إنك ترى أن الكواكب تسير في الفضاء، لأن هذا هو الرأي الحديث، فقلت: إن من يقول إن الكواكب تسير في الفضاء ليس عالماً بالرأي الحديث ولا القديم. أما القدماء فإنهم أثبتوا أنه لا فضاء موجود. وقالوا: إن الخلاء مستحيل، لأننا إذا تصوّرنا مكاناً خالياً لا يخلو إما أن نتصوّره مضيئاً أو مظلماً، والضوء والظلمة إما عرضان أو جوهران، أو أحدهما عرض والثاني جوهر، فإن كانا جوهرين فيها، وإن كانا عرضين فالعرض لا يقوم إلا بجوهر، وإن كان أحدهما عرضاً والآخر جوهراً، فالأمر واضح فثبت أنه لا فراغ موجود في الكون.

وأما المحدثون فقالوا: إن الضوء يصل من الكواكب إلى الأرض ولا بدّ أن يكون محمولاً على جرم، وعلى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذي لا سلك له، فثبت أن لا فراغ في الكون عند القدماء ولا عند المحدثين، فمن قال: إن الكواكب تسير في فضاء، فإنه جاهل بعلوم العالم أجمع، وهم صغار الطلبة المغرورون، فقال: سلمت أن الكواكب تجري في أجرام موجودة، ولكن كيف يقول الله إن السماوات سبع؟ فقلت له: إذا أثبتّ وجود الجرم الأثيري اللطيف الذي تجري فيه الكواكب، فما أسهل فهم القرآن.

واعلم أن العدد ليس له مفهوم، وبه قال أكابر المفسرين والحكماء، فإذا قال الله سبع سماوات، فليس ذلك بمانع أن يكون العدد أكثر، وإذا عرفت أن هذا الجرم اللطيف العجيب الممتد إلى أمد ينقطع الفكر دونه، ومجال لا يصل إليه الوهم، فيه من العجائب والبدائع والكواكب والمخلوقات ما لا يحصى فسواء أكان سبعاً أم ألفاً، فذلك كله من فعل الله دالّ على جماله وكماله، وهو تجلياته وأنواره المشرقة المتلألئة الفائضة من مقام القدس الأعلى متنزلة في العوالم، وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به، وكل شمس من الشموس التي ذكرناها لها مدار خاص وسياراتها كذلك، والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والإشراق. قال الإمام الغزالي في كتاب «تهافت الفلاسفة»: «إذا ثبت حدوث العالم، فسواء أكان كرة أو مثمناً أو مسدساً، وسواء أكانت السماوات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر، فنسبة النظر فيه إلى المبحث الإلهي كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها وعدد حب الرمان، فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت».

أقول: إياك أن يصدّك أيها الفطن لفظ سبع عن البحث والتنقيب، فالعدد ليس بقيد، وانظر إلى هذا الجمال، ولا تكن من الخائفين الجبناء الذين يظنون أن هذا ينافي القرآن، أو تكون من المساكين الذين يلحدون ويكفرون لسماع مثل هذا اللفظ، وذلك لسخافة عقولهم وقلة علمهم، وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ فقال صاحبي: إذن أنت تؤيد المذهب الحديث، فقلت له:

حاشا لله أن أؤيد حديثاً أو قديماً، وإنما القرآن طبقناه على المذهب القديم، ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث، فوجدناه أقرب إليه، وإلا فهو أعلى منهما وأعظم، وما يدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث في المستقبل، فهل القرآن كرة طرحت بصوالجة يتلقفها رجل رجل، كلا إنما هذا التطبيق الذي ذكرته ليطمئن قلب المسلم وليعلم أن عمل الله وصنعه لا ينافي كلامه، فالتطبيق للاطمئنان. فقال: ولم كان المذهب الحديث أقرب إلى القرآن؟.

قلت: أولاً: جاء في القرآن: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٨]، والمذهب الحديث أرانا سعة مخلوقاته وأنها لا تدرك. ثانياً: كان القدماء يقولون: الكواكب والأفلاك لا تفنى، والرأي الحديث يقول: إن الكواكب تتجدد وتفنى كالإنسان والحيوان. وقالوا: إنهم رصدوا كواكب لا تزال في طور التكوّن، وذكروا منها نحو ستين ألفاً وأن كواكب قد فنيت، يقول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[إبراهيم:٤٨]، ومنها ذلك الكوكب الذي بين المشتري والمريخ وصار كواكب صغيرة جداً فهذا أقرب إلى القرآن لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]. فقال صاحبي: ما ملخص ما مضى؟

فقلت: أولاً: أن السماء يراها الناس واحدة. ثانياً: أن الدين جعلها سبعة والفلاسفة جعلوها تسعة. ثالثاً: المسلمون القدماء جعلوا سبعة منها سماوات، والكرسي والعرش هما الفلكان الباقيان اتباعاً للفلسفة القديمة، وإنجيل برنابا تبعها، فقال تسع سماوات، والمذهب القديم أبطل فبطل تبعاً له ما جاء في إنجيل برنابا وما جاء عن العلماء الذين صدقوه من المسلمين. رابعاً: أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ما ذكره القدماء، وأصبح ما كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للأرض والجبال والبحار، بل أقل كثيراً جداً. خامساً: العالم لا فراغ فيه، فالسماوات موجودة فعلاً ببراهين القدماء والمحدثين. سادساً: وهي سبع سماوات وذلك حق لأنها طباق بعضها فوق بعض. سابعاً: المذهب الحديث يثبت فناء العالم، وفناء الكواكب، وهو موافق للقرآن فهو معجزة له. ثامناً: إن ما قلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث، فإنه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل القديم، فالقرآن فوق الجميع، وإنما التطبيق ليأنس المؤمنون بالعلم ولا ينفروا منه لمخالفته لألفاظ القرآن في نظرهم. فقال صاحبي: قد أفدت إفادة تامة، ولم يبق عندي إلا سؤال واحد، وهو: لِمَ عبّر الله بسبع سماوات ولم يعبّر بسماء واحدة مع أن الناس لم يروا غيرها؟

قلت: اعلم أن الله لو ذكر سماء واحدة لوقفت عقول المسلمين عليها، ولم يبحثوا عن غيرها، ولكنهم لما سمعوها أخذوا يقرؤون فلسفة اليونان، ثم قرأنا الفلسفة الحديثة، فعرفنا نعمة الله وحكمته، والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لأنها تحير عقول الباحثين، فمن كان مريض النفس، صغير العقل ضئيل الفكر، جبن وجزع وخاف وقال: إني أخاف الله رب العالمين، فلا يبحث في العوالم، ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين في جمال جلاله، ومن قويت عزيمته وعلت همته وارتقت نفسه فإنه يبحث ويعرف فعل الله عزَّ وجلَّ ويقول في نفسه: إن هذا فعل الله، وأنا أقر كلامه، وكلاهما دال عليه. وقوله لا يناقض فعله إلا عند الجاهلين.

أما أنا فإني أبحث صنعته، وبعد ذلك أطبقها على كلامه، بهذا فليرتق المسلمون وليتعلموا، فكم من ذكي مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظاناً أنه نال من العلم ما جهله الأنبياء، وكم من غبيّ مسلم اطلع على هذه المباحث فنفر منها لاعتقاده أنها تنافي الدين، والحق أقول إن قليلاً من الأذكياء المسلمين من يصدّقون بالدين مع العلوم، وأكثر المصدقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين. أما أكثر المتعلمين العصريين، فإنهم يقولون: الدين شيء والعلوم شيء.

ولقد أفضت في هذا المقام لدقته على الأفهام، ولأنه في أعظم النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها، فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم في المقصد السادس.

المقصد السادس

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الأرضيين أو عموم الملائكة ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وهو آدم، وهكذا الأنبياء فهم خلفاء الله في سياسة العباد وهدايتهم لبعد مراتبهم عن الفيض الإلهي فكان الأنبياء واسطة القبول من الحق والإيصال للخلق كما كان الغضروف موصلاً للعظم الغذاء الذي يعجز اللحم أن يوصله إليه لتباعد ما بينهما من المناسبة ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فتجعل أهل المعصية مكان أهل الطاعة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ التسبيح: تبعيد الله عن النقصان، من سبح في الماء والأرض، وكذلك التقديس من قدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أعلم أن فيهم من يعبدني ويطيعني ﴿ وَعَلَّمَ

ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ تعليمه الأسماء كلها بأن خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعدّ لإدراك أنواع المدركات من المعقولات، والمحسوسات، والمتخيلات، والموهومات، وألهمه المعرفة والاختراع، وسائر الصناعات، وهو متى عرف الألفاظ كلها عرف المعاني كلها ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي عرض المسميات على الملائكة، ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم تبكيتاً: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ وهو اعتراف بالعجز، وأمر آدم أن ينبئهم بأسماء الأشياء كلها، فلما أعلمهم ﴿ قَالَ ﴾ الله لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ الخ، وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي من قولكم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ من قولكم أنكم أحق بالخلافة، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ سجود الملائكة لآدم تسخيرهم وانقيادهم للسعي لمنافع آدم وبنيه فيما يكفل معاشهم فسجدوا وامتنع إبليس لأنه لا يلهم بالخير كالملائكة ولا يسعى في المنافع المعاشية فـ﴿ أَبَىٰ ﴾ امتنع باختياره، وكان كفره في علم الله، ثم أمر آدم أن يسكن في الجنة هو وزوجته وأن يأكلا رغداً واسعاً حيث يشاءان، ونهيا عن الاقتراب من شجرة لا يهم تعيينها للناس فحملهما الشيطان على الزلة بسببها ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ من الكرامة، فامر آدم وحواء وذريتهما بأن يهبطوا إلى الأرض وهم متعادون ولهم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى وقت الموت ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ منها أنه قال: يا رب، إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم، فتاب الله عليه، أي رجع عليه بالرحمة، وقوله: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ إلى آخره إي بإنزال الرسل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخره، وبقية الآيات واضحة. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

ما أعجب هذه الآيات وما أبدعها، أنا الآن في أول سورة قرآنية من حيث النظام والترتيب ابتدأ بآدم أبي البشر وجعله مبدأ لنظام الإنسان، وتعجب لِمَ لَمْ يتقدم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير إلا بها، ولعلك تقول إنها قصة أبيهم والأب مقدّم طبعاً فقدّم وضعاً. أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين، وأجوبة بعض الخلف الجاهلين، وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة الضئيلة تليق برب الأرباب العالم بالجزئيات والكليات، فاصغ لما أقول وارعه حق رعايته، واعلم أن هذه القصة نموذج الأخلاق والحكمة. ولنقدّم لك مقدمة فنقول: اعلم أن الحكمة تنقسم إلى علمية وعملية، والعلمية الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، والعملية سياسة الشخص والمنزل والمدينة، والطبيعيات قدم وصفها في خلق الأرض والسماء والإلهيات تلازمها ملازمة العرض للجوهر والظل للشبح والنتيجة للمقدمة والملزوم للازم. فأما الحكمة العملية وهي تدبير الشخص والمنزل والمدينة فلها أصول ثلاثة في الإنسان، وهي: القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العقلية، فبالشهوة الطعام والشراب والتزوج، وبالغضبية

الإقدام والحرب والكفاح والكبر والعجب والحسد وما أشبهها، وبالقوة العقلية الحكمة والعلم. ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بحذافيره، ألم تر إلى حسد إبليس وطغيانه وتكبره واستعظامه واستطارة شرر النار من كبريائه وعظمته، وكيف كان ذلك قبساً من القوة الغضبية وشرراً من نارها ولهبها وسعيراً من جهنمها، ثم كيف حرم آدم وحواء من الجنة بثمرة أكلاها وطردا منها بنار جوعة أطفأاها واستمرأا مرعاها فخرجا منها نادمين وكانا في الجنة منعمين، أليس أولهما إشارة لغضب الإنسان، وثانيهما لشهواته.

وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه وبزغت شمسه في منازل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، نعم سخرت له السماوات والأرضون والبر والبحر والروض والقفر والجبل والسهل فعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات ليعرفها وتنفعه. ولذلك يقول: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾، الخ.

وحريّ بمن سخرت له الأفلاك وقامت بنظامها الأملاك ومن سجدت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيماً بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها وينطق باللغات وينظمها دعت حاجته إلى العوالم فعرّفها له مبدعه فصوّرتها العقول وخزنتها القلوب ونطقت بها الألسن والشفاه فهاهنا ظهرت عجائب القرآن وبدائع الفرقان. وكيف كان هذا القصص مبدأه: إنها لآية بديعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر في علم الأخلاق والبحث في أغوارها والتنقيب عن أسرارها.

الله والملائكة وآدم خليفته

اعلم أن في هذه القصة عجباً عجيباً، ذلك أنه ذكر الرب والملائكة وآدم وأنه خليفة في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فنحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول: إن معرفة الله عزّ وجلّ تجلّ عن العقول، وتدق عن الأفهام، وليس يتم ذلك للإنسان إلا بمثال يعرفه وشاهد يعقله ويحس به من نفسه، لأننا في هذه الدنيا محجوبون عن الملأ الأعلى، وأقرب الأشياء إلينا أنفسنا، فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفي إلى ما في هذا العالم المشاهد والمعقول، لذلك كان الإنسان خليفة الله، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلافتها واقترينا من فهم الملائكة وتدبير الله للخلق، ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله: ما الذي يعرفنا أن في هذه العوالم عقولاً؟ فأجاب: أليس جسمك مركباً من مواد ترابية، وأخرى مائية، وهواء وحرارة؟ قال: بلى. قال: فإذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التي تركبت منها صحبها عقل وخامرها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار، لا جرم أن من حكم بأن له عقلاً وقد علم أنه من مواد ضئيلة لا يستكثر على الأصول التي تركب منها أن يحكم أنه يحيط بها عقل.

أما في القرآن هنا فقد ذكر خلافة الإنسان لله والخلافة تحتاج إلى شرح طويل، وعلم غزير، وإني سألخص لك أيها الفطن هنا قليلاً من كثير، لتكتفي به خيفة السآمة والتطويل.

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الإنسان ونفسه فجعلوه مشبهاً للعوالم المحيطة بنا ، والنفس متصرفة فيه كما تصرّف الله عزّ وجلّ في العوالم فقالوا : إن الجسم أربع طبقات : طبقة تشبه الأرض ، وأخرى تشبه الماء المحيط بها ، وأخرى تشبه الهواء ، وأخرى أشبه بضوء الكواكب وإشراقها ، فإذا كانت الأرض أسفل والماء يحيط بها والهواء يحويه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب إلينا هكذا نرى الرجلين والفخذين يستقر عليهما ما فوقهما مما فيه من الماء المخلوط بغيره ، وهي الأمعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل في الرئتين ، وفوق الجميع نور العينين ، وسمع الأذنين ، وشم المنخرين ، وذوق اللسان ، ولمس اليد ، ونور الفكر ، وهذه هي المشرقات إشراقاً على الجسم للإحساس والإدراك كإشراق أضواء الكواكب ، بل هي أرقى وأشرف ، وإذا كان في هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن .

هكذا نرى أنه من هذا الجسد يخرج المخاط والدموع والبصاق ، وفيه الرياح والرطوبات ، فالجسد كالأرض ، وعظامه كالجبال ، والمخ كالمعدن ، والجوف كالبحر ، والأمعاء كالأنهار ، والعروق كالجداول ، واللحم كالتراب ، والشعر كالنبات ، ومنبته كالتربة الطيبة ، وما لا نبات فيه كالأرض السبخة ، وتنفسه كالرياح ، وكلامه كالرعد ، وأصواته كالصواعق ، وضحكه كالضوء ، وبكاؤه كالمطر ، وبؤسه وحزنه كظلمة الليل ، والنوم كالموت ، واليقظة كالحياة ، وأيام صباه كفصل الربيع ، وشبابه كالصيف ، وكهولته كالخريف ، وشيخوخته كأيام الشتاء .

هذه نبذة من الكلام على جسمه وبنية هيكله ، أما نفسه فاعلم أن للنفوس قوى كثيرة لا يحيط بها العد ولا يعرفها إلا مبدعها وهي مختلفات .

فترى أن النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالأخبار ، كل فرقة تأتي بأخبار ناحيتها لا تشاركها الفرقة الأخرى ولا تعاونها ولا تعرف عنها شيئاً ، فترى حاسة البصر تدرك الألوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيدة والأجرام المشرقة ، والأذن لا تعرف شيئاً عنها ، ولا تدرك إلا حركات الهواء المسماة أصواتاً من حيوان أو نبات أو إنسان أو غيرهما ، وحاسة الشم التي في المنخرين ليست تعرف صوراً ولا أصواتاً ، ولكنها تدرك الروائح المنبثة في الهواء الجارية في الأنف السارية في الحاسة المتصلة بالمخ ، ثم حاسة الذوق التي تعرف الطعوم من الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة ، وهي لا تعلم شيئاً من الصور والأنوار والأصوات والروائح ، ثم حاسة اللمس التي تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة ، وليست تعرف شيئاً عما تقدّم ، وكل حاسة من هذه توصل أخبارها إلى أولئك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون متشاركون متحابون ، فأولها القوة المتخيلة التي تجتمع عندها هذه الصور من المرئيات والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتسلمها إلى القوة المفكرة لتحكم بينها ، ثم تجعلها في خزانة إلى وقت الحاجة ، وهي القوة الحافظة ، ثم يأتي الترجمان وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ، ثم تأتي قوة أخرى أشبه بالوزير للملك ، وهي القوة الصانعة في اليد بالكتابة والصناعة .

فانظر أيها الذكي وتعجب، أفلست ترى أن النفس الإنسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسماني وآخر معنوي، والجسماني شابه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها، ولست أقول إني أبنت لك كل شيء، ولكنك تستدل به على الباقي بفكرك ودراستك، واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لا يعقلون ما ذكرت إلا تخيلاً ولا يدركونه إلا من وراء حجاب.

اجتماع خصائص الحيوان في الإنسان

إن لكل نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها، وكلها توجد في الإنسان فتراه بطلب المنافع تارة بالبصبصة كالكلب والسنور، وتارة بالحيلة كالعنكبوت، وتارة بالغلبة كالأسد، وتارة يفر من الهلاك كالأرانب والظباء والطير، وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ، وقد يتحصن في الأرض كالفأر والهوام وهو شجاع كالأسد، وجبان كالأرنب، وسخي كالديك، وبخيل كالكلب، وعفيف كالسمك، وفخور كالغراب، ووحشي كالنمر، وأنسي كالحمام، ومحتال كالثعلب، وسليم كالغنم، وسريع كالغزال، وبطيء كالدب، وعزيز كالفيل، وذليل كالحمل، ولص كالعقعق، وتائه كالطاووس، وهاد كالقطا، وضال كالنعامة، وماهر كالنحل، وحليم كالجمل، وحقود كالحمار، وشموس كالبغل، ومستحل كالذئب، ومضر كالفأر، وجهول كالخنزير، وغير ذلك. وهذه كلها راجعة إلى أخلاقه التي اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك، ثم اعلم أن القوى المنبثة في الجسم السارية في الأعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والأعصاب والعظام والدم والشعر والظفر كثيرة لا يحصيها الإنسان، وأنها جميعها متصلة بالمخ الذي هو عرش النفس وسرير ملكها، ألا ترى أنه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالمخ لم يرالإنسان الأشباح مع سلامة عينه وصحة جسمه، أوَلا ترى أن الذي به شلل لا يحس بوخز الإبر في العضو الأشل، ذلك لقطع الصلة بين ذلك العضو وبين المخ. هذه هي صورة الإنسان الحسية والمعنوية، وهو الخليفة لله، وبمعرفة هذا الخليفة تتصور بعض صفات المستخلف وتدبيره وملائكته، النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم، النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية، وأخرى هوائية، وأخرى مضيئة، هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب، النفس لها حواس كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الاخر، هكذا خلق الله عزّ وجلّ أمماً ودولاً وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات، وأمماً من الحيوانات وكلّ يعمل على شاكلته ولا يدري الآخر ما لديه كما لا يدري عالم الماء ولا عالم الأرض عالم الكواكب الأخرى، ولا عالم القردة مثلاً عالم الفراش، ونرى أهل الأرض لا يعرفون سكان أي عالم آخر، وكلها عاملة ناصبة راجعة إلى ربها كما رجعت الحواس إلى نفوسنا. هذا ولا أطيل عليك في تعداد تلك المشاكلات فعقلك يفكر ونفسك تستبصر، وإذا كان في سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية في جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم في المخ، هكذا نقول لله ملائكة مأمورون مقابلة لتلك القوى في أجسامنا، وبيانه أنك ترى الطعام يصير في المعدة كيموساً، ثم ينقلب دماً فلحماً فعظماً الخ، وتصورّ هناك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمخ ودقائق تركيبهما، وهذه

تكون بقوى لطيفة، هكذا جري الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كل ذلك بعالم خفي عن الأبصار يسمى ملائكة مرسلة من الله في العوالم كما نبتت تلك القوى في أجسامنا من عند أنفسنا، وكما أن النفس تحس بكل حركة في الجسم وألم في العظام وفكر في النفس، هكذا الله تعالى يحيط بالعالم ويعلم سره وجهره. واعلم أن هذا مجرد تنظير وإلا فالله ليس كمثله شيء.

هذا ولأكتف بهذا القدر فقد أبنت لك كيف كان الإنسان خليفة بما أبنت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة، وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شيء وتدبيره للعالم ووحدانيته، وذلك بما تحسه من نفسك، وإنما ذكرت لك هذا لتكون تبصرة وذكرى عندما تصل إلى آيات أخرى في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقوله: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤].

وكان الإنسان في الأرض عالم صغير يضاهي هذا العالم الكبير، ولذلك سمي خليفة، فكانت الخلافة المذكورة هنا ليكون منها استنتاج التبصر في عالم الملائكة ومعرفة الله ولتبنى المحاورة المذكورة عليها، وهي: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ الخ، واعلم أن هذه الآية كما جمعت ملخص علم النفس والتشريح في لفظ خليفة جمعت علم الأخلاق في هذه المحاورة، وهي: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

تفصيل الكلام على الملائكة

ها أنا ذا أبنت لك طرفاً من علم التشريح وعلم النفس، وذكرت لك أن القوى التي في نفوسنا تمثيل للملائكة، وهذا ليس دليلاً وإنما هو استئناس بضرب الأمثال والمشابهات، ولأسمعك دليلاً إقناعياً لا يقينياً على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الإنسان من الأمم المختلفة والأجيال البائدة، وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا.

انظر إلى عالم المعادن والنبات والحيوان والإنسان، فإنها كلما انحطت في دركات الجهالة كانت منازلها في الدركات السفلى، وكلما ارتقت إلى عالم العقل كانت في أوج الكمال، فخذ الحديد مثلاً، إنه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان، وهي أقل مرتبة من الآساد والنمور، وهي أقل كمالاً من القردة وهي أنقص من المتوحشين من بني آدم، وهؤلاء يعلمهم النابغون من نوع الإنسان، وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والأنبياء، وهؤلاء أرقاهم مقاماً وأحلاهم كلاماً، ولا جرم أن ذوي الشهوات من الإنسان يشاركون نظائرهم من الغزلان والخنازير في مآربهم، ويعلوهم رجال الجيش والجنود المقابلون لنظائرهم من الآساد والنمور. وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والأنبياء، فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من حشرة إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيم عالم.

وإذا كان العلم والحكمة أقصى ما وصل إليه نوع الإنسان، وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد في غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس إن الطرف الأعلى في غاية الكمال وهي الملائكة، ولا بد أن تكون قوة الكمال الإدراكي تامة فيهم كما انتهى النقص إلى نوع الجماد، أو إلى الدود الذي

هو من أخس أنواع الحيوان . وبالإجمال نقول إنا وجدنا هاهنا شهوة بلا عقل في البهائم ، ووجدنا شهوة وعقلاً في الإنسان ، أفلا نقول إن في الوجود عقلاً كاملاً بلا شهوة تزري به .

آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة

فمنهم من ظنها أجساماً هوائية لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات .

ومنهم من ظن أنها هي المرسلات النحوس والسعود من الكواكب ، والكواكب أحياء ناطقة كالإنسان ، ومدبراتها هي الملائكة كتدبير نفوسنا لأجسامنا .

ومنهم من يرى الظلمة عنصر الشياطين ، والنور عنصر الملائكة .

ومنهم من يرى أن الملائكة هي الأرواح البشرية الصافية ، وأن الشياطين هي الأرواح الإنسانية الخبيثة إذا فارقا أبدانهما .

ومنهم من يرى أنها هي الممدة لنفوسنا الناطقة ونسبتها إليها كنسبة الشمس إلى ضوئها وهناك ملائكة مستغرقة في معرفة الله . ونسبتها إلى الأولى الممدة للأفلاك ولنفوسنا ، كنسبة الأولى إلى نفوسنا وهناك مدبرات لأحوال العالم السفلي ، فإن كانت للخير فهي الملائكة ، وإن كانت للشر فهي الشياطين .

فالقول الأول لبعض علماء الإسلام ، والثاني لطوائف من عبدة الأوثان ، والثالث قول معظم المجوس والثنوية ، والرابع للنصارى ، والخامس للفلاسفة . هذا ومن الناس من قال : لا سبيل إلى إثبات الملائكة بالعقل . ومنهم من قال : إنهم به ثابتون ، والفلاسفة على هذا ، وقد تذكر أدلة إقناعية ، منها أن الصناعات البشرية لن تتقن إلا بصانع ذي عقل عالم بها . والعالم المشاهد حولنا فيه ذلك الإتقان كالنبات والحيوان ، فلا بد من نفوس تصورت تلك المصنوعات ، ونفوس أخرى علمت تلك الصناعة ، فالأولى تسمى نفوساً ، والثانية تسمى عقولاً . وذلك كما في أحوال الناس أن كل ذي علم أو صناعة لا بد أن يكون له معلم أعلى منه أخرج ما في القوة منه إلى الفعل . ويقول أصحاب المجاهدات إنهم أثبتوها من جهة المكاشفة ، فهي في حقهم يقين وفي حق غيرهم إقناع ، وقد يستدل بالرؤيا الصادقة .

ولقد رأيت دليلاً في كتاب يسمى «راجايوقا» بالإنجليزية مترجماً من الهندية . قال : إن الناس يصدّقون أصحاب العلوم وإن لم يمارسوها لعلمهم أنهم إن سلكوا سبيل أربابها ، وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، ألا ترى أن علماء الطب موثوق بهم في عالم الحيوانات الصغيرة المسماة بـ«المكروب» التي تفتك بالأجسام ، وتأتي بأمراض الحصباء والجدري والطاعون . كذلك يصدقون علماء الفلك في أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء ، هكذا يقال في أمر الملائكة ، فقد أجمع المصفون نفوسهم والمجاهدون من سائر الملل والنحل أنهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ، ومن ذوي الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل إليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة . هذا ملخص ما قرأته من كلام أهل النظر .

أما الدلائل النقلية فلا نزاع أن الأنبياء متفقون على إثبات الملائكة ، فلنبسط الكلام عليها الآن ليرجع إليه عند الوصول إلى مكرراتها . وحاصله أنها مسوقة لعلم الأخلاق المرموز له بكبر إبليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل الآتي في سورة المائدة .

بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل

إن الأخلاق أربعة أنواع لا تزايل النفس بعد مفارقتها البدن، وهذه الأربعة هي: الأخلاق المكتسبة المعتادة، العلوم التعليمية، لآراء المعتقدة، الأعمال المكتسبة بالاختيار والإرادة. والأولى منها وهي الأخلاق المكتسبة تنقسم إلى قسمين: رديئة وحميدة، والأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول: كبر إبليس، وحرص آدم، وحسد قابيل. وهذه الخصال الثلاث أمّهات جميع الخبائث والمعاصي، وبيانه:

أن الكبر من أشكاله ومشابهاته، عجب المرء برأي نفسه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، والتعدّي والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة في الحكومة، وترك الإنصاف في المعاملة، والتهاون في الواجبات، والإعراض عن اللوازم من الحقوق والقحة والصلابة في الوجه في دفع الحق والفحش والسفاهة في الخطاب والجدال واللجاج في الخصومات والحزن والنزق في العشرة والحدة، والبطش في التصرف، والغش والمكر في المعاملة، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس، والاستطالة عليهم، والافتخار في الأمور بما خص من المواهب، والإنكار لفضل من فضل عليه، والبغي والعدوان وما شابه ذلك. هذا باب الكبر.

أما الحرص وهو الخصلة الثانية، فمن أشكاله: الطمع الكاذب، وشدة الرغبة، والطلب الحثيث والعجلة في السعي وتعب البدن وعناء النفس وكدّ الروح في الجمع والادخار والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخل والمنع والشح واللوم والنكد، وما يتبعها من الشؤم والخذلان، وقلة الانتفاع بالموجود، والحرمان للمذخور، والمضايقة في المعاملة، والمناقشة في الحساب، وسوء الظن بالأمين، والتهمة للثقات المؤتمنين، والخيانة في الأمانة، وطلب الحرام وهتك الحرم وارتكاب الفحشاء، وإضمار القلب على الإصرار، وإظهار الكذب، والحيل في أسباب الطلب من البيع والشراء، والغش في الأمتعة، وقلة النصيحة في الصنائع، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار في الحكومات، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات، والعداوة والتعدي في الحدود وما شاكلها من الخصال المذمومة، والأخلاق الرديئة والأقاويل الباطلة، والأفعال القبيحة، والأعمال السيئة. هذا باب الحرص وأخواته.

أما الخصلة الثالثة وهي الحسد، فمن أشكاله الحقد، والغلّ، والدغل، وهذه تدعو إلى المكاشفة بالعداوة، والبغضاء، والبغي، والغضب، والحرص، والتعدّي، والعدوان، وقساوة القلب، وقلة الرحمة، والفظاظة، والغلظة، والطعن، واللغو، والفحشاء، وهي تكون سبباً للخصومة والشر، والحرب، والقتال إن أمكن جهراً، وإلا كان بالحيل، والخداع، والغدر، والخيانة، والسعاية، والغيبة، والنميمة، والزور، والبهتان، والكذب، والمداهنة، والنفاق، والرياء، فيكون سبب تشتيت الشمل، وقطيعة الرحم، والبعد من الإخوان، ومفارقة الإلف، وخراب الديار، ووحشة الوحدة، والحزن، والغم، وألم القلب، وهموم النفس، وعذاب الأرواح، وتنغيص العيش، وسوء المنقلب، وخسران الدنيا والآخرة. نعوذ بالله من هذه الخصال. انتهى ملخصاً من إخوان الصفا.

وأنا أقول، تعجب كيف فصل علماؤنا الأخلاق السيئة والأعمال القبيحة، واستنتجوها من كبر إبليس وحسد قابيل، وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعلوم عالية.

هذه قصة آدم كيف تكرر ذكرها في القرآن وجاء في سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحاً ومساء، وغاية القصد منها تطهير النفوس، وصفاء القلوب، وسعادة الحياة، واتحاد الأمة بمحاسن الأخلاق، فأما العامة وصغار العلماء والقراء والفقهاء، فإنهم لا حظ لهم منها إلا أن يسمعوها بصوت حسن ويعربوها ويعرفوا صرفها واشتقاقها، وما حوته من البلاغة والفصاحة، وأن القرآن معجز للبشر، وإني لعلى ظن أن أمة الإسلام ستنظر عما قريب في مقصود القرآن من هذه القصص وعجائبها وما في باطنها من طهارة الأخلاق وجمال الشمائل. فلعمري لم أر في بلادنا المصرية شركة تجارية رائجة، ولا معاملة صادقة، ولا أمانة في بيع وشراء إلا قليلاً. وأرى أمم الفرنجة هم أصحاب الحل والعقد في البلاد سياسة وتجارة، فتجارتهم رابحة، وسياستهم قائمة، وترى أماكنهم نظيفة، وأسعارهم محددة، ووجوههم باسمة، ووعودهم صادقة، فعلى العلماء الإسلاميين أن ينفضوا غبار الكسل عن أنفسهم، ويدعوا الأمة الإسلامية للأمانة والصدق والإخلاص، وعدم الحسد، وطهارة القلوب، هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم في هذه الدنيا ثم الأخرى. ولقد رأيت بعض المصريين المسلمين قد أخذوا يصدقون في الموعد والمعاملة، وسيقوم في الأمة إن شاء الله رجال صادقون يرقون الأخلاق، وسيظهر فضل الإسلام في أقرب زمن والسلام.

ولما كان بنو إسرائيل من أقدم الأمم، وهم بنو آدم أخذ يشرح حالهم ويذم صنعهم، وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر، وهم يقرؤون ذلك في التوراة وما حلي جيده بها إلا تذكرة لليهود، وليعلموا أن من عصى وتكبر زالت نعمته، ودامت حسرته.

المقصد السابع: وفيه فصلان

الفصل الأول

ما اقترفه قدماء بني إسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها
مما جاء في التوراة في سفر الخروج وإنزال القرآن مصدقاً، وهي عشرة يواقيت:

الياقوتة الأولى

نجاة بني إسرائيل من عذاب المصريين في قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا

عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، أي أولاد يعقوب، وإسرائيل لقبه، ومعناه بالعبرية: صفوة الله، ويقال: عبد الله أيضاً، ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ من المال والولد والصحة والحواس، وإني أنجيت آباءكم من فرعون وأغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم العجل، ثم إني أرسلت لكم محمداً مصدقاً للتوراة، فتفكروا في ذلك كله واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالأعمال الصالحة والنصيحة والإيمان بالنبي الذي أرسلته ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ ﴾، بالإيمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية والمعارف الإلهية، وما أنزلت من الكتب السماوية لا سيما آخرها، وهو القرآن ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ فأدفع عنكم ما أثقلكم من الأغلال، وأحسن لكم الإثابة والكرامة والنعيم المقيم ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ في كل ما تتركون وما تفعلون، فراقبوني في حركاتكم وسكناتكم، والرهبة خوف يصحبه احتراس ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ وهو القرآن، وهذا تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه لأنه أهم ما عوهدوا عليه، فهو أولى بالوفاء به بأن يكونوا به مؤمنين لأنه مصدق للتوراة وللإنجيل مطابق لأوصافه المذكورة فيهما، وموافق لهما في تحريم الحرام وإباحة ما يحل مع مراعاة الزمان في السابق واللاحق، وفي التوحيد، ونصب الدلائل، وطلب الاستقامة، وهداية الناس ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، ولما كنتم أهل نظر وكتاب، وقد بشرتم برسولي وجب أن تكونوا أول فريق مؤمن به فلا تكفروا به، فكيف تكونون أول من كفروا به من أهل الكتاب، وكيف تشترون أي تستبدلون بالإيمان عرض الدنيا من التحف والهدايا التي تنالونها من الناس بسبب ما نلتم من الرياسة عليهم في الدين وعرض الدنيا قليل، والإيمان لا يدانيه شيء عندي ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ بالإيمان ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾، ولا تخلطوا الحق الذي أنزلته بالباطل الذي تخترعونه ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾، الذي تعلمونه عن الجاهلين به ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم قد لبستم وكتمتم، فإن سكتم فعن الحق حتى لا يعرف، وإن نطقتم أتيتم بالباطل لتدحضوا به الحق، وأنتم تعلمون أنكم في الحالين حائدون عن الصراط السوي ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ كما أمرتكم بالإيمان بالنبي وبالقرآن آمركم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة، ولتكن الصلاة جماعة، فإنها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لاجتماع النفوس واتحادها، فتكون أقرب إلى الله ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ التوسع في الخير ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾، وتتركونها من البر ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كان أحبار اليهود ينصحون سراً باتباع محمد ﷺ ويأمرون الناس بالصدقات، أما هم فكانوا لا يتبعونه

خوفاً على الرياسة، ولا يتصدّقون خيفة الفقر، والتوراة بين أيديهم وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعله، فهلا منعتهم عقولهم وصانتهم ألبابهم عما يعملون من مخالفة الأقوال للأفعال وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهي عن المنكر، كلا، وإنما تجب مطابقة الأقوال للأفعال، وإلا فنحن مأمورون أن نترك المعصية، وأن ننهى عنها، وليس ترك أحدهما بمانع من القيام بالآخر، فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لا أنها تمنعنا عن أحدهما إذا تركنا الآخر، وإذا كنتم أيها الأحبار شق عليكم ترك الرياسة، وخشيتم الذلة والفقر باتباع القرآن والإيمان بمحمد، فلتعلموا أن الصبر والصلاة بهما تنالون الفرج، فالصابر المنتظر الفرج من الله الذي يدعوه سبحانه وتعالى يجاب لما طلب ما دام مضطراً كما قال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢] وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾، فتكون الصلاة بمعنى الدعاء، والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته وعزيمته، وقد يراد بهما الصوم والصلاة الشرعيان ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ أي وإن الاستعانة بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجه الهمة لثقيلة إلا على المخبتين الخاضعين، ويصح رجوع الضمير للصلاة ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا ظاهر مما تقدم ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانهم، أي تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقبل من النفس العاصية شفاعة الشافعين، ولا يؤخذ منها فدية، ولا ناصر ينصرهم. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية لنفي الشفاعة عن مرتكب الكبيرة، وخصها الجمهور بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث في الشفاعة، ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ من فرعون وقومه، وأصل آل: أهل، ولذلك يصغر على أهيل، ويخص استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم. وقوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾، حال من آل فرعون أي: يولونكم، وقوله: ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾، ثم أبان سوء العذاب بقوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ محنة عظيمة، أو نعمة كذلك، إذا أريد صنع فرعون في الأولى، أو أريد الإنجاء في الثانية، والبلاء والاختبار والامتحان، وهو شائع فيهما. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح المعاني

اعلم أن هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بني إسرائيل، فلنبسط الكلام عليها، فنقول:

اعلم أن العهد الذي أمر اليهود أن يوفوا به، إما أن يكون المقصود به فعل الطاعات واجتناب المعاصي، وإما أن يكون المراد به ما أثبت في الكتب السماوية في نبوة سيدنا محمد ﷺ.

ولقد ذكر تلك العهود المفسرون، كالإمام الرازي إذا ثبت ما جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة وتبشير الملك لهاجر أن يكون لها ولد فوق الجميع. وما جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس. وما جاء في السفر العشرين من هذا السفر. وما جاء في كتاب أشعياء في الفصل

الثاني والعشرين. ولما نظرت في التوراة وجدتها قد حذفت منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السماوية كتاب لم تمتد إليه أيدي المغيرين إلا إنجيل برنابا الذي كان سراً مكتوماً عند النصارى قديماً، وقد ترجمه حديثاً الدكتور خليل بك سعادة من الإنجليزية، ونشره صديقنا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار.

قال في الفصل الثاني والسبعين، قال يسوع: لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا لأني لست أنا الذي خلقتكم بل الله الذي خلقكم يحميكم، أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم، لكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي، حينئذ قال أندراوس: يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه، أجاب يسوع: إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً، في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله، وهو سيظهره للعالم، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وإني أسرّ بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي وسينتقم من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان، والحق أقول لكم إن القمر سيعطيه رقاداً في صباه، ومتى كبر هو فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام، فإن موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ولم يبق يسوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الأطفال، لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي. وسيجيء بحق أجلى من سائر الأنبياء، وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم، وستحيي طرباً أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً، فمتى شوهد سقوط عباد الأصنام إلى الأرض، واعترف بأني بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم إن نبي الله حينئذ يأتي.

وقال في الفصل الثاني والثمانين: ثم التفت إلى المرأة، وقال: أيتها المرأة إنكم أنتم السامريين تسجدون لما لا تعرفون، أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف، والحق أقول إن الله روح وحق، ويجب أن يسجد له بالروح والحق، لأن عهد الله إنما أخذ في أورشليم في هيكل سليمان لا في موضع آخر، ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى، ويمكن السجود له في كل مكان بالحق، ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته، أجابت المرأة: إننا ننتظر مسيا، فمتى جاء يعلمنا. أجاب يسوع: أتعلمين أيتها المرأة أن مسيا لا بد أن يأتي، أجابت: نعم يا سيد، حينئذ تهلل يسوع، وقال: يلوح لي أيتها المرأة أنك مؤمنة، فاعلمي إذن أنه بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختاري الله، إذن وجب أن نعرف مجيء مسيا، قالت المرأة: لعلك أنت مسيا أيها السيد، جاب يسوع: إني حقاً أرسلت إلى بيت إسرائيل نبيّ خلاص، ولكن سيأتي بعدي مسيا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم، وحينئذ يسجد لله في كل العالم، وتنال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان، حينئذ تركت المرأة جرتها وأسرعت إلى المدينة لتخبر بكل ما سمعت من يسوع.

وقال في الفصل السادس والتسعين: ولما انتهت الصلاة، قال الكاهن بصوت عال: قف يا يسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لأمتنا. أجاب يسوع: أنا يسوع ابن مريم من نسل داود بشر

مائت ويخاف الله ، وأطلب أن لا يعطى الإكرام والمجد إلا لله . أجاب الكاهن : إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهاً سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق ، هل أنت مسيا الله الذي ننتظره ، أجاب يسوع : حقاً إن الله وعد هكذا ، ولكني لست هو لأنه خلق قبلي ، وسيأتي بعدي ، إلى أن قال : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله ، الذي سيأتي من الجنوب بقوة ، وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً إلى أن قال : ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فِيَّ وسيمتد دينه ، ويعمّ العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، وإن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحاً . وبعد أسطر قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي . قال الله : اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة ، والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك ، حتى إن من يباركك يكون مباركاً ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى إن السماء والأرض تهنآن ، ولكن إيمانك لا يهن أبداً ، إن اسمك المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك محمد ، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم .

وقال في الفصل السادس والثلاثين بعد المائة : وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون : يا محمد أين وعدك لنا أن من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد؟ فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقصّ عليه ما سمع ، فحينئذ يكلم الرسول الله ويقول : ربي وإلهي اذكر وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله : اطلب ما تريد يا خليلي لأني أهبك كل ما تطلب .

وقال في الفصل السابع والثلاثين بعد المائة : فحينئذ يقول رسول الله : يا رب يوجد في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة أين رحمتك يا رب؟ إني أضرع إليك يا رب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرّة ، فيأمر الله حينئذ الملائكة الأربعة المقربين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من كان على دين رسوله ويقوده إلى الجنة ، وهو ما سيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كلّ من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها حتى لو لم يعمل عملاً صالحاً لأنه مات على دينه . اهـ.

أقول : وهذا القول وأمثاله إن ثبت يكون مؤولاً ، وإلا فالله عزّ وجلّ يعلم كل شيء ، ونحن إنما نقلنا هذا لإثبات ما رأيناه في الإنجيل .

وجاء في الفصل الثاني والأربعين بعد المائة : قال الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنـة : ماذا نفعل لو صار هذا الرجل ملكاً حقاً إن ذلك يكون وبالاً علينا ، فإنه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة ، لأنه لا يقدر أن يبطل تقاليدنا ، فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل هكذا؟ حقاً إننا نهلك نحن وأولادنا لأننا إذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطي خبزنا ، أما الآن فالحمد لله لنا ملك ووال أجنبيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا كما لا نبالي نحن بشريعتهم ، ولذلك نقدر أن نفعل كل ما نريد ، فإن أخطأنا فإن إلهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحية والصوم ، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكاً علينا فلن يسترضى إلا إذا رأى عبادة الله كما كتب موسى ، وأنكى من ذلك أنه يقول : إن مسيا لا يأتي من نسل داود ، كما قال لنا أحد تلاميذه الأخصاء ، بل يقول : إنه يأتي من نسل إسماعيل ، وإن الموعد صنع بإسماعيل لا بإسحاق ، فماذا يكون الثمر إذا تركنا هذا الإنسان يعيش ، من المؤكد أن الإسماعيليين يصيرون ذوي وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكاً ، وهكذا يصير إسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديماً ، فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأي أجاب أنه يجب أن يتفق مع هيرودوس والوالي ، لأن الشعب كثير الميل إليه حتى أنه لا يمكننا إجراء شيء بدون الجند وإن شاء الله نتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل .

وجاء في الفصل الحادي والتسعين بعد المائة : فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع - الذي أوقف الشمس - خادمي ونبيي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقي ففيه مكتوب : إن إسماعيل أب لمسيا ، وإسحاق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، اظهر لعبدك في سناء مجدك ، فأراه من ثم رسوله على ذراعي إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم ، ووقف على مقربة من إسماعيل وإسحاق ، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً : هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء ، فصرخ موسى من ثم بفرح : يا إسماعيل ، إن في ذراعيك العالم كله والجنة ، اذكرني أنا عبد الله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء .

وجاء في الفصل الثاني والتسعين بعد المائة : لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم ، ولا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط ، بل إن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق ، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلاً : إن إسماعيلياً قد كتبه ، فقال حينئذ يسوع : انظر أن لا تعود أبداً ، فتحجز الحق لأنه بالإيمان بمسيا سيعطي الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه . اهـ .

هذه هي البشارات الواردة في إنجيل برنابا ، وإنما أثبتّ هنا هذه البشارات ، لأن هذا الكتاب قد ورد الأمر بعدم نشره وبإحراقه في بلادنا المصرية ، فانتهزت فرصة اطلاعي عليه ليبقى تذكرة لمن بعدنا ، ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ، ولم يبق منه إلا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود وتنساه الأجيال المقبلة ، ولقد اضطربت آراء الباحثين في هذا الإنجيل ، وقد ثبت ثبوتاً لا شك فيه أن المسلمين جميعاً من عصر النبوة إلى العصور الأخيرة يجهلونه حق الجهل ، ولم يتعرّض له أحد من

الباحثين الذين يردّون على المسيحيين بكتابهم، وقد جاء ذكر النبي ﷺ فيه صريحاً مراراً، ويقول بعض المعترضين: إن هذا هو الذي يورث الشك، لأن الصراحة إلى هذا الحد غير معروفة عن الكتب السماوية في أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له: إنه لم يكتبه مسلم بدليل أنه لم يكن له ذكر في فهارس مكاتب المسلمين.

ويقولون: إن البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أصدر أمراً يعدّد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب يسمى «إنجيل برنابا» فيكون هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور الإسلام بزمن طويل.

وأجمع الباحثون على أنه إنجيل ملئ علماً وحكمة وأخلاقاً وعفة، يضيء النفوس البشرية بأنواره، وهو أفضل من الأناجيل، ولقد قالوا أيضاً: إن المسيح ليست عنده هذه الملكة العلمية والحكمة العالية الدقيقة، وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه، والله أعلم. ثم اعلم أن برنابا من حواريي عيسى، وفي إنجيله مخالفات للأناجيل، مثل أن المسيح لم يصلب إنما هو يهوذا الخائن الذي شبه به فجاء مطابقاً للقرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:١٥٧]، ومثل قوله: إنني لست إلهاً ولست ابن الله، وفي تصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الشفاعة، فاعلم أن أهل السنة قالوا بإسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب، إما بأن يشفع لهم يوم القيامة في العرصات حتى لا يدخلوا النار، وإن دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة، وقالت المعتزلة: إنها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر ما استحقوه، واتفقوا على أنها ليست للكفار، وقد كتبت في هذا الموضوع مقالاً مقتبسة أصوله من كلام الأستاذ محيي الدين ابن عربي والإمام الغزالي فأحببت ذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للمسلمين وتقوية للتربية الإسلامية في مستقبل الزمان.

مبحث الشفاعة

اعلم أن الأمة الإسلامية أجمعت أنه ﷺ يشفع في أمته، وهذا أمر مجمع عليه لا فرق بين السنية والمعتزلة والفلاسفة منهم، ولكنهم اختلفوا في المقصود منها، وها أنا أذكر لك الحقيقة واضحة جلية خالصة ظاهرة، ثم أطبق عليها سائر الأقوال والآيات والأحاديث، بحيث يتفق المشرب الديني، والمنهج القويم للتربية الإسلامية، وهذا هو الذي انشرح له صدري وصرت موقناً به تحقيقاً.

فاعلم أرشدك الله أن النبي ﷺ كالشمس المشرقة كما قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٦]، والشمس مشرقة على اليابسة، والبحار، والآكام، والغياض، والنبات، والشجر والأرض السبخة، والأرض الطيبة، وكل من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده فأما البحر فإنه يزجي السحب بإشراق الشمس على أرجائه، فيكون بخار فسحاب فمطر يحمي الأرض وأما الجبال فإن ما على بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئاً فشيئاً إلى باطنها ثم تخرج ينابيع فتحيي الأرض، وأما الهواء فيتمدّد وتكون منه الرياح، والأعاصير، والزعازع، وأما الأرض الطيبة

فتخرج زرعاً مختلفاً ألوانه، وأما الأرض السبخة فلا تخرج شيئاً، وقد تخرجه نكداً، هذا هو المثل الذي أردت ضربه لحال النبي ﷺ مع الناس، فلنشبه القلوب النقية الطيبة بالبخار، إذا سمعت الدين أزجت السحب، ونفعت الناس وأحيت قلوبهم، ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين، والأرض السبخة كالفجار الذين لا يرجى نفعهم، والملوك والأمراء ورجال الدولة والوعاظ كتلك الرياح التي يهتز لها جميع ما على الأرض، وفي الجو فتعتدل وتجود وتستقيم ويحيط بالملوك والعلماء الشعب والجيوش محافظة عليهم، فكما اختلف الزرع لوناً ورائحة وطعماً، وهكذا الشجر، والبر، والبحر، والشمس، واحدة، هكذا تختلف الأمة التي تتبع نبياً في أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمزجتها وأخلاقها وعوائدها وبيئتها، فالله نور السماوات والأرض أشرق نوره على رسول الله ﷺ، وهو مشرق على الناس، فلا جرم يختلفون في قبوله اختلاف أحوالهم، وتكون أحوالهم في الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف، فالمرسلون واسطة للتعليم، والناس المرسل إليهم هم الذين يختلفون في الاتباع باختلاف أطوارهم واستعدادهم، وهم مسؤولون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى ما بلغهم الواسطة، فإذا كانت الأرض الطيبة، والأرض اليابسة، والبحر، اختلفت في القابلية، والسبخة، هكذا سيكون الناس في أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الواسطة الشفيع لهم عند الله تعالى ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[الزمر:٦٩].

ويقرب من هذا ما ورد، فعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فهذا الحديث أفادنا أن اختلاف النتائج علماً وعملاً وجهلاً لاختلاف الناس في أطوارهم كما اختلفت الأرض لما ورد عليها الماء في كيفية قبوله، وكما قلنا باختلاف أحوال الأرض وما عليها باختلاف قبولها لضوء الشمس، فالغيض من الشمس، ومن الغيث كامل غير منقوص، والاختلاف إنما جاء من الجهات القابلة للضوء وللغيث.

واعلم أن للشفاعة بذوراً ونباتاً وثمراً، فبذورها العلم ونباتها العمل وثمرها النجاة في الآخرة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علموا الناس في الدنيا، وفيها غرسوا البذور، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم، ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة، وهي النجاة والارتقاء، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجدهم وحبهم للخير وأخلاقهم فمبادئ الشفاعة العلم، وأوسطها العمل، ونهايتها الفوز والرقي في الآخرة، بل كثيراً ما تظهر بعض الثمرات في الحياة الدنيا بالتوفيق، والنصر والعز، وفي الحديث: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء، فالأنبياء علموا العلماء

والعلماء علموا الناس، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء، فالشهداء، وهم بما قدّموا أنفسهم في سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درساً نافعاً يتبعونهم فيه، فكانوا بعد العلماء في هداية الناس لأن العلم أوسع والشهادة أقلّ، ولكنها أنجع، فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربّه ولم ينمّه بالعمل، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في قعوده عن استثماره، ساواهم في نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي هريرة: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك» فانظر في قوله صلى الله عليه وسلم: «قد بلغتك»، كأنه يقول له: التبليغ بذر الشفاعة، وعليك العمل يتبعه النجاة.

وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال عليه الصلاة والسلام. «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجرته». وروى عبد الرحمن بن ساباط عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «يا كعب بن عجرة يا كعب، أعيذك بالله من إمارة السفهاء، إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدّقهم بكذبهم فلست منه وليس مني، ولن يرد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدّقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه، وسيورد على الحوض، يا كعب بن عجرة: الصلاة قربان، والصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، يا كعب بن عجرة: لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت».

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام دخل المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وانا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أني قد رأيت إخواننا، قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: يا رسول الله: كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: أرأيت إن كان لرجل خيل غرّ محجلة في خيل دهم، فهل لا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا فليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضالّ أناديهم ألا هلمّ، فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، أقول: سحقاً فسحقاً». وهذه الأحاديث هي المناسبة لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧-٨]، ولقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٤].

فهؤلاء الذين أعانوا الأمراء على ظلمهم، وأولئك الذين بدّلوا بعد نبيهم، وأولئك الذين جاؤوا يحملون شياهاً قد ظلموا في حملها، كل هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة، ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاء وفاقاً، فإذا قيل إنه يشفع في أهل الكبائر، أو في زيادة الحسنات للمحسنين، فقد دخل ذلك كله في هذا الذي أوضحته لك، واذا سمعت عن أبي هريرة رضي الله أنه قال: قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا أوّل منك لما

رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» أخرجه البخاري، فإذا سمعته فاعلم أن هذا قد نال من الشفاعة بذرها، وهو العلم، والعلم يتبعه العمل، والثمرة نتيجة، وهي النجاة في الآخرة. ولا جرم أن العمل لا يكون إلا بعد العلم، فإذا كان العمل مبنياً على جهل فلا يستحق شفاعة، وأما صاحب العلم فإن لديه أقوى ركني الشفاعة، وهو العلم، ولم يبق إلا استثماره، فعلى هذا فقس فيما يرد عليك من الأحاديث. واعلم أن هذا المعنى، أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي، وكذلك يفيده كلام الإمام الغزالي، وبعض الأقوال التي أوردها الفخر الرازي.

قال الإمام الغزالي في الإحياء: فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير معفن ولا مسوّس، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظاره رجاء، وإن بثّ البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء، وإن بثّ البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً، سمي انتظاره تمنياً لا رجاء، فإذا اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بثّ بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور. قال صلى الله عليه وسلم: «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وذمّ الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته و﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

فإذا العبد المجتهد في الطاعات، المجتنب للمعاصي، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة، وأما قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوؤه السيئة وتسرّه الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي يفضي إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ

رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢١٨] معناه: أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به من تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء. فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. اهـ. فهكذا ينبغي أن يقرر في الأمة الإسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجدّين، وليعلموا أن الإنسان تابع لعمله وأخلاقه، وهذا هو الموافق للفطرة ولمقصود الإسلام، ففي الحديث: «أنت مع من أحببت»، والأنبياء يتبعهم العلماء حباً في مناهجهم، ويتبع العلماء العامة، فهؤلاء على مقدار اتصالهم في الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلا يرد الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم إلا من كان في الدنيا متصلاً، أي عاملاً بشريعته، سائراً على منهجه، والناس يحشرون على حسب الأخلاق التي ماتوا عليها، لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات، وليس الله عزَّ وجلَّ يريد أن يشفي غيظه، وإنما هو مربي العالمين، وتعالى الله عن صفات المحدثين، والحياة الآخرة تابعة للحب، ولا يحب المرء إلا من كان على شاكلته، ومثل الآخرة كمثل الدنيا، فكما أنك لا تعيش مع السمك في البحر ولا يقدر السمك أن يعيش في البر، ولا يستطيع حيوان البحر وحيوان البر أن يطيرا في جو السماء، ولا يستطيع الطير أن يعيش في البحر، هكذا بنو آدم في الآخرة، كلٌّ يوضع في المكان الذي استحقه، ولا يقدر أن يتجاوزه، على حسب الأخلاق التي اكتسبها، وفي الحديث: «يحشر المرء على ما مات عليه»، وفي الآية: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٧٢].

وهذا التفسير الذي اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلها، والأحاديث ونظام الله عزَّ وجلَّ في ملكه، وآيات القرآن، وعدل الله سبحانه وتعالى، هكذا يناسب ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان، فإن الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة، وبقي المسلمون في مؤخرهم، بسبب جهل الوعاظ وتسهيلهم على الناس، ولعمري إن هذا ليجدد النشاط، والجد والعمل في الأمة، ويرقى المسلمون علماً وعملاً، وإذن يفهمون قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧-٨] ويعرفون أنه عزَّ وجلَّ عدل، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح، ولا من النواة إلا ما كان من جنسها، فالصدق مشاهد في العالم الذي أمامنا، ولولاه لاختل نظام الحياة، فإذا زرعنا البرسيم للدواب، أو الحنطة والتفاح للإنسان، جنينا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والإنسان، ولو كان الأمر فوضى فأخرج البرسيم بدل التفاح، والتفاح بدل الحنطة، لحار الناس في أمورهم، ولضلوا سواء السبيل، ولم تكن لهم حياة رشيدة، وتخبطوا في ديجور المذلة وسوء الحال، وكانت الفوضى والناس لا يشعرون بهذا العدل وحسن النظام، لأنهم فيه مغمورون لا ينظرون فيه وإنما كل منهم مهتمّ بما يشبع بطنه ويوافي شهواته، مشغول بجمع ذلك ليلاً ونهاراً وهم عن العلم بما حولهم غافلون. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف:١٠٥].

وهانحن أولاء نرى طلوع الشمس وغروبها، وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب في جداول يطلع عليها الناس وأكثرهم لا يتعجبون من حكمته عزَّ وجلَّ في إتقان الحساب، وحسن

النظام الذي لو اختل لحظة لهلك الحرث والنسل، ولو أن الشمس تأخرت عن موعدها وقت الظهيرة دقيقة واحدة يوماً ما فقط لضاع من نوع الإنسان مئات الألوف، ومن أموالهم مئات آلاف الآلاف، فإن هذا التأخير يحدث تصادماً في القطرات الجارية بالسكك الحديدية فيموت الراكبون، وتختل مواعيد الأعمال في التجارة صادرها وواردها، فنحن هنا على الأرض مغمورون في نظام تام لا يعقله إلا العالمون، وإذا كان هذا في الدنيا فإن الآخرة أتقن نظاماً، والمنظم للدارين واحد، أفلا تكون الأعمال لها نتائج كنتائج النبات والشجر؟ أوَلا يكون الأنبياء والعلماء الذين اتبعوهم أشبه بضوء الشمس، وقطرات الغيث على العقول فتكون الأعمال فالنتائج. هذا ما فتح الله به وانشرح له صدري.

حكاية

قد قدمت إلى مصر سيدة روسية كانت تغشى الجمعيات العلمية في برلين وباريس وفيينا وسائر عواصم أوروبا، وكانت من أهل العلم، تحسن لغات كثيرة، وكان أكثر ميلها إلى علم التصوّف، وقد أشار عليها أستاذها «ماركس الألماني» أن تترجم كتاباً في علم التصوّف إلى اللغة الفرنسية، واختار من بين الكتب رسالة القشيري التي ألفها في القرن الرابع في هذا الفن لصوفية المسلمين، ولما جاءت إلى مصر طلب مني وزير المعارف إذ ذاك أن أساعدها فساعدتها في فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين، وكانت تعجب بعلوم المسلمين وذوقهم وآدابهم، وفي أواخر المدة قبيل الحرب الكبرى، قالت لي يوماً: إنني بعد أن سافرت هذه السنة إلى أوروبا تبين لي أن الدين الإسلامي على خلاف ما كنت أظن، نعم هو حق ولكنه أقل من الدين المسيحي، وهذا الاعتقاد خلاف ما كنت أعتقده من قبل، فقلت: ولم ذلك؟ فقالت: قابلني شاب من الذين يتعلمون من الرهبان في طور سيناء، وعنده شهادات عالية من ألمانيا، ويجيد بعض اللغات الأوروبية، فأخذ يحدثني عن الإسلام وهو يعرف ميلي إليه، فقال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان وهو صغير تلوح عليه مخايل النبوة، ولما رآه بحيرا الراهب، وأدرك فيه هذا المعنى، قال في نفسه: إذا كان هذا نبياً فخير لنا أن يكون مسيحياً، فعلمه الدين المسيحي، وأخطأ بحيرا في بعض تعاليمه، فإنه أفهمه أن عيسى لم يصلب لجهله باللغة، لأن بحيرا صالح، ولكنه ليس مدققاً في اللغة، فجاء دين الإسلام وليس فيه الصلب مع أن المسيح أول من مات فأحياه الله، فيكون هذا برهاناً على حياة الناس يوم القيامة، فالمسيح الذي يفدي الناس قد صلب لهذه الحكمة، قالت: فأنا على ذلك أصبحت أرى أن الإسلام حق ولكنه أقل من المسيحية التي آمنت بمن صلب ثم حيي. فلما أتمت قولها قلت لها: هل تحبين أن تسمعي رأيي؟ فقالت: نعم، وإني ما ذكرت لك هذا إلا لأسمع رأيك، فقلت: أما قول صاحبك، إن المسيح أول من مات ثم حيي، فهذا لا حظ له من الحقيقة، لأن في التوراة أن قوماً ماتوا ثم أحياهم الله، لأنهم كانوا قد فروا من الطاعون، فليس المسيح على زعم من آمن بالصلب أول من حيي، وفي التوراة من ذلك كثير. وأما قوله: إن عيسى يفدي الناس، فهذا كلام له معنى غير ما يفهمه الجهلاء من المسيحيين، فقالت: وكيف ذلك؟ فقلت: أرأيت لو أن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب، والثاني يقول: كونوا أحراراً يا أبنائي واقتلوا واسرقوا وأنا أدافع عنكم، فأي الأبوين أفضل؟

قالت : الأول ، قلت : هكذا يطلب منا علم التربية الحديثه والقديمة ، قالت : نعم ، قلت : فهل المسيح وهو نبي في اعتقادنا نحن معاشر المسلمين يقلّ في العلم والتعليم عن أفضل الأبوين المذكورين؟ قالت : كلا بل هو أفضل منهما ، وهو معلمهما ، والمعلم أفضل من المتعلم ، وأعلم منه ، قلت : إذن لا يجوز في علم التربية أن يقول نبي عن ربه : افعلوا ما شئتم وأنا سأكون فداء لكم ، وبعبارة أخرى : ينقض شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ما أعطاهم باليمين ، قالت . والله إن كلامك لحق ومعقول ، فقل لي إذن ما يقصد يكون المسيح يفدي الناس في نظرك؟ فقلت : أما ديني فينكر الصلب ، إذن أنا ليس لي نظر في مسألة يخالفها ديني ، وإنما أقول : الحق أن العامة يتكلون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ، ويكون الدين إذ ذاك هادماً للإنسانية مؤخراً للمدنية راجعاً بالإنسان القهقرى ، وهذا بعينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الإحصاء في فرنسا لأحكام القضاة فإنهم وجدوا أن الملحدين الكافرين بالله هناك أكثر صدقاً وأقرب للعدل من المتدينين لأنهم كانوا يسألونهم . لم فعلتم ذلك؟ فكانوا يقولون : رجونا أن تشفع لنا العذراء أو القديس فلان ، وهكذا . ولذلك نرى أن الديانات التي طال عليها الأمد ، ولم تجد لها من يجدد أمرها تولاها الخور ، وقعدت بتابعيها عن الرقي وساؤوا مصيراً ، وإنما كان الملحدون في فرنسا أرقى أخلاقاً من المتدينين ، لأن الأولين أثاروا عواطفهم وعقولهم وفطرهم التي فطرهم الله عليها ، وفيها أصول الأخلاق . أما الآخرون فإنهم تركوا فطرهم وسلموا أنفسهم للدين ، والدين إذا دخله التحريف والتخريف ، فنزل بأخلاقهم فسفلت فكانوا من الخاسرين ، فرأيتها أشرقت سروراً ، وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة ، وقالت : نعم ، لقد أفدت وأحسنت ونطقت بعلم .

فتأمل أيها المسلم في هذه الحكاية فإني ما قلتها لك اعتباطاً ، وإنما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد ﷺ وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارعته الأبطال وغزواته ، ثم تتبعه في أخلاقه ، وفي القرآن الذي أنزل عليه ، فأما إذا ظننت أن الشفاعة ترجع إلى المعنى الذي يفهمه العامة ، فإن ذلك يقود الأمة إلى الانتكاس على أمّ الرأس ويبقى الدين من أسباب التأخر لا الرقي ، وقد آن أوان أن يعرف الناس مقام النبوة الشريف ، ويتبعوا النبي ﷺ في أعماله وأخلاقه ، وسيرته الصالحة ، وآدابه العالية ، ومعارفه الواسعة ، ودينه السمح المرشد إلى السعادة ، والأعمال الشريفة ، وهذا أوان ارتقائه وزمان سعادته . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

إيضاح الشفاعة

اعلم أن الناس اعتادوا أن يتقربوا للملوك والأمراء والأغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة ، فيكونون شفعاء لهم في إيصال الخيرات من وظائف ومال . وأصل هذه الكلمة من الشفع الذي هو ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فرداً ، فصار الشفيع له شفيعاً ، أي : صارا زوجاً ، وهذا في الأمور المادية التي يقدر عليها الناس . أما العلوم والمعارف ، فلو أن أعظم الملوك قدراً ، وأكثر الأغنياء مالاً ، أحضر أساطين الحكماء ، وأكابر العلماء لولده الغبي وأغدق عليهم النعم ليصير عالماً لم يقدروا على ذلك ، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أي فقير فيصير غنياً في الحال ، فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات

المالية، ولا الوظائف الإدارية، وإنما هي نفحات علمية، وأخلاق حكمية، وآداب نبوية، فمن فقه ما قالوه واتبع ما رسموه، واستثمر من بذور الشفاعة ما بذروه، تمت له الشفاعة ودخل مع الجماعة، أما أولئك الكسالى الجبناء المتواكلون، فإنهم يظنون أن مجرد الاتباع اللفظي مع النوم والكسل الفعلي يجديهم نفعاً كبيراً، ويحسن لهم صنعاً جميلاً، كلا إنهم لمخدوعون، وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة، فإن خروج العاصي من النار بالشفاعة أو إبعاده عنها قبل الدخول، وكذلك زيادة الحسنات في الأعمال للصالحين، كل هذا جاء من شفاعته ﷺ، واتباعه، بل كل ثواب فإنما هو بسبب ذلك، وهكذا كل نجاة، فإنه صلى الله عليه وسلم لو لم يأت لنا بالشريعة لكنا أقرب إلى الحيوان، فصرنا باتباعه داخلين في شفاعته، لأنا به صرنا شفعاً، ولا يكون ذلك إلا باتباعه، ولا ننال إلا ما استعددنا له.

ولأضرب لك مثلاً بما عرفناه في زماننا: أمة تألبت عليها الجيران، ووثبت عليها أمم الفرنجة من كل جانب، وهي قليلة العدد ضعيفة العدد قلّ فيها المال والولد فاستسلموا للعدو خاشعين، وانقادوا له صاغرين، فقام منهم رجل من قواد جيوشهم فهبّ فيهم صارخاً وقال: قوموا من مراقدكم، والله ناصركم، واجمعوا صفوفكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، فأجاب دعاءه الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والشبان، وقاموا قومة واحدة فانهزم العدو المغير، ورجع وهو حسير، فرجعت الأمم المغيرة إلى الخلف، وثبت للضعفاء النصر، تلك الأمة هي الأمة التركية في هذه الأيام. أفترى أيها الذكي أن ذلك النصر يكون بالاتكال على ذلك القائد المرشد النصيح، فيقولون له: أيدك الله قاوم العدو بهمتك، وحاربه بيأسك وقوتك، إنا مادحوك وداعون لك بخير وتابعوك. أم يقومون معه قومة رجل واحد، ويتبعون سننه في العمل فيهزمون العدو بتضافرهم وتآزرهم. لا جرم أنك تعلم أن النصر تابع لخير الأمرين، وهو الوجه الأخير، فهكذا يكون الأنبياء مع أممهم، فالأنبياء قواد فوق كل قائد يقودون الناس إلى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين.

فإذا سمعت قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة:٤٨]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤].

فاعلم أنها تلك الشفاعة الأولى في المثال المتقدم، وهي أن يتكلوا على الأنبياء ويناموا نومة الأغبياء، ولو كان الله يريد منا أن نكل نفوسنا إليهم لأطال آجالهم جميعاً، وأنت ترى أن في أمتنا من طالت أعمارهم أكثر من نبينا، فمن حكمة موته في سننه المعروفة أن تستقل الأمة في شؤونها، وتقوم بأعبائها، ولعلك تقول ما لي أراك تخص الأنبياء بالإعظام والإجلال والإكبار، وما أراك إلا مسايراً للجمهور. ولقد رأينا في هذه الأعصر من أضاءت الكهرباء باختراعهم، وابتدعوا في الحروب ما شاؤوا بذكائهم، ومدوا الأسلاك البرقية بعقولهم، وفي الأرض فلاسفة وحكماء كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسي، فكيف تخصون النور بالأنبياء والإرشاد للمرسلين، وكيف تخصون نبينا بأنه سراج منير، وأن العلماء يتبعونه، وأنه يشفع في الناس بالمعنى الذي قررته مع أن كل الناس يعلمون ويتعلمون.

أقول: اعلم أن الله عزَّ وجلَّ مشرق نوره في العالمين، فكما أن الشمس والقمر والكواكب والكهرباء والبخار الناجم من الفحم وكذلك الزيت والشمع تكون منها الأنوار الحسية التي أودعها الله في المواد المحسوسة، هكذا أودع نوراً أتم جمالاً وأبهى وأكمل إشراقاً أتم وأعظم في نفوسنا الإنسانية وعقولنا وحواسنا وإدراكنا، وفي سائر الحيوان، فلكل حيوان هداية تمت بها سعادته، والإنسان من بين الحيوان هداه الله هداية أعلى، وجعله في مقام أتم وأكمل، وألهم طوائف منه، فكانوا أكمل من غيرهم فيرشدون إخوانهم إلى ما هو أكمل وأشرف.

فقولك: إن في الناس من هدوهم إلى الكهرباء وإلى مد أسلاك البرق وما شاكل ذلك، فإني أقول لك: ليست الهداية خاصة بهولاء، فالهداية عامة في الإنسان والحيوان، فأما إرشاد الناس إلى الأمور المعاشية بالأنوار وسرعه النقل وما شاكل ذلك فهي لم تخرج عن الهداية العامة، فإن الشمس مشرقة مبذولة، فإذا زاد المخترع أنواراً للناس فهو خير من جنس ما بذل لهم في الطبيعة المعلومة الحسية.

وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرقى من الحسية، فإنه لولا إدراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيئاً، والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق: الحكام من الأمراء والملوك، والوعاظ، والحكماء، والأنبياء، فالوعاظ للعامة، والحكماء للخاصة، والأمراء للحكم على أجسام الناس لا عقولهم، أما الأنبياء فإنك تراهم قد اتبعهم الخاصة والعامة والوعاظ وكانوا أعم من الجميع.

وأنا لا أقول لك إلا ما هو حاصل في النوع الإنساني، وما هو واقع فعلاً، فسقراط لا يعقل حكمته ولا يفهم رأيه إلا الخواص، وأما العامة فهم في واد سحيق، والوعاظ لا يكلمون إلا الجهال، ونحن نرى أن الأنبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف فإذا كان الناس يهتدون بحواسهم وبعقولهم، وبحكمائهم، وبمخترعيهم، وبقواد جيوشهم، فإنا نرى أن سائر الأنبياء قد اتبعهم كل هؤلاء.

وها أنا ذا قلت لك ما تراه واقعاً كما قدمنا، إذا علمت هذا فهمت قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦] وقد جاء في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[١٣] متلألئاً وهو الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السحائب ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾[١٤] منصباً بكثرة ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[١٥-١٦] ملتفة بعضها على بعض، وإنما ذكر السحب بعد الشمس لأنها ناجمة من إثارة الحرارة للبخار من البحار فيكون مطراً فيحيي النبات كما قدمنا هذا في العالم المشاهد المحسوس، فهكذا جاء في هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء.

وجاء في سورة أخرى أن النبي سراج منير، وجاء في حديث البخاري المتقدم: «إن مثل العلم الذي أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل الغيث» الخ، فتشابه العالم الحسي والعالم المعقول، فالعلم العام النبوي ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهو كالشمس ومن سواه لهم أعمال خاصة، فالشفاعة العامة لهم مشرقة على الجميع، ولكل امرئ ما اكتسب ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس:٦١].

تفضيل بني إسرائيل

وأما الكلام على تفضيل بني إسرائيل فإن الله يقول : يا بني إسرائيل إنني قذفت في قلوب أبنائكم الحمية والشهامة والعز بما أوحيت إلى موسى أنه يقول لهم أنتم شعبي وأفضل العالمين كما هي السنة المرغوبة في تمدين الشعوب أن يبتدأ بإدخال الأمل وطرد اليأس وإفهام الأبناء أنكم ذوو شرف وعز وفضل ولعمري إن هذا هو السنن الوحيد والعلاج المفيد الناجع لإثارة الحركات العلمية والعملية في الأمم التي أخملها الإهمال وأضاعتها يد الزمان ، وأنامها الحدثان ، كما كان في بني إسرائيل إذ ذبحت أبناؤهم ، واستحييت نساؤهم ، ابتلاء من الله وامتحاناً ، وهذا هو المذكور في الإصحاح الأول في سفر الخروج : وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين اسم إحداهما سفرة ، واسم الأخرى فوعة ، وقال : حيثما تولدان العبرانيات وتنظرانهنّ على الكراسي إذا كان ابناً فاقتلاه ، وإن كان بنتاً فتحيياه .

وفي الإصحاح الثالث عشر أنهم خرجوا من مصر في شهر أبيب ، وأمرهم الله في الإصحاح الثاني عشر والثالث عشر بعيد الفصح أن لا يأكلوا مخمراً سبعة أيام ، ويكون السابع عيد الفصح شكراً لله تعالى كل سنة على نعمة أغدقها عليهم إذ أخرجهم من دار الهوان إلى دار الحرية والكرامة ، أليس من عجب هذا التهييج والحث على الحرية للتنائي عن مقام الذل ، وليربؤوا بأنفسهم أن يردوا ماء الحياة إذا مازجه صاب المذلة وعلقم الهوان .

وللموت خير من حياة دنيئة   وللموت خير من مقام على الذل

ثم تعجب كيف جاء في التوراة مروءة هاتين القابلتين ولم تخونا ولم تقتلا ولداً ، كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بني إسرائيل ، فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين فقتلوا ورموا كل مولود ذكر في البحر ، ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجاً ، وأن بعد العسر يسراً ، نجاهم وأغرق فرعون وجيشه .

الياقوتة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ فلقناه ﴿ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ ﴾ من فرعون وقومه ﴿ وَأَغْرَقْنَآ

ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾، وعد الله موسى أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ إلهاً ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ بوضعكم العبادة في غير موضعها ﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم ﴾ محونا ذنوبكم عنكم ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد اتخاذكم العجل ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ لكي تشكروا النعمة في العفو عنكم ﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ أي الجامع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ ارجعوا إلى خالقكم بالتوبة، قالوا، كيف نتوب؟ فقال: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾ من الإصرار على المعصية ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ المفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بعفو الحوبة وإن كبرت. ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ ﴾ أي لن نصدقك ﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ معاينة، وهؤلاء سبعون رجلاً من خيارهم جاؤوا إلى الطور ليعتذروا عن عبادة العجل مع موسى لميقات ربه وسمعوه يكلم موسى فقالوا ذلك، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ الآتي شرحها في سورة الرعد ﴿ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ ما أصابكم ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾ بسبب الصاعقة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ نعمة البعث ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ ﴾ في التيه ليقيكم حر الشمس. انتهى التفسير اللفظي الإجمالي.

إيضاح

أبان الله في هذه اليواقيت ما قصه في سفر الخروج في التوراة، وكيف أغرق فرعون وجنوده، ونجى موسى وقومه، كما جاء في الإصحاح الرابع عشر من السفر المذكور، فدفع الرب المصريين في وسط البحرفرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، ولم يبق منهم ولا واحد، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وشمالهم. انتهى بالحرف.

وقال في الإصحاح الثاني عشر: فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس، وهي بلدة قريبة من السويس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، ثم قال: وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة، ولقد حثهم على تذكار يوم الخروج ليستديموا الحرية تذكرة للعاقلين، وتبصرة للمسلمين الغافلين، وقد قال تعالى لنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣] عدولاً، وقال: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

فليبحث المسلمون عن أنفسهم، وليتظروا أهم تلك الأمة التي عناها الله بالخطاب، أم قوم غيرنا سلفوا، أم سيخلفونا؟ وليعتبروا كيف قرع الله بني إسرائيل ووبخهم إذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل في وسط السحاب، وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة فاتخذوا العجل وعبدوه كما وضح في التوراة في نفس هذا السفر.

وما مثل اليهود في نبذ التوراة والعمل بها إلا كمثل المسلمين اليوم وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة، والآيات البديعة، ولما أعرضوا عن الصراط السوي عذبوا وأذيقوا طعم الموت، فقتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التي عبدت العجل.

وفي التوراة: أن القتلى ثلاثة آلاف لا سبعون ألفاً كما يقول بعض المفسرين، قال في الإصحاح الثاني والثلاثين: وقف موسى في باب المحلة وقال: من للرب فإلي، فاجتمع إليه جميع بني لاوى، فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه، وكل واحد قريبه، ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.

الياقوتة السادسة والسابعة

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ﴾ ، في التيه ﴿ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ الترنجبين والسماني، والأول شيء يقع على الشجر، طعمه كالشهد ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أي قلنا لهم ذلك فظلموا بأن كفروا هذه النعم ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي بيت المقدس، وقيل: أريحاء، أمروا به بعد التيه ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ واسعاً، نصب على المصدر ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ ﴾ ، أي باب القرية أو القبة التي كانوا يصلون إليها ﴿ سُجَّدًا ﴾ حال، وهو جمع ساجد ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ أي مسألتنا أن تحط عنا خطايانا ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ بسجودكم ودعائكم ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ثواباً ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ فغير ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ إذ بدلوا الحطة بالحنطة وقالوا ما معناه: «حنطة حمراء» أو نحو ذلك استخفافاً بأمر الله ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا ﴾ عذاباً ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إذ أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم كثير ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ أي يعصون ويخرجون عن أمر الله. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

يقول تعالى: وأنزلنا عليكم في التيه المن والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولا تدخروا، فكفروا النعمة وادخروا فمنع عنهم ذلك الرزق، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وإذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع: ادخلوا بيت المقدس الخ، وقوله: رغداً أي واسعاً لا حجر

فيه، سجداً أي متواضعين خاشعين لله عزَّ وجلَّ، والمن هو الترنجبين كان ينزل كالندى من الفجر إلى طلوع الشمس، والسلوى هو طير السماني.

قال في الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج: فكلم الرب موسى قائلاً: سمعت تذمر بني إسرائيل كلهم قائلاً: في العشية تأكلون لحماً، وفي الصباح تشبعون خبزاً، وتعلمون أني أنا الرب إلهكم فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور كالجليد على وجه الأرض، ثم قال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا، هذا هو الشيء الذي أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله. اهـ.

وهذا قادهم إلى سوء فعلهم وأضلهم جهلهم، فبدلوا قول الله عند دخول باب القبة التي كانوا يصلون بها ﴿ قُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي فاستهزؤوا وقالوا: «حنطة في شعرة» على رأي غير ما تقدم، يريدون أنهم لا يعنيهم شأن الذنوب والخطايا ولا التوبة وما أشبهها، وإنما همهم الطعام والغذاء ومستلذات الحياة، فهذه المخازي الفاضحة، والعيوب الواضحة، أخذت عليهم في القرآن، وحفظها لهم في سجله الزمان، عبرة للمذكرين وتبصرة للمسلمين.

الياقوتة الثامنة والتاسعة

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَواْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أيّ حجر كان، فضرب ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ على عدد الأسباط ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط ﴿ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

عينهم التي يشربون منها، وقلنا لهم ﴿ كُلُوا ﴾ من المن والسلوى ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ من ماء العيون ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾ أي الجميع مما رزقكم الله ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ لا تفسدوا فيها، والعيث أشد الفساد ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال مؤكدة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ وهو ما رزقوا في التيه من المن والسلوى ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ سله وقل له ﴿ يُخْرِجْ لَنَا ﴾ يظهر لنا ويوجد ﴿ مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا ﴾ وهو ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول كالنعناع والكرفس والكراث ونحوها ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ معروفة، وقيل: هو الخيار ﴿ وَفُومِهَا ﴾ هو الحنطة أو الثوم ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ ﴾ أدون قدراً ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ يريد به المن والسلوى ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ أي إن أبيتم إلا ذلك فأتوا مصراً من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم ﴾ من نبات الأرض ﴿ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ أي جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ﴿ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ الفقر والفاقة ﴿ وَبَاءُوا ﴾ رجعوا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ القتل والكفر ﴿ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ يتجاوزون أمري ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي اليهود ﴿ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ ﴾ قوم كانوا يعبدون الكواكب التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي وعد لهم على إيمانهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ عهدكم يا معشر اليهود ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ يعني الجبل العظيم لما عصيتم أن تقبلوا التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة فصار كالظلة فوق رؤوسكم، وقلنا ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم ﴾ أي ما أعطيناكم ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واجتهاد ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أي ادرسوا ما فيه وتفكروا فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لكي تتقوا المعاصي ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وقد اعتدوا فيه أي جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه، واشتغلوا فيه بالصيد، وسيأتي إيضاحه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآية. ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرد ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي المسخة والعقوبة ﴿ نَكَالًا ﴾ عبرة تنكل، أي: تمنع المعتبر بها ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي لما قبلها وبعدها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لكل متق سمعها. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

لما أسلف الله ذكر إظلالهم بالغمام وإغداقه النعم عليهم بالغذاء، وكيف أعرضوا كافرين وتولوا مشركين، أبان الله في هذه الآيات كيف فجر لهم ينابيع الماء من الصخر، وكيف تولوا بعد ذلك الإنعام

بإظلال الغمام من الحر وإنزال المن والسلوى وتفجر الماء إذ ضرب موسى بعصاه، ثم كيف سئموا النعمة وبطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه، فطلبوا أن يستبدلوا الذل بالحرية، وطعام المدن بما أكرموا به في البدو، وهم في أمن ودعة وراحة، وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين وكيف عصوا أن يقبلوا التوراة فأرغموا على قبولها، ورفع الطور فوق الرؤوس فذلوا صاغرين، وقبلوها مكرهين، وكيف ضل منهم فريق أيام داود عليه السلام في مدينة أيلة «العقبة» فصادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها، فمسخوا قردة في أعمالهم وصاروا في صورة إنسانية ونفوس قردية، كما هو شأن المقلدين في الباطل الغافلين الذين لا يفكرون.

ويقولون: قد أفتانا شيخنا فلان، وما هو بمغن فتيلاً ولا قطميراً ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[غافر:٤٧] فليعتبر المسلمون اليوم وليعلموا أنه لن ينفعهم أضاليل الدجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخمدوا خمود النار ضرّ بها البرد بما أزجاه المثبطون للهمم لينيموا الناس على مهد الرجاء، فأصبحوا لا ترى إلا جسومهم، وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال.

إيضاح الكلام في قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ الآيات

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم، لأن بني إسرائيل انقضى أمرهم، وذهب ريحهم، وفات دورهم. ذلك أنهم لما كانوا في التيه، وهواؤهم طلق، وهم في البادية وشظف العيش، تبرؤوا من رجس المدنية وخبث المدن، وفسق أهلها ومرضهم وبطنتهم وجشعهم، وقلة أدبهم، وسقوط أخلاقهم، وكذبهم، ونفاقهم، وحمقهم، وحرصهم، وادخارهم، وكدحهم ليلاً ونهاراً، فالشهوات الحارة تلدغهم وتحرقهم فيصطلون بنارها، ويقارفون الفجور، ويأكلون أكلاً لمّاً، ويحبون المال حباً جماً، ويتخبطون في دياجير الذنوب والمعاصي والعيوب، ويكون رؤساؤهم أخسهم مقاماً، وأردأهم أخلاقاً، وأشدهم نفاقاً، وأقربهم إلى الشرور، وأبعدهم عن الخيرات، وتقلّ بينهم الأمانات، ولا يخافون رب العالمين، بل سطوة الحاكمين، وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان في طعامهم، ويكونون جبناء هلعين فزعين، إن فاجأهم عدوّ فرّوا خائفين، وولّوا هاربين. هذا شأن المدن، وهذه سجية أهلها، ولا تستثن منهم أحداً. إلا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدربة على الحرب، يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم، وهم في أنفسهم خوّارون، قتلتهم شهواتهم فلا ينفعهم في قتال عدوهم إلا مضاء أسلحتهم، ووفرة مدافعهم، وكثرة الطيارات في جيوشهم. فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم، وخلصوا من بطشهم، وتجافوا عن جنبهم، وقربوا من الفضيلة، وابتعدوا عن الرذيلة، وقويت أبدانهم، وعظمت نفوسهم، وهم شجعان كرماء، فأولئك إذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلوهم فغلبوهم واستأصلوهم، ولذلك ترى أن الأمم التي في المدن إذا طال عليها الأمد غلبتها على أمرها تلك الأمم البدوية، وورثت أرضها وديارها، وحلت مكانها، ثم يتناسل هؤلاء في المدن جيلاً

بعد جيل، ويتبعون سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، ثم يأتي آخرون فيغلبونهم على أمرهم ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. على ذلك درج الأمم قديماً وحديثاً. فدولة الرومان لما استفحل أمرها، وعلت كلمتها، وخضعت لها الرقاب، وذلت لها الأعناق، هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العاتية الجاهلة العارية من سابغ الرغد ونعيم الحياة ففتكت بهم، وورثت أرضهم وديارهم وأموالهم، وها هم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول في أوروبا. وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة، وكأنهم أيضاً أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا في اللذات وغرقوا في بحر لجي من الظلم والمعاصي والفتك، فأصبحت مدارسهم لتعليم الإجرام، والفتك والإغارة على الأمم، وقد آن أوان أن تبيدهم أمم أبعد عن الترف، وأقرب إلى حال البداوة، وتحل محلهم كما فعل آباؤهم مع دولة الرومان. وهكذا ترى أن الأمة العربية، لما نزل عليها القرآن أنار بصائرها، وأغلى مراجلها، وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها فأخذت تمتد إلى سائر الجهات، فملكت دولة الفرس التي قتلتها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى إلى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأمتين.

ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم فجاء إليها التتار من المشرق والفرنجة من المغرب فحلوا بساحتها وساء صباح المنذرين، وصارعوها فصرعوها فنامت إلى حين. ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكانتها. وبالجملة ليس للأمم من سعادة إلا بالتجافي عن اللذات، والتباعد عن الشهوات، والإقلاع عن البطنة، والإقلال من دواعي الترف والنعيم، فهؤلاء بنو إسرائيل لما كانوا في مصر ذاقوا حلاوة المدنية، ونعيم العيش، فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون رجالهم واستحيا نساءهم، فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا، وبعدما أمروا بقتال الجبارين ضلوا في التيه وتاهوا في بيدائه، وجالوا في فسيح هوائه الطلق وعاشوا في صحراء قحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والعفة والاعتماد على النفس فتربوا هناك أربعين سنة. يقول العلماء: حضانة الأخلاق أربعون، وحضانة العلم عشرون، فلما أنسوا من أنفسهم القوة وأحسوا بالمنعة، وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش في مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذيذ العيش ونعيم المدن، فقالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ يقول الله: أتذرون ما هو خير، وتأخذون ما هو أدنى، وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرة النقية الصافية التي تقلّ فيها الأطعمة فتصح الأبدان وتطول الأعمار وتقوى النفوس، وتطوّحون بأنفسكم إلى المدن التي تسقم الأبدان، وتذل النفوس بالمرض، وإذلال الحكام، وموت الشجاعة والاتكال على الجماعة، وتكون حراسة المدن بطائفة من الجند، والأمة كلها عالة على حكامها عارية عن المنعة والقوة يسامون الخسف ويلبسون لباس الذل. إذا أبيتم إلا ذلك فـ ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

ثم إن جميع ما خاطب الله به بني إسرائيل لم يقصد به إلا نحن أبناء العرب، ومن معنا من الأمم وإن جميع قصص الأنبياء تنبيه وإرشاد. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٨]

وقال: ﴿ ٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾[الزمر: ٥٥]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١] وروي أن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: قد مضى والله بنو إسرائيل وما يغني ما تسمعون عن غيركم، فليكن للمسلمين عبرة في هذه القصة. وفي التاريخ: فإن بني إسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختنصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين، فأجلاهم الروم مرة أخرى بعد المسيح، وها هم أولاء في الأرض متفرقون شذر مذر في كل واد يهيمون.

الفوائد الطبية في هذه الآية

لقد أظهر الطب الحديث في هذا العصر مخزيات المدنية، ومصائبها الطبية، وأبان أن الإكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ، وشرب القهوة، وا لشاي، والككاو، وأضرابها، من الممرضات والقاتلات. وقال أساطين الأطباء: إن معيشة المدن اليوم أصبحت لا تطاق، فعلى الناس أن يقللوا من الأدوية التي في الصيدليات المسماة «أجزاخانات»، بل قال أكابرهم: إن هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الإنسان، وأثبتوا أن المآكل المركبة، والتي هي كثيرة الغذاء ضررها كثير، ومنعوا شرب الماء على الطعام، وأكل الطعام وشرب الشراب الحارين لضررهما بالأسنان والحلق واللسان.

وقالوا: إن أهل البادية أقوى أجساماً وأصح عقولاً لاقتصارهم على الحنطة والتمر، وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة، وأن يقللوا ما استطاعوا لذلك سبيلاً.

ويقول هؤلاء الأطباء العصريون: إن العناية الإلهية تكفلت بإصلاحنا. ألا ترى أن الجرح يأخذ في الاندمال شيئاً فشيئاً بلا عمل من الإنسان، وهل ذلك إلا للعناية الإلهية التامة في الطبيعة، فعلينا إذن أن يكون جلّ عنايتنا بالهواء النقي والرياضة والغذاء الصحي معرضين عن الأغذية المهيجة، وعن إكثار اللحم ولنقصد العمل المعتدل، ولنستحم بالماء البارد أو الفاتر، حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ونترك الأدوية المعتادة ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً. وقد منع التداوي بالعقاقير المتراكمة في الصيدليات الدكتور «غرانيشتاين» وهو من عظماء الأساطين في الطب بألمانيا. ومن العجيب أنه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة. ويقرب منه في ذلك الدكتور «كيسر» الذي قال: يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجتنب السم القتال، وإنما قال ذلك مبالغة، يحرض الناس على حفظ صحتهم.

وقال الأستاذ «ستيفنس» الأستاذ بالكلية الطبية في نيويورك: كلما كثر تجارب الأطباء، قل اعتقادهم في تأثير العقاقير، وزاد اعتقادهم في قوى الطبيعة. ويقرب منه الدكتور «سميث»، وقد قال مثل هذه الأقوال ما يربو على ثمانين عالماً من الأمم المختلفة في زماننا.

واعلم أني كنت في زمن الشباب، قد اعتراني مرض ولم أجد طبيباً يداويني لأني كنت في بلاد الريف، فوقع في يدي كتاب يسمى «الطب النبوي» للشيخ الذهبي، فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها.

ومن عجب أن ما نقلته لك عن أطباء أوروبا صورة مكبرة له، ولست أقول إنهم نقلوا عنه، كلا، وإنما رأيت تشابه الأقوال، فلقد قرأت في هذا الكتاب أن الأدوية ضارة إلا عند الاضطرار، وأن المرض له نمو كنمو النبات، ودور انحطاط بميقات معلوم، والطبيب لا عمل له إلا تلطيف المرض، وفيه: إياك أن تقرب المسهل إلا عند الضرورة، واذا قدرت أن تتداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير، وحرّم الشرب على الأكل، وقد عملت به إذ ذاك وانتفعت به وصح جسمي، ولقد كنت أيام تلك الحمية كثيراً ما أترك الشراب بعد الأكل ثلاث ساعات أو أربعاً كما قرأته في كتب الطب القديمة التي لم أكن أعرف سواها، ففيها أن ترك الشرب بعد الأكل من ساعة إلى أربع على حسب اختلاف الأمزجة، أما علماء العصر الحاضر فقد توسطوا وقدروها بساعتين اثنتين غالباً، وقد انتفعت بتلك الحمية ولله الحمد ولكن لما طال الزمن ولم أجد من الأطباء من يؤيد هذا في عصرنا إلا قليلاً حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم، أوَليست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن، أوَليس قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ رمزاً لذلك كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما مع الهواء النقي، والحياة الحرة أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم والإكثار من ألوان الطعام مع الذلة، وجور الحكام، والجبن، وطمع الجيران من الممالك فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون، بمثل هذا تفسر هذه الآيات، وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله، وبهذا فليعملوا وليوصوا الأبناء بالإقلال من اللحم وتحريم شرب غير الماء إلا في أحوال خاصة، وأن يستنشقوا الهواء النقي، ويروضوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية، وليكن جميع الشبان متمرنين عليها، وذلك لا يمنعهم من مزاولة أعمالهم في الحقول والمدارس. ولتتعلم جميع الأمة الأعمال العسكرية، وليست فرق الكشافة في المدارس بمغنية عن ذلك، وليقلل من الإسراف والشهوات فالنعيم في ترك النعيم وإلا فليخافوا من قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى وإلا فلمَ يقول الله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أفلست ترى أن الطيبات وإن كانت حلالاً لنا إذا أكثر الناس منها، كما قال الأطباء في هذا المقام يمسهم المرض في الأجسام والذل في المدن، والعذاب في الآخرة، والقرآن عبر عن هذا كله بقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أوَليس قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ينحو هذا المنحى، وهو أن نفوسهم تمرض وتجبن، وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوهم يقتلهم، وهذا سر تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر رضي الله عنه إذ قال ابن زياد ما معناه: لو اتخذت لك يا أمير المؤمنين طعاماً طيباً ولحماً طرياً لكان أوفق لك؟ فقال: يا ربيع، لو شئت لاتخذت طعامي من الرقاق والصناب، «وهو الزبيب

المصنوع مع الخردل يقوي شهوة الطعام» ولكني رأيت الله عير قوماً فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ﴾[الأحقاف: ٢٠] الآية.

وأقول كرة أخرى: على المسلمين في أقطار المسكونة أن يتعلموا الفنون الحربيه تعليماً إجبارياً وأن يمنعوا من الكسل، ويلزموا العمل، وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمروءة والقناعة. ألم تر إلى أسلافنا العباسيين والأمويين إذ كانوا يرسلون أبناءهم في صغرهم إلى البادية تقوية لأبدانهم وإجادة لصحتهم ونمواً لعقولهم، أوليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم إلى الحمر المتوحشين يعيشون معهم في الجبال مكشوفين لضوء الشمس ونور القمر وجمال الكواكب. هكذا فليفعل المصريون من أهل النعيم وليرسلوا أبناءهم إلى إخوانهم العرب المصريين ليتربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا في جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم ويكون منهم شجعان أقوياء، ولينح هذا المنهج جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولقد بلغنا أن إخواننا الفرس بلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً في هذا الوقت الحاضر، وأنهم يمرنون أبناءهم من إبان صغرهم على الفروسية والإقدام، وهذا من أعظم مقاصد الدين.

أما الاستخذاء للشهوات، فإنما هو الاستعباد بعينه والاسترقاق، فإن الترف داع إلى المعاصي والمحرمات وتجاوز الحدود والاعتداء، وهذه تدعو إلى ترك نصح الناصح والتمادي في الضلال، بل ربما فتك العصاة بمن نهاهم عن القبيح واسترسلوا فيه، بل ربما قتلوا العلماء والحكماء ونفوهم عن الأوطان وشرّدوهم كلّ مشرد، كما ترى في زماننا أن الفسقة والفجار يخلعون العذار ويذمّون الأبرار، وإذا قدروا على سجنهم أو نفيهم أو قتلهم كان ذلك لا محالة، وهذا قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾. فهي مراتب ثلاث بعد المعيشة في البادية: الأولى: الإسراف في الترف، الثانية: العصيان والتعدي، الثالثة: قتل الأنبياء وللأولى الإشارة بقوله: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾، وللثانية الإشارة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ﴾ الخ، وللثالثة الإشارة بقوله: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى.

إيضاح الكلام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ الآية.

يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بدين محمد بألسنتهم وفي قلوبهم الشك ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ جمع نصران ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالأصنام ويقولون إنها شافعة، فالأصنام تقوم مقام الكواكب، والكواكب كأنها أجسام، أو محالّ التصرف للملائكة، والملائكة شفعاء عند الله، كل هؤلاء ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، أي استكمل قوتي العلم والعمل ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

واعلم أن هذه الآية ترشدنا إلى مكارم الأخلاق في معاملة الناس، فإن الجاهل يحقد على من آذاه، ولا يعفو، وينتقم ولو بعد حين، أما العاقل فإنه إذا رجع المذنب عن ذنبه، وانضم إلى جانب من أذنب إليه قبله وانتفع به، فالمنافقون وأهل الكتاب المعادون للأنبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

ومن عجب أن هذا نفسه تفعله الدول، فأي دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد أن ذبحت رجالها، واستحيت نساءها، وقالت لها: إن مصلحتي أن أكون معك، تبدلت العداوة بالمحبة وتصافتا وتضامنا، وهذه هي السياسة التي يقوم بها السوّاس في المدن التي يسير عليها مجموع كل دولة.

وقد قال علماء الأخلاق: لتكن سياسة الإنسان مقيسة على سياسة الأمة، فالفرد كالأمة، هذا كلام علماء الأخلاق، فأما هنا فهي السياسة العليا، والمثل الأعلى، والمقام المحمود، مقام النبوة المنبثق نوره من الجلال الأقدس، والنور الأعلى، والجمال الأجلى، والكمال الذي ليس فوقه كمال، فمتى تاب المرء ذهبت خطيئاته كائنة ما كانت، فلنسر على ما سنه الله ولا نحمل الحقد على من قدم لنا توبة خالصة، ولنعامله، ذلك هو السنن والصراط المستقيم. اهـ.

الياقوتة العاشرة من الفصل الأول

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (٦٩) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

مقدمة لتفسير الآية

روى المفسرون حكاية عن بني إسرائيل كانوا يتوارثونها كابراً عن كابر تهذيباً للنفوس، وحباً للوالدين، وطاعة لله تعالى، ونحن نذكرها مختصرة للفائدة النافعة:

حكي أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل، وكان له طفل، وله عجلة، فانطلق بها إلى غيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى يكبر، فلما مات الرجل وكبر الولد كان باراً بأمه، يقسم ليله ثلاثة أقسام: يصلي ثلثاً، وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً. وفي النهار يحتطب فيتصدّق بالثلث ويأكل الثلث، ويعطي أمه الثلث، فقالت له أمه يوماً: يا بني انطلق إلى غيضة كذا ففيها العجلة التي

تركها لك أبوك ، وأفهمته علاماتها ، فلما ذهب إلى الغيضة عرفها ، وقادها ورجع إلى أمه ، فقالت له : بع البقرة في السوق بثلاثة دنانير على شرط أن تشاورني ، فذهب إلى السوق ، فأعطي أكثر من ثلاثة ، فلم يرض إلا باستشارة أمه ، وقال لطالبها : لو أعطيتني ملء جلدها ذهباً لم أبعها إلا بإذن أمي ، فلما رجع إلى أمه ، قالت : لا تبع هذه البقرة ، فسيكون لها شأن ، واتفق أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر فقتل بنو أخيه ابنه طمعاً في ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاؤوا يطالبون بدمه ، وسألوا سيدنا موسى . انتهت المقدمة .

التفسير اللفظي

فلنشرع في التفسير المبني عليها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ لما سألوه أن يبين لهم ما أشكل عليهم من أمر القتيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي نحن نسألك أمر القتيل وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح البقرة ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ ﴾ أمتنع بالله ﴿ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ بالجواب إذ يجعلونه غير موافق للسؤال ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ ما حالها وصفتها ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ لا مسنة ولا فتية ﴿ عَوَانٌۢ ﴾ نصف : أي وسط بين الصغير والكبير ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ولا تسألوا ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ سله ﴿ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ شديد الصفرة ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ لحسنها ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ أسائمة هي أم عاملة ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إلى المراد بذبحها ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ لا مذللة ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ تحرث الأرض ﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ لا يستقي عليها بالسواقي الحرث ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ من كل عيب ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ لا لون فيها غير لونها ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالبيان التام ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به قبل لغلاء ثمنها ، أو لعزة وجودها بهذه الأوصاف ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ﴾ اختصمتم في شأنها ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ مظهره لا محالة ثم عطف على ادارأتم قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ ﴾ أي القتيل ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ أي بأي بعض كان ، فضربوه فحيي ، ثم خاطب الله من حضروا حياة القتيل ، أو من حضروا نزول الآية فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ للبعث ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائله على كمال قدرته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تمنعون أنفسكم عن المعاصي ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ القساوة الغلظ مع الصلابة كما في الحجر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد إحياء القتيل ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ في قسوتها ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ منها ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ ﴾ يخرج ﴿ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ ﴾ يتصدع ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ أي يتدحرج من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ وقلوبكم لا تتحرك من خوف الله ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم ، حافظ لأعمالهم حتى يجازيهم في الآخرة . انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح هذه الآيات وعجائبها

خالط بنو إسرائيل الأمة المصرية، وأشربوا في قلوبهم العادات الوثنية، والأخلاق الفرعونية، فعبدوا عجولهم، وقدّسوا أصنامهم، ولصقت بهم عاداتهم، ورسخت في طباعهم رذائلهم كما هو شأن المغلوب مع الغالب والضعيف مع القوي، والولد مع الوالد، والتلميذ مع الأستاذ، والجاهل مع العالم، والفقير الضعيف مع القوي الغني، وكما هو شأن الأمم التي استضعفها الأقوياء، واستذلها الباطشون، وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية، فانظر كيف غلب على بني إسرائيل ما علق بأذهانهم، ورسخ في طباعهم من عبادة العجول حتى اتخذوا العجل وعبدوه كما كانوا يرون «أبيس» معبود المصريين، وهذا شأن البشر يتخذون أوهام الغالبين الذين استوثق لهم الأمر، وتم لهم النصر عليهم، وما حال بني إسرائيل في التيه العابدين للعجل إلا كمثل من أذلهم المستعمرون الغاصبون، فتعلقوا بأذيال ظالميهم، وغرهم سرابهم الخادع، وهذا شأن البشر في كل قبيل، وكما يقول المتعلم الشرقي: قال المسيو فلان، والسير فلان، وهم قد ضربوا بيد من حديد، فلم يكن للنبي موسى عليه السلام بدّ من انتهاز فرصة القتيل الذي اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الأغنياء الموسرين، فقال: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها، فضرب بحجرين ورمى الجهل بسهمين، فأنساهم عبادة العجول، وأراهم أن للأموات حياة وبعثاً بعد أن أرهقهم بأمر الله بما وصف من البقرة النادرة العزيزة النظير بعد أن عبدوا العجل الذهبي، وكيف وصف قلوبهم بأنها كالحجارة أو أشد قسوة، وفصل الحجارة عليها بأن قال: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾.

لقد سبق أن ذكر الحجر المضروب بالعصا وهو معجزة نادرة الوقوع صارت على يد نبي، ولقد ألمع في هذه إلى رحمة الله الواسعة، وفضله العميم، وخيره الجسيم، إذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذي سلكه في باطنها مما أمطره السحاب فأصابه البرد فصار ثلجاً يكسر الحجر الصلد، والصفا الملد، وتتفجر الينابيع.

يقول الله: لئن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاي التي أضرب بها ذلك الناموس العجيب، والإبداع الغريب، والنظام البديع، إذ جعلت للماء إذا جمد خاصة لا يشركه فيها سواه، وطريقة لا يسلكها ما عداه، ذلك أنه إذا جمد فصار ثلجاً أكبرت حجمه فكسر الصم الصلاب، وفجر الأنهار. تلك عصا ربك التي يكسر بها الأحجار، وهو عامّ الجود، دائم المعجزات، ما توالى الحدثان، وتناجى الفرقدان، فالمعجزات الإلهية لا نهاية لعددها، ولا آخر لمددها، دائمة لا تبيد، وقائمة لا تفنى، خفيت على الجهلاء، وظهرت للعلماء والحكماء، لا يعقلها إلا العالمون «بكسر اللام»، ولا يدرك كنهها المغفلون، ذلك داع حثيث إلى النظر في العلوم الطبيعية، وعار على أمة الإسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المفجرة للأنهار، الكاسرة للأحجار، كل ليل ونهار، وكل صباح ومساء، في مشارق الأرض ومغاربها، وإلا فكيف اختص الحجر بالضرب، أليس ذلك تنبيهاً للغافلين وتذكيراً للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين، وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعلومهم، كما نسي بنو إسرائيل التوراة المنزلة على موسى، وهو رجل منهم، إن الإنسان ظلوم جهول، يقول الله: إن الماء مخزون في الأحجار ومنها

تنفجر الأنهار، فهلا ضرب شجرة، أو بقرة، أو خيمة، وإنما هداه الله بالوحي إلى ما يبعث في النفوس حكمة، وفي العقول فهماً ليجدّ الناس في العلوم. هذا هو السر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ ﴾ خوارق العادات ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء:٥٩]، ثم يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١].

بمثل هذا تكون الذكرى وبمثل هذا يستيقظ المسلمون ويأخذون حظهم المنشود ويومهم الموعود. تفجر الأنهار من الجبال والأحجار إنما كان بما اختصت به المياه من حكمة الانتفاخ إذا جمدت كما علمت، وتعجب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عليها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج في مخارق الجو وفسيح باحاته، وهي تحمل قطرات الماء الخافية المسماة بالأبخرة الغاديات الرائحات حتى إذا اصطكت بالجبال الراسيات صدّتها وأرجعتها، فحبست ورجعت وكوّنت سحاباً فسقت الحقول والرياض، فأحقل النبات وأثنى وأثلث وتشعب الشجر وفرش وأورق وأزهر وأثمر وأينع، وما أشبه الجبال بالحبوس، أي السدود لتحفظ الماء حتى يسقى الحقل.

الجبل حبس الماء فإذا ردّه وهو بخار نزل ودقاً فسلك في باطن الأرض أياماً حتى إذا أصابه برد تفجر ينابيع. عجب للماء وأي عجب تجريه في الجو الحرارة الشمسية، وتزجيه الرياح ويحبسه الجبل، ثم يخزنه في كهوفه والمغاور المستكنة تحته، والبرد يخرجه. أليس من عجب أن الحرارة تجريه بخاراً، والبرد يجريه ماء.

هذه هي المعجزات وهذه هي الآيات، فيا حسرة على المسلمين نسوا حظهم من الحكمة، ونسوا حقهم في الوجود، يا حسرة على بلاد الإسلام جهلوا العلم وناموا في المهود وسكنوا اللحود، قوموا من مراقدكم، وانظروا ما أبدع القرآن، وكيف يقول: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

فإن كنت جاهلاً فلا تتعدّ حجر موسى وعصاه، وإن كنت عالماً فما أحراك أن تتغلغل في الحكمة وتنظر في العالم وما حواه وتردد الطرف، وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله، والنواميس الطبيعية عصيه واقرأ الطبيعة فلقد نبهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الأنهار منها أن تنظر نظرات ولا تكن من أولي الجهالات.

عجائب القرآن وغرائبه

إن هذه القصة المحكية عن بني إسرائيل معجزة لنبي الله موسى عليه السلام ذكرت هنا في القرآن كسائر قصص الأنبياء، وهنا يتساءل الإنسان قائلاً: أي فائدة نجنيها من هذه القصة، اللهم إلا أن تتلى في المحافل والمجالس الدينية، ولكن القرآن إنما جاء ذكرى وعلماً وحكمة، فأين العلم وأين الحكمة هنا، فربما يجاب كما أجبنا أن فيها فائدتين:

الأولى: أن البقرة عبدها المصريون، فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم أن ما يذبح ليس بمستحق العبادة.

الثانية: أن الأرواح أحياء بعد الموت، فيكون ذلك دليلاً على بقاء النفوس حية كما قلناه هنا.

ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمقنعتين ، لأن عبادة البقر ليست شائعة الآن في الإسلام ، وإحياء الميت بضربه ببعض البقرة أمر سماعي يأخذه المؤمنون بالتسليم ، فلا بدّ إذن أن يكون وراء هذا القصص أمر نافع .

أقول : اعلم أن معجزات الأنبياء لا بد أن يكون لها عند الناس مبادئ بها نعقلها . ألا ترى أن الإمام الغزالي يقول : لولا أن الناس يرون رؤيا صالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم ، وأنها وقعت كما رأوها ما صدقوا الأنبياء في أخبارهم بالغيب .

فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس ، وهو يتلى صباحاً ومساءً وتمرّ عليه السنون والأعوام ، والناس يؤمنون به تقليداً وتصديقاً واتباعاً ، ولا يجسر أحد من المؤمنين أن يقول : لم كان كذا فيما لم يدركه فهمه حتى إذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فأبرزه للناس .

إن في هذه السورة أربع عجائب : عجيبة الربا ، وعجيبة الخمر ، وعجيبة إحضار الأرواح ، وعجيبة التنويم المغناطيسي .

أما عجيبة الربا فستأتي في آخر السورة ، وقد ظهر هناك أن الحرب الكبرى بين الألمان ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رؤوس الأموال التي كانت «البنوك» المصارف والربا أهم مقوم لها ، وهكذا استعباد الدول القوية للأمم الضعيفة ، وظهر «البلشفيك» في بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رؤوس الأموال وأبطلوا الربا ، فسيأتي هناك في الآية المذكورة في الربا ، وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين .

وقلنا قوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٩] يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رؤوس الأموال . وبالإجمال أقول : إن الربا ظهر ضرره بأوضح معنى في هذا العصر ، وقامت الروس بتحريمه ومنعه بتاتاً ، والمسلمون في جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه ، بل إني رأيت من أفاضل المصريين المعاصرين لي من كانوا يرون أن القرآن في تحريمه للربا كان من أسباب تأخر المسلمين ، فلما سمعوا بانقلاب دولة الروس وتحريم الربا ألجمت أفواههم بالأحجار .

وأما الخمر فسيأتي تحريمه في هذه السورة ، وأنت ترى أن المسلمين كانوا يختلفون في بعض أنواعه ، وهو النبيذ . وترى الأطباء قد يبيحون تعاطيه لمرض ، والمسلمون في أقطار الأرض يخالفون ، ومنهم من كانوا يتعجبون من القرآن ولم حرمه ، وأوروبا وهي أعلم منا تشربه ، حتى قامت أمريكا في هذا العصر فمنعت شربه بجميع أنواعه ، وأسكتت جميع الأمم واتبعتها حكومة الترك ببلاد الأناضول التي يرأسها الغازي مصطفى كمال باشا ، وقد استولوا على الأستانة وحرّموا فيها الخمر تحريماً باتاً في هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر ، فانظر كيف كان الخمر محرماً ألف سنة وثلاثمائة فأكثر ، والناس منهمكون في شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ، ولا تمنعهم الحكومات الإسلامية ، ولم تظهر الثمرة المطلوبة إلا على يد أمم أخرى عرفته بعقولها لا بأديانها .

أما مسألة التنويم المغناطيسي الذي عمّ الكرة الأرضية وصار علماً يدرس رسميًا ويستعان به في علم الطب ، فسيأتي عند الكلام على هاروت وماروت .

وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه، إن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوروبا ثانياً. فلأذكر نبذة منه لتعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم أن من صحت عنده أحوال الأرواح وظهورها أيقن بالآخرة وبالحياة بعد الموت إيقاناً تاماً. وأما من لم تصح عنده فإنه مقلد كسائر الناس، ولتعلم أن هذا العلم متشعب اختلط فيه الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار الناس فيه طائفتين: طائفة مكذبة وطائفة مصدّقة، ولكل حجج ليس هذا محلها، ولكن بالإجمال أقول: إن في العلم التباساً كثيراً وشكوكاً بسبب الأحوال الطارئة على المشتغلين به، وكان الأولى بأمة الإسلام أن تكون السابقة في مضماره، الجدّة في تعلمه، المتقدمة على سائر الأمم في تحصيله لتهدي الناس إلى سواء الصراط.

أفلا يرى المسلم ما جاء في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وفعل إبراهيم ذلك، وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمأن، وهل نحن أكثر إيماناً من إبراهيم؟ كلا، فإذا كان إبراهيم يطلب اليقين بالمعاينة فنحن أولى، والأنبياء أعلم منا، فكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم إحضار الأرواح لا أمريكا، لأن الله ذكر لنا في سورة البقرة هنا أنهم ضربوا القتيل فحيي وأخبر بمن قتله، وهو الذي كان وارثاً له فحرم الميراث، وإذا صح هذا في نفس واحدة فجميع الأنفس يجب أن تكون كذلك وأنها حية بعد الموت، وليس يمكن أن يكون هذا يقيناً إلا إذا رأيناه بأنفسنا في زماننا بلا شك، وأنّى لنا ذلك إلا بالكد، والنصَب، والتعب، والسهر ليلاً ونهاراً في العلم والعمل.

ولقد ألفت كتاباً سميته «كتاب الأرواح» ضمنته: ما ورد إلينا من أوروبا وأمريكا من كيفية إحضارها، وهكذا ما يقابل ذلك مما ورد في القرآن والحديث وكلام الصالحين، فرأيت اتفاقاً بين الأمتين فلأنقل لك الآن ما جاء في التوراة من إحضار الأرواح مثل ما في عصرنا تماماً، ثم أتبعه بنبذة مما في كتاب الأرواح الذي ألفته في تاريخ هذا العلم، ولست أريد بذلك أن تقلد ما أقول، ولكن يجب أن يكون في المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله، والدار الآخرة، لا عرض الدنيا، ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الأرواح لأجل العلم والمعرفة ولا يتكلون على أوروبا وأمريكا ويميزون الخبيث من الطيب.

وطرق التحضير واضحة في كتاب الأرواح المذكور، فلأبتدئ لك الآن بما جاء في التوراة في سفر صموئيل الأول، واليهود والنصارى معترفون بنبوته مصدقون به، ويذكر في هذا السفر أنه نصب لليهود ملكاً، يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل إلا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك، ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرّافين فقتل من قتل وهرب من هرب، وأقبل أهل فلسطين لمحاربته فجمع العرافين لهم، ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه، ولم يجد من يسكن إلى قوله كعادته من نبي ولا ساحر ولا عراف ولا حاكم، فقلق لذلك. قال في التوراة: ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً، فسأل من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا

بالأنبياء، فقال لعبيده: فتشوا لي على امرأة صاحبة جانّ، فأذهب إليها وأسألها، فقال له عبيده: هاهو ذا امرأة صاحبة جانّ في عين دور، فتنكر طالوت ولبس ثياباً أخرى، وذهب هو ورجلان معه وجاؤوا إلى المرأة ليلاً، وقال: اعرفي لي بالجانّ، وأصعدي لي من أقول لك، فقالت له المرأة: أنت تعلم ما فعل طالوت، كيف قطع أصحاب الجانّ، والتوابع من الأرض فلماذا تضع شركاً لنفسي لتميتها، فحلف لها طالوت بالرب قائلاً: حيّ هو الرب لا يلحقك إثم في هذا الأمر، فقالت المرأة: من أصعد لك؟ فقال: أصعدي لي صموئيل، فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم، وكلمت المرأة طالوت قائلة: لِمَ خدعتني، وأنت طالوت؟ فقال لها الملك: لا تخافي فماذا رأيت، فقالت المرأة لطالوت: رأيت شيخاً مهيباً مثل ملائكة الرب مشتملاً ببرنس قد صعد من الأرض، فعلم طالوت أنه صموئيل أرسله الله، فدخل إليه وسجد بين يديه، فقال صموئيل: يا طالوت لم أرجعتني وأحييتني، قال: لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي، وزوال عناية الله عني، ومنعه الأحلام مني، فدعوتك لأشاورك في أمري، فقال صموئيل: إن الله تعالى قد نقل الملك عنك إلى صاحبك داود وغضب عليك وعلى بني إسرائيل بما فعلتموه في مواشي العماليق، وهو ناصر فلسطين عليكم ومديلهم فتصير معي غداً في الأموات فخرّ مغشياً عليه وعرفته الساحرة فأقبلت إليه، ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل، وهو يمتنع منتظراً الموت حزيناً كئيباً فلم يزالوا به حتى رضي فذبحت عجلها المسمن في البيت وصنعت فطيراً فأكل. ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم، وقتل طالوت وبنوه الثلاثة، وكان قتله هو أنه اتكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود فدافع بهم من ناوأهم.

هذا ما قرأته في كتب أسلافنا عن التوراة. وقد وضعتها بين يدي عند كتابة هذه الحكاية، فرأيت الموافقة تامة إلا في بعض عبارات لا تضر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين، هذا هو تحضير الأرواح في التوراة.

أما ما جاء في العصر الحاضر الذي يناسب مسألة القتيل الذي ضربوه ببعض البقرة، ومسألة إبراهيم الخليل وقوله لله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة: ٢٦٠] ومسألة صموئيل النبي مع طالوت المعبر عنه بلفظ شاول في التوراة الذي ذكرنا قصته الآن فهاكه.

قلت في كتاب الأرواح: قال شير محمد: هل يذكر لي الأستاذ كيف كان بدء هذه الحركة في العالم الحديث؟ قلت: إن هذه الحركة بدأت مع الإنسان على ظهر الأرض وعاشت مع الأمم دهوراً وأحقاباً، فلما كانت هذه القرون الحاضرة وأظلمت الدنيا، واسودّ وجه الحقيقة، وأخذ الناس يجهرون بالإلحاد، أرسل ربك لهم عجائب، وبثّ لهم من الأرض غرائب، انبعثت لهم من عوامل الغيب، وسطعت الحقائق، وأشرقت الأرض بنور ربها في سنة ١٨٤٦م، ذلك أنه سمع في تلك السنة طرقات متوالية في بيت رجل يسمى «فيكمان» من قرية «هيدسفيل» في نواحي ولاية نيويورك، وتوالى ذلك ليالي ذوات عدد، فذعرت تلك الأسرة، وقذف في أفئدتهم الرعب، فهجروا المكان بعد أشهر، فسكنت الدار أسرة «جون فوكس» المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه، فعادت الطرقات وتوالت الضربات،

وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الأصوات المزعجة، ثم اهتدوا إلى سبيل الرشاد إذ علموا أن تلك أفعال ناجمة عن عقل، فاصطلحوا مع مصدرها على لفظ «نعم» ولفظ «لا» بطرقتين وثلاث، ففهموا أنها روح أصابها شرّ قد قتلها رجل في هذا البيت والذي كشف ذلك «مدام فوكس» والقتيل الطارق يدعى «شارل ريان» قتل منذ أعوام عديدة في ذلك البيت، وكان في حياته دوّاراً قتله من كان يبيت عنده لسلب ماله، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة، ثم شاع الخبر وذاع، واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها، وقالوا: إن هذا لكذب مبين، وانتقلت عائلة «فوكس» إلى قرية «روستر» من الولايات المتحدة، وشاع الخبر وذاع، وثار علماء الدين والملحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتيها، وتعرضن للموت مراراً، فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة، فأعلنت أنه لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال. فهاج الشعب وعيّن لجنة أخرى، فقررت كالأولى، وعينوا ثالثة، فأذعنت كسابقتيها، فهمّ الطغام بإهلاك الابنتين، وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة، ولكن الابنتين لم يصبهما ضرر، وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزء والسخرية بهذا العمل، ومن العجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب في سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يخلو بيت من وسيط أو وسيطة تخابر القوم على يده الأرواح، وقد يجلسون حول منضدة، ويتلون أحرف الهجاء، وعند وصولهم إلى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها، ولم تمض سنة ١٨٥٤ أي بعد الحادث بثمان سنين حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الأعيان الملتئم في مدينة وشنطون، فقد رفعت عريضة طويلة مذيلة بخمسة عشر ألف اسم، هاك صورتها صفحة ١٦ من كتاب «المذهب الروحاني»:

«نحن الواضعين أسماءنا بذيله أبناء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، نعرض لمجلسكم الموقر أن حوادث طبيعية وعقلية لا يعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل في هذه البلاد وفي أكثر أنحاء البلاد الأوروبية وتكاثرت هذه الحوادث السرية في شمالي الولايات المتحدة وغربيها ومتوسطها حتى أقلقت الرأي العام، ولما كان الموضوع الذي نلتمس من جمهوركم الموقر الالتفات إليه لا يمكن شرحه في هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول:

أولاً: إن ألوفاً من العقلاء المدركين شهدوا قوة خفية تحرك أجراماً ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة في الظاهر للنواميس الطبيعية، ومتجاوزة حدود الإدراك البشري، ولم يتوصل أحد حتى الآن إلى إيجاد علة خصوصية أو مقاربة لهذه الحوادث.

ثانياً: إن أنواراً مختلفة الشكل والألوان تظهر في الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كيماوي، أو تنوير فسفوري، أو سيال كهربائي.

ثالثاً: إن نوعاً غريباً من هذه الحوادث نلتمس من مجلسكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الأصوات في تكرارها وأنواعها، وأهمية معناها، فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عاقل غير منظور، وبعضها تحاكي الأصوات التي تدوي في بعض المعامل الميكانيكية، أو تتحول إلى دوي أشبه بصرير الريح العاصفة تتخللها فرقعة صواري المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانه حين هبوب العواصف وأحياناً تصير الأصوات شبيهة بقصيف الرعد وإطلاق المدافع، وترتج عندها الأشياء المجاورة، بل

البيت ذاته الذي تقوم فيه تلك الحوادث، وفي بعض الأوقات تكون الأصوات شجية، تماثل تارة الصوت البشري، وتارة آلات الطرب كالمزمار والطبل والبوق والقيثارة والعود والأرغن، تصدر إما جملة وإما على حدة، وتارة مع عدم وجود الآلات المذكورة، وطوراً مع وجودها، ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها، وتصدر هذه الأصوات وفقاً للمبادئ العلمية المنوطة بقوة السمع أي حدوث تموجات هوائية تلتطم بأعصاب السمع، وإنما لم يتوصل الباحثون رغماً مما بذلوه من الجهد في استجلاء مصدر لهذه التموجات الهوائية، ونرى من المناسب أن نشير إلى المبدأين اللذين افترضا في حل هذا المشكل، فالأول إعزاء الحوادث إلى أرواح الأموات، وفعلهم في العناصر الدقيقة الأولية المائلة والسارية في كل الأشكال الهيولية، وهذا ما شرحه العامل السري ذاته حين طلب إليه إيضاح ذلك، وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بآدابهم، وقوة ذكائهم، ومركزهم الرفيع في السياسة والهيئة الاجتماعية، وأما أصحاب المبدأ الثاني ولأكثرهم أيضاً رفيع المنزلة في القوم فهم ينكرون الزعم الأول ويذهبون إلى أن مباحث العلماء لا بد من أن تنير بقوة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بإيجاد سبب حقيقي مستوفي الشروط لكافة الحوادث المنوّه عنها.

على أننا وإن كنا لا نوافق على رأي هؤلاء وقد توصلنا بقوة البحث إلى نتائج مختلفة لكل علة طبيعية للحوادث التي نحن بصددها، نؤكد لجمهوركم الموقر أن الحوادث جارية حقاً وصدقاً، وأن مصدرها السري، وغرابة وقوعها، وأهمية تأثيرها في صوالح الجنس البشري تستوجب بحثاً علمياً مدققاً لا يعتريه الكلل، ألا يستطيع كل عاقل أن يفكر ما مقدار الحوادث التي نحن بصددها من الإتيان للشعب الأمريكي بنتائج مهمة ثابتة تتعلق بأحواله المادية والعقلية والأدبية، ثم ماذا يكون لها من التأثير في أصول الصحة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تؤول إلى تغيير أصول معيشتنا وإصلاح مبادئ إيماننا وفلسفة عصرنا، وتبديل هيئة إدارة العالم، وإذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن نقصد دائماً نوّاب الشعب في المسائل التي يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتي بنتائج مذهلة للهيئة الاجتماعية، أتينا نحن أبناء الوطن نلتمس بإلحاح من جمهوركم الموقر إنارة بصائرنا في هذه الظروف الغريبة، وذلك بتعيين لجنة كاملة مهما يلزم لها من النفقات في سبيل استجلاء هذه الغوامض، وإننا لمعتقدون أن صوالح الهيئة الاجتماعية سينالها الحظ الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التي التمسنا إقامتها، ولنا مزيد الثقة في استصواب طلبنا، وإجابة ملتمسنا، من لدن مجلسكم الموقر» مذيل بخمسة عشر ألف اسم. اهـ.

ثم اعلم أن هذا العلم عمّ الولايات المتحدة حتى صار المذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٢٠ مليوناً في الولايات المتحدة، وعدد الشركات الروحانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و٢٠٧ خطباء و٢٢ وسيطاً عمومياً، ومن علمائهم الحاكم «أدمون» كان رئيس القضاة، وانتخب مراراً في مجلس الأعيان، والعلامة «روبرت هير» الأمريكي، الطائر الصيت وألف كتاب «أبحاث عرفية في ظهور الأرواح»، والعلامة «روبرت دال أوين» وألف كتاباً سماه «عثار في حدود عالم الغيب». وكان في تلك البلاد في آخر القرن الماضي نحو ٢٢ جريدة ومجلة تنقل إلى القراء

أخبار أعمالها، ولم يكن ليبحث أحد من العلماء هذا البحث إلا لينقذ الناس من الضلال بما آتاه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية، ولما ملأ هذا الحادث أرجاء الولايات المتحدة بلغ صدى صوتهم آذان الإنجليز، فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتنقيب عسى أن يخرجوا العالم الإنساني من الظلمات إلى النور بتفنيد هذا السحر، وإبعاد هذا الظلام، وقشع السحاب الذي غشى على الإنسان فحجب عنه نور العلم، وأذاع فيه الخرافات والأكاذيب، فقام العلامة الطائر الصيت «وليم كروكس» من أعظم الكيماويين والطبيعيين المكذبين بهذه الأساطير، والعلامة الفرد «روسل والاس» قرين «داروين» الشهير والمساعد له في أعماله. فقال شير محمد: قرين داروين، فقلت: نعم، فقال: أفّ للمقلدين كيف يصبح والاس قرين داروين مؤمناً بالبعث، وهؤلاء الذين يدّعون أنهم قرؤوا مذهب داروين ينسبون كفرهم إليه، ألا تعس الجاهلون الذين لا يعقلون.

ثم قلت: ومنهم العلامة «أوجست دي مرجان» رئيس جمعية الرياضيات في لوندرة، وكاتم أسرار المجمع العلمي الفلكي، ثم السير «فارلي» مخترع آلة المستودع الكهربائي، والمجمع العلمي المنطقي الذي تأسس في لوندرة سنة ١٨٦٧ قرر في جلسته المنعقدة في ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب إقامة لجنة للنظر في الحادث الروحاني، والوقوف على صحة الأمر ودرسته ١٨ شهراً متوالية، ولقد دهشت الأمة الإنكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث، ولقد ألف والاس الآنف الذكر كتابه الذي سماه «عجائب الروحانية الحديثة». ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور جورج ساكستون الخطيب المصقع الذي بعد أن عابها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال: لقد أيقنت بالروحانية، وحادثت أقاربي وأصدقائي المتوفين. وكذا الدكتور «شامبرس» والعلامة «ميرس» وهناك «جمعية المباحث النفسية» ولها مجلة تسمى «أشباح الأحياء».

ولقد حصل في فرنسا مثل ما كان في أمريكا وإنجلترا، فقد قام بالأمر منهم البارون «جيلد نستويه» وألف كتاباً سماه «حقيقة وجود الأرواح» ظهر في سنة ١٨٥٧، أي بعد الحادث الأمريكي بنحو ١١ سنة، و«أجيسبت فاكيري»، ألف كتاباً سماه «شتات التاريخ» على ذكر الامتحانات الروحانية، وكذلك: فكتور هوجو» شاعر الفرنسويين إذ قال: إن من أعرض عن الحادث الروحي فقد أعرض عن الحقيقة، وكذا المؤرخ «أوجين بوشير»، والعلامة الفلكي «فلاماريون» الفلكي الطائر الصيت، والعالم «موريس لا شاتر» مؤلف القاموس الذي باسمه، والدكتور «جيبيه» الطبيب الشهير.

ثم فشت الروحانية في ألمانيا وروسيا وإيطاليا والبلجيك وإسبانيا والبرتغال وهولاندة وأسوج ونروج. هذا ملخص ما جاء في كتاب «المذهب الروحاني» الذي هو خير كتاب ألف بالعربية لعلم الأرواح في هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث في النصف الثاني من القرن الماضي.

هذا ما في هذه العصور من العلوم الخاصة بالأرواح، وتعجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت في قصة الخليل كما ذكرناه، وأنه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحمها بعظمها وريشها، ثم يدعوها فتحيا، في أواخر هذه السورة. وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون، وهذه معجزات لنبي، وذلك النبي أراد أن يطمئن قلبه بالمعاينة بعد الإيمان. ولا جرم أن إيماننا أقل من إيمان الأنبياء، فنحن أولى بطلب

المعاينة، وطريق الخليل فيها مقفل بابها علينا، فمن فضله تعالى هنا أن القتيل قد حيي بضربه ببعض البقرة، وهذا فتح باب لإحضار الأرواح، فكأنه يقول في مسألة إبراهيم: اطلبوا الحقائق لتطمئنوا، وهنا يقول: اسلكوا السبل التي بها تستحضرونها، ولا تنالون شيئاً من هذا إلا بجدكم وكدكم، فالعلم لا ينال إلا بالمشقة والنصَب، فإذا وجدتم أن طريق موسى في إحياء الموتى يصعب عليكم، فالتمسوا غيره ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم:٣٩] هذا ما بدا لي في هاتين الآيتين للخليل وموسى الذي سار على قدم جده في النبوة، فحيي الميت على يديه. وفي السورة آيتان أخريان في إحياء الموتى، وهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾[البقرة:٢٤٣] والآية الأخرى نزلت في العزير إذ قال في بيت المقدس: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ ﴾ [البقرة:٢٥٩]، ثم نظر الطعام الذي كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا، وصار ينظر إلى حماره وهو يحيا، وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحماً، فعلم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:٢٥٩].

فالمسلم إذا قرأ هذه الآيات التي حكيت عن بني إسرائيل يقول في نفسه: أنا آمنت، فإن كان من العامة لم يطلب المزيد، وإن كان من الخاصة قال: أنا أطلب المعاينة والمشاهدة، والمشاهدة بإحدى طريقتين: الطريقة الأولى: ما سلكه المجاهدون الزاهدون، ولكنها محفوفة بالخطر، ومن شاهد منهم شيئاً لا يمكن لغيره التصديق به. الطريقة الثانية: طريقة استحضار الأرواح، وهي عامة كما تقدم في هذا المقام، ولكن استحضار الأرواح أيضاً على ما يقولون صعب المنال، ويقولون: إن الأرواح النقية لا تخاطب إلا قلوباً نقية خالصة، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا إلى أن المدار على الإخلاص والصدق، وطلب الحقيقة والتوجه لله ؛ فهذا هو الأصل عند الجميع.

ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب عليهم حب الدنيا تحضر إليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار هممهم وتكلمهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية كما أن المجاهد من الصوفية لا ينال الزلفى إلا باحتقار العالم الفاني، ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك، فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] فاقتدوا بهم في تعلم ما تطمئنون به وتوقنون، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء في طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس، فإن هذه الأمور إنما تعرف بالتجربة والعمل، لا بالقياس العقلي ولا بالنظر والحدس الفكري.

مراتب التصديق أربعة

الإيمان: البحث العقلي بطرق الحكماء: طريق الصوفية، طريق استحضار الأرواح، وأعمها الإيمان، وأهمها طرق الصوفية.

ولعل قائلاً يقول: لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزد علماً، ويقول آخر: لقد أخذت في طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل. أقول: أنتما تلميذان سقطا في الامتحان، وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز، وأخذوا شهاداتهم بأيديهم، فنحن إلى الأخذ بأقوالهم أميل، وليس لكما إلا أن تسلكا سبيل النظر والعقل بطرق الحكماء، فإن قلتما أيضاً: ليس لنا بها طاقة. أقول: لم يبق إلا الإيمان والأذكياء وأنتما منهم، عليهم أن يبحثوا فليس لكما إلا الإلحاد والكفر اللذان إنما أنبتهما الكسل واللذات فأثمرا أمانيّ وضلالات ويأساً من الحياة.

ولعل قائلاً آخر يقول: ما لنا ولهذه المباحث التي لا طائل تحتها، ولا تجدي نفعاً، ولا تنفع جاراً ولا توري ناراً. أقول له: ليس لنا ما نهتم به إلا دوام حياتنا، والناس إن لم يبحثوا في هذا لم يفعلوا شيئاً، وكانت علومهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثوراً في الهواء، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[النبأ: ١-٣]. والنبأ العظيم هو البعث، وبعبارة أخرى: حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني

إلى هنا قد أتممنا القول في الفصل الأول ويواقيته، وقد آن أن نشرع في الفصل الثاني وجواهره، وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو خمس جواهر.

الجوهرة الأولى، والثانية، والثالثة

قوله تعالى:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٨٢﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أي التوراة ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ كما حرفوا صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ علموه وفهموه ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم يغيرونه، ثم ذكر منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي المخلصين من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ بأنكم على الحق وأن محمداً هو الرسول ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي الذين لم ينافقوا إلى الذين نافقوا منهم ﴿ قَالُوا ﴾ عاتبين عليهم ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم ﴾ أتخبرون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذه حجة عليكم ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها ﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ استثناء منقطع، والأمانيّ جمع أمنية، أي: أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرفين ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ لا علم عندهم ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلاً ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي المآكل والرشا ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا ﴾ أي اليهود ﴿ لَن تَمَسَّنَا ﴾ لن تصيبنا ﴿ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ سبعة آلاف سنة على مقدار أيام الدنيا في زعمهم، أو أربعين يوماً عدد التي عبدوا فيها العجل ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لليهود ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ موثقاً بذلك ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ ﴾ إثبات لما بعد حرف النفي، أي تمسكم النار ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي أشرك ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أوبقه شركه ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ أهل هذه الصفة ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أهل النار ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون لا يموتون ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

يقول: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أي لا تطمعوا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم، وقد كانت طائفة منهم وهم الأحبار، يسمعون التوراة، ثم يحرفون كلامه من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم مفترون وإذا لقي منافقو اليهود الذين آمنوا قالوا آمنا أن محمداً نبي، كما ورد في التوراة، وإذا رجع بعضهم إلى بعض، قال الرؤساء للذين نافقوا: أتحدثون المؤمنين بما عرفتم في التوراة من نعت محمد ليقيموا عليكم الحجة به عند ربكم يوم القيامة في ترك اتباعه مع علمكم بصدقه، أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم، ثم قال: أيلومونهم ولا يعلمون الخ، ثم قال: ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة إلا أكاذيب، وما هم في

جحد نبوة النبي وغيرها من المسائل إلا يظنون ولا علم عندهم، ثم قال: فويل، أي شدة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبي ﷺ من كونه ربعة، جعد الشعر، أكحل العينين، إلى كونه طويلاً، سبط الشعر، أزرق العينين، وقد كتبوه في التوراة بأيديهم وينسبونه لله ليشتروا به ثمناً قليلاً من المال، فويل لهم من ذلك الاختلاق، وويل لهم من المكسب، وقالوا: لن تصيبنا النار إلا أياماً قليلة، أربعين يوماً مدة عبادة آبائنا العجل، قل لهم يا محمد على سبيل الاستفهام: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ والهمزة هنا للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة، والعهد الميثاق، أم تقولون: أي بل أتقولون على الله ما لا تعلمون. وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي تمسكم النار وتكونون خالدين فيها من كسب شركاً وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كل جانب فمات مشركاً الخ.

لا جرم أن لكل أمة ثلاثة طوائف: ١- كبراء سادة. ٢- أميون. ٣- ذوو لسن ماكرون. وبعبارة أصرح علماء، وذوو مكر، وأميون، هكذا اليهود فإن طوائفهم الثلاث من الأحبار، والأميين وذوي الدهاء قاموا قومة رجل واحد لإيذاء النبي ومعارضة دعوته كأنهم في حربهم السلمية بنيان مرصوص، فأضل العلماء بالتحريف في معاني التوراة التي أيدت النبي صلى الله عليه وسلم، وكاد الماكرون، ونافق الخادعون، وقلد الأميون الذين تلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الأفواه أراجيف فرعوها، أتباع كل ناعق، وأشياع كل غالب، ووقود كل حاطب. ولما كان العلماء قدوة الحزبين شدد النكير عليهم، وأنزل الصواعق من سحاب الغضب بهم ورماهم بشرر من عذابه، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية، وكرر الويل تكريراً وأعد لهم عذاباً وسعيراً.

فكر أيها الأخ في هذه الآيات وتدبرها وكررها، وتأمل كيف يضل علماء الدين أمتهم لتسهيل الذنوب وتهوين القبائح والعيوب فيستخذون للشهوات، ويرتطمون في اللذات إذ يقولون لن ندخل النار إلا أربعين يوماً إذ عبدنا العجل فيها، أو سبعة آلاف سنة مدة عمر الدنيا، فيغترّ بها الجهلاء، ولعمري أين المناسبة بين عبادة كفر بها قدماؤهم، وبين ذنوب اجترحوها وسيئات مكروها، ولقد كذبوا في الدعوتين كما كذبوا في تحديد مدة الدنيا، وهي أضعاف أضعاف ما قالوا، وقد آن أوان أن نفسر آيات الأخلاق التي عليها نظام الأمة الإسرائيلية.

الجوهرة الرابعة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الميثاق العهد المؤكد ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ إخبار في معنى النهي ﴿ وَ ﴾ أحسنوا ﴿ بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ براً بهما ورحمة لهما ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ جمع يتيم وهو الذي فقد أباه قبل البلوغ، ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ الذين أسكنتهم الحاجة، ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن الميثاق ورفضتموه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عادتكم الإعراض والتولية عن المواثيق ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾ في الكتاب ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم ﴾ أي بعضكم بعضاً ﴿ مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾ من منازلكم ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ بهذا العهد أنه حق ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ يا معشر اليهود ﴿ تَشْهَدُونَ ﴾ على ذلك ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يقتل بعضكم بعضاً ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ أي يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم ﴿ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ ﴾ بالمال وهو استنقاذهم بالشراء ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ الضمير مبهم يفسره ما بعده ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ بفداء الأسرى ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ بالقتال والإجلاء ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ ﴾ فضيحة ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي عذاب النار ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تأكيد للوعد ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فلا يهون عليهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بدفعه عنهم. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

لكل أمة ثلاث أحوال: أيام سعادة وهناء، وأيام اضطراب وعناء، وأيام زوال وفناء. هذا قانون عام وناموس لا يتبدل، وهو سنة الله ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[فاطر:٤٣]، وقد أوضحتها هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع.

الحالة الأولى: أيام السعادة والهناء، وذلك ثمانية أصول: عبادة الله، وإكرام الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام اليتيم، وبر المسكين، وحسن العشرة بالقول الجميل مع سائر الناس وإقامة الصلاة وهي داعية للائتلاف وكذلك الزكاة، وهما عماد الائتلاف والمحبة، فضلاً عن القرب من الله.

الحالة الثانية: أيام الاضطراب، ثم أنتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقاً ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم، أفتأسرون وهو حرام، وتفدون وهو مرغوب، وهاهنا لا مناص من خراب الديار وحلول الدمار، وهي الحالة الثالثة.

الحالة الثالثة: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ ﴾ إلا تشتيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لإضلال العلماء وظلم الكبراء.

لطيفة

لما كنت تلميذاً بمدرسة دار العلوم في السنة الرابعة أمرني أستاذي المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب في تفسير هذه الآيات مقالاً فامتثلت أمره وكتبت نحو ما يأتي، فلما عرضته عليه أقرّه ونشرته بعد ذلك في جريدة اللواء، ثم في المؤيد، وصارت في ضمن المقالات التي في كتاب النظام والإسلام، فأحببت نشرها هنا لأنها بهذا المقام أليق فأقول:

كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد

من تأمل في آيات القرآن وما في القصص وغضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدد شملها، رآها صرّحت أو لوّحت بكل ما يشاهد في الغالبة والمغلوبة الآن، ولنذكر منها آية فيها أخذ العهد على بني إسرائيل وأمرهم باثني عشر أمراً فلم يعملوا بها إلا قليلاً، ولنقدم قبل ذكرها مقدمة فنقول:

لكل أمة ثلاث درجات:

الأولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتئم بعواطف المودة والمحبة بصلة الأرحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة في النفوس فيحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة.

الدرجة الثانية: أن تقطع الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القومية كما في آية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٢-٢٤] ويدبّ في الأمة داء الفساد في القلوب، ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملي، فتحافظ على كيانها العمومي ونظامها الدستوري، فلا يقتلون ولا يتخذون الأعداء أولياء، ولا يفعلون ما يخلّ بالنظام العمومي.

الدرجة الثالثة: أن تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام معاً، فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون بيوت إخوانهم بأيديهم، وهذه الحالة تورث الخزي في الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها في سلطان من يسومهم الخسف، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾[طه:١٢٧]، ولنتل عليك الآية الآن وهي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

فهذه الصفات الثمانية إشارة إلى الدرجة الأولى في الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب إلى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ثم أعقبه بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يسفك بعضكم دماء بعض ولا يخرج فريق الآخر ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، وهذه إشارة إلى الدرجة الثانية، ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة، وهي تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية، ودثور النظامات الدستورية والأحكام العادلة فقال:

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ .

ألا وإن اختلال الأعمال الناشئ من تفرّق القلوب موجب لوقوع الأمة في سيطرة غيرها، وهو بلا ريب موجب للخزي في الدنيا، والنكال في الآخرة، مع أنه من تمام نظام الحياة الدنيا، إذ لا يجوز أن تبقى الحكومة أمداً طويلاً على الظلم والتخبط في الأحكام، إذ للناس رب أراد بقاءهم إلى أجل مسمى، فمن لم يقوموا بما عهد إليهم من الملك وتركوا الناس يبغي بعضهم على بعض، قيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم، ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود:٥٦] . فمثل الأمة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل الدواب التي لا علم لها بنظام نفوسها، فسخر الله لها الإنسان العاقل فقام بأمرها، ولما كانت تلك سنة الله في خلقه، ومقتضى نظامه، وطبيعة عمرانه، أردف ما تقدم بقوله: ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾، ومحصل ذلك أنهم عملوا ببعض الكتاب، وهو فك الأسرى من إخوانهم وتركوا البعض الآخر، وهو النهي عن القتل والمظاهرة والإخراج من الديار، وهذه كانت حال طائفتين من اليهود، وهم بنو قريظة والنضير، وكانوا حلفاء الأنصار في المدينة، وهم الأوس والخزرج، فكانت قريظة حليفة الأوس والنضير حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم إخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظلماً وعدواناً، ثم يفدون الأسرى بعد ذلك، فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، فكان جزاؤهم ما قصه الله تعالى، وليس ذلك خاصاً بأمة اليهود، بل هو مقتضى نظام الكون، وليس أمراً من الخوارق.

صفة حكام الأمم الظالمة وعلمائها

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على الله في غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بأن يحسن حالهم ويأتي لهم برزقهم رغداً من كل مكان، وتقوم جامعتهم وهم نائمون حيث قال: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف:١٦٩] الآية، وصفهم بالاتكال على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب.

وصف حربهم

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[الحشر:١٤] وصفهم بتفرق القلوب، فلا يبرزون لعدو يقاتلونه حتى يدهمهم في أماكنهم، وهم لبعضهم مبغضون، وذكر سببه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر:١٤] . والمراد به العقل العملي لا النظري المراد عند ذكر خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار.

الصفة العامة بعد الانحلال

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف:١٦٧] ومن العجيب أن أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة، ولا ملك في الأرض بعد ذكر هذه الآية في القرآن، وهذا الأمر ظاهر لمن عرف الأحوال الحاضرة والغابرة، فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقراء وذكرى لقوم ينظرون في شريعتهم، ولتعلموا أيها المسلمون أن هذه القصص لم تذكر في القرآن لنا إلا تذكرة واعتباراً، لا مجرد حكاية كما يظنه الأغبياء، وهذا إجمال تفصله العقول وتوضحه النقول. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧].

وازن ما سمعت في الآيات بما ترى من أحوال المسلمين اليوم إذ غلبت على العقول ترهات وخرافات تلقفها الناس، وكيف يسندون ظلمهم للقضاء ويتكلون على الغفران، وهل ذلك إلا كمثل اليهود أذاع ساداتهم فيما بينهم أن مدة العذاب أربعون، فظلوا للشرور يسارعون. هكذا عبد المسلمون اليوم الأوهام، فنسوا أنفسهم فحاق بهم العذاب الهون، وقرؤوا القرآن وهم لا يعقلون، ووقفوا من العلم على قشوره، وعدموا الحكمة، ونبذوا علم الكائنات في الأرض والسماوات، فسبقهم الغربيون وهم متقاطعون، فحلّ عذاب الخزي بهم في الحياة، وما أشد عذاب الممات.

ولما أبان هلاك بني إسرائيل وقد حاق بهم الخزي في الحياة الدنيا أخذ يبين أسباب حلول العذاب بهم تفصيلاً ويحذر المسلمين من اتباع خطواتهم، فقال:

الجوهرة الخامسة،وفيها عشر زبرجدات

الزبرجدة الأولى

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أتبعنا ﴿ مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحة ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي الروح المقدسة،

قيل: جبريل أو الإنجيل ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ ﴾ بما لا تحب ﴿ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ تعظمتم عن قبوله ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ جمع أغلف: مغطاة بأغطية ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم لقبول الحق ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إيماناً قليلاً يؤمنون، و«ما» زائدة للمبالغة ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي اليهود ﴿ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من كتابهم ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم، وكانوا يقولون: «اللهم انصرنا بالنبي الذي يبعث في آخر الزمان، ولجد نعته في التوراة» ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ ﴾ من الحق ﴿ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ حسداً وخوفاً على الرئاسة ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي عليهم، ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي بئس شيئاً باعوا به أنفسهم، فلفظ «ما» مميز لفاعل «بئس» المستتر، وجملة «اشتروا»: صفة له، وقوله: ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿ بَغْيًا ﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ أي لأن ينزل، أي حسداً على ذلك ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهو الوحي ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ ﴾ لكفرهم بمحمد ﴿ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ لكفرهم بعيسى ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يهانون به. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي بالقرآن ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو التوراة ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي بما سواه من الكتب ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي القرآن ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ موافقاً بالتوحيد ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من الكتاب ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف قتلتم الأنبياء من قبل؟ وهل هذا مقتضى الإيمان بها. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

أخذ الله عزّ وجلّ في تعذيبهم وتخويفهم، والتنديد عليهم، والتشنيع بأفعالهم، إذ قتلوا المصلحين من النبيين، فإن كانت نصيحة نبذوها، أو فضيلة تركوها، فكم من نبي كذبوه كعيسى، وكم من نبي قتلوه كزكريا ويحيى عليهم السلام، وها هم أولاء أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم، ولعمرك لن تسعد أمة إلا أن تأخذ بيد مصلحيها، وتعظم مرشديها، فيا حسرة عليهم إذا أهملتهم وشؤونهم، والويل كل الويل لها إن ناصبتهم العداوة، وراشت سهام الحرب لنزالهم، وضيقت سبل العمل عليهم، فما بالك إذا جرعتهم كأس المنون كما فعل اليهود، إلا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر في تقديرها للمرشدين، فإن رأيتهم لها مكرمين، وعلى اتباع إرشادهم مكبين، فاعلم أنها سائرة للعلاء، متقدمة إلى الأمام، ساعية إلى الفلاح، وإن كان الآخر والعياذ بالله فهناك الدمار، ولكني أرى في أمة الإسلام اليوم نزعة شريفة، ونفوساً عالية، وعقولاً راقية، وفي ظني أنهم سيستردون مجدهم، ويرفعون ذكرهم، وما شهدت إلا بما علمت، لما أرى من إقبالهم على الحكمة، وإجلالهم للمصلحين، وأخذهم بالتي هي أحسن، ألا وإني أفخر بأمتي، وأفرح بشعبي، وأعلن على رؤوس الأشهاد أن السعادة قادمة عليهم، والفلاح ناشر رايته إليهم، فلقد بدأ الإصلاح، وسينتهي إلى

غايته، ويصل إلى كماله ونهايته، رغماً مما بدا من سحابة الغرور والشرور، وستنقشع السحابة، وترجع الأمة إلى العناية والسعادة. اهـ.

الزبرجدة الثانية

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الآيات الواضحات: منها قلب العصا حية، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي عبدتموه بعد ذهاب موسى إلى الطور، فآباؤكم كانوا يكفرون بموسى، وأنتم تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ إقراركم ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ هددهم بأن يقع عليهم الطور إذ رفعه فوق رؤوسهم إن لم يقبلوا التوراة، وقلنا: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد وعزيمة ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ سماع طاعة ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ ﴾ بالتوراة، وهل في التوراة عبادة العجل، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم. انتهى التفسير اللفظي.

هذه الرذيلة سبق ذكرها وأعيد تقريعاً وتوبيخاً، ليرشد أمة الإسلام ألا تفكر بعقول غيرها، ولا تنظر بعيون أعدائها، كما فكر اليهود في العجل بعقول قدماء المصريين، إلا أنهم ضلوا إذ أمرهم علماؤهم بتقديس العجول لبقاء نسلها تنمية للزرع، وانتفاعاً بالحرث، فغلوا في دينهم، وطغوا في غلوهم، وعبدوا ما كانوا احترموا فقلدهم بنو إسرائيل فيما جهلوا، وإن كانوا لهم أعداء، هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء، إذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة، فساءت الحال وجاء الوبال وعمّ الدمار، ففقدوا الطير المسمى «أبا قردان»، آكل الدود والحشرات، مبيد الأذى، مغيث الزرع من الفاتكات، فجهل المصريون اليوم بالتفريط والإهمال كما أهمل أسلافهم بالتغالي والاسترسال، فعذب الفريقان، وأهين الأولون والآخرون، فأولئك بالوهم الذي أضناهم في واقعة قمبيز، وهؤلاء بعموم الدودة في هذه الأيام.

اللهم إني أضرع إليك أن ترجع العلم لبلادي، وتردّهم إلى الهدى، وتبعد عنهم عاديات الدمار، إنك أنت الحليم الرحيم، ولا تجعلهم كاليهود، وعلمهم يا رب أن الحيوان مكرم مصون، وأن الطير في الجو يعوزه الشجر، فليغرسوه، وليحفظوا الطير ولا يقتلوه.

واعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت في أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١م، ومن عجيب صنع الله عزَّ وجلَّ أني في تلك السنوات كتبت في مجلة «الملاجئ العباسية» التي كانت تنشر هذا التفسير مقالاً مطولاً في إجمال تفسير سورة يوسف، قلت فيها: إن الفراعنة كانوا أغزر علماً من حكام مصر، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا، فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات سمان وسبع سنبلات اهتمامه بالزراعة، وعطفت على مسألة الطيور، ونبهت الحكومة والأمة، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ بمنع صيد الطيور النافعة، ومن أهمها «أبو قردان» المذكور، وهاأنا ذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢م للطبع، وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قد ربت «أبا قردان» وانتشر في البلاد المصرية انتشاراً كما كان سابقاً، فأحمد الله عزَّ وجلَّ على هذه النعمة، وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس، وحرام على من عنده نصيحة أن يمسكها جبناً عن الجمهور، فإنها لا بد نافعة عاجلاً أو آجلاً، وإن شاء الله إذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات هناك. اهـ.

أقول: ها هو ذا التفسير الآن يطبع ويعاد طبعه سنة ١٩٣٢، وأذكر الآن نعمة الله عزَّ وجلَّ فأقول: اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً، فإنك أنعمت علي بأن حييت حتى فسرت سورة يوسف وما بعدها، وشرحت مسألة الطيور المذكورة، ورسمت صورها هناك بوضوح وشرح وتفصيل، وهذه علامة أن لهذا التفسير عناية إلهية، والحمد لله رب العالمين.

الزبرجدة الثالثة

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً ﴾ خاصة بكم كما قلتم ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] ﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ سائرهم أو المسلمين ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخلص إليها ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتحريف التوراة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أي ولتجدن يا محمد اليهود أحرص الناس على بقائهم في الدنيا ﴿ وَ ﴾ أحرص ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ وهؤلاء لا يؤمنون باليوم الآخر فكيف كان اليهود أحرص منهم على حياة غير باقية، ثم استأنف ليصف حال المشركين الذين زاد عليهم اليهود في الحرص

على الحياة الدنيا فقال: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي يودّ أحد المشركين تعمير ألف سنة لا فرق في ذلك بين مشركي العرب وبين المجوس، وقد اعتاد هؤلاء أن يقولوا في تحياتهم: عش ألف نيروز، أو ألف مهرجان ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي وما أحدهم بالذي يزحزحه من النار تعميره ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه خافية من أحوالهم. انتهى التفسير اللفظي.

يقول الله تعالى: من أيقن بالسعادة في ميعاده فما أحراه أن يلوى له العنان، ويجدّ في السعي لحصول المراد، وينبذ الدنيا، ويحرص على الأخرى، وأنتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة، بل أنتم أحرص من المشركين وهم العرب والمجوس، وكيف يطلب الآخرة من يتمنى عمراً طويلاً، ألا وإن الحياة الآخرة أسّها الحب، وعمادها الشوق، وسقفها الرحمة، وأيّ محبوب بعد مفارقة المادة إلا الله والملائكة والصديقون، وأنتم تكرهون النفوس المجردة وهي:

الزبرجدة الرابعة

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ ﴾ أي جبريل ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بأمره ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالجنة، وإذا كانت هذه حال جبريل، إذن ليس هو الذي ينزل بالحرب والشدة كما تقول اليهود، فمن يعاديه يكون عدواً لله، ولذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ أي ولجبريل ولميكال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي لهم. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح وبيان السبب

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل، فقالوا: ذاك عدونا، يطلع محمداً على أسرارنا، وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين، ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدوّ أحدهما فهو عدو الآخر والله، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد وافقك ربك يا عمر.

هذا ولا جرم أن بين الملائكة والأنبياء صلة ووداداً، فلم يكن الكفر قاصراً على الملأ الأعلى، وإذا كفروا وتعدوا الطور في أولئك الذين اصطفاهم رسلاً بينه وبين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم، وذلك في الزبرجدات ٥، ٦، ٧:

الزبرجدات الخامسة، والسادسة، والسابعة

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ﴾ واضحات ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ ﴾ يجحدها ﴿ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المتمردون من الكفرة ﴿ أَ ﴾ كفروا بالآيات ﴿ وَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ ﴾ نقضه ورفضه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ لأن منهم من لم ينقض، ولليهود عهود كثيرة مأخوذة عليهم في كتابهم ومنها الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا يقولون: قد أظلّ زمان نبي مبعوث وإنه في كتابنا ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي كفر فريق منهم بنقض العهد، وفريق منهم بالجحد للحق ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ مصدق بصحة التوراة ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ اليهود ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ التوراة وهي مبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته، ولم يبينوا ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ جهلاء ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كتاب الله واكتفوا من الإيمان بالتوراة بأنهم يقرؤونها ولا يعملون بما فيها، ويحلونها بالذهب، كما يكتفي كثير من جهلة المسلمين في زماننا بالتعظيم الظاهر للقرآن، والتلاوة بغير تدبر، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ أي نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ على عهد ملكه وفي زمانه، وذلك أن الكهنة كانوا يدوّنون ما يقذف في قلوبهم من الأماني التي تلقيها إليهم الشياطين، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام، وقالوا: إن الجن تعلم الغيب، بل قالوا فوق ذلك: إن سليمان ما تم ملكه إلا بعلم السحر، وبه سخر الجن والإنس والريح، وهذه المقالة اليوم لا تزال شائعة في بلاد الإسلام وقد نقلت كتب الأمم من الصابئين واليهود وغيرهم، ومزجت بالآيات القرآنية، وملأت أصقاع بلاد الإسلام كما فعله البوني وغيره من الأوفاق وغيرها، فتقهقرت الأمة وهذا أوان نهوضها ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ باستعماله حال كونهم ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ قاصدين إغواءهم وإضلالهم ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ عطف على

ما كفر سليمان أي لم يكفر سليمان باعتقاد السحر والعمل به، ولم ينزل على الملكين المذكورين اللذين حكاهما اليهود، والملكان رجلان صالحان كانا يعلمان الناس السحر كما تدرس الأمم اليوم في المدارس أنواع السم في مدارس الطب، والتنويم المغناطيسي، وأنواع الغازات المهلكات اتقاء لشرها، وحفظاً لكيان الأفراد والأمم ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ يقولان: نحن ابتلاء من الله ومحنة ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أي لا تتعلم السحر لأجل أن تعمل به، كما تفعل الآن عامة الدول، والعلماء إذ يمنعون من يتعلمون عقاقير السم وغيرها من إيذاء النوع الإنساني كما سيأتي قريباً إيضاحه. يقول الله: إن السحر لم ينزل على هذين الرجلين الصالحين، فهما كانا يعلمان الناس السحر ويحذرانهم من استعماله اتقاء لشره، ولكن هؤلاء المتعلمون كانوا لا يعملون بالنصائح ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ فإن من السحر ما يكون سبب تفريقهما، وهو ما سيأتي شرحه قريباً ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وفي زماننا يحصل ذلك بالتنويم المغناطيسي كما ستراه في الشرح، ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ بالعمل به ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ من حيث الاقتصار به على دفع الأذى عن الناس كما يفعل الطبيب الصالح من إبعاد العقاقير السمية عن الناس بسبب علمه بها ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ ﴾ أي اليهود ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله، كما يفعل من يقرأ علم الأوفاق والطلاسم في كتاب شمس المعارف الكبرى للبوني وغيره ﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ نصيب ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالرسول والكتاب ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ بترك المعاصي ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ جواب لو، أي: لأثيبوا من عند الله خير مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يصدقون بثواب الله ولكن لا يعلمون ولا يصدّقون. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

من اقتصر على التفسير اللفظي فبها، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا الإيضاح فإنه أوسع مجالاً، وهو: يقول تعالى: كما كفروا بالملائكة كفروا بالأنبياء، فلم يؤمنوا بمحمد ولا بعيسى، وإن عاهدوا غدروا وحولوا العقول عن فطرتها، وأخذوا في الخرافات، ورجعوا للترهات، ونبذوا عالم الحقائق وفهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان، وإنه ما عظم إلا بالسحر، ولا علم إلا بالعزائم والأباطيل. وإنما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلاً من الشياطين على رأي، فهما اللذان علما الناس السحر، وما أنزلناه على الملكين: أن الملائكة منزهون عن الذنوب مبرؤون من العيوب، على أن هذين نصحا الأمة، فقالا للمتعلمين. إنما نحن فتنة فلا تكفروا، وحاشا أن يكون سليمان مضلاً للناس وهو نبي كريم، فاتبع اليهود ما تلت الشياطين من الإنس والجن على عهد ملك سليمان من الإفك والسحر، وأضلوا ونسبوها له وهو مبرأ من العيوب والإضلال والذنوب، وإنما الشياطين هاروت وماروت وغيرهما هم الكافرون، لأنهم يعلمون الناس السحر، وليس من الملائكة مضلون، فسليمان والملائكة مبرؤون، وهاروت وماروت مضلان إذ يضلان الناس ابتلاء وامتحاناً من الله، فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملفقة، ونبذوا الوحي والدين كما يفعل المسلمون اليوم، فإنهم لا يزالون يقرؤون العلوم السحرية ويخضعون للدجالين الغاوين الكذابين الذين يدعون أنهم يفتحون

الكنوز ويستخرجون الذهب من العناصر، وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم، فضل المتعلمون سواء السبيل في هذه الأمة كما ضل اليهود من قبلهم، كذلك تراهم يقولون: خاتم سليمان عليه السلام وينسبون له ولد أنيال وأرمياء وعلي بن أبي طالب ما ليس لهم به علم، فاستخذت الأمة للأباطيل واستوثق النصر للعدو المبين عليها جزاء بما كانوا يجهلون، فأما ما حكى اليهود من أن الملائكة حقروا بني آدم وأمرهم الله أن يختاروا اثنين ليكونا كبني آدم في الصورة. فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقضيا بين الناس وأضلتهما امرأة وعرفت منهما الاسم الأعظم، وصارت نجمة الزهرة، وعذبا في مدينة بابل إلى يوم القيامة، وهما يعلمان الناس السحر، فهذا خرافة. وكيف تحمل الآية عليها، ومقصود القرآن الكريم أن الأمم حين تدهور في الهاوية ترجع عقولها القهقرى وتأخذ في الدين إلى الوراء وتتبع ما تملي عليهم الشياطين من الإنس والجن، فيكون الأستاذ هو الوسواس والدجال هو الفقيه، ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء، ألم تر إلى حكم سليمان فلننقل لك منها لتعلم قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ الخ.

قال في التوراة في سفر الأمثال في الإصحاح الثالث: طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، وللرجل الذي ينال الفهم، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة، وربحها خير من الذهب الخالص، هي أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها، ثم قال: هي شجرة حياة لممسكها والمتمسك بها مغبوط.

الرب بالحكمة أسس الأرض وأثبت السماوات بالفهم، بعلمه أنشئت اللجج وتقطر السحاب ندى. ومنها: لا يمنع الخير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله، ومنها: اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمل طرقها وكن حكيماً، ومنها: إلى متى تنام أيها الكسلان.

الرجل اللئيم الرجل الأثيم: يسعى باعوجاج الفم، يغمز بعينه، يقول برجليه، يشير بأصابعه، في قلبه أكاذيب، يخترع الشر في كل حين، يزرع خصومات لأجل ذلك بغتة تفاجئه بليته يكسر ولا شفاء.

وقال: ليمدحك الغريب لا فمك الأجنبي لا شفتاك، وقال: لا تفتخر بالغد، لأنك لا تعلم ماذا يلده يوم، وقال أيضاً: في الجامعة باطل الأباطيل الكل باطل، ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟ دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق الخ، وهذه كلها حكم دائرة على الزهد في الدنيا واحتقارها واليأس منها. ومن هذه أخذ عمر الخيام رباعيته المشهورة في أمريكا وأوروبا، وترجمت حديثاً إلى اللغة العربية، وهكذا أيضاً أشعار أبي العلاء، كلها تزهيد في الدنيا كما في الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام، فإن شئت فاقرأها في نفس التوراة نحو ١٢ صفحة. اهـ.

فوازن رعاك الله بين هذه الحكم البديعة والأمثال العجيبة التي أبرزها النبي سليمان عليه السلام، وهي تتلى في التوراة إلى يومنا هذا بما نسبه له اليهود من السحر، وهو صفة العاجزين، فهذه بعض أمثاله، وهي طرق حكمه، ومنها نعرف قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فاقرأ وتعجب وقايس حال المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة،

وكيف أصبح المسلمون كثيري العدد قليلي الحكمة. يأمر القرآن بحوز وفهم الحكمة والنظر في العوالم ونظام المدن وإعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كما تشير إليه سورة سبأ، وترى كثيراً من الذين يقرؤون، الذين يجهلون نظام العالم وحكمة الله، كأنهم لا يعلمون وسطا الدجالون من المغاربة والساحرين على عقول المترفين، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وهل أتاك حديث المغربي الذي ذهب إلى بلدة العصلوجي قرب بلدة الزقازيق، وقال لرجل هناك: إني أجعل القطعة من الذهب أضعافها، فجمع الرجل حليّ النساء وأسلمه له، فأعطاه عموداً مطلياً بالذهب، فلما حكه وجده نحاساً فسقط في يده وضاعت ثروته، وهي تساوي ألف جنيه أو تزيد، وآخرون يدّعون إحضار الجن ويضحكون على الأذقان ويغرّون النسوان بحيل دبروها، ومكايد نصبوها، وأشراك وضعوها، ذلك والله عرفناه، وفي كتبهم قرأناه. اللهم أزل الجهل عن هذه الأمة، واكشف الغطاء عن أبصارها، وأنر بالعلم بصائرها إنك أنت الرحيم الغفور.

اعلم أني بعد ما كتبت ما تقدم في تفسير الآية ظهر لي وجه وهو مختار عند أفاضل المفسرين فيقال: واتبع اليهود ما تلت الشياطين من الإنس افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل من السحر على الملكين ببابل هاروت وماروت.

أما سليمان فإنهم نسبوا إليه أموراً سحرية هو منها براء، وقالوا: ما كان ملكه إلا بسببها ترويجاً لدعواهم، فبرأه الله مما قالوا، فقال: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ بعمل السحر وإنما هم المفترون عليه بعمل السحر، وهم الكافرون وذلك قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾.

وأما افتراؤهم على ما أنزل على الملكين ببابل، وهما هاروت وماروت، فذلك أنهما نزلا في صورة رجلين ليعلما الناس السحر تفريقاً بينه وبين المعجزة كما يتعلم رجال الجيش اليوم المواد الخانقة والمعمية وغيرها ويؤمرون بكتمها دفاعاً عن حريتهم وعظمة دولتهم ولا يطلع عليها عامة الشعب، وهكذا المواد السمية التي يتعلمها الأطباء ولكن يحرم استعمالها أو إعطاؤها لأحد من الناس إلا في أحوال خاصة. قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشـ ـــــر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فإذا أخذا يعلمان السحر الذي أنزل عليهما حتى إذا جاء ساحر وادعى النبوة عارضوه وكذبوه، ولذلك كان هذان الملكان يقولان للمتعلمين: إنما نحن فتنة واختبار لكم لننظر أفي الخير أم في الشر تستعملون السحر، وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر، فإنها صالحة للخير وللشر، كالقوة والجمال والمال والولد والعلم والملك والحكم بين الناس، كل هؤلاء مبتلون ومختبرون ألخير يصنعون أم الشر؟ولكن السحر المذكور أشد فتنة.

فأما اليهود فإنهم أخذوا بشر الأمرين ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ وذلك بنوع من التضليل والتلبيس، وهو تعليق القلب، فيدّعي الكاذب أنه عرف اسم الله الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون إليه في أكثر الأمور، فإذا كان السامع ضعيف العقل قليل التميز والقوى

الحساسة، تمكن ذلك الكذاب منه، فأنام بصيرته، وأيقظ خبله وغفلته، والتعلق بحبال الخيال والخبال، فخدّر أعصابه وأحدث في نفسه نوعاً من الاستهواء، وهو أشبه بالتنويم المغناطيسي.

ولقد ظهر هذا النوع بأجلى مظاهره في ذلك التنويم في عصرنا حتى أن الأمم الغربية حرّمت العمل به إلا في الأعمال الجراحية، فإنهم رأوا أن الاستهواء وأخذ الألباب قد كثر في ديارهم، فإذا قال المنوِّم للمنوَّم ـ بالفتح ـ: بعد استيقاظك بثلاث ساعات اقتل فلاناً، فإنه لا بد فاعل ذلك، وهكذا إذا قال لامرأة كوني معي بعد كذا وكذا، فإنها لا تعصي للقائل أمراً، وهي لا تدري من أين جاء لها هذا الغرام ولا تعلم من الذي أوحى إليها بذلك، ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله، قال الله: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ ﴾.

إيضاح الكلام على السحر

لقد ذكرت لك أن السحر المذكور كان من نوع تعليق القلب، وأنه من أنواع التنويم المغناطيسي وأقول الآن إني رأيت هذه الأعمال في المراسح العامة إذ كان المنوم يوحي إلى المنوَّم ـ بالفتح ـ بما يشاء فلا يجد إلا طاعة عمياء، فإذا أعطاه السكر وقال: هو علقم، لفظه من فيه لشدة تأثر حاسة الذوق من البشاعة، وإذا أعطاه الحنظل، وقال: هذا سكر، استمرأه واستحلاه، وهكذا تراه قد ملك عليه سمعه وبصره ونحن نشاهد ذلك عياناً، وكان يقول للرجل: أنت امرأة راقصة، فيرقص رقصها، ويقول له: أنت ملك، فيفعل فعل الملوك، وذلك اليوم شائع ذائع في أوروبا، ووصل إلينا في الشرق بعضه، وهذا الذي ذكرته بعض ما وصل، وكان في تلك المجالس أطباء يمتحنون المنوّمين ـ بالفتح ـ لينظروا أهم نائمون، فكانوا يشهدون بنومهم على مقتضى حركات النبض، وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمة وعظماؤها وأمراؤها ومهندسوها وأنا أشاهد ذلك بنفسي. ثم إن في هذا العلم غرائب فوق هذا حتى أن الطبيب قد ينيم المريض ويعمل فيه أكبر عملية جراحية ويستيقظ ذلك المريض وكأنه شخص آخر ويساعد الطبيب وهو لا يعلم أنه هو نفسه، يساعد في تقطيع لحمه وبتر عضوه بالسكين، وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها، وبحار من العلم واسعة لا سبيل إلى ذكرها هنا، وإنما الذي يهمنا في تفسير الآية أن نقول: يجب على الحكومات الإسلامية وجوباً شرعياً أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم هذا الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت اللذان قصدا التفرقة بين السحر والمعجزة، وإلا لادّعى الكذابون النبوة وأتوا بشرائع فاجرة خاطئة، ولقد بلغنا أن علم الكلدانيين قد عثر عليه الأمريكيون في تلك البنايات الخربة في بابل ونينوى وفي آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم كرة أخرى في الشرق والغرب، ولولا أن الأمم اليوم مستيقظة لادّعت طائفة ممن يمارسون هذه العلوم النبوة، ولكنهم اقتصروا على ما يدّعونه من الإخبار بالحوادث، وعلى أمور أخرى لا نطيل بذكرها، وفيها الضر والنفع، فوجب أن تقوم طائفة لدرء المفاسد التي يلقيها هذا العلم على الناس، وهذا هو السر في ذكر هذه الآية في القرآن، بقيت ألفاً وثلاثمائة سنة لتكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع في شرك المضار الناجمة من تلك العلوم، وتعليمها فرض كفاية كما في سائر الصناعات والعلوم، ومنها

الصناعات الحربية والعلوم جميعها، ويحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله إلا فيما فيه الخير للأمة. ولقد حصل في هذه الأيام أثناء تأليف هذا التفسير أن طبيباً في مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة ونوّمها تنويماً مغناطيسياً، وصار يسأل هذه الجاهلة الأمية الصغيرة الخادمة في حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع، فكانت تجيبه بأجوبة تامة، فكان هو يعمل بها ويداوي المرضى، وأراحته من النصَب والتعب في البحث والتنقيب في الكتب الطبية، ثم إن نفسه الخبيثة سولت له أن يهتك سترها فطاوعها، ثم افتضح أمره وانكشف سره وفشا خبره، والبنت غافلة لا تعلم شيئاً، لأنه كان في حال النوم يوحي إليها أن الفاعل الظالم إنما هم الجن، وليس هذا من فعل الآدميين، ورفع الأمر أهلها إلى الحكومة المصرية، فأمرت الحكومة الطبيب المصري، فنوّم الفتاة وجاء القضاة والأمراء، وكذلك المفتشون من الإنجليز، وأخذوا يمتحنون الفتاة وهي نائمة، فيقول أحدهم: ما الذي في يدي؟ فتقول: كذا وكذا، ويقول الثاني: من أنا؟ فتقول: أنت المفتش وفي كيسك كذا وفي يدك كذا، وهكذا.

فلما علموا صدق أخبارها وثقوا بما تقول، فأخذت تقص قصص الطبيب معها، وفسقه وفجوره وحيله، وهي نائمة، فحكموا عليه بالفسق، وعاقبوه عقاب المجرمين. وقد ألف الطبيب المذكور في هذه الحادثة كتاباً منتشراً بين الناس اليوم في بلادنا. ومن عجب أن الفتاة إذا استيقظت لا تعرف شيئاً عما جرى وما قالته، وترجع كما هي ساذجة غافلة.

فتعليم هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة سرت إليها علوم أمريكا وأوروبا، ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين الذين يفرقون بين المرء وزوجه. وهذا سر ذكر هذه الآية كما قلنا، وإلا فبنو إسرائيل كما قال عمر رضي الله عنه: مضى أمرهم وانقضى خبرهم ولم يبق إلا الأحياء الآن، فإليهم يساق الحديث.

ولننقل لك شذرة في التنويم المغناطيسي من كتاب الأرواح الذي ألفته. قلت: قال شير محمد: قد عرفنا إحضار الأرواح، ونريد أن نعرف التنويم المغناطيسي. فقلت: اعلم يا شير محمد، إن ذلك يسمى السبات المغناطيسي أو التنويم، وهو أن ينام الإنسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أو كيماوية أو حيوية. فالأسباب الطبيعية: كالنور والصوت بأن يسمع صوتاً متساوي اللحن. والسائل الكهربائي الخفيف، والقطع الزجاجية اللامعة التي تنوّم من حدق نظره إليها، والمؤثرات الكيماوية: هي الأثير، والكلوروفورم، والأزوت، وهي تلقي آخذها في النوم وتفقده الإحساس.

والمؤثرات الحيوية أخصها: الإرادة، بأن يأمر باللسان، أو السيال العصبي، أو يحدق ببصره إلى الشخص المنفعل، أو يبادئه بالإشارات والحركات المغناطيسية. هذه هي أسباب التنويم إجمالاً، أما درجات النوم فهي ثلاث:

أولاً: أن يفقد الإحساس ويلبث شاخص العين يتلقى أوامر المنوّم، وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل ما يريد المنوِّم ـ بالكسر ـ وفي هذه الحالة لو أدخل رجل المنوَّم ـ بالفتح ـ في ماء مغلي أو قرص جسمه لم يحس كما جربه العلامة «دي بوكاته» في باريس لتلاميذه وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند إعادة طبع الكتاب،

فإن المنوّم قد أنام في دار التمثيل العربي شباناً، وصار يلعب بحواسهم، فيطعمهم الموز، ويقول لهم هو حنظل فيلفظونه ويطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذون طعمها، ويسمي أحدهم باسم غير اسمه فيصدّق ويتسمى به، وقد قال لشاب: أنت اسمك لبيبة، فأرنا رقصك، ففعل وأمره أيضاً بقلب النوم الصناعي طبيعياً، ففعل، وأبرز صورة الجرائم من المنوّمين، وكيفية إقرارهم وما أشبه ذلك، وكان يبكيهم تارة ويفرحهم أخرى، ويلفق لهم تهمة، ثم يفهمهم أنهم آثمون ظالمون فيندمون ويبكون بصوت عال الخ. ولا جرم أن هذا مبدأ التنويم، وقد صدق ظني أن بلادنا ستنال حظها من علم الأرواح، وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات، وأنا لا أشك أن العقلاء سينظرون لثمرات التنويم وإحضار الأرواح لارتقاء الإنسان كما نقلناه في هذا الكتاب.

ثانياً: أن يفقد الإحساس تماماً ويغلق عينيه كالحال الأولى، ولكن تمتاز هذه أنه يسمع ويبصر ويتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس، ويقرأ ويكتب كما يأمره المنوّم.

ثالثاً: أن يحصل انخطاف روحي بأقصى درجاته، وإذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة، ويصف علل جسمه، والعلاجات الملائمة، ويشاهد أفعال الناس ويسمع كلامهم عن بعد سحيق، وينبئ عن حوادث مستقبلة، ويتكلم بلغات شتى، ويرى أرواح الأموات، ويصف هيئتها، وينقل إلى الجالسين أقوالها. وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب: الكانالبسيا. اللبنارجيا. السونابيلزم.

وهاك بعض الحوادث لإثبات ما تقدم:

١ ـ قال العلامة شارل في تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية: إنه نوّم ابنة صحيحة البنية، وبينما هي تلقنه وصف العلاج الذي يداوي به سألته: ألا تسمع كيف يأمرني بذلك؟فقال لها: لا أسمع أحداً فقالت: نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرة، فقال لها: واعجباً لك، أين حريتك وأنت مسخرة لإرادتي. قالت له: أنت تعرف ظاهر الشيء الخشن الغليظ، أما أنا فأرمق باطنه البهي، فإن نفسي منحلة من القيود مؤقتاً، فأرى ما لا تراه أنت، وأسمع ما لا تسمع أذناك، وأدرك ما لا تقوى على إدراكه، وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تمغطسني، وأسمع أصواتاً من بعيد جداً، وحديث من يتكلم في بلد آخر، فأنا أذهب إلى الأشياء، وليست هي التي يؤتى بها إلي. وحالي الآن يقظة تحاكي يقظة الإنسان بعد الموت.

المثال الثاني: وصفت فتاة كان ينوّمها العلامة شارل المذكور له الحال التي كانت عليها حين نومها، فقالت: أحس أن جسمي يتمدد شيئاً فشيئاً حتى أفارقه وأراه بعيداً عني بارداً كجسم ميت، وأرى نفسي كبخار، وأدرك ما لا أقوى على إدراكه في اليقظة، والنوم المغناطيسي الذي هو أقل من هذا، وهذه الحال لا تدوم أكثر من ربع ساعة، ثم يرجع الجسم البخاري شيئاً فشيئاً إلى جسمي الغليظ ثم أفقد الشعور.

المثال الثالث: أعمال الأكاديميا الطبية الفرنسية إذ خصصت لجنة طبية للنظر في الحوادث المغناطيسية ولنذكر حادثة واحدة من حوادثها لتطلع يا شير محمد على عجائب العلم والحكمة، ولتكون نموذجاً من أعمال تلك اللجنة في أشهر الممالك الأوروبية.

اجتمعت اللجنة في ٦ تشرين الأول وقت الظهر، والمريض هو المسيو «كازو» المصاب بداء الصرع والمنوّم هو المسيو «فرواساك»، وجلس «فرواساك» في حجرة أخرى ولم يعلم «كازو» أنه حضر، وأرسلوا لفرواساك أن ينوّم كازو، وعينوا له النقطة المحاذية له في الحجرة، فنام كازو بعد أربع دقائق، فسألوه عن النوبات التي ستنوبه، فعيّن منها اثنتين بدقائقهما وساعاتهما وأيامهما، والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع، والثانية بعد خمسة أسابيع، فكتبوا التقرير وأعطوه لمن ينوّمه، وهو المسيو فرواساك، مبدلين المواعيد قصداً، فلما نوّمه بعد أيام ليشفيه من ألم الرأس، أخبره بمواعيد للنوبة غير التي أخبرت اللجنة بها، فرجع إلى اللجنة وأخبرهم أن التقرير الذي قدموه له محرف، فأصروا على قولهم، ثم تمت النوبات في الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كازو في نومه. ثم أخبر بنوبتين أخريين في موعدين معينين حصلت إحداهما في وقتها، أما الأخرى فقد سقط قبل وقوعها، وهو يهدي حصاناً وتهشمت رأسه على العجلة فمات. انتهى.

وقد فصل القول العلامة «هيسون» من أعضاء اللجنة المذكورة فقال: إن المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها، فلم يخطئ، والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس، وكان يصف العلاجات وصفاً دقيقاً، وكان يقول: إن هذه النوبات تصيبه ما لم ينوّمه قبل وقت حلولها، ومع ذلك لم يخطر بباله أن حادثة ستصيبه فتقطع عليه حياته، وهذه أشبه بأمر الساعة فإن الإنسان يعرف مقادير قطع العقارب للميناء فيحددها بالتحقيق، ولكنه لا يدري متى يفاجئها كسر أو تهشيم فتقف حالها.

ذكر ما قاله القدماء في علم السحر

نذكر هذا ليطلع القارئ على ما مضى وانقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية، السحر يطلق شرعاً على كل ما خفي سببه، ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع وعند الإطلاق يفيد ذم صاحبه. قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:١١٦] وهو أنواع:

أولاً: سحر الكلدانيين في قديم الزمان، كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها مصادر النحس والسعد، وكانوا يتوسلون إليها، ويتقربون بالبخور والاستحمام، وألوان الملابس المناسبة في زعمهم لتلك الكواكب والساعات المعينة كذلك.

ثانياً: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتي تحدث الإصابة بالعين فتؤثر في الأشخاص وتحدث الضرر في الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة، ويقررون ذلك بأن تصوّر الإنسان مؤثر في نفسه، ألا ترى أنه يؤثر في جسمه حزنه وفرحه ورجاؤه وخوفه وعشقه وغرامه، فهذه آثارها الحاضرة عندها، فيجوز أن النفس إذا قويت أثرت فيما بعد عنها إذا تركت المألوفات، ونبذت الشهوات، كما هي عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة، فتخلو نفوسهم من شواغل الجسد، وتلم شعثها، وترجع إلى عالمها الروحاني، وتفعل الشر، وتكون ممقوتة عند الله والناس، وللوهم آثار كمن يرى يمشي على جذع فوق الأرض فإنه يسهل عليه، وإذا وضع هذا الجذع بين حائطين أو عمودين مثلاً لم يقدر على المشي عليه،

ويخرّ صريعاً لليدين وللفم، وما صرعه إلا وهمه. ونقل ابن سينا عن أرسطو أن الدجاجة إذا تشبهت بالديكة في الصوت وفي القتال معها نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك، وأيضاً إن الدعاء مظنة الإجابة عند سائر الأمم.

ثالثاً: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهذا أقوى أنواع الخرافات.

رابعاً: سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالحاوي في بلادنا المصرية.

خامساً: قد جعلوا مما يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية وعجائب علم الكيمياء كظهور نار العصفور الموضوع في الماء، وكالحرير الصخري المعلوم الذي وضعته أنا وأنا مدرّس في دار العلوم على النار فلم يحترق، وهو كلما وضع عليها ازداد نظافة، وكان ذلك في الدرس أمام التلاميذ وهم يتعجبون، وكالآلات البخارية الجارية الآن، وأنت تعلم أن هذه كلها اليوم أصبحت في عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها، وقد كان بعضها عند المتقدمين سراً مكتوماً.

سادساً: الاستعانة بخواص الأدوية كما حدث في حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤م، أنهم كانوا يلقون البخار على الأعداء، فتارة يعمي أعينهم، وتارة يخدّرهم، وتارة يحدث فيهم جنوناً، وقد كان العلماء يقولون: إن مخ الحمار إذا أكله إنسان أورثه البلادة. وهذا منقول عن الكلدانيين، وأنا أرى أن هذا القول خرافة، وإلا فالناس تأكل مخ سائر الحيوان، فما بالهم لم يصيروا كالغنم والدجاج.

سابعاً: تعليق القلب الذي تقدم ذكره؛ وقد أطلنا فيه، وهو من فن التنويم المغناطيسي.

ثامناً: النميمة والوشاية وضروب الأكاذيب المحولة للقلوب المضلة للنفوس، التي يستعملها الضالون من الناس ليفرقوا بين زيد وعمرو، وبعض هذه الأنواع أصبحت لا تسمى سحراً اليوم وهي ٨و٦و٥، وبعضها أصبح خرافة، وبعضها يجوز في نفسه، فأما وقوعه في الخارج فيحتاج إلى عيان، ونحن لم نشاهده، والله أعلم. هذا وإن اليهود كما آذوا سليمان بنسبته إلى السحر تعدّوا الحدّ على النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية. اهـ.

الزبرجدة الثامنة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ هذه واضحة، إنهم كانوا ينطقون بالكلمة محرفين المعنى الشريف إلى معنى زائف، إذ يقول المؤمنون راعنا أي راقبنا وتأنّ بنا حتى نفهم ما تلقيه علينا، ويقولها اليهود لتكون من الرعونة، يريدون سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي «راعينا»، فنهي المؤمنون عنها، وأمروا بما يفيد تلك الفائدة من غير لبس وهو «انظرنا»، أي انظر إلينا، وقوله: ﴿ ٱسۡمَعُواْۗ ﴾ أي أحسنوا الاستماع فلا

تحتاجوا إلى أن تعودوا إلى ما نهيتم عنه ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني اليهود ﴿ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي عبدة الأوثان ﴿ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم ﴾ أي ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوة كما لا يحب ساسة الأمم المستعمرة في زماننا أن ترقى الأمم المحكومة بالعلوم والصناعات حسداً وبغياً من الفريقين ﴿ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ يختار لدينه والنبوة والإسلام والكتاب ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ من كان أهلاً لذلك، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ذو المن الكبير بالنبوة والإسلام. انتهى التفسير اللفظي.

الزبرجدة التاسعة

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

سبب نزول هذه الآية

نزلت هذه الآية لما طعن الكفار في النسخ وقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمر بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً. نسخ الآية إما بانتهاء التعبد بتلاوتها، وإما بانتهاء الحكم المستفاد منها، وإما بانتهائهما، وقرأ ابن عامر: «ما ننسخ» من أنسخ، أي نأمرك أو جبريل بنسخها، وقوله: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أي ننس أحداً إياها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ننسأها» أي نؤخرها من النساء ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ وهو الأنفع للعباد في سهولته، أو كثرة الثواب عليه ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ من التكليف والأجر، فإذا بدّل الله حكماً في آية بحكم في أخرى كآية الميراث بعد آية الوصية، فإن ذلك لحكمة تقتضيه، وهكذا فعل الله في السماوات والأرض، ألم تر إلى أغذية الشتاء والصيف، وأشجار الربيع والخريف، والليل والنهار، والصباح والمساء، وإذا نسخ آية الحب ففلقها، والنوى فأنبتها، والعامرات فخربت، والخربات فعمرت، هكذا ينسخ آية بآية، وحكم بحكم، فهذا فعله، وهذا قوله، وكيف يراعي المصالح في أفعاله، ويدعها في أقواله. ولذلك قال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

الناسخ والمنسوخ

النسخ يطلق بمعنى الإزالة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾[الحج: ٥٢]، وبمعنى التبديل، ومنه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾[النحل: ١٠١]،

وبمعنى التحويل كآية المواريث، فيحوّل الميراث من واحد إلى واحد، وقد أكثر العلماء من الكلام في الناسخ والمنسوخ، والحق أن ذلك لا يصح إلا في قليل من الآيات، ألا ترى إلى آيات الصفح والعفو والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم: إنها منسوخة بآية القتال مع أن الصفح كان مؤقتاً بزمن الضعف وقلة المسلمين فإذا كثروا وقووا جاز لهم ما لا يجوز في حال الضعف من القتال، ألا ترى إلى قوله تعالى في هذه السورة هنا: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ولقد جاء الأمر بالقتال فلم تنسخ الأولى بل جاءت لزمنها، وجاءت آية القتال منسأة أي مؤخرة، وليس ذلك من النسخ كما في قوله هنا: «ما ننسخ من آية أو ننسأها» نؤخرها، وقدّر صاحب الإتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعاً في بعضها خلاف:

المنسوخ	الناسخ
آيات البقرة	
١- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [١٨٠]	آية المواريث
٢- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ [١٨٤]	﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]
٣- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [١٨٣] (مقتضى ذلك أنه يحرم الوطء والأكل بعد النوم).	﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]
٤- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [٢١٧]	﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]
٥- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ [٢٤٠]	﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]
٦- ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [٢٨٤]	﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]
آية آل عمران	
٧- ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [١٠٢]	﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]
آيات النساء	
٨- ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [٣٣]	﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٥]
٩- ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [٨]	آية الميراث
١٠- ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ [١٥]	آية النور
١١- ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [٢]	أبيح القتال فيه بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]

المنسوخ	الناسخ
١٢- ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [٤٢]	﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية [المائدة:٤٩]
١٣- ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [١٠٦]	﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الآية [الطلاق:٢]
آية الأنفال	
١٤- ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ [٦٥]	﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال:٦٦]
آية براءة	
١٥- ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [٤١]	﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية [الفتح:١٧]
آيات النور	
١٦- ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [٣]	﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور:٣٢]
١٧- ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [٥٨]	نسخت، وقيل: تهاون الناس في العمل بها.
آية الأحزاب	
١٨- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [٥٢]	﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠]
آية المجادلة	
١٩- ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ [١٢]	الآية بعدها
آية الممتحنة	
٢٠- ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ [١١]	آية السيف
آية المزمل	
٢١- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٢]	بآخر السورة، ثم بالصلوات الخمس

فهذه إحدى وعشرون منها:

آية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة:١٨٤]، قيل: إنها محكمة، أي: وعلى الذين لا يطيقونه، بحذف لا فهي مقدرة.

وآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قيل: إنها محكمة.

وآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٨]، قيل: محكمة، وتهاون الناس في العمل بها.

وآية: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور:٥٨]، قيل: محكمة، وتهاون الناس في العمل بها.

وآية: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة:١١]، قيل: إنها من المحكم.

فالآيات التي فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦، وقد ضمّ إلى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، وقال هو إنها منسوخة بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤].

وقد نظم هذه الشيخ السيوطي في الإتقان فقال مختاراً عشرين منها:

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد ... وأدخلوا فيه آياً ليس تنحصر
وهاك تَحرير آي لا مزيد لها ... عشرين حررها الحذاق والكبر
آي التوجه حيث المرء كان وإن ... يوصي لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل عند النوم مع رفث ... وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صحّ في أثر ... وفي الحرام قتال للألى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها ... وإن يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزاني وترك أولى ... كفر وإشهادهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية ... وما على المصطفى في العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ ... ـواه كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان ما ملكت ... وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

هذا ما لخصته لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلا يشذّ عنك شيء مما اتفق عليه القوم. اهـ.

لِمَ كان الناسخ والمنسوخ

وهنا يرد سؤال فيقال: ما فوائد الناسخ والمنسوخ للأمة الإسلامية؟ ولو أن الآيات وردت بلا ناسخ ومنسوخ ما ضرّ ذلك، ولكفينا مؤونة الرد على اليهود، وعلى المعترضين من الأمم على الإسلام وشريعته، ولم يكن سبيل لوجوب الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ الآية. وما لا يحتاج إلى جواب خير مما يحتاج إلى جواب، وهذا كلام الله، وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده، وإذا كان عباده يريدون ما لا حيرة فيه، فهو قادر على إقناعهم وتعليمهم بلا سؤال وجواب، هذا الاعتراض يدور في عقول الأذكياء وإن كانوا لا ينطقون به.

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار، وأبهج الأنوار الإلهية المشرقة على بني آدم، بل هما سر الترقي، ومناط السعادة العصرية، وبيانه أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشري ضعيف، مغرم بالتقاليد، لا يتزحزح عنه إلا بعوامل عظيمة، فأراهم أولاً أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر، ثم بين لهم اختلاف الزرع باختلاف الفصول، فإن أكثر العشب والكلأ والحشيش ينبت في أيام الربيع لاعتدال الزمان، وطيب الهواء وكثرة الأمطار المتقدمة في الشتاء، فأما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعاً موافقاً للزمان، فالحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها تزرع في الخريف وتحصد في الربيع، والقثاء والخيار والباذنجان تزرع في الشتاء وتدرك في الربيع، والجزر والشلجم والكرنب والقنبيط تزرع في الخريف وتستحكم في الشتاء، والسمسم والذرة والأرز تزرع في الصيف وتحصد في الخريف، والقطن والقنب وأمثالها تزرع في الربيع وتستحكم في الخريف.

هذا كتاب الله المسطور، في رقه المنشور، على سطح الأرض بحروف بارزة، يراها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها إلا الحكماء، بأن يحكموا عقولهم وآراءهم في أمور الدنيا، فيعطون كل زمن

حكمه وكل مكان ما يلائمه، فإذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم، وليقوموا بذلك، وإذا رأى المسلمون أن بلاد الأرجنتين في أمريكا الجنوبية مثلاً قد اتخذوا آلات مدهشة للزراعة جارية بالسائل المسمى «بترول» تحصد القش وتصعده بنفسها إلى أعلاها، وتدرسه، وتنزل القمح في ناحية والتبن في أخرى في مخازن نفس الآلة، وبينما هي تدرس، وتميز التبن من القمح، وتخزنها في مخازنها، تحرث الأرض وهي عاملة هذا كله، ثم تذهب إلى الضيعة فتضع أحمالها، وتنزل أثقالها، وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله في يوم أو بعض يوم، فتجد آخر النهار المزرعة التي كانت مزروعة أوله محروثة في آخره، ومعدّة إلى زراعة أخرى.

وإذا رأى المسلمون أيضاً أن هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المسلمين حتى إن البقر له سلالات كريمة لا يهملون أمرها، حتى إن الثور منها قد يباع بأربعين ألف جنيه، ويحرصون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها، وإنهم اعتنوا بترقية جميع المواشي، ويرعوا في إراحتها، حتى إنهم قد استعملوا في حلبها الكهرباء، فتقف الإناث من البقر صفاً واحداً، ويوضع حبل طويل من الكاوتشوك المجوّف، وله شعب وضعت في كل ثدي من هذا البقر، وقد اتصل الطرف الآخر بخزان كبير، وفي هذا الطرف «طلمبة» أمامية كابسة اتصل بها تيار كهربائي، وهناك يبتدئ عمل الجهاز، يقوم بعملية الحليب، ويصل باللبن إلى ذلك الخزان، فيسمع له خرير كخرير الماء في الغدران.

إذا رأى المسلمون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا، كما سيأتي إيضاحه عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[البقرة:١٤٣] أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الإنساني عاجلاً أو آجلاً، فقد مهد الله لهم الطريق، وكأنه يقول: أي عبادي أنا جعلتكم خير أمة أخرجت للناس، وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم، وقد كتبت بحروف كبيرة في آفاق السماء وأقطار الأرض في الليل والنهار، والمزارع والحقول، أن كلاً منها ينسخ الآخر ويحل محله، ثم إني ألهمت أقواماً في العالم، فأخذوا ينسخون الأعمال الإنسانية العتيقة، ويحلون محلها أعمالاً أرقى، فقد نسخوا القديم البالي بالحديث القويم القوي، فهذه ثلاث درجات قرأتموها في السماء والأرض وأعمال البشر، أن النسخ في أعمالكم من سنتي القويمة، لأني لا أنام، وأزيد في الخلق ما أشاء، ولما علمت أن الإسلام سيهبط إلى أمم عقولها لا تهضم هذه المشاهدات ولا تقوى على فهمها، ويقولون: ﴿ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾[لقمان:٢١] ويجمدون على البالي العتيق، أسمعتهم في كتابي بحروف لفظية تعيها آذانهم، وأنزلت على رسولي آية في زمن ما كالآيات التي تمنع القتال زمن الضعف، فلما كانت القوة نسخت الأولى، وأنزلت آية السيف، وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم، ونبراساً لتعرفوا الحكمة وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح، ولا تقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم، والتمسك بفضائلهم، كما أبقيت الآية المنسوخة تقرأ صباحاً ومساء.

وإذا كنتم خير أمة أخرجت للناس، وأنتم شهداء الله على الناس، فذلك سيدعوكم إلى ما هو أعظم من ذلك، فإذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة في الزراعة والتجارة والصناعة، فلا جرم أنكم أنتم ستعلمون علمهم ثم تفوقونهم على مدى الأيام، ويتحقق إذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأمم.

فنتبين من هذا أن حكمة الناسخ والمنسوخ فوق ما يتصوره كثير من الناس لأن الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة في الرقي كانت بقدرة الله والقرآن من الله، فالله كما نسخ في أعمال القدرة في كل حين نسخ في التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا في الأسباب ولا يقفوا.

ولما جهل المسلمون ذلك، وجمدت قرائحهم، وناموا نومة أهل الكهف، سلط عليهم الفرنجة فملكوا أكثر بلادهم والتجارة في أيديهم، وهكذا السياسة، فإذا لم يعرفوا ما تلوناه عليهم في هذا المقام، فلتبيدنهم الأمم المحيطة بهم كما أفنت أوروبا أهل أمريكا الأصليين لأنهم لا يصلحون لهذا الزمان لقصور عقولهم واقتصارهم على تقليد آبائهم الجاهلين، ونبذ عقولهم كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً، فأبادهم الفرنجة إلا قليلاً منهم لعل المسلمين يتعظون.

هكذا الأمم الإسلامية إن لم تساو الفرنجة في جميع أنواع الحياة فلا بد من انقراضهم جزاء جهلهم، فإن الله لم يترك لهم باباً إلا فتحه لهم في الحقول والكواكب والأضواء، وأعمال الأمم وانقراض أهل أمريكا، وقد أسمعهم في كتابه آيات النسخ، ونسخ هو بنفسه لنقتدي به فأحجمنا عن ذلك، ولم يكتف بذلك، بل ألهم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ما قاله سلمان الفارسي في مسألة الخندق، وفعل ما فعله الفرس من الأخذ بالأحسن ونسخ خطة حربية بخطة حربية، والمسلمون مع هذا كله نائمون غافلون، كأن هذا الدين ليس دينهم، وكأن النبي ليس نبيهم، والعقول نائمة، وهذا أوان استيقاظهم، وقيام مجدهم، ورقيّ بلادهم وسعادتهم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص:٨٨].

وسيقرأ هذا خلفنا، ويرون أن ما أقوله عن المستقبل محقق لا شك فيه بطريق الإلهام في نفسي. ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور:٤٦].

هذا ولما كان اليهود لا يفتؤون يعادون النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له: أنزل علينا كتاباً من السماء، تعنتاً ـ كما قال العرب ـ من قبلهم، وقد كانوا تعنتوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا: أرنا الله جهرة، نزل قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ﴾ أي بل أتريدون، وسواء السبيل الطريق الحق، وقوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ الخ. سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضي الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا: لو كنتم على الحق ما هربتم، فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمار بن ياسر: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت، قالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً. ثم إنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أصبتما الخير وأفلحتما، فأنزل الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية. وبقية الآيات واضحة.

الزبرجدة العاشرة

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي اليهود والنصارى، عطف على رد ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ جمع هائد ﴿ أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ ذلك أن كلاً من الفريقين ادعى أن دينه هو الحق وسواه باطل ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ شهواتهم الباطلة التي تمنوها ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في دعواكم ﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في عمله ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الجنة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ بخلود النار ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بذهاب الجنة، ثم ذكر مقالة اليهود والنصارى في خصومتهم في الدين فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ يهود المدينة في خصومتهم مع نصارى نجران ﴿ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من دين الله ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من دين الله ولا دين إلا النصرانية ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي والحال أنهم من أهل العلم بأحد الكتابين،

ومن حق من آمن بأحدهما أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك القول ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ أي الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب يقولون لكل أهل دين إنهم ليسوا على شيء ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ يقضي ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بين اليهود والنصارى ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيعاقب كل فريق بما يليق به، إن النوع الإنساني درج على التقليد فالمتدين بدين يعتقد غيره ديناً كاذباً، والذي لا دين له يحقّر كل من هو على دين، بهذا طغى أكثر هذا النوع الإنساني لجهلهم، فمنع مشركو مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام في عام الحديبية، كما فعل الروم من قبلهم لما غزوا بيت المقدس وضربوه وقتلوا أهله، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ و«أن يذكر» مفعول ثان لـ«منع» ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ بالهدم والتعطيل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ أي المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ ﴾ أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ أي على حال التهيب والخشوع، أو ما كان لهم في حكم الله وقضائه، فيكون وعداً بالنصر واستخلاص المساجد منهم، وقد أنجز الله وعده، وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة في ذلك: فجوز أبو حنيفة، ومنع مالك، وفرّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ قتل وسبي للحربي ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي النار.

ملخص ما تقدم

يقول الله: إن أرباب الديانات شغفون بالاضطراب، مغرمون بالأخذ بالأذناب، متعصبون لأهوائهم، نابذون لنصائح أنبيائهم، فتزعم اليهود كفر النصارى، ويعكس النصارى عليهم القضية، والتوراة والإنجيل يدحضون الحجة، ويزيلان الشبهة، ومشركو العرب كفروا الطائفتين، وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل بختنصر إذ هدم بيت المقدس، ومنع أن يذكر فيه اسم الله، وهكذا أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية، وهل من الأدب طغيانهم، أم من الحكمة فعلهم، وكان الأجدر أن يدخلوها خاشعين، فلتخيفوهم بالجهاد، ولتمنعوهم من ذلك الظلم، ولقد أرسل الرسول ﷺ علياً بعد الفتح فنادى في الناس: أن لا يطوف بالبيت عريان، وأن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت المقدس منع المشركين من دخول بيت المقدس، فهؤلاء لهم في الدنيا خزي بالقتل والسبي والجزية، ولهم في الآخرة عذاب النار. انتهى ملخص ما تقدم.

ولما طعن اليهود في نسخ القبلة وقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً، فقد صلوا لبيت المقدس ثم إلى الكعبة، نزل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي وما بينهما ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي جهة رضاه، وليس الله مختصاً بمكان، بل هو ﴿ وَٰسِعٌ ﴾ الفضل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بتدبير خلقه، قد جعل لنا الأرض كلها مسجداً وتربتها طهوراً، فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولداً كما زعمت النصارى واليهود ومشركو العرب بزعمهم أن ولده المسيح أو عزير، أو الملائكة بناته، سبحانه تنزيهاً له، وكيف يصحّ ذلك وله ملك السماوات والأرض كل له مطيعون. والولد لمن هو في حاجة إليه، على أنه مبدع السماوات والأرض فضلاً عن ملكه لهما يتصرف فيهما كما يشاء، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ

ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ مخترعهما ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا ﴾ أي حكم أو قدّر ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي احدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي هلا يكلمنا الله، وهؤلاء هم كفار مكة يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: متى نعلم أنك رسوله؟ والأصح أن ذلك منسوب لليهود لأن السورة مدنية ﴿ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ ﴾ نقترحها عليك برهاناً على صدقك فأجاب الله عزّ وجلّ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ليثبت قلبه ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم ﴾ من الأمم لأنبيائهم ﴿ مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ ﴾ في التعنت ﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ في الكفر والعناد، ثم قال: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ بك ولا يتعنتون، فلا تحزن، ثم قال: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي الهدى ﴿ بَشِيرٗا ﴾ من أجاب بالجنة ﴿ وَنَذِيرٗاۖ ﴾ من لم يجب بالنار ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ إن عليك إلا البلاغ ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وهو الإسلام ﴿ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ ﴾ وما عداه ضلال ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ فرضاً ﴿ بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ ﴾ يحفظك ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعك، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أي بإقامة لفظه وتدبر معناه والعمل بمقتضاه، مدحهم بأنهم المؤمنون، إذ قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ يصدّقون به، وهذا عام لكل مؤمن هذه صفته، ولا يختص بالسبب الذي ورد، وهو أنها نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: وكانوا أربعين رجلاً، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا الراهب ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ وختم هذه الزبرجدة بأن ذكر بني إسرائيل بالنعمة إذ قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم، ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾واخشوا عذاب يوم، وهو يوم القيامة ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ لا تغني نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها فداء، ولا تنفعها شفاعة، ولاهم ينصرون، أي يمنعون من عذاب الله، وقد تقدم الكلام على الشفاعة في أوائل السورة. اهـ.

تأمل المقصد السابع

وكيف كان بدؤه أن يذكروا أنهم ما اتصل لهم ملك أيام مجدهم ما ينوف ألف سنة إلا بما أودع في قلوبهم من الحمية والشهامة، وحب الأمة، واعتقادهم العظمة في نفوسهم، والشرف في قبيلهم وكيف أنفذ ذلك في قلوبهم على لسان موسى والأنبياء بعده، وسلكها في أفئدتهم، لتكون تلك العقيدة لهم نبراساً يهتدون بها عند الظلمات إيذاناً للأمة الإسلامية أنهم لن يقوموا من نومتهم، ولن يستيقظوا من غفلتهم، إلا أن يؤملوا في الشرف أملاً، ويقدموا له عملاً.

انظر فيما في الفصلين من تقريع اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر، وهي تنوف عن ٣٥، سجلها عليهم القرآن، وغيرهم بأنهم ما صرفوا للعمل عنايتهم، وقد سجلت التوراة عليهم

ظلمهم فبكّتهم الله في القرآن، وسفه أحلام أسلافهم، وأخمد أنفاس خلفهم، وختم بتذكير النعمة، وأرى أن هذه معجزة وأيّ معجزة! فكيف عرف ما في التوراة؟وكيف أخذ يتقدهم ويقرعهم، عالماً منزلته وشرفه موقناً بصدق دعوته. ألا ترى كيف جاء يحاسب أمة على ما اقترفت، ويناوئها على ما اجترحت، هذه حقيقة صفة الرسالة، والرسول مرسل ليحاسب الأمم على جهلها، والأفراد على ظلمها، ولن يكون هذا من تلقاء النفس، كيف لا ونحن نرى المرء تمر عليه السنون والأيام، وهو يتعلم ثم لا يخرج لعلم خلاصة، ولا ينشئ أمة.

الكلام على قوله تعالى

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

خصصت هذه الآية بإفاضة الكلام فيه بعد ما ختمت تفسير هذه الآيات لما فيها من الجمال والبهاء والعجائب، وإن كان الناس يمرّون عليها مرّ الكرام، فأقول: ورد ذكر المشرق والمغرب هنا، وفي آية: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن:١٧] مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما، وفي أخرى: ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾[المعارج:٤٠] باعتبار أن كل يوم له مشرق ومغرب خاص، كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل. والناس ثلاث درجات: جهال لا يعرفون من الشروق والغروب إلا اسمهما، فلا يفكرون في تنوعهما وتصرفهما وانتقالهما. ومتوسطون فكروا بعض التفكير فعرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها. وفضلاء أدركوا أن لكل يوم مشرقاً ومغرباً خاصاً بالتحقيق لا بالظن.

وكلامنا الآن في هذا المقام، لماذا خصّ المشرق والمغرب، ولم لهج القرآن بذكر الأنوار والظلمات؟ فتراه يقول: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[الرحمن:٥] ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾[يونس:٥] ويقول: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾[الشمس:١-٣] ويقول: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[الضحى:١-٢] ويقول: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور:٤٩] ويقول: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام:١]. وهكذا من تلك الجواهر المتلألئة الباهرة البهية المشرقة، فأقول جواباً على هذا:

العرائس النفائس

تأمل عروساً مشرقة جميلة، بهية المنظر، حسنة الشكل، معتدلة القوام، قد لبست سبع جلابيب ذات ألوان أحمر، وبرتقالياً، وأصفر، وأخضر، وزمردياً، وبنفسجياً، وأزرق، وهذه الجلابيب من أرق ديباج وألطفه، حتى إن العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء، وأرق من النسيم، ثم إن هذه العروس قد ازينت بأحسن زينة، واتسمت بأبهج الحلي، وبهرت ناظريها بجميل صنعها، فإنها فوق هذا الجمال والحسن والزينة والحلي، قد أعطت من زينتها لكل غادة حسناء وجميلة هيفاء، حتى تتزين للناظرين، وتقرّبها أعين الرائين، فهي الواهبة لهن الحسن والجمال، والحلل والنفائس، والعطايا والمواهب، بل إن كل جمال أشرق أمامها، فإنما هي له مسدية، فهي مصدر الجمال والكمال، والحسن والإحسان، ثم إنها لا تهرم، ولا تشيب، ولا يستغني عن جمالها الشبان والشيب،

لا يذبل في الظاهر بهاؤها وشبابها، ولا يقل إحسانها وعطاؤها. فانظر لو أن عروساً هذا وصفها لكانت من أجل النعم، وأبهر العطايا، ولكان ذكرها يولد في النفس حباً وغراماً بمن جلاها لنا، وأبرزها وأفرغ عليها الجمال والكمال، ولكانت أجمل مظهر من مظاهر الإحسان ممن زفها إلينا، وساقها لنحظى بجمالها وكلما ذكرت تهللت القارب فرحاً واشتاقت أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها.

فاعلم أن تلك العروس هي الشمس، وجلابيبها السبعة هي الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر الخ. وقد ثبت في علم الطبيعة بالمشاهدة أن لون الشمس المشرق علينا الذي غشى وجه الأرض، إنما هو مجموع تلك الألوان متعاشقة متداخلة. ألا ترى قطرات الماء، ورشاشه في ضوء الشمس يلمع بهذه الألوان، هكذا البلّور، فإن النور يحلل داخلاً فيه إلى هذه الألوان، وتراها جلية في قوس قزح الذي لا يكون إلا في مقابلة الشمس، فإن كانت مشرّقة كان مغرّباً، وإن كانت مغرّبة كان مشوّقاً، دلالة على أن ضوءها حلله ماء المطر إلى ألوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر، وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية، فهذه الألوان السبعة صارت لوناً واحداً، فقد اتحدت فيه فأشرق على الأرض، والماء، والهواء، والسهل، والجبل.

وقولنا: إن العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحلياً، فذلك أن الكواكب السيارة التي تقدم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرقت، وبهرت الناس بنورها في طلوعها وغروبها، وهكذا يقول علماء العصر الحاضر: إن النبات، والحيوان، والإنسان، وكل ما على الأرض لا لون لها، وإنما ألوان الخضر، والحمر، والبيض، والصفر من إشراق الشمس عليها، وهي في أنفسها لا لون لها، وبرهنوا على ذلك بتجارب لا محل لذكرها مثل أن يأتوا بضوء أصفر يضيء على لباس أحمر، فوجدوا أن ذلك الأحمر مسود الصفحة، عديم اللون، لأن النور المشرق عليه خال من النور الأحمر، وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجميلة وخضرة النبات، وكل ما يعجبنا نقشه ورقشه وتزويقه، فإنما هو أثر من آثار ضوء الشمس، وهكذا كل عروس وما عليها من الحلي والحلل لا يظهر لها بريق، ولا جمال منظور إلا بإشراق نور الشمس، والأنوار الأخرى تابعة لها، وما الكهرباء إلا أثر من آثار الشمس، لأن الأرض منها، وكذا بخار الفحم الحجري الجاري في الأنابيب، فإنما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجري قديماً فخزن فيه وظهر الآن.

فهذا إيضاح أن الشمس مصدر ما تراه من البهجة، والجمال، والهناء، والسعادة، فإذا أشرقت فهذا دأبها، وإذا غربت ظهرت عرائس الليل فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات في دجى الليل، المطلات على عالمنا الأرضي، وهنّ قبلة الناظر، وهدى السارين، وكعبة الصادرين والواردين، فهذه المشارق والمغارب للشمس والكواكب مظاهر الأنوار الساريات في الكائنات، بها ينمو النبات، ويعيش الحيوان، ويجري السحاب والبحار والرياح، فهي إذن المظهر الإلهي في العالم العلوي والسفلي فالحرارة بها الحياة، والأنوار بها الهدى والجمال، فلا عجب إذا قال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]،

وإذا قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور:٤٩]، وإذا قال: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾[الإسراء:٧٨]، وإذا قال: ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر:٦٩]، وإذا قال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[الواقعة:٧٥-٧٦].

هاهنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة، وهاهنا يتجلى النور العلمي الإسلامي، وتشرق العقول ببدائع الحكم، وروائع الفكر، وغرائب العرفان، هاهنا يكون منشأ الحكماء والكبراء في أمة الإسلام. تأمل النجوم والكواكب والشمس وإشراقها يرفع العقول إلى أعلى مستواها، فبينما هي في معراجها صاعدة، إذا هي في محرابها الفكري عابدة، إذا هي في مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة، وبهذا ترقت الأمم الفرنجية حولنا ونحن نائمون. ولألق عليك ما ذكره «اللورد افبري» في كتابه جمال الطبيعة لتنظر كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية، ونحن ساهون لاهون.

قال: لا يعرف الناس جمال الطبيعة لأنهم فيها مغمورون، ولو أن الشمس تطاول عهدها بالشروق فطال الأمد، والناس مشتاقون إليها، ثم بعد اللتيا والتي طلعت عليهم أفلا تراهم يفتنون في محاسنها ويسحرون بجمالها ويغرمون بعجائبها. ألا وإن تلك الأشعة الذهبية البراقة الوضاحة الجبين كنز ثمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فأصبحوا لا يفطنون لهما ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾[يوسف:١٠٥] ثم قال ضارباً مثلاً أشبه بما قاله أفلاطون في كتابه المسمى «جمهورية أفلاطون» تصور قوماً كانوا في كهف تحت الأرض، واسع الأرجاء فيه القصور الفخمة والتماثيل، وقد نقشت حيطانه وازينت بزينة ورياش وزخارف، وقد انعكس عليها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار، وقد سمعوا بإله خفي عن الأبصار وغاب عن العيان. ثم أتيح لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجأة كأن زلزلت الأرض، فإذا هم في متسع الفضاء، وهناك شمس مشرقة، وسحاب، ورعد، وبرق، فيذهلون لجمال الشمس ونورها، فإذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب، ظهرت الكواكب اللامعة طالعة، فيعتريهم الذهول لجمالها، وتتولاهم الدهشة لتلألئها، ويرون القمر ظاهراً مشرقاً حسن الطلعة، فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة، ويقرون بإله عظيم نظم هذه الدراري في آفاق المشرقين، ووضعها في عقود المغربين، وسيّرها في الأبراج، وفي المنازل. انتهى.

هذه مقالة اللورد افبري، وهي وإن كانت جميلة، أجمل منها ما كتبه أفلاطون في الجمهورية، فإنه فصلها تفصيلاً أدق، ولكن جوهر المعنى محفوظ.

ليس هذا المقال يدلك على ما للفرنجة من قدم راسخة في هذه العلوم، ونظر ثاقب في مواقع النجوم، ولعلك تقول ماذا يهمنا من مقال رجل إفرنجي. أقول: إنما ذكرته لغرضين: الأول: أن رقي العقل الإنساني موقوف على استيعاب هذه المباحث النفيسة، وهؤلاء القوم قد برعوا فيها. الثاني: أن كثيراً من الشبان الذين درسوا اللغات الإفرنجية استكبروا استكباراً وأعرضوا وقالوا: لا نؤمن بإله، لأن الفرنجة لا يؤمنون، وقد تركوا الديانات وعكفوا على درس السياسات، وناموا عن العبادة، وأنكروا الله، ونحن لا نعرف إلا ما تراه الأبصار، وننكر ما وراء المادة، لأن الفرنجة لذلك منكرون.

وأنا أقول: لقد اطلعت على كتب أعاظم الفرنجة وحكمائهم، فوجدت هؤلاء الشبان المارقين في دعواهم كاذبين، فإن البعض منهم قد درس قشور العلم ولم يتجاوز كراسة معلمه، وخرج من درسه مغروراً يقول قد عرفت علوم المشرقين، وطالعت حكمة المغربين فلم أجد أهدى سبيلاً، ولا أقوم قيلاً من جحود الإله والكفر بما لا أراه، فذرهم يعيشون عيشة البهائم، ويكتفون من العلم بدعواهم أنهم ممتازون، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، ومن عجب أن هذا المثال الذي اتخذه اللورد افبري من كتاب أفلاطون هو الذي يقوله علماء الصوفية في تمثيلهم، وهو المذكور في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام:٧٤] وملخصه أنه لما جن عليه الليل رأى كوكباً فظنه ربه، ثم رأى القمر بازغاً فبهره جماله، فقال: هذا ربي ثم رأى الشمس بازغة فرآها أجمل، فقال: هذا ربي هذا أكبر، ثم لما أفلت رجع إلى الله، وقال: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩].

أيها المسلمون هذا التمثيل الذي ذكره أفلاطون، وقفى على آثاره اللورد افبري وجد في نفس القرآن، وهو الانتقال من جمال المشرقات إلى مبدع السماوات، فكيف إذن يسود الفرنجة في هذه العلوم ونحن عنها غافلون، العلم علمنا والدين ديننا، بل الشمس شمسنا، أليس إشراقها في بلاد الشرق أبهج ضوءاً وأوضح نوراً، ومن ذا يقيس سناء الشمس في إنكلترا بسنائها على ضفتي النيل والأهرام وبلاد الشرق، وكيف يغرم هؤلاء الذين يدعي صغار العقول من الشبان أنهم منكرون للإله بهذه العجائب، والتوراة والإنجيل، وهما الكتابان الدينيان لهم ليس فيهما من محاسن الطبيعة إلا ما ظهر من الفلك على جرم السمك أثر ضئيل ونور حائل.

ألا فليستيقظ أهل الشرق، فقد آن أن تبزغ شمس المعارف في آفاقه وأن يتهيأ الشبان لزمان العرفان وأيام الهناء والسعادة، وكأني بالنابغين منهم، وقد برعوا في الفنون وذاقوا من أفاويقها ما به يسعدون. ولعمرك لم أطل في هذا المقام اعتباطاً ولم أذكر ذلك إلا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾.

أولست ترى أن حكاية الخليل وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى إلى مبدع العالمين، وكيف كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر في الكواكب أن الكواكب والشمس والقمر بإشراقها على الأرض تغشيها بملاءة بيضاء فأينما نولي وجوهنا يشرق النور علينا، وإذا كان المخلوق هكذا حاضرنا في كل مكان فأحرى بنا أن نوقن أن الله هو نور السماوات والأرض، وهو الذي أبدع النور معنا أينما كنا.

فبهذا فلنفهم كيف يقول تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه:١٣٠]، وإياك أن تظن أن التسبيح ما يكرره الجاهلون وهم لا يعقلون وإنما ذلك المقرون بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[آل عمران:١٩١].

فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثاً إلى هذه العجائب وصغار العقول نائمون، وبعض العلماء غافلون والمغرورون من متعلمي اللغات الإفرنجية مفتونون، وقد أقمت الحجة على الجميع من الكتاب وكلام الفرنجة عسى أن يكونوا من المفكرين، وإلى هنا آن الشروع في قصص الخليل عليه السلام وهو:

المقصد الثامن

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾ اختبر ﴿ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ أوامر ونواه ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أداهن تامات ﴿ قَالَ ﴾ أي الله ﴿ إِمَامًا ﴾ قدوة في الدين ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي أولادي اجعل أئمة ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ﴾ أي بالإمامة ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين منهم، ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ أي الكعبة ﴿ مَثَابَةً ﴾ مرجعاً يرجعون إليه من كل جانب ﴿ وَأَمْنًا ﴾ مأمناً لهم من الظلم والإغارات، كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه ﴿ مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ هو الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت ﴿ مُصَلًّى ﴾ مكان صلاة بأن تصلوا خلفه ركعتي الطواف ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ الخ أي أمرناهما بـ ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ أي من الأوثان ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ المقيمون فيه ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ جمع راكع وساجد، وقوله: ﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴾ أي المكان ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ ذا أمن، وقد استجيب الدعاء فجعل حرماً لا يسفك فيه دم إنسان، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد صيده، ﴿ أَضْطَرُّهُۥٓ ﴾ ألجئه و﴿ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع و﴿ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ الأسس أو الجدر،

يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ و﴿ مُسْلِمَيْنِ ﴾ منقادين ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ وَأَرِنَا ﴾ علمنا ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ شرائع عبادتنا أو حجنا ﴿ وَٱبْعَثْ فِيهِمْ ﴾ في أبناء إبراهيم من إسماعيل ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ وقد حقق الله الدعاء بنبينا ﴿ ءَايَٰتِكَ ﴾ القرآن و﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ معاني القرآن ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ما تكمل به عقولهم من المعارف والأحكام ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من الشرك، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في صنعه، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ ولا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من استخف بنفسه وامتهنها ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالرسالة والخلة ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ من الذين لهم الدرجات العلى، واذكر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ انقد لله وأخلص له دينك الخ. ﴿ وَوَصَّىٰ ﴾ بالملة ﴿ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ﴾ الإسلام، وقوله: ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ أي حضوراً، و﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ بدل من إلهك ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون له بالتوحيد والعبادة. انتهى تفسير الألفاظ.

شرح وإيضاح

لقد مضى ذكر آدم وحواء وإبليس، وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس، وتعقيب ذلك بما فعل اليهود السابقون واللاحقون، وتقريعهم وتوبيخهم، إن ذلك لأشبه بالتخلية، ولم يبق إلا التحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التي تحلى بها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ذلك الأب الأكبر الذي ولد القبيلتين العرب واليهود، وفرع الشعبين الإسرائيليين والإسماعيليين. إبراهيم أبو إسحاق، وإسماعيل وإسحاق قد ولد يعقوب، وهو إسرائيل، أي عبد الله وأبناؤه الأسباط وإسماعيل قد ولد العرب، ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان العرب يدينون بدين إبراهيم فجاء النبي ﷺ بدينه فطفق الله يذكر الأمة بدين أبيها إبراهيم بعد أن هدم بناء أسس على الجهل والتحريف، فقال: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾.

إن أقصى ما ذكره المفسرون، وقصارى ما دوّنوه في الكلمات، يرجع إلى العبادات والأخلاق الظاهرة والباطنة التي ترفع الرجل إلى رتبة الإمامة، وتزين الإنسان وتسمه بالحكمة، ولن يكون إلا بخصال شريفة، ولا قدوة إلا بآداب عالية يعلو بحسبها ويشرف بقدرها.

وإبراهيم أمر بآداب ظاهرة كالخمسة التي في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وخمس في الجسد من: تقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء. وهكذا ثلاثون خصلة خلقية وهي المفهومة من آية: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:١١٢]، وآية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٣٥]، وآية: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠] . وهكذا مناسك الحج ، وابتلاه بالنظر في الكواكب والشمس والقمر ، فأحسن النظر فيها ، وبذبح ولده فصبر ، وبالهجرة وبفراق الوطن فاحتسب ، وبالنظر في العوالم السفلية كمسألة الطير ، وكيف يحيي الله الموتى فأحسنها وبلغ النهاية فيها فرجع أمره إلى صدق النظر في العوالم العلوية والسفلية من كوكب وقمر وشمس ، كما في آية الأنعام وإبادة الأصنام وتكسيرها وإبانة الحجة على صحة الحياة الأخرى بالنظر في العلوم الطبيعية ، ثم الأخلاق الظاهرة من المضمضة وما عطف عليها ، والباطنة من الإيمان والصدق وما عطف عليهما ، وكذا الصبر على فراق الولد والوطن والإلقاء في النار «صفات عالية ، ونفوس شريفة ، وأب كريم ، وشنشنة فاضلة» ذلك تضمنه معنى الكلمات التي ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفاً يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان .

وهذه إحدى نكبات المسلمين اليوم فلقد يغرّهم الجاهلون ، ويضحك على أذقانهم المغرورون فيقولون لهم : من قرأ سورة كذا غفر الله له وأعطاه كذا فظن الناس أن المسألة كلمات تكرر وحروف تصور . كلا والله فقد أجمع المفسرون على أن ذلك عمل ، وأي عمل . إن أكثر المسلمين أبناء إبراهيم ، ومن الحزن أنهم جهلوا سبيله وضلوا طرقه وما قدروه قدره . وكيف يموتون وهم لا حظ لهم من نظره ويهلكون ولا نصيب لهم من عمله .

أين مدارس الحكمة ، أين علم الفلك ، أين الصدق والوفاء ، أين الفضيلة ؟هذا دين أبيكم إبراهيم دعاكم له عربي مثلكم ، وهو النبي ﷺ ولو رجع الخليل للدنيا لأنكر ذريته ، وقال : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فليس الظلم قاصراً على التعدي على العباد ، كلا بل أقبح منه الجهل بنظام السماوات والأرض والفضائل النفسية . وما أجهل المسلمين اليوم فإذا لم يكن لولد إبراهيم اليوم عهد الإمامة والرياسة فلا يلومون إلا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل الوحي عليه يتعبد في غار حراء بالنظر ، والفكر والتأمل في بدائع السماوات ومحاسن العالم ، وهو دين الخليل عليه الصلاة والسلام فمن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه وجهل قدرها .

ويرجع ما في هذه الآيات إلى عشر زمردات : الزمردة الأولى : طلب الإمامة لبنيه ، والخلافة لذريته بقوله : ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فأجيب بأنه لا يدركها من جهلوا وظلموا .

الزمردة الثانية

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾

أنت تعلم أن الخليل عليه الصلاة والسلام تحلى بالحكمة والعلم ، وازدان بالآداب والأخلاق ، فأمرنا باتخاذ الأماكن التي أمّها ، مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأماكن النسك كلها ، لنسير في سبيله ونأخذ العهد بعده ، والمراد بالصلاة ما يشمل الدعاء في تلك الأماكن فليس الحج حركات عضلية كما

أن الصلاة ليست كلمات وأفعالاً بلا فكر ولا روية، فهذا من عجائب القرآن، وبدائع الفرقان، وصلاة ركعتي الطواف من تلك الصلوات، فلا تحجبك الأقوال.

الزمردة الثالثة

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

وهي ظاهرة. ﴿ وَٱلْعَـٰكِفِينَ ﴾ المقيمون فيه ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ مفهومان.

الزمردة الرابعة والخامسة

دعاؤه لأبنائه، وهو قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

هذا الدعاء واضح، دعا إبراهيم أن تكون مكة بلداً آمناً لا يراق فيها دم، ولا يصاد صيدها، وأن يرزق أهلها المؤمنون الثمرات احتراساً من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر، فأراه الله أن الكافر لا يحرم من النعمة والصحة والحياة، وله عذاب مهين يوم القيامة. أليس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب الدم أن يقتل واتره، ذلك أساس وضعه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في مكة بأمر الله عسى أن تهتدي الأمم يوماً ما إلى السلامة، وحفظ الأنفس من الهلاك، والأجسام من سفك الدماء. إن في الإسلام لبذوراً ستنمو وتفرخ وتتشعب وتفرش إذا جاء أجلها وحان حينها.

ثم بنى إبراهيم وابنه إسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء وأن يجعلهما مخلصين، وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدي بهداهما، وهذه القصة واردة في الحديث البخاري وفيه: وجاء بها، أي سارة وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، وكان ما كان من تفويض أمرهما لله، ووقوفه مستقبلاً القبلة عند الثنية وقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وهكذا ظمئت وظمئ ولدها، وسعت بين الصفا والمروة طلباً للماء، فشرع السعي، وسمعت صوتاً إذا هو جبريل يبحث بجناحه فظهر الماء وشربت، فمرت رفقة من جرهم من طريق كداء، وحطوا رحالهم حول زمزم وترعرع إسماعيل، ومرّ أبوه ببيته، وهو ذو أهل مرتين، وفي المرة الثالثة قابله واعتنقا، ثم بنيا البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ووضع الحجر الأسود، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]. أخلص إبراهيم لله، فدعا أن يتقبل دعاءه، ويجعله مخلصاً لله، ويتخذ من ذريته أئمة، ويرسل لهم رسولاً منهم يعلمهم ويطهرهم، فهذا الدعاء شامل لخيري الدنيا والآخرة.

إن أبناء إسماعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز، واليمن وتهامة، وأكثر جزيرة العرب والشام والعراق، ومصر وشمال أفريقية: طرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش، وهل اتخذوا حظهم من علمه، وقسطهم من حكمته؟ها هم أولاء أبناؤك يا أبانا إبراهيم اليوم في شمال أفريقيا، وفي مصر،

وفي الشام، وجزيرة العرب أجهل الأمم بعلمك وأبعدهم عن فكرك، نظرت السماوات وكواكبها، والأرض ومناكبها والمناسك وفوائدها، وحللت المركبات لتقف على أسرارها في مسألة الطير، وصبرت على النار وسعيرها، والولد وفراقه، والوطن وحبه، وهاجرت لأرض الحرية بعد يأسك من إيمان الأمة التي أرسلت لها، جاءهم الرسول الذي طلبت والكتاب الذي به دعوت، فَوَحَقِّ شيبتك ووقارك ما عرفوهما إلا معرفة الجاهلية، وإنما قدسوهما غافلين، ولا حظ لهم من القرآن إلا حظ الجائع من النسيم والحمار من البرسيم، فداستهم الأمم، وأصبحوا طحين الطامعين، ولم ينالوا الخلافة، ولم يحظوا بالإمامة، فهم مأمومون لا أئمة، وتابعون لا متبوعون. إنهم ظالمون لا ظلم المعاصي الظاهرية، ولا الأمور الأخلاقية، وإنما ظلموا بجهل العلم والصناعات، وما أبدعه الله في الأرض والسماوات، فلا تجزع يا أبانا إبراهيم، فإن أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم، ألا ترى أنهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك.

نظرت السماوات وأغمضوا، وفكرت في الطبيعة وأعرضوا وصبرت على ما يشرف قدرك وما صبروا، وأحببت ذويك وكرهوا، لا تأسف على أبنائك يا أبانا الخليل، ولقد صدق قول الله فينا: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ فأبناؤك اليوم جهلوا أنفسهم فلا تبتئس بما كانوا يعملون، وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علماً، وبعد خوفهم أمناً.

ألا وإن هذا زمان الانقلاب وأيام الاضطراب، ودوران الفلك بالعجائب والغرائب فقد انتعشت الأفئدة، وأشرقت الأرض بالنور، وسيتبوأ أبناؤك في القريب العاجل مقامهم الرفيع، وينالون عزهم الشامخ، وسيدركون معنى أبوّتك وملتك. المسلمون جميعاً أبناؤك من ترك وكرد وصينيين وجاويين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبناؤك في العلم والدين، وبنوّة العلم أشرف وأبقى من بنوّة النسب هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا ﷺ في القرآن: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[الحج:٧٨] فلقد سمينا مسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن، وأنّا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيداً فتكون نسبتنا إلى الناس كنسبة الرسول لنا، نحن شهداء الله على خلقه، نحن هداة الأمم، هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الغفور.

لقد وقف الرسول الذي أرسله سعد بن أبي وقاص في مجمع من الفرس في حضرة الشاه تارة، وفي حضرة رستم القائد العام تارة أخرى وهو يقول: «لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام ولا يتخذ بعض الناس بعضاً أرباباً من دون الله».

لعمري لقد فهم أولئك السلف حقيقة الإسلام وأن المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧]، ولن نكون رحمة للعالمين إلا إذا اتبعنا ملة أبينا إبراهيم فقرأنا سائر العلوم وأحطنا بالفنون كما شرحناه في علومك السابقة.

نظرت في النجوم وصبرت وبحثت في علم الحقائق واستبصرت في كل شيء، هكذا فليكن أبناؤك الذين هم أتباع دينك، وكيف يكونون شهداء على الناس إلا إذا درسوا العلوم وأطوار الأمم

وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون عالماً بما بين أيديهم وما خلفهم، ولم يقتصر القرآن إلى اتصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوي إشراف على الجميع في الأرض إذ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقال في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

الأمة الإسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تتاخم الروم من جهة الغرب بأوروبا وتتصل بالصين والهند واليابان، وما وراءها أمريكا من جهة الشرق، فمكانها وسط بين الأمكنة، ورجالها وسط يعدلون في قولهم وحكمهم، فأهل الحل والعقد من هذه الأمة متى جاء وقت منعتها وعزها ومجدها سيكونون مرجع المظلومين ومأوى الخائفين وأمان المذعورين، وهم يكونون الآمرين الناهين، وكما أرسل رسولهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعاً لنبيهم، وهذا معنى: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾[التوبة: ٣٣]. فالمسلمون بمنطوق هذه الآيات، خير أمة أخرجت للناس، ولا جرم أن هذا خبر لا بد من تحققه، ويظهر لي أنه قد آن أوانه، وبدا موكبه وانفلق عمود صباحه وانشق فجره.

إن أول إصلاح إسلامي في الأرض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم، وماج الناس بعضهم في بعض، وداخل الغربيون الشرقيين، والشرقيون الغربيين، وامتد الفتح الإسلامي الديني فتعارفت الأمم واستفحل الإسلام فقام الملوك ببعض العدل في حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وما سمحت به أيامهم، ثم دالت الدول الإسلامية وذهبت عنهم عزة المدنية، فدلف إليهم من الشرق المغول والتتر وورثوا الأرض والتحقوا بالدين، وهذا من ثمرات الإسلام، وجاء الغربيون ليحاربوا للدين، فحملوا على قومهم قناديل تضيء على ديارهم، وقبساً من العلم يهديهم ويردهم عن ردى، فظهر «لوثر» المصلح الديني الشهير، وصرخ في قومه قائلاً: أيها الناس إن رجال الدين قد عثوا في الأرض فساداً، وأدخلوا في الدين ما لم ينزل الله به سلطاناً، فلا تجعلوا لكم رباً إلا الله، وذلك إنما كان صدى قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾[التوبة: ٣١] فلا إقرار لقسيس، ولا طغيان في معاملة، ولا غفران لرئيس بل العبد يحاسب ضميره ويعلم أن الله مطلع عليه، فأخذت العقول الغربية في الهدى، والعقول الشرقية في الضلال والاضمحلال.

وبهذه الحرية الإسلامية، تحررت عقول الغربيين من الجهل الذي كان مخيماً عليها أجيالاً، وقروناً فأخذوا ينظمون البريد والقطر للمسافرين، ويمدون الأسلاك، فاتصل الغربي بالشرقي، وعرف كل منهما بعض ما عند أخيه، وانقلبت ممالك في الشرق والغرب، وتقاربوا بعد التباعد، وتعارفوا بعد الجهالة، فاقتتلوا وأخذ القوي منهم يدوس الضعيف بسنابك خيله، ويذله ويشاركه ويعده، وما يعد الشيطان إلا غروراً، وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة، فدعا ذلك التصادم في المصالح أن يحتدم بينهم القتال، ويتراشقوا بالنبال، ويتباروا في النضال، ثم يكون الصلح العام، والمسلمون في هذا كله وسط بين الجميع، فعليهم اليوم أن يأخذوا دورهم في ترقية أنفسهم والشعوب الأخرى،

ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤]، ولتكونن نهضة الإسلام الآتية مبناها العلم وأسها البحث والتحقيق.

فليأخذ المسلمون مكانتهم في أنفسهم أولاً، ثم ليلموا شعثهم، فليأتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان، وإذن يأمرون الأمم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، لأنهم خير أمة أخرجت للناس، فأمة الإسلام شهداء لله على خلقه، لأنهم عدول، وفوق ذلك يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أبونا إبراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق، ولا جرم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، فكيف ذلك وكيف يكون أبو الأنبياء وقدوة سيدنا محمد ﷺ مغرماً بزينة الحياة الدنيا؟ فحمده إذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذي يحمد الله على تربيته للعالمين كما قدمنا في سورة الفاتحة، أقول: إنَّما حمد إبراهيم الله على ولدين هما نبيان: فإسماعيل مرشد مربٍّ للعالمين، وإسحاق أبو الأنبياء المرشدين المربين للأمم، وقد جاء من ذرية إسماعيل نبينا، فالحمد لله من إبراهيم على تربية الأمم وسعادتها بأبنائه، ومنهم أمة الإسلام، ألا تراه يقول هنا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وأكدها بقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الخ، حمد الله إبراهيم على أن رزق إسماعيل وإسحاق، وقدم إسماعيل لأن الحمد عليه أوفر فإن من ذريته من اتبعته هذه الأمة المسلمة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وهي وسط، ورجالها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. هذه حقيقة الأمة الإسلامية المستقبلة.

أيها المسلمون: ارفعوا الأيدي الضاغطة عليكم لتكونوا جميعاً أمة واحدة، ثم لتنظروا في أحوال الأمم. إن الغربيين انقاد قادتهم إلى العامة الذين ينوبون عنهم في مجالس أهل الحل والعقد فيهم فهدوهم إلى استعباد الأمم الإسلامية، واستحلوا دماءنا وأموالنا، فإذا جاء يومكم المعهود فلتكونوا خيراً منهم، لتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وارفعوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أيّ دين كانوا، وأيّ ملة، وأيّ لون، إنما أنتم رحمة العالمين، تؤدّبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم، ويجب أن يكونا أقوى من أسلحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم، ولا تظلموا أحداً، وكونوا قادة وسادة، وانظروا كيف كان نبينا شاهداً على الأمم فذمّ اليهود والنصارى بمخالفة كتابهم كما ترونه في هذه السورة من اتخاذ اليهود العجل معبوداً مثلاً، ومن اتخاذ النصارى المسيح إلهاً، فعيرهم بذلك وبغيره وأدّبهم، فكان من ذلك ما نرى من هذه المدنية الناجمة من الانقلاب الديني في الأرض، هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم تفعلون ما فعل نبينا من الشهادة على الناس والأمر بالمعروف لهم والنهي عن المنكر بعد أن توطدوا أركان النهضة داخل بلادكم. ذلك هو الذي انشرح له صدري في هذه الآيات وهذا الذي يطلبه القرآن، وإلا فلماذا نسمع قصة إبراهيم؟ألمجرد التاريخ، أم لحكاية تقال وتلاوة تسمع؟كلا والله إن ذلك لحكمة قد أوضحناها، ونعمة سطرناها، فمن قرأ هذا فلينشره بين المسلمين: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠]. وهذا سر تكرار الصلاة والسلام على إبراهيم وآل إبراهيم، لتذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التي ذكرت عنه في القرآن. اهـ.

أيها المسلمون : إني أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم ، وأوان عزكم ، وهل يكون أمركم للأمم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأنتم أذلة ؟ إن الله خلق الحيوانات في الأرض على قسمين : قسم عزيز ، وقسم ذليل ، فالعزيز كالغزلان والآساد والذئاب والفيلة ، وهي الحيوانات التي تعيش في القفر والفضاء الواسع ، قد جدّت لأنفسها ، وسعت لمعاشها ، واتكلت على ربها ، ولم يكفلها غيرها ، إلا أنها تتمتع بالحرية والاستقلال التام . والقسم الذليل : تلك الحيوانات التي أغدقنا عليها نعمنا ، وكفيناها العمل ، وأحطناها بقوتنا ، وأرحناها من السعي لأنفسها ، والبحث عن كل ما يريحها وينفعها من الغنم والبقر والإبل والخيل وأمثالها ، فتلك تتمتع بالنعيم وتتقلب في العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ، إن الله أعطى القسم الأول كالآساد قوة المحافظة على أنفسها والحيلة لجلب ما تحتاج إليه ، وسلب القسم الثاني تلك المواهب ، فزادنا ما نقصها ، وأعطانا ما منعها ، فإن كل موهبة استعملها الحي نمت ، وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبق . هذه قاعدة عامة ألا يبقى إلا النافع .

فنقول : أيها المسلمون ، أنكون كالفريق الأول أم نكون كالفريق الثاني ؟ إن الفريق الثاني لا يملك لنفسه نفعاً ، إنه ذليل ضعيف فاقد الحيلة ، أما الفريق الأول وهو الحر المستقل ، فهو أهل أن يحفظ نفسه ، وينفع غيره ، المسلمون ما داموا تحت رحمة الأمم فليسوا خير أمة أخرجت للناس ولا عدولاً ، لأن الأمة التي تكون خير الأمم ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، تكون حرة ، وهل للذليل أمر أو نهي ، أم هل له من علم وهو في طاعة ساداته المالكين لأمره ، الذين يسخرونه لمآربهم ؟ فما داموا تحت وصاية غيرهم فإن الرجاء فيهم مفقود ، وإنما هم أشبه بأدنى الحيوان الذي يقوده الإنسان ويذبح أولاده ، ويشوي لحمه ويجزّ صوفه ، ويكون زينة له ومتاعاً إلى حين .

فهل مثل هؤلاء يكونون خير أمة أخرجت للناس ، أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين ؟ أم يكونون شهداء على الناس وهم لا يعرفون الناس ولا أنفسهم ، فليخرج المسلمون من مأزقهم الذي وقعوا فيه وليرجعوا إلى سنن السلف الصالح من الحرية والنجدة والنخوة والشمم والإباء ، وحينئذ يكونون خير أمة أخرجت للناس .

الزمردة السادسة

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ إلى قوله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إبراهيم أبو العرب واليهود ، وأبو نبي النصارى ، لأنه ابن مريم ، وهي من بني إسرائيل ، إبراهيم ولد إسحاق وولد إسماعيل ، إسحاق أبو اليهود ، وإسماعيل أبو العرب ، ودعا إبراهيم لأبنائه العرب بالبركة والنماء والعز والعلم والكتاب والحكمة ، وهاهو ذا يذكر وصيته هو ويعقوب بعده ، كلاهما يقول لبنيه : ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . هاهنا وضح الحق ، واستبان السبيل ، وتجلى الأمر ، وسطع نور العلم وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وهاهو ذا إبراهيم يدعو للعرب ويوصي إسحاق ، ويوصي إسحاق يعقوب أن يتبعوا ملة إبراهيم ، وهي ما عرفت من النظر في العالمين والآداب الظاهرة والباطنة ،

فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتقهقر الناس إلى الوراء ويدينون بالنصرانية واليهودية ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي إبراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من العمل ﴿ وَلَكُم ﴾ أيها اليهود ﴿ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كما لا يسألون عن عملكم فلا تفتخروا بهم .

الزمردة السابعة

وهما فرعان لأصل وغصنان لشجرة ، ولا أصل إلا دين إبراهيم ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقال اليهود ﴿ كُونُوا هُودًا ﴾ وهم يهود المدينة ، وقال نصارى نجران : كونوا ﴿ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ ﴾ نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القديم ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تعريض لليهود والنصارى بأنهم مشركون ، ألا إن الطريق المثلى ، والمثل الأعلى والحكمة المشرقة أن يرجع نوع الإنسان إلى الدين العام بلا قيد ولا شرط ، وهو :

الزمردة الثامنة

السلام العام بمشرق شمس الهداية ، ونور الحكمة من أفق الشرق ، وتبلج نور إبراهيم الخليل ، وحكمة ذلك الوقور الجليل ، وهي قوله تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) ﴾

التفسير اللفظي

هذا خطاب للمؤمنين ، يقول : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وهو القرآن ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ من الصحف العشرة ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ من التوراة ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ من الإنجيل ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ كما فعل اليهود .

وقوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ أي اليهود ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ خلاف معكم ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ يا محمد شقاقهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالهم ، وقد كفاه إياهم فقتل قريظة ونفى النضير ، وضرب الجزية ، هذه حجة الإسلام الباهرة ، وسيفه القاطع ، ونوره الساطع ، فنحن نؤمن بالمرسلين والنبيين ، ولا نكذب ما ورث عنهم من حكمة ، وما أوتوا من علم ، لا نفرق بين رسول ورسول ولا بين نبي ونبي ، نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ونعظم سائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، عقولنا ميزان تزن ما ورد بالقسط ، ونبين بالحق ، كما في آية : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] .

إذن آن أن ينبلج صبح ذلك اليوم المنشود، ويعلم المسلم ما في هذه الآية ويكونون أرقى الأمم، والآن هم في غطاء عن الذكر، وقلوبهم في أكنة إلا من رحم ربك، فمثل هذه الآيات لا تلج القلوب ولا تدخل الآذان، هذا وقد أكد هذه الحكمة بما يقويها وزكاها بما يدعمها ويسميها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ (١٣٩) ﴾.

الإيضاح

أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهدانا الله هدايته، ولا صبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فينا ظهور الصبغ على المصبوغ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ تعريض لهم بأنهم مشركون، وروي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، فلو كنت نبياً لكنت منا، فنزل ما معناه: قل أتجادلوننا في شأن الله فالنبوة إما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم، فكما يختص منكم من يشاء، وإن كان ذلك بالأعمال، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له في الإيمان والطاعة، صبغ النصارى بماء المعمودية الذي اتصل بما غمس فيه المسيح عليه السلام، فذلك حجر للنفس عن السلام العام والدين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول في الإسلام، ويصبغوا بصبغة الإسلام لا يتقيدون بالقيود الموهومة ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾. ليس أمام المسلم إلا ربه وعمله ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ والناجون المفلحون هم المخلصون ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾.

الزمردة التاسعة

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴾

إيضاح

أي بل أتقولون، وقوله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ أي الله أعلم، وقد برأ إبراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ [آل عمران:٦٧] ولا أحد أظلم ممن أخفى شهادة عنده كائنة من الله وأولئك هم اليهود، كتموا شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية، وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم وتخويف، وتكرار هذا ليعلم اليهود وجميع العالم الإسلامي أن الاحتجاج بالآباء أو الافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العماية، فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذي زوّروه ولو كان حقاً لم يفدهم فلكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرئ عن عمله مسؤول. وملخص ذلك أن يقال: ليس إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً وإنما دينه مطلق من القيود، خال من السيئات أبيض ناصع على أنه لا عبرة بالمجد القديم، والفضل الموروث، ألا إنما المجد كل المجد أن يعمل الإنسان بنفسه ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

الزمردة العاشرة

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التي كانت مناسك إبراهيم

لتقتفي الناس أثره في أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظره العام في السماوات والأرض

وهو قوله تعالى:

﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾

التفسير اللفظي

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت، يطمئن به القلب، ويسهل المكروه قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ﴾ الجهال من اليهود والمشركين: أي شيء صرف النبي ﷺ والمؤمنين ﴿ عَن ﴾ استقبال ﴿ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ وهو بيت المقدس ﴿ قُل ﴾ يا محمد ﴿ لِّلَّهِ ﴾ الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما، فأي اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين الإسلام، ومنه أنتم، وإنا كما هدينا إلى هذا الدين ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ ﴾ يا أمة محمد ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ خياراً عدولاً ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ في الدنيا والآخرة وسيأتي توضيحه كما سبق بعض ذلك ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أنه بلغكم، وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة ﴿ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ من قبل وهي الكعبة إذ كنت تصلي إليها فلما كانت الهجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ علم ظهور ﴿ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ فيصدقه ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ راجعاً إلى الكفر شكاً في الدين فيظن من في قلبه مرض أن الرسول متحير في أمره متردد في فعله، ولقد ارتد جماعة لذلك ﴿ وَإِن كَانَتْ ﴾ أي التولية ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ لشاقة على الناس ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ منهم.

ولما قال حيي بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين: إن استقبالكم لبيت المقدس لا يخلو إما أن يكون هدى، فقد انتقلتم الآن إلى الضلال، وإما أن يكون ضلالاً فلم أقركم عليه، ثم إن من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله. شق ذلك على أقارب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ وهو صلاتكم إلى بيت المقدس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أما بالمؤمنين ففي أنه لم يضيع صلاتهم إلى بيت المقدس، وأما بالرسول فإنه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته، إذ كان وهو يصلي إلى جهة بيت المقدس يشم من اليهود الكره، وكانوا يقولون: إن محمداً يفارق ديننا ويصلي لقبلتنا، وكان ﷺ يحب أن يصلي للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوماً فقال: يا جبريل أودّ أن الله يحولني لقبلة أبي إبراهيم فسل ربك ذلك، فقال: أنت أكرم على الله مني، ثم صعد إلى السماء فصار رسول الله ﷺ ينظر لجهتها منتظر الإذن في ذلك، فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر في رجب بالأمر بالتحويل للكعبة، فتحول وتحول الناس معه وكان يوماً مشهوداً، فافتتن اليهود وأهل النفاق، ونزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ الآية، أي قد نرى تصرّف وجهك ﴿ فِى ﴾ جهة ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ متطلعاً إلى الوحي ومتشوقاً للإذن باستقبال الكعبة لأنها قبلة أبيك إبراهيم، ولأن العرب يألفونها فيسلمون ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ تحبها فاستقبل في الصلاة نحو ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَ ﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿ حَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ في الصلاة ﴿ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهم اليهود ﴿ لَيَعْلَمُونَ ﴾ أن التولي للكعبة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فإن ذلك جاء في نعت النبي أنه يتحول إليها ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي اليهود من إنكار أمر القبلة ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾ على صدقك في أمر القبلة ما يتبعون قبلتك عناداً منهم لك ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لطمعه في إسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم

الذي كانوا ينتظرونه مؤيداً لهم، وما اليهود بتابعين قبلة النصارى، وهي مطلع الشمس التي ابتدعها لهم بولس القسيس، أنه بعد رفع عيسى قال: لقد لقيت عيسى عليه السلام، فقال لي: إن الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامي في كل يوم، فمر قومي ليتوجهوا إليها في صلاتهم، ففعلوا ذلك.

وما النصارى بتابعين قبلة اليهود، وهو بيت المقدس ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ يا محمد ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾ من الوحي، الآية.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ محمداً ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام إذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمد أشد، فإن الابن مظنون النسب، أما محمد فمعرفته عن الله في الكتاب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت محمد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ومعنى الممترين: الشاكين ﴿وَلِكُلٍّ﴾ فريق من الناس ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وجهه في صلاته، فبادروا إلى الطاعات ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ يجمعكم الله يوم القيامة ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لسفر. الآية.

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي اليهود والمشركين مجادلة في التولي لغير الكعبة، أي لينتفي قول اليهود: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا، وقول العرب، أي المشركين منهم: يدّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ لأنهم يقولون: ما تحوّل إليها إلا ميلاً منه إلى دين آبائه فلا تخافوا جدالهم ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ بامتثال أمري، وعطف على قوله: ﴿لِئَلَّا﴾ يكون قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلى معالم دينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق إتماماً كإتمامها بإرسالنا ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ وهو محمد.

وقوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهركم ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالطاعة كالصلاة والتسبيح ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب، وفي الحديث عن الله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه»، وفي الحديث أيضاً: «إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل فقال له: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

ثم قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ نعمتي بالطاعة ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بالمعصية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ إما أن تكون الدعاء، وإما أن تكون الصلاة المعروفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعاء.

ثبت بالتجربة التي قرأتها في بعض الكتب واختبرتها أنا، أن المتوجه لله بالدعاء مع الثقة بالإجابة وإقناع القلب الدائم أن مطلوبه سيتم مع المواظبة في ذلك لا بد من الإجابة لدعائه ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم ﴿أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ وحياتهم ليست جسدية من جنس حياة الحيوان، والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر، وهذا دليل على أن ما قاله الفلاسفة من أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق، وهنا اتفق الشرع والعقل، وسيأتي في هذا المقام تفصيل أوسع من هذا ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم إصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والخوف إما من الأعداء بالإغارة والإيذاء، أو من الله، والجوع بالقحط أو الصيام في رمضان والنقص من الأموال إما بالجوائح والمهلكات وإما بالزكاة والصدقات، ونقص الأنفس بالأمراض والقتل والموت والثمرات بالآفات العارضة، وإنما فعلنا ذلك لننظر أتصبرون ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على البلاء بالجنة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وبلاء ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً يفعل بنا ما يشاء ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ في الآخرة فيجازينا، والاسترجاع باللسان وبالقلب بحيث يتصور ما خلق لأجله وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيهون على نفسه ويستسلم له، وفي الحديث: «من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيراً»، وفي الحديث أيضاً: «إن مصباح النبي ﷺ طفئ فاسترجع، فقالت عائشة: إنما هو مصباح، فقال: كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة». ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي تزكية ومغفرة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي لطف وإحسان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ للحق. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح وكشف

هاهنا استقام الأمر، واستوثقت الحجة وقام البرهان، ووضح الدليل أن الدين الحق هو الحنيف الخالص من الكهانة والمعمودية وغيرها، ولا سبيل لذلك إلا برجوع الناس لدين الخليل، ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا في الصلاة الكعبة التي بناها، والقبلة التي اصطفاها، والأمة التي تتبع قبلته، وتؤم طريقته، وتسلك سبيل ملته، من النظر في السماوات، والتغلغل في الطبيعيات والكيماويات، والتنائي عن الأوهام كالأصنام، والصبر على ما به تعلو الهمم، وتسمو الأمم، لا جرم تكون وسطاً وعدولاً، ورجالها خياراً، وهداتها مزكين بالعلم العالي والعمل الشريف، والفضل المنيف، إذ يعلمون أن الله ما خلق الخلق سدى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة:١٤-١٥] فيشهدون على الأمم جميعاً من خلا قبلهم، ومن سيلحق بهم بعدهم، ومن هم لهم معاصرون. ذلك شأنهم في الآخرة. إن أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيؤتى بالنبي صلى الله عليه وسلم فيشهد أن أمته عدل. ذلك حالهم في الآخرة.

لا جرم أن الآخرة ثمرة الدنيا، فعلى المسلمين اليوم أن يسموا إلى مرتبتهم، ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبي. المسلمون اليوم وسط بين المشارق والمغارب، وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا. المسلمون أمة بين المسيح وبوذا، جعلهم الله بين الأمتين الغربية والشرقية، إنهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء، ومنهم من قص على نبيه ومنهم من لم يقص. وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتغلغل في العلوم والترقي في المعارف يدعوهم دينهم وملة أبيهم إبراهيم لعلم كل شيء النظر في دين كل أمة، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فمركزهم إنما هو الإشراف على العالمين، والنظر نظرة عامة للناس في الدارين. فالعدل خبير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدي الشهادة عن عيان. ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون وأسلافنا المؤمنون، فهل ورثنا مجدهم وصرنا عدولاً مثلهم؟ أنا أشك في قضيتنا، وأسأل العلم والحكمة لأمتنا حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان.

فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء، وليقرؤوا علوم المغارب والمشارق، ويجدّوا في الصناعات وبناء السفن الماخرات، حتى يجوسوا خلال البلاد. هذا مقتضى وصفهم بالعدالة.

ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه، واتكلوا على ما سمعناه، ليصبحن كأمة اليهود، بشروا بأني فضلتكم على العالمين، فلما أن أعرضوا قيل لهم: ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة:٦٥]، فلا يظن المسلمون أن الأمر فوضى وأن المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلا ثمن ولا عمل. كلا، فإن لم يقوموا بالعلم مجدّين، وللعمل شاكرين، قلب الدهر لهم ظهر المجن، وأبدل بجنتهم العرفانية ذلة الأبد، وفقد الولد وضياع البلد وقلة العدد.

ولقد ذكرنا قبل هذا في الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من إخبار الله تعالى قائلاً: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١١٠]وأن المسلمين غفلوا، وذكرت أنهم شهداء على الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

بشرى للمسلمين

ما كنت وأنا أكتب ما تقدم، وأنا مهتم بالأمم الإسلامية، لائم لأهل العصر الحاضر على التواني والكسل، أظن أن فيهم من نبذوا الانزواء، وظهروا في الميدان، وعرفوا قيمة أنفسهم. أفلا أعجب من حكمة الله عزّ وجلّ.

أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة إذ الخبر السارّ الوارد في الجرائد عن أهالي طرابلس وبرقة ينادون بالأمير محمد إدريس المهدي السنوسي أميراً على القطرين. وهذا نص ما كتبوه إلى سمو الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه: «تحية تليق بالمقام الرفيع، والجناب الأسنى المنيع، وبعد فإنه غير خاف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائماً بيننا وبين الحكومة الإيطالية، ذلك لأنها وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسلميها وإداريها، وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية «ونحن خير أمة أخرجت للناس» لا نتحمل ضيماً، ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا، ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم الخ». انتهى المقصود منه.

قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سروراً وابتهاجاً، إذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف، وأرى أن هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيئة العريقة المجد الكريمة المحتد قد أخذت تضيء ويبهر سناها وتشرق على العالمين.

يا أيها العقلاء: إن هناك نوراً أشرق من السماء وتقبله كثير من العقول السليمة في ديار الإسلام وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، تلك كهرباء سرت في قلوب استعدت للحكمة في مشارق الإسلام ومغاربه، إن توافق الخواطر يبشر بالنجاح، سيرجع المسلمون لمجدهم ويكونون رحمة للعالمين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[ص:٨٨].

إني لما ألفت «التاج المرصع» منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول في نفسي: «ستنبغ في الإسلام دول قبل ثلاثين سنة»، أما في هذا الكتاب فإني أرى نور الله قد أشرق على القلوب، وتواردت الخواطر، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج:٤٠].

وما كنت لأظن أن يقول أحد هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] مستشهداً بها على الاستقلال السياسي. هذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح. وهذا وحده منشأ عجبي وسروري. انتهى.

إيضاح الكلام في أمر القبلة

هاهنا بسط الله المقال في أمر القبلة، ولما تشوّف النبي صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه، وكانت الأمم تمتاز بقبلتها، واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبي ﷺ في استقباله كرر الأمر بالتولي ثلاث مرات لكل من الأسباب واحدة مقرونة بقوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾، والثانية مقرونة بقوله: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾، والثالثة بقوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾.

ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود، والنبي المنشود، الذي دعا به إبراهيم إنما هو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾، وهاهنا أخذ يعطي ملخص دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وأصوله الشريفة التي هي النقية البيضاء، وهذه الأصول توافق دين إبراهيم الخليل وهو الدين العام فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾، يقول هاأنا ذا ذكرتكم بإرسال محمد الذي وعدت على لسان إبراهيم، فكما ذكرتكم بذلك فاذكروني أذكركم، وهاهنا أخذ يعدد تلك الأصول المرضية، والحكم الشرعية، فكان حاصلها يرجع إلى علم وعمل وأخلاق نفسية، فالعلم: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ الآية، وهي تقابل ما جاء في سورة الأنعام من نظرات إبراهيم الخليل للعلويات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحكمة البالغة منها وهو التوحيد، والعمل أشار له بالأمر بالصلاة وبالسعي بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله اتباعاً لدين الخليل إذ كان يحج ويصلي، وهذه الأماكن مصلاه ومناسكه، وللأخلاق أشار بالصبر على البلوى من القتل والخوف والجوع ونقص الأموال كما تجرّع إبراهيم مرارة فراق الوطن وقاسى الابتلاء والمحنة بالولد، إذ أمر بذبحه وذاق الأمرين، إذ ألقي في النار، وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع. فلم يكن للمسلم بدّ من التغلغل في العلوم الشريفة من علويات وسفليات ومن امتطاء غارب الجد في فهم الكيمياء التي أشار لها تقطيعه للطير وتحليله لأجزائها، فيما يمر عليك في هذه السورة، وليكن المسلم مخلصاً لله فلا يرهب الموت في سبيل الله ولا يتحاشى نكبة فراق الوطن العزيز، إذا سيم خسفاً وأرغم على الذلة، فالصابرون لهم البشرى في الدارين. حياة المؤمن الحنيفي بين نعمة يشكرها ونقمة يصبر لها والشكر يشمل ترقية العقول بالعلوم والنظر، والعلم والعمل، والصبر في الأخلاق كالملح في الطعام، فيه الشجاعة في الجهاد، والعفة للفقراء، والقناعة للأغنياء، وسكون النفس وثبات الجأش. الصبر إما عن مرغوب، أو على مكروه، أو في عمل ونصب، وللأول نقص الثمرات والأموال والجوع، وللثاني هلاك الأنفس، وللثالث الصلاة والنظر في السماوات والأرض والعلوم والحكمة.

الكلام على قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾

وما مناسبتها لما قبلها وما بعدها

وإيضاح هذا الموضوع الذي ذكرت فيه هذه الآية

اعلم أن الإنسان في هذه الحياة خلق محباً لأن يعلو إلى أقصى مقام من السعادة والشرف والراحة وأعظم السعادة أن يكون الحي منا شاباً لا يهرم، وغنياً لا يفتقر، وصحيحاً لا يمرض، وحياً لا يموت، وجميلاً لا يقبح. وهذه مذكورة في جبلة كل حي من بني آدم وإن لم ينطقوا بها، وقد خلقنا في الأرض وليس فيها ذلك، فنحن عرضة للمرض والفقر والموت، ونقص المال والأنفس والثمرات، وموت الأولاد وفقد الأحباب، وكل ذلك محن وبلايا، ونحن إذا احتملنا فكالحيوان يموت ولده فيهلك حزناً عليه، حتى إذا طال الأمد نسي الوالد الولد، فذكرنا الله بهذه الآيات وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الذين يفكرون في أمر الدنيا ويعلمون أن الله هو المعطي وهو الآخذ.

هذا هو ظاهر القول ولكن سره الذي عرفه حكماء الإسلام وإن كان ما خفي عليهم أعظم، أن الإنسان يتحمل هذه المصائب وبتواليها عليه تقوى نفسه وترتفع وإن لم تشعر بذلك، ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذي لم تهذبه النار، ولم تصغه حلياً ولا ديناراً، بل هو تبر في التراب مدفون، وعن الأنظار مكنون، أما الرجل الذي أدبه الدهر فإنه تقوى عزيمته ويتخذ من الحوادث درعاً تقيه العاديات، ومجناً يقيه الكارثات ويرتقي إلى ما استعد له من الدرجات، وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف.

واعلم أن هذا التقرير الذي ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونانيين والأوروبيين وأسلافنا ووالله إني لأعجب للقرآن كيف يأتي بتلك الثمرات الناضجة بحيث يتسنى للعامة أن يفهموها وللعلماء أن يبحثوها، يقول الله: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ وهذا هو الذي يحث عليه علماء الخافقين قبل نزول الإنجيل فضلاً عن القرآن، وقال أكابر الحكماء: «السعادة منوطة بالمصائب وتحملها». وقال أرسطاطاليس في كتابه الذي أرسله إلى الإسكندر ما معناه: «إن الناس يتحملون المصائب ولكنهم لا يحتملون النعم، إن النعم ثقيلة على الناس تتعبهم»، ثم أوضح ذلك فقال: «إذا رأيت أمة أغدقت عليها النعم، وجانبها النصب والتعب، وأبطرها الرخاء، فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهي، فأما تلك الأمة التي أصابها الجهد بسبب الحرب ومقارعة الأبطال في الميدان ومحاربة عدوها الغادر الفاتك فإنها تنشط من عقالها وتستعد لسعادتها، وتبني مجدها، وما دامت عاملة ناصبة فإن اتسع العيش واستراح بالها جرعتها الراحة كأس العذاب، وذاقت من الذلة أنواعاً، ومن الهموم أوفى نصيب. وأنت ترى أن الذين ناصبهم دهرهم في أول حياتهم هم الذين قارعوا الأمم بأسهم ورفعوا أممهم، والأمثال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذي عقل وفكر منير». ثم تعجب كيف ذكر آية الذين قتلوا في سبيل الله وأنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء، في غضون الكلام على الصبر على المكاره، والابتلاء بالجوع والنقص في

الأموال والأنفس والثمرات، فما الحكمة في ذلك؟وإذا قلنا إنما هو لتصحيح عبادة وهي الصلاة، وأن الصلاة وما معها من أركان الإسلام يقصد بها تهذيب النفس، وأن الصبر والابتلاء بالجوع وما معه مقويات للنفس فوق العبادات، فأي مناسبة لذكر أن الأموات أحياء؟

أقول: اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين؛ الأول: أن يتعزى المؤمن وهو في حال الشقاء والنصب والبلاء والمصيبة، ويقول: أنا الآن وإن كنت في بؤس ونقص في الأموال والنفس، وفي المصائب، فإن يوم الموت يكون سعادتي، ويكون حظي موفوراً، فلا أحتاج للمال، ولا يفارقني الولد، ولا يفاجئني العدو وأكون بعيداً عن المصائب والبلايا وهو يوم سعادتي. والثاني: أن هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح في عالم السعادة في الدنيا والآخرة كما سأذكره في لغز قابس، فلما ذكر الروح حاطها بما يقويها من جانبيها كالطائر يطير بجناحيه. فتأمل في هذا الكلام كله تجده مخالفاً للمألوف عند العامة، فبينما العامة يقولون: إن الرخاء سعادة، يقول الحكماء والكتاب السماوي: كلا، فالبشرى للصابرين على المصائب. وبينما الناس يقولون: إن الموت مصيبة، يقول الحكماء: كلا، فالموت خلاص من أسر الطبيعة وذل المادة، ويقول القرآن: ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[آل عمران:١٦٩]، ويقول في آية أخرى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[آل عمران:١٧٠] الآية.

ولعلك تقول: وهل في هذه السورة من دليل أو شبه دليل يرجع إليه العقل عند إرادة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلي؟أقول: اعلم أنه قد كنز الله لذلك في هذه السورة كنزين عظيمين خبأهما عن الجهلاء وأراهما للعلماء. هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما، هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد، كما خبأ الله الكهرباء، وأسرار العناصر الأرضية، والتنويم المغناطيسي، حتى جاء أجلها فأبرزها للناس. هكذا هنا في هذه السورة أودع كنزين لسر الروح، وقد أراد في هذا الزمان إبرازهما، والكشف عن حقيقتهما ليرتقي المسلمون في أنواع العلوم الشريفة.

ما هما الكنزان

أما أحد هذين الكنزين فهو في أوائل السورة في قصة البقرة، وقوله هناك: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[البقرة:٧٣]، وقد قدمت هناك في تفسير الآية ملخص علم استحضار الأرواح فلا أعيد ذكره ولذلك قال عقبها: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[البقرة:٧٣] أي أن هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته وإلا فلماذا يقول: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ عقب إحياء الموتى، ثم يقول: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:٧٣] أي تدركون أن الأرواح حية بالمعاينة التي تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية.

وأما الكنز الثاني فهو ما سيأتي قبل آخر السورة، وهي مسألة العزير وحماره، وأنه قال الله له: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ الخ، [البقرة:٢٥٩]، ومسألة الخليل إذ ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة:٢٦٠] ثم أمره أن يبحث ويجدّ في تشريح الطيور وتقطيعها وخلط لحمها بدمها، وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وأنها مبدعة متقنة، وفي ذلك من العجائب والبدائع ما يحير الناظر حتى يقتنع بأن الذي أبدع هذه الصور، وهي منظمة لا يخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم يفنيها إلى

الأبد، فلذلك وإن لم يكن وسيلة في عمل الخليل إلى رجوع الأرواح إلى أجسادها، ثم حيث الطيور فإن تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الإقناعية وإن لم تكن يقينية.

ولعلك تقول: هذان ليسا كنزين، لأن الناس جميعاً يقرؤونهما ومعناهما ظاهر.

أقول: على رسلك وهل يدور في خلد أكثر الناس أن الآية الأولى، وهي التي في قصة القتيل والبقرة ذكرت كالدليل العقلي على أن الأرواح أحياء، كلا، وإنما هي من الأمور السمعية المروية عن بني إسرائيل، وهذه لا يعرفها العقل البتة، فلما انتشر خبر استحضار الأرواح في العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير إلى الدليل العقلي، لأن الاستحضار في العالم الإنساني منتشر بطرق غير ما جاء في القرآن فلننظر في ذلك.

وهكذا من ذا الذي يدور بخلده من المتوسطين أن مسألة الخليل وتقطيعه للطير كالدليل الإقناعي على علم بقاء الأرواح باعتبار أن هذه الصور المتقنة لا يتصور العقل أن تخلق عبثاً، فلا بد من بقائها، والآيتان متباعدتان عن آيتنا إحداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد الشاسع حتى لا يفطن لهما إلا من هداه الله، فثبت أنهما كنزان لمن يعقلون. واعلم أن هذه الآيات المكونات من أسطر تعد على الأصابع لا يعرف قدرها إلا قليل.

وأقول: إن القرآن لن يعرف قدره إلا أحد رجلين، رجل اطلع على كتب أكابر الحكماء، ورجل صفت سريرته، فأدرك الحقيقة ناصعة نقية، والدليل على ذلك أن هذه الآيات احتوت على ما أطال به قابس اليوناني في لغزه، مع أن الآية أسهل لفظاً، وأقرب متناولاً، يدركها الخاص والعام.

لغز قابس

وهو فيلسوف يوناني،عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة

محصل اللغز: أن هذا الفيلسوف صوّر صوراً ترمز إلى ما يعانيه الآدميون من الآلام والآمال، فمنها: امرأة بكماء خرساء صماء رعناء جاهلة جالسة على حجر مربع، وحولها قوم، تأخذ من هذا وتعطي ذلك بلا عقل ولا روية، فيفرح الآخذ ويحزن المعطي.

ومنها نساء جميلات حاليات بهيات، قد حظي بهن أناس من أولئك الذين أخذوا من تلك الرعناء على سبيل المصادفة، ومنها نساء باكيات حزينات لابسات ثياباً باليات، ينتفن شعورهن، ويلطمن خدودهن، وقد نحلت الأبدان، وتغيرت الألوان، وحالت الأحوال.

ومنها نساء غير جميلات ولا عابسات، يشرن إلى طريق في الجبل ليهدين الناس إلى ارتقائه.

ومنها أناس قليلون طالعون هذا الجبل، وقوم آخرون لم يقدروا على العروج إليه فرجعوا خائبين.

فأما المرأة البكماء، فقال: إنها الحظ فإنه يكون للناس بلا قانون ولا قاعدة، والحظوظ هي الأموال، والولد، والجاه، والصحة، والأصحاب، والقدرة، فكل ذلك يأتي ويذهب، فمن حاز فرح، ومن حرم من ذلك حزن.

وأما النساء الجميلات فإنها تماثيل للذات والشهوات التي يتلبس بها من أعطته تلك الحمقاء حظاً مما سلبته من غيره.

وأما النساء البائسات فإنهن تمثيل لأولئك الذين أضاعوا المال والصحة في نيل أوطارهم، ثم أصابهم الفقر أو المرض أو الذل فإنهم يندمون ويحزنون ثم يصيرون دجالين كذابين، فهذه صورة ندمهم على أيام قدرتهم.

وأما النساء اللاتي يشرن إلى طريق في الجبل فإنه سماهن الأدب المزوّر، أي أن النساء تمثيل له، والأدب المزوّر هو جميع العلوم التي يقرؤها الناس في المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر. قال: لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئاً، وإنما العلم نوع من الثروة، قال: بدليل أنا نرى الشعراء، وعلماء الفلك، وعلماء الأدب واللغة وأمثالهم يكذبون ويغشون ويعثون في الأرض فساداً فلنسمه الأدب المزوّر، فإذا عمل العلماء بما علموا وصبروا في هذه الدنيا على ما أصيبوا أصبحوا أحراراً، وهذا هو المقصود من السعادة.

وأما الإشارة إلى طريق الجبل فإن قليلاً من أهل العلم من يعمل بما علم، والمراد مما ذكرنا أن الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هي التي تسعد المرء في الدنيا، فمن كملت نفسه ارتقى الجبل، ولبس تاج السعادة، ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التي سلكها بإشارة أولئك اللاتي هدينه فصار التحمل والصبر سبيلي السعادة وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم.

أما الصحة والمال والجمال وأمثالها، فإنها كالليل والنهار والشتاء والصيف تأتي على البر والفاجر، والسعادة ما قررناه. فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات، وجعل تلك السعادة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾. فتعجب من العلم في القرآن. انتهى.

هذا تحقيق في شأن الصفا والمروة

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنمان، فعلى الصفا إساف، وعلى المروة نائلة، وكانا يعبدان في الجاهلية فتحرّج المسلمون أن يسعوا بينهما وتجاوزهما الأنصار من قبل ذلك، فلقد كانوا يهلون لمناة التي تجاه قديد، وهو موضع في منازل طريق مكة، ومناة كانت للأنصار، والصفا والمروة كانا لأهل مكة، وكان الأنصار لا يتطوفون بالصفا والمروة كراهة ما عبده غيرهم، فنزلت الآية للفريقين: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية.

وإجماع الأمة أن السعي مشروع في الحج والعمرة. وقال أحمد: إنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهما لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾ فإنه يفهم منه التخيير، وعن أبي حنيفة أنه واجب يجبر بالدم، وعن مالك والشافعي أنه ركن لقوله ﷺ: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي».

المقصد التاسع

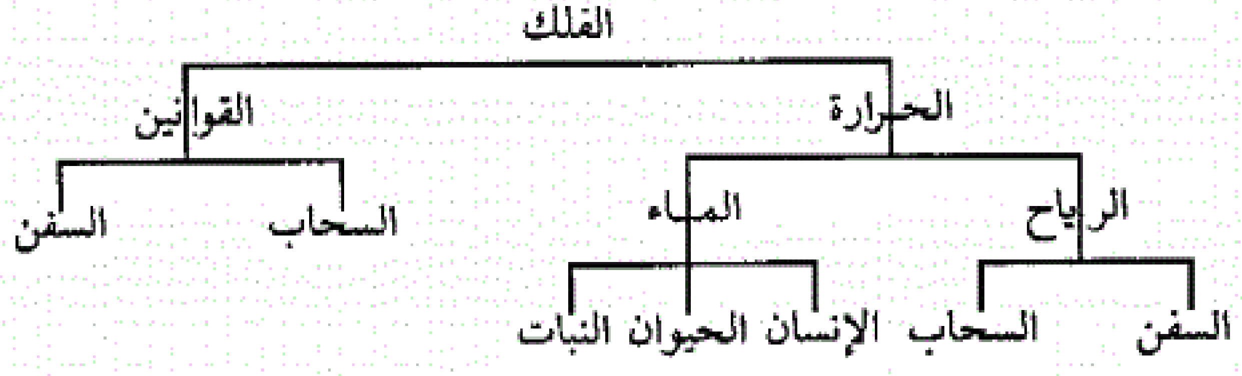
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ

أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا ﴾ كأحبار اليهود ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ كالآيات الدالات على أمر محمد ﴿ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهدي إلى وجوب اتباعه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ لخصناه ﴿ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ التوراة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ أي من يتأتى منهم اللعن من الملائكة والثقلين ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ عن الكتمان وسائر الذنوب ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ ما أفسدوه بالتدارك ﴿ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ ما بينه الله في كتابهم ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالقبول والمغفرة ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المبالغ في قبول التوبة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ استقر عليهم اللعن من الله ومن يعتدّ بلعنه من خلقه ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة أو النار ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يمهلون، ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ خطاب عام، أي: المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد، ويسمى إلهاً ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تقرير للوحدانية ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي المولي لجميع النعم كلها أصولها وفروعها، ولما نزلت هذه الآية تعجب المشركون، وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[الفرقان: ٦٢]، واختلافهما بالطول والقصر، والزيادة والنقصان، بحيث يزيد النهار ما نقص من الليل، وبالعكس كما ستراه. ومن عجب أن النهار في السنة كلها والليل يتساويان، أي أن ساعات أحدهما في السنة تساوي ساعات الآخر ﴿ وَٱلْفُلْكِ ﴾ السفن، ويطلق على الواحد والجمع ﴿ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي بالذي ينفعهم مما يحمل فيها. وقوله: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ﴾ السماء هنا السحاب، لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء، و«من» الأولى للابتداء، و«من» الثانية للبيان. وقوله: ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بالنبات. وقوله: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ عطف على «أنزل»، كأنه استدل بنزول المطر وتكوّن النبات، وبث الحيوان في الأرض. وقوله ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ﴾ أي في مهابها وأحوالها ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ ﴾ المذلل. وقوله: ﴿ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي في الهواء. وقوله: ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون قلوبهم وعنه ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها» أي لم يتفكر فيها.

في هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم، وذكر الوعيد على من كتم العلم، فمن كتمه فهو ملعون محروم مطرود من رحمة الله عزّ وجلّ، ثم أعقبه بأجلّ العلوم وأشرف الحكمة، وهو: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولقد شرحنا هذه الآية في كتاب التاج المرصع، وأبنّا كيف أبانت نظام العالم العلوي والسفلي وارتباطهما وتعاشقهما، وكيف بدأ بالفلك وثنى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها إنسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد، فترى كل كائن مستمداً من سواه، فاختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة وهبوب الرياح، فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعاً لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس في البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان من ذلك الماء، وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب، ولكل قوانين في سيره، فترى السفن لن تتجاوز ما رسم الملاحون في رسومهم من الخطوط البحرية، ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس، وهذا جميعه مرتبط بالعلويات، وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم، وسير الشمس، وملاحظة الأجرام العلوية، وتمغطس الإبرة المتجهة إلى القطبين، أم كيف يتحرك السحاب إلا بالرياح وهي المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية، فرجع الأمر كله إلى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع، الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية، والفرعان القوانين المودعة في الأجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية، ومن الأول نشأ فرعان: سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الأمم فيأخذ الشرقي ما نبت في الغرب، ويأكل الغربي ما نبت في الشرق، ومن الثاني فرعان: إثارة الهواء والماء فحرّك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلاً في الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه، وهذه صورته:



فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلاً واحداً يحتاج أدناه إلى أعلاه، والأعلى مفيد للأسفل، والأسفل مستمدّ من الأعلى مستفيد منه كما ظهر في هذا الشكل. وإذا كان هذا شكل النظام الذي في عالمنا فمن الأقرب للعقول أن نهج النظم الأخرى على هذا النمط، وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة، وهل دورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس والأقمار إلا كما يدور الدم في أجسامنا، فإذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كإنسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسة ومرؤوسة ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]، ولا يعقل هذا إلا من درس من كل فن طرفاً ثم مزج العلوم وربطها

ثم وازنها فهناك يدرك هذا القول، ولا جرم أن الجسم الواحد مدبره واحد، فارتباط العوالم واستمدادها يدل على أن مدبرها واحد.

وتأمل كيف يقول: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الخ، ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة مزاجاً واحداً، فها هو ذا يقول: إلهكم واحد، ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا إذا قرأتم العلوم وعشتم بها، وصوّرت في عقولكم شكلاً منظماً كما وضعناه، فتدركون مزاجه وجسده، ومنه تعرفون أن المدبر واحد.

ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بأن العالم واحد، ويبرهنون ببراهين قاحلة يابسة خلت من العلوم والحكمة على عادتهم في مثل ذلك وقسموه أعراضاً وأفلاكاً وجواهر، ثم يقولون: لن يمكن في العقل وجود سوى ما رأينا، فإذا كثرت العوالم فهي من هذه الأجزاء ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعي، هاهنا دعا الله الناس للدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أولاً بها في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾[البقرة: ٢١] وما بينهما كان مناضلة اليهود بالحجة وتأسيس دين الإسلام على قواعد إبراهيم، ومن هنا نحكم كيف أصبح المسلمون أبعد الأمم عن مطالب القرآن ومقصوده.

إيضاح الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾

أما الوحدانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام في أحوال العالم فيما ذكرته في هذا المقام، وأما الرحمن الرحيم، فقد مر الكلام عليهما في أول الفاتحة، وأما الكلام على السماوات، فقد تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾[البقرة: ٢٩]. أما الكلام على الأرض، فاعلم أن كرة الأرض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والخلقة، فمنها صخور وجبال صلبة، وأحجار وجلاميد صلدة، وحصى ملس، ورمال جريشة، وطين رخو، وتراب لين، وسباخ وشورج، كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ ﴾[الرعد: ٤]، وهذه القطع مختلفات الألوان والطعوم والروائح والمنافع، ومن طينها وترابها وأحجارها وجبالها حمر وبيض وصفر وخضر وزرق، اختلفت اختلاف الألوان المكونة للون الشمس المشرق عليها، فقبل بعضها الحمرة وبعضها الصفرة، وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان فحللها، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: ٢٧، ٢٨]، ومن طينها وترابها ما هو عذب المذاق ومر الطعم، أو مالح، أو عفص، أو حلو، أو حامض، ومنها ما هو طيب شمها ومنتن رائحتها، ثم إن الأرض بجملتها كثيرة التخلخل والتجاريف والعروق والجداول والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف، وهذه مملوءة من المياه والبخارات، وتكون طعوم تلك المياه، وروائحها، وغلظها، ولطافتها، وثقلها، وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها، ووجود قرار مستنقعاتها، وفيها من المعادن ما يتكون في الطين والتراب، ويتم نضجها في سنة أو أقل، كالكبريت، والملح، والشب، والزاجات وما شاكلها، ومنها ما يتكون في قعر البحار، ولا يتم نضجها إلا في سنة أو

أكثر منها كالدر والمرجان، ومنها ما يتكون في كهوف الجبال وجوف الأحجار، وخلل الرمال، ولا يتم نضجها إلا في السنين الطوال كالذهب، والفضة، والنحاس والحديد، والرصاص، ومنها ما لا يتكون إلا في آماد طويلة كالياقوت والزبرجد والعقيق وما شاكلها.

واعلم أن الناس على قسمين خاصة وعامة، فالعامة لا يعرفون من المطالب إلا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ومسكن ودواء، فالجوع والعطش والعري والمرض التي تحدث لهم تلجئهم إلى طلب تلك المطالب، وذلك الإلجاء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عامة من الإحساس بالآلام لفقد ما يحفظ الحياة من غذاء ودواء وحرارة وما أشبه ذلك، وهذه الآلام يظنها الجاهل نقمة، وهي في الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتحفظ أجسامها ويبقى كيانها، وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والإنسان، وكذلك النبات.

وهناك مطالب شريفة ومنازل عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وعشقها الحكماء وأكابر الرجال، ألا وهي مطالب العقول من العجائب والبدائع والنظام الجميل والجمال الإبداعي، فهذه المطالب غابت عن أبصار الجهال، واشتاقها العلماء، ولأضرب لك مثلاً بالأرض التي ذكرنا بعض عجائبها، أن الجاهل لا يعبأ بها ويراها أمراً لا قيمة له مزدراة لأنه لا يفرح إلا بالممنوع عنه، أما المبذول له الحاضر بين يديه فإنه مبتذل مكروه منبوذ، وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقل والفرح بها معدوماً، وكلما تباعدت المطالب، ووعرت طرقها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين، فالأرض والهواء وضوء الشمس وجمال النجوم والأنوار حاضرة عند الناس، وهي النعم العظيمة والمواهب الكبيرة، بل السمع والبصر والشم والذوق والعقل والبصر كلها نعم مبذولة، ولكن أكثر الناس لا يعدونها نعمة ولا يغرمون بها، ولا يشكرون إلا بما تعسر، ثم نالوه من طعام وشراب ودينار، وامتياز الإنسان عمن حوله بثوب، أو ملبس، أو صاحب، أو حبيب، أو سلطة عليهم إلى غير ذلك، وعلى ذلك ترى الأرض لا يلتفت إليها الجهال ولا يعدونها نعمة، وغاب عنهم هذا الجمال البديع الذي يخرج منها ويصدر عنها، فتلك المروج، والنباتات، وألوانها، وبدائعها، وتلك المعادن واختلافها، والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله في خلق الأرض، ولا يزال العالم يبحث في عجائب أحجارها ومعادنها، ويستخرج منها مواد البناء، ومواد الصباغة، والمعادن، والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم، وتتحلى بالعرفان، فالأرض مها الغذاء، ومن النظر إليها العلم والعرفان، والشكر للمنعم الحكيم العليم، ولا يزال يرتقي في العلم، حتى يعرف أنها كوكب من الكواكب جارية كما تجري تلك الكواكب السيارة، وإذ ذاك يعرف أن ضوء الشمس إذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى، بل إن ضوء الأرض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الأرض، نحو أربع عشرة مرة، وتصنع الأرض مع القمر من استقبال وتربيع وتثليث ومحاق ما يفعل القمر مع الأرض.

فانظر كيف ارتقى العالم من النظر في أحجارها ورمالها، وألوانها، وأنهارها، وبحارها، ومعادنها، واختلاف مزارعها إلى أن أدرك أنها من السيارات، وعرف أنها مضيئة مشرقة إشراق

الكواكب، ورأى أن غيرنا ينظر إليها ويحن ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذي عكسه الماء المحيط بها، والحصى، والرمال، والجبال، فإن الأرض عبارة عن كرة أحاط بها الماء، وما اليابسة إلا ثلاثة أعشارها، وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وثلج متراكم فوق الجبال، وفي مناطق القطبين، وكل ذلك يعكس ضوءاً لامعاً إلى الكواكب الأخرى.

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية في هذا التفسير

اعلم أن هذا الذي أذكره في تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل، كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لوناً واحداً فأشرقت الأرض بها، ولقد أكثر الناس من قولهم: هذا ينافي الدين، وهذا ينافي العقل، وذلك ناجم من قلة العلم، ووفرة الجهل، فمن جهل شيئاً عاداه، فالمتبحر في العلوم ينفر من الدين لجهله به ظناً أنه ينافي علمه، والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السماوات والأرض وعجائبها، يظن المسكين أن من عرف هذه العجائب كان عدو الله وأن الله يغضب عليه، وما درى المسكين أن هذه السماوات وهذه الأرض من خلق الله، والله لا يحب المعرض عن التفرج على صنعه، ويحب المفكرين ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخ.

فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأمم وعميت البصائر، ووقع في القلوب خلاف الحقائق، ونام كثير من العقلاء أحقاباً في غفلاتهم تائهين في سكراتهم كأنهم لا يشعرون، وذلك النظر قد جمع المطالب الدينية، والمطالب الدنيوية، فأصبح ارتقاء الأمة في دينها ودنياها وسعادتها بين الأمم ومغالبتها للفرنجة في أوروبا ولأهل اليابان والأمم الشرقية ولأمريكا، موقوفاً على التبحر في تلك المطالب، وهي بعينها المخرجة للحكماء، وللعلماء العارفين، والأولياء، وهي هي دين الإسلام، فيا حسرة على المسلمين، وواأسفا على ما ضاع من شباب وشيب في هذه الأمة، وعلى أمم داستها الفرنجة وأذلها الطامعون لجهالة وعاظهم، وظلم ملوكهم، وغفلة عقولهم، ونومهم أجمعين أكتعين أبصعين.

الكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فإنه ظاهر خفي، ظاهر للعقلاء، خفي عن أنظار الغافلين، يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض، وذلك أن الشمس في شروقها وغروبها تأتي على الأماكن الشرقية قبل الغربية، وهناك يكون الاختلاف العجيب، فإذا أشرقت أو غربت على الأقطار المصرية أولاً مثلاً، فإنها تفعل ذلك بعدها ببلاد مراكش، فبحر الظلمات، فأمريكا، فالأقطار الشرقية كالهند والصين وهكذا، ولكل دائرة ٣٦٠ درجة، تقسم باعتبارها، وللأرض درجات طول ودرجات عرض، فدرجات الطول هي المشرقة المغربة، ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء إلى القطبين، ثم إن خط الاستواء الذي يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبي وشمالي تقطعه دائرة وسط فلك البروج، وهي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف، وهذه الدائرة تمتد إلى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء، وتسميان

المدارين، وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين بثلاث وعشرين درجة ونصف، وبهذه الدوائر تنقسم الأرض إلى خمس مناطق: منطقة شديدة الحرارة، ومنطقتان معتدلتان، ومنطقتان شديدتا البرودة، فالحارّة هي التي بين المدارين: مدار السرطان ومدار الجدي، وهؤلاء يسمون أرباب الظلين، لأن الشمس تارة تكون شمالهم كأولئك الذين في السودان المصري، فيكون ظلهم إذ ذاك جنوبياً، وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلهم شمالياً، والمنطقتان المعتدلتان هما ما بين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدي جنوباً، وما بين دائرة القطب الشمالي وما بين دائرة السرطان شمالاً، وهؤلاء لا تكون الشمس فوق رؤوسهم البتة، فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظل، لأن أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب، كأهل مصر وتونس ومراكش وأهل أوروبا، وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للإنجليز وما والاها من البلدان، يرون الشمس في الشمال أبداً. فأما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظل الدوّار، وحركة الشمس عندهم كدوران الرحا، والظل في زمن صيفهم يدور حولهم.

والمهم في هذا المقام أن نبحث في اختلاف الليل والنهار. إنك إذا نظرت إلى حركة الشمس الظاهرية من المشرق إلى المغرب ألفيت ما كان صبحاً عند قوم هو نفسه ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً ونصف ليل عند أقوام آخرين. فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال وضحى ونصف ليل، فاليوم بأكمله موجود أبداً. وهذا يعرف بأدنى تأمل عند من درس قليلاً من مبادئ علم الجغرافيا أو علم الهيئة. وإذا نظرنا إلى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهي تنقلها في البروج وأنها تبعد تارة وتقرب أخرى، فإنها تعطي أياماً على طول السنة مختلفة باختلاف الأقطار، فأقصر الأيام قد يكون ساعة أو أقل، وأطول الأيام يكون نصف سنة، وأعدل الأيام ١٢ ساعة، فالاعتدال في الأيام عند خط الاستواء وأطول الأيام في المنطقتين القطبيتين، فالليل عند هؤلاء ستة أشهر، والنهار ستة أشهر، وبعبارة أخرى، السنة يوم وليلة فهي ستة أشهر مظلمة وستة أشهر مضيئة، فأما الأيام فيما بين خط الاستواء وما بين الدائرتين القطبيتين فإنها تختلف من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة، فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء، و٢٤ ساعة عند الدائرة القطبية، ثم تأخذ الزيادة في الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة إلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر عند القطبين أنفسهما.

أوَليس من العجب العجاب أن الشمس إذا جرت الأرض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذه الحكم العجيبة، فترى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا، يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد الناتال، فترى السنة كلها في وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والربيع والخريف كما كان في ملاحظة الأيام فجر ومغرب وعشاء، ثم يترتب على هذا الاختلاف في الحر والبرد من النبات والحيوان والسحب والأمطار والرياح.

ومن العجائب ما تخرّ له العقلاء سجداً، وانظر لو أن الشمس بقيت في مكان واحد لاحترق ولم يعش فيه حي، وتأمل ذلك وكيف يقول الله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

ولأذكر لك جدولاً تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء إلى القطبين مع ملاحظة أن أقصر وأقل مدة للنهار هي بعينها تكون لليل في ذلك المكان وكذلك في الأطول.

أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة

أقاليم	ساعات	دقائق	عرض أرفع المتوازيات: درج	عرض أرفع المتوازيات: دقائق
١	١٢	٣٠	٨	٣٤
٢	١٣	٠	١٦	٤٤
٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٨	١٦	٠	٤٩	٢
٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
١٤	١٩	٠	٦١	١٩
١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٢١
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢

أقاليم يقع فيها التفاضل بشهر

أقاليم	أشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٥
٦	٦	٩٠	٠

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان في الربع الشمالي من المكونة، فإذا كان الليل يساوي النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء في نحو الكنغو وسومطرا وغينا الجديدة، فإن كلاً منهما يزيد وينقص ساعة واحدة تقريباً في أطراف الهند والصين، وساعتين في ظاهرة وبعض البلاد الفارسية وبلاد السند، وثلاث ساعات في البحر الأسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها، و٤ ساعات تقريباً فيما يقرب من باريس وبرلين ونحو ذلك، و٥ ساعات في بحر الشمال وما والاه، و٦ ساعات فيما وراء ذلك، و٧ و٨ و٩ ساعات شمالي بحر البلطيق. وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما إلى ١٠ و١١ و١٢ ساعة، ثم يكون كل منهما شهراً فشهرين في جنوب

جزائر جرونلندة، و٣ و٤ أشهر في شمالها، ثم في القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبي نهار القطب الشمالي، ونهار القطب الجنوبي نهار القطب الشمالي، وكل منهما ستة أشهر، ثم إذا كان النهار في مصر مثلاً ١٤ ساعة في زيادته، كان في نقصه ١٠ ساعات وهكذا الليل، فهناك عدل تام في الإضاءة والإظلام، وعلى هذا فقس. ألا تعجب من هذا النظام الجميل، وكيف ازدانت الأرض بهذه الأنوار المتلألئة المتألقة لبهجة المناظر، أفلا ينظر الناس لهذا الجمال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة، اختلاف عظيم وعدل تام، يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته في البلاد التي حول البحر الأسود مثلاً، وشهراً في أطراف جزيرة جرونلندة، ثم يجيء النهار في نوبته فيصل إلى تلك الزيادة عينها أي ١٣ ساعة في الأول، وشهراً في الثاني، فيكون في السنة ليلة هي شهر تام، وهذا هو العدل الحقيقي العملي. ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[الرحمن:٥]، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن:٧]، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١] ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[المزمل:٢٠].

هذا الاختلاف باعتبار العرض، فانظر إلى الاختلاف باعتبار الطول، فأوضحه لك فأقول بعد الإجمال السابق: إذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلاً كان لها بعد طلوعها بالخليج الفارسي وما حوله ساعة، وفي بلاد فارس ساعتان، وفي السند ثلاث ساعات، وفي غرب بلاد الصين أربع ساعات، وفي أواسط بلاد الصين ٥ ساعات، وفي شرق بلاد الصين والبحر الأصفر ٦ ساعات، وفي بلاد اليابان ٧ ساعات، وفي شرق أستراليا ٨ساعات، وفي كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي ١٠ ساعات، وفي جزائر سندويش بالمحيط الأكبر ١١ ساعة، وفيما بين جزائر سندويش وكاليفورنيا من المحيط الأكبر ١٢ ساعة.

وعلى هذا إذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتي ذكره قريباً أو الخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الأكبر، ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان في كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة، و٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرقي الولايات المتحدة، و٥ ساعات عند نيويورك بالولايات المتحدة، وست ساعات بناحية الأرض الجديدة شرقي أمريكا الشمالية، و٨ساعات بالمحيط الأطلانطيقي غربي أوروبا، وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالغرب، و١١ ساعة في طرابلس والصحراء الكبرى.

هذه هي الصورة التي يراها المفكر في اختلاف الليل والنهار، فبينما المصري ينظر الشمس مشرقة في أفقه، يكون السندي والصيني في وقت الضحى، ومن في كاليدونيا الجديدة وقت العصر، ومن في كاليفورنيا ساهراً مع صحبه، ومن في نيويورك قد نام نوماً عميقاً، ومن في طرابلس قام لصلاة الصبح.

واعلم أن ما ذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاماً إلا في ٢١ مارس، وفي ٢٣ سبتمبر من كل سنة، لأن الأول أول فصل الربيع، والثاني أول فصل الخريف، وهما اليومان اللذان يعتدل فيهما الليل والنهار. ثم إن أول الصيف ٢٢ يونيه، وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر، والأول يكون أطول أيام السنة، كما أن الثاني يكون أقصرها، والليل على عكس النهار ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[النور:٤٤].

عجائب العلم والسياسة في القرآن

كما اختلف الليل والنهار اختلفت الدول والممالك، فالأولان بالزيادة والنقصان، والآخرون برفعة قوم وضعة آخرين. لقد سبق القول أن الشمس تشرق على أهل الشرق سائرة إلى أهل الغرب، جارية إلى المحيط الأطلانطيقي، ساعية إلى أمريكا فالبحر الأعظم هناك فبلاد الشرق ثانياً، وإنه إذا نام قوم بإظلامها استيقظ آخرون بإضاءتها، هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس، ساعية باذلة جهدها مجدة مشرقة على أهل الشرق، فكانت الحكمة في الهند ومصر وما بين النهرين في أمم الكلدان والآشوريين والبابليين، ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل إلى اليونان ومنهم إلى الرومان، ثم لما خمدت حركة النوع الإنساني قرعتهم قارعة الدين الإسلامي، فأحدثت رجة عظيمة أطارت النوم من جفن الإنسان، وقضت على سير الحوادث القديم، وأبدعت طريقاً آخر بعد أن ضربت بإحدى يدي الدين دولة فارس وباليد الأخرى الروم، ثم أحدثت هذه الحركة ناراً حامية ولهباً، فأما جمرها فبقي في الشرق عند الأمم الإسلامية مدفوناً في عاداتهم وأخلاقهم الترابية، وأما لهبها فاندلع إلى أمم الغرب فأحرق الأفئدة وتأججت نيرانها، وسعت إلى نيل العلم والمدنية، وشدّت إليها الرحال، وأخذت تلك النار تمتد حتى طارت منها شرارة فعلقت بأذيال أمريكا والجزائر في البحار، ثم تخطت المحيط وعلقت بأذيال أمة شرقية كرة أخرى وهي اليابان، وهاهي ذه تعيد سيرتها الأولى، فهي تتخطى إلى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبيريا وبلاد الفرس والترك ومصر وسوريا ومعلوم أن المدنية والعلم لا يكونان في الشرق والغرب على حد سواء، فإذا زادا في أحدهما نقصا من الآخر، والذي يظهر أن الشرق إذا ارتقى هذه المرة يأتي بالعجب العجاب، لأن الغرب ليس منبع العلوم والحكم والمدنية.

ولقد وصل لنا من العلم عن قدمائنا أن العلم قد اعتنى به من الأمم الهند والفرس والكلدانيون والسريانيون والعبرانيون والروم وأهل مصر والعرب، وأما بقية الأمم من يأجوج ومأجوج وبرطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والبلغر والروس والبربر، وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم، وكانوا يسمون ملك الهند: ملك الحكمة، وملك الصين: ملك الناس، وملك الترك: ملك السباع، وملك الفرس: ملك الملوك، وملك الروم: ملك الرجال.

ولقد عرفنا أن مدينة «رومة» بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القياصرة بنحو ٧٢٥ سنة على ما قيل، فتكون تلك المدينة حديثة العهد جداً، كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين، فأما في بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث، وأبان أن مدنية الهند لا يعرف لها أول، فقد جاء فيه أن «سوريوشيدانتو» الفلكي الهندي الذي نسب فلكيو عصرنا أرصاده في وضع النجوم وسيرها إلى زمان لا يقل عن ثمان وخمسين ألف سنة قد تكلم عن أسفار «الفيدا» وأنها كتاب قديم العهد جداً.

وقد جاء في كتاب خطي كشف حديثاً تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة في عهد الدولة الرابعة أن أبا الهول كان مطموراً تحت التراب ومنسياً منذ أجيال عديدة، وقد كشف في ذلك العصر على سبيل المصادفة، ويقولون: إن التقاليد المصرية في الكشف الحديث لو يوقف على مبدئها بل هي متوغلة في القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبته العلامة «مانيتون» وقد ورثها المصريون من شعب منقرض هو

الجنس الأحمر الذي منه هنود أمريكا، وكان انقراضه بعد حروب هائلة، وحصل إذ ذاك في الأرض انقلاب عظيم طبيعي، ومن آثار هؤلاء المنقرضين «أبو الهول» الذي كانوا بنوه على شاطئ البحر الأبيض الملتصق إذ ذاك بالبر، وهذه هي آراء العلامة «ليبلونجون وسافيل» في أمريكا الوسطى، و«روازل وجوبا نفيل» في بلاد الأتلانت، وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب، والذي يهمنا في هذا المقام أن أهل الشرق هم أعرق الأمم في المدنية، ألا ترى أنه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكماء مثل «كونفوشيوس» و«بوذا» وأمثالهما، والأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وأوروبا لا نبي لها ولا سابقة علم معروفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين فثبت من هذا أن العلم قد استدار كما استدار الزمان، وقد بدا دور الشرق بعد المغرب، ولعلك بهذا تدرك السر في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٢٦، ٢٧].

وتعجب كيف ذكر إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل عقب ذكر عزّ الدول وذلها، وإعطاء الملك ونزعه، وهذه الآية سيأتي ذكرها عند آية الكرسي من بذور القرآن التي ألهم الصالحون أن يقرؤوها في الأوراد ليفطن لها الخلف، فيرون أمثال هذه المعاني النبيلة الشريفة، ولعل الذي حفظ السماء أن تتداعى أقطارها حفظ علومها أن يدركها الغافلون إذ قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٢]. اهـ.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾

هذه نعم جليلة وآيات عظيمة، تلك السفن الماخرات في اليم، الجاريات في البحر، والأنهار العجيبة الصنع الجارية من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب الموصلة منافع الناس، وأقواتهم من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، وبها التجارة ونقل الذخيرة، والأخبار من أمة إلى أمة، حتى إن أهل الكرة الأرضية بهذه السفن أصبحوا كأنهم في بلد واحد، وأشبهوا هذا العالم كله في أن كلاًّ لكل مساعد. والحق أن الوحدة شاملة لأهل الأرض كما هي شاملة للعالم كله، والناس صائرون للاتحاد شاؤوا أم أبوا، وما الحروب والعداوات بينهم إلا كما يقع الهضم في الطعام في جسم الإنسان، ولقد أخذ الإنسان يقترب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف.

ومن عجائب السفن أنها تحمل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع، وهي تجري فوق الماء ولا تغرق إلا لعارض. واعلم أن هناك ناموساً ثابتاً عاماً به حفظ الله السفن من الغرق، وأعطى السمك قوة بها يطفو ويرسب، وتلك القاعدة أن الجسم إذا كان أخف من الماء المساوي له في الحجم فإنه يطفو، وإن كان أثقل منه كالحديد فإنه يرسب، وإن كان مساوياً فإنه يكون بسطح الماء عند العوم فكأنه ماء، وهذه هي التي أعطيت للسمك من المواهب العجيبة، فللسمكة

منفاخ تجده داخلها إذا شرحتها، وهذا المنفاخ مملوء هواء، فإذا أرادت أن تطفو على سطح الماء نفخته فكبر حجمها فطفت، وإن أرادت أن تنزل إلى أسفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها، فنزلت إلى أسفل لأنها صارت أثقل من الماء المساوي لحجمها، وهكذا تعلو وترسب على حسب حاجتها، كما يضيق الإنسان عينه، ويوسعها على حسب النور قلة وكثرة، وعلى هذه القاعدة جرت السفن في البحار.

فاعلم أن السفينة الشراعية الجارية في الأنهار إذا وزناها هي وما عليها كانت مساوية للماء الذي حلت مكانه في البحر، فإن أثقلناها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوي لحجمها غرقت، والسفن الحاملات للمدافع والذخائر والبضائع على هذا النمط في البحار العظيمة الأطلانطيقي والهندي وبحر الصين والبحر الهادي، والأساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات، وكل سفينتين جاريتين فإن نسبة سعة مقعر إحداهما إلى سعة مقعر الأخرى كنسبة ثقل إحداهما إلى ثقل الأخرى ومعلوم أن حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، وهنا تكون النسبة الهندسية.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾، فاعلم أن الله عزَّ وجلَّ جعل اتحاد الماء بالعناصر الأرضية سبباً لخروج النبات المختلف الأشكال والألوان والأزهار والأثمار، فكان منه الرياض والجنان والرياحين والبهجة والرونق والحسن والجمال، ومن عجب أن يكون الماء والأرض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التي لا يعرف آخرها ولا يدرى منتهاها. والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والحشيش، وكل واحد متنوع أنواعاً كثيرة، الشجر كل نبت يقوم على ساقه منتصباً أصله مرتفعاً في الهواء ويدور عليه الحول لا يجف. وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعاً في الهواء، بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقي معه في الهواء كي يحمل عنه ثقل أثماره، كشجر الكرم والقرع والقثاء والبطيخ، واعلم أن جميع النبات والشجر لا يختلف إلا لاختلاف المواد الداخلة في تركيبه، فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا وحمض الفوسفوريك وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور، وإنما صار هذا قطناً نلبسه، وهذا قمحاً نأكله، لاختلاف المقادير الداخلة في تركيبها فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ ليس يستوعب علمها إلا علماء اختصوا بهذه المباحث، وسيرد عليك في هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾[البقرة:٢٥٩] الآية، فسترى هناك عجائب الكيمياء العضوية، وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب والمقادير، إن الله سريع الحساب.

ولكن لا بد أن أوقفك على بعض العجائب العلمية هنا ليكون كالمقدمة لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية، وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب، فنقول: اعلم أن الله عزَّ وجلَّ خلق المادة ونوّعها أنواعاً وأجناساً وفصائل، فجعل منها النبات والحيوان، وهما ممالك باهرة،

فمن نبات لا يكاد يرى، وحيوان دقيق لا تدركه الأبصار إلا بالمنظار إلى شجر النخل، وشجر الغابات العظيم، وإلى الفيل عظيم الجثة كبير الحجم هائل القوة، وبين ذلك من الغرائب ما يحير العقول حتى أنك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهوتاً حائراً أمام البقة والفيل، ترى الناس يتعجبون من خلقة الفيل إذا رأوه، وهم قد حلوا أبناءهم على العربات إلى الحدائق التي فيها الحيوان كحديقة الجيزة ببلاد مصر، ويقولون: تفرج يا بني على هذا الفيل، والأب والأم والخادم يضحكون ويفرحون ويمرحون، وهم غافلون، ولا يعرفون إلا أن الفيل كبير الجثة، له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان. وقد فاتهم أن البقة الحقيرة القذرة الدنيئة المنزلة التي ينفر الإنسان من منظرها وتؤذيه في فراشه، وهي من الدلائل على أن منزله قذر مع صغر حجمها أعجب خلقة، وأظرف صورة، فلها ستة أرجل، وخرطوم، وأربعة أجنحة، وذنب، وفم، وحلقوم، وجوف، ومصارين، وأمعاء، وأعضاء أخر لا يدركها البصر، وهي متسلطة على الفيل بالأذية، ولا يقدر عليها، ولا يمتنع بالتحرز منها. وأيضاً فإن الصانع البشري يقدر أن يصنع فيلاً من الخشب والحديد والذهب وغيرها، وهو عاجز كل العجز عن صنع بقة، فثبت أن صنع البقة أدق من صنع الفيل. وفي الحيوان، وفي النبات من العجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهوراً وأجيالاً، وتلك العجائب من نوعين على الأرض، وكم عليها من معادن وأنهار وبحار، وفوقها من هواء وسحب، وبدور معها كواكب، وشموس، كل ذلك من المادة الأصلية في الكون، فنقول: لا يقدر الناس أن يتصوروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة إلا بمثال من أنفسهم وشاهد من عقولهم.

مثل المادة في تنوعها كمثل الصوت وتنوعه في الهواء

علم الله ضعف الإنسان فألهمه أن يحرك الأسنان والشفتين والفم بالهواء الداخل والخارج لإصلاح الدم الفاسد في الرئتين ليعطي له الأوكسوجين، ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون، فحين دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير، يحدث الإنسان فيه حركات تسمى حروفاً وهي تختلف باختلاف الأمم، وهي في العربية ٢٩ حرفاً تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتفاهم والتجارات والسياسات والمنافرات وكتب الديانات والعلوم والمعارف هذه هي النتائج التي نظمت نوع الإنسان وعلمته البيان، وهي ليست شيئاً سوى تنوّع في الهواء الجوي الذي له أعمال كثيرة غير هذه فإنه كما قلنا دخل في الرئتين للإصلاح، إي إدخال المادة المصلحة للدم، مع أنه ترسم فيه صور المرئيات، فيرى الإنسان الأشباح والصور التي تأتي للأعين من المرئيات، وفي الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة، وفيه بخار الماء الذي يكوّن السحب وهكذا الرياح، وهو يحمل السحاب، ويسير السفن في البحار، فليست صفة الكلام في الإنسان أول أعمال الهواء ولا آخرها، بل من تنوّع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم، الشافية لآخرين، المعلمة لقوم يعلمون، إذا فهمت هذا فاعلم أن هذا مثل ضربه الله للناس لعلهم يعقلون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدته وقدرته، وليعلم الناس أنه حاضر رحيم، فمن رحمته هذا المثال.

اعلم أن المادة كما هو رأي علماء العصر الحاضر واحدة، يقول علماؤنا الأقدمون: إن جميع هذا العالم من الهيولى، والهيولى كلمة عربية معناها القطن، وإنما سموها بهذا الاسم لأن القطن يصلح لملابس شتى كثيرة التنوّع، وقالوا: هذه المادة الأصلية لا يمكن رؤيتها، بل هي شيء أشبه بالأمور الروحية هذا كلامهم، وقالوا أيضاً: إن هذا العالم أصله مادة واحدة متماثلة، أشبه بما نرى أن الطعام بعد تناوله يصير في المعدة كيموساً متشابه الأجزاء، أشبه بمادة اللبن، فهذه المادة المتشابهة فيها جميع ما يصدر عنها من الأعضاء والحواس، ففيها مادة العين والأنف والمخ والمصارين والبطن والجوف، وهي تجمع مع لطافتها وتشابهها ما بين العظم الصلب، وما بين الرطوبة الزجاجية في العين، ومادة المخ، هذا كلام قدمائنا، فهكذا يقولون: إن المادة التي خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة، ولكن قد كمن فيها الشمس والقمر والأرض والمعدن والنبات والحيوان.

أما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا، ودققوا أشد تدقيق فقالوا: إن أصل العالم مادة سديمية دارت وتكوّرت على مدى السنين، فكان منها تلك الشموس والأرضون الخ، ومنها العناصر، بمعنى أن الموجود المسمى بالأثير مما لا تراه العيون، ولا تدركه الأوهام هو الأصل لهذه الموجودات، وهذا الأثير الذي هو أرق من النور، وألطف من الجمال، وأقرب إلى أن يكون شيئاً روحياً كما قال أسلافنا، منه تكونت المادة والكهرباء والمغناطيس، وفيه الحرارة والضوء، فهذه كلها صفات وتنوّعات في المادة الأثيرية والمادة التي منها تكونت، وبعبارة أخرى: هي حركات من حركاتها لا يدرى كيفيتها، قد شكلت إلى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والأوكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون. وبالجملة تلك العناصر تبلغ فوق السبعين نوعاً كما تنوعت الأصوات الخارجة من الفم في المثال المتقدم إلى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأمم، فبلغت بتركيبها إلى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى، وكلها ترجع إلى تنوعات الهواء في الفم، وبعبارة أخرى: لا شيء سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخلوقات التي نشاهدها على الأرض بنسب محفوظة، وحساب متقن، ونظام بديع حارت فيه العقول. وقد وصلنا الآن إلى ما نقصده من عالم النبات والحيوان، فإنها عبارة عن تفنن في المادة كما كان من الأصوات عجائب وبدائع، ولم تزد عن كونها حركات في الهواء فهكذا هنا نرى أن جميع أنواع الحيوان والإنسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تركبت الكلمات من الحروف، ومن طوائف النبات تكون المروج الواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتحير المفكرين، كما رأيت في الكلام من الخطب والشعر والمقالات، فالرياض الناضرات، والمروج الواسعات، شعر المادة كما كانت أقوال المتنبي وعمرو بن كلثوم وأشعار هوميروس وشكسبير شعر الهواء. ولعلك تقول: كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة؟ أقول: قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بياناً فأقول:

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من المواد التي ليست حية، وأخصها الأوكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون وبعض أملاح أخرى، وهذه العناصر الأربعة بمقدار تنوع المقادير فيها تتنوع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها، فيكون منها الدم والشحم والصفراء والأعصاب ومادة الدماغ والعود الأخضر والورق والثمر والحنظل والتمر والبرتقال والزيت والصمغ،

فلا حلاوة ولا حموضة ولا دسومة ولا مرارة إلا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة، وبعبارات أخرى: هي كلمات من تلك الحروف لم تزد في المادة شيئاً، فلا تزال المادة واحدة، واختلاف المظاهر وقتي كاختلاف الكلمات والقصائد في الهواء الجوي. إن عصير العنب لا يحوي خمراً ولا مادة الخمر وهو الكحول، إنما يحوي ماء وسكراً، فإذا تخمر انحلّ جزء من السكر وانفصل عنه ما فيه من الأوكسوجين والأودروجين والكربون، وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محدودة كالنسب التي ستراها عند قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾[البقرة:٢٥٩] في مسألة العزير، وعند مسألة الطير وسيدنا إبراهيم الخليل، وإذن ينشأ عنه المادة الخمرية المسماة الكحول، فيصبح عصير العنب خمراً بدون أن يزاد شيء أو ينقص، كما صار الهواء خطباً وقصائد بكونه صوتاً وحروفاً، ولم يزد في الهواء شيء ولم ينقص، والخبز والفواكه التي نأكلها لا شيء من الدم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق، ثم هي عند الهضم تتحول إلى ذلك، وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شيء، ولكن الامتصاص من العصارات الأرضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فتكون النتائج الباهرة.

لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[الكهف:١٠٩] فمن هنا فلتفهم الكلمات بالعلم والحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[البقرة:٢٦٩] اهـ.

ولعلك الآن فهمت السر المصون والجوهر المكنون في العناصر والحروف، فالعناصر في المادة، والحروف في الهواء، فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد في حركات الهواء، هكذا كان لله عزَّ وجلَّ عناصر تركبت معادن ونباتاً وحيواناً، وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عدّ ولا حدّ هكذا مركبات الطبائع لا تنحصر، وكما أن الهواء فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ، غير الأصوات، هكذا الأثير الذي تكونت فيه المادة، فيه عجائب ومخلوقات لا نعرفها فوق ما نشاهد من السماوات والأرض وما بينهما. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[المدثر:٣١]، ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:٨].

ولعلك أيضاً تعرف أن هذا التشبيه الذي أطلت لك فيه وجعلت كل ما في المادة أشبه بمركبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم:٢٢] فقوله: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ إشارة إلى علوم اللغات وما فيها من المقالات، وقوله: ﴿ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ إشارة إلى العناصر وما تركب منها، أفلا تتعجب أيها القارئ أن يكون مقالي كله من كلمتين من القرآن وقرنتا معاً في جملة واحدة ليكون ذلك داعياً إلى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر، أليس ذلك من العجب؟ على أنك سترى ما هو أعجب أنه يقول: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ أي دلالات ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ بكسر اللام جمع عالم، ولم أر آية في القرآن على ما أذكر جاء فيها ذكر العالمين على هذا النحو إلا قليلاً، فكأنه يقول: إن هذا المقام دقيق لا يفقهه إلا المحققون في العلوم، الدارسون للعلوم الطبيعية، العاشقون للعلم، المغرمون بالحكمة، فتأمل في عجائب القرآن وكن على يقين أن نبوة الأنبياء لا تعرف عند أولي الألباب إلا بمثل هذه الدقائق

العلمية، وكيف خص العلماء بالفهم في هذه المسألة التي لا تعرف إلا في هذا الزمان أشد معرفة، لمثل هذا فليعمل العاملون، ويمثل هذا فليعقل المفكرون.

عجائب التنوع والتشكل في المادة الواحدة إيضاحاً لما تقدم وأنها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة

من المعلوم الشائع في عصرنا الحاضر أن العناصر التي كشفها العلماء تبلغ فوق السبعين، وهي مركبة من اجتماع الذرات الأصلية، وهي الجواهر الفردة التي رجعت في آخر أمرها إلى حركات وتيارات يقف التعبير عندها لدقتها على العقول وهذه الذرات تجري بنواميس كالتي نراها في الكواكب والشموس أي إنها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام، وبهذه النسب اختلفت أحوالها، فالاختلاف في العناصر راجع إلى أنواع حركتها لا غير، فإذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد فذراتها جميعاً عند البحث العلمي لا فرق بينها من حيث إنها متحركات في أنفسها وإن كانت ترى ساكنة في الظاهر، وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية، بل هي حركات الذرات التي لا يعرفها إلا العلماء الأخصائيون بالبحث والتنقيب، فتنوع الحركات المذكورة جعل هذا سماً وهذا غير سم، وهذا أحمر وهذا أصفر، وهذا ثقيلاً وهذا خفيفاً، إلى ما لا يتناهى، ألا ترى أن الفسفور أبيض سام سريع الالتهاب، فإذا أحميته في إناء محكم السدّ أو عرضته للنور في أنبوب لا هواء فيه، تغير لونه إلى الحمرة ويفقد خاصية السم، ولا يلتهب إلا بالاحتكاك، وإذا حللناه تحليلاً كيمائياً لا يختلف في تركيبه عن الفسفور الاعتيادي، وهكذا نرى الكربون على أشكال مختلفة في الألماس والجرافيت والإنتراسيت والكوك، ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى، فيا الله هل يستوي الألماس الجميل المنظر، الحسن الشكل، الغالي الثمن، البديع البهيج، الذي يوضع فوق التيجان، وتتحلى به الغانيات، وبه وبأمثاله يمتاز أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم، والكوك الذي يوقدونه في أفرانهم وقطراتهم، ويملكه الغني والفقير، كلا لا يستويان، ولكن العلم قد أوجب استواءهما وإن كلاً منهما مركب من الكربون وحده، فالألماس كربون، والكوك كربون لا اختلاف بينهما البتة في الحقيقة وهي أنها لا تذوب، وإذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك، فأما هذه الأشكال والخواص من اللمعان والبهجة والحسن في الألماس وضد ذلك في الكوك، فلم تكن إلا من تغير طارئ على تحرك الذرات فحسب، وتأمل في التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة. تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهي واحدة، فانظر خلاصة التربنتين، والليمون، والبرتقال، والعبيثران، والفلفل، والريحان، والبقدونس، إن هذه الخلاصات مركبة تركيباً كيمائياً واحداً، وهو ستة عشر جزءاً من الأودروجين مع عشرين جزءاً من الكربون، فيا الله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون؟ وكيف كان كل منهما مركباً من كربون وأودروجين، فالكربون معروف في الكوك والألماس كما تقدم، والأودروجين هو الجزء المتمم لتكوين الماء، فالأول نراه يحترق، والثاني نراه يميت الحيوان إذا تنفس فيه كما يعرفه من درسوا علم الكيمياء. وفوق ذلك نرى أن سائر الأنسجة الحيوانية والنباتية التي كثرت أنواعها وأشكالها وأوصافها

مركبة من أربعة عناصر، وهي: الأوكسوجين، والأودروجين، والكربون، والأوزوت مع إضافة بعض الأملاح والجوامد.

فتعجب من المادة الواحدة التي رجع أصلها إلى حركات كيف كانت بسائطها تتنوع تنوعاً مدهشاً لغير سبب معروف، إلا تنوع حركاتها، وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى كخلاصة البقدونس والفلفل وتركبها من عنصرين، وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع ما يضاف إليها، أليس هذا يريك بأجلى برهان في عصرنا الحاضر أن الوحدة ظاهرة في العالم المشاهد؟ أوليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا حكمة الله، وأن العناصر حروف، والمركبات كلمات، والعالم المنظور قصائد وخطب نقرؤها مسطورة على لوح الطبيعة الجميلة البهجة؟ أوليست هذه كلمات الله ككلماتنا في الهواء فتشابهتا في أن تنوعهما بتنوع الحركات؟ فهذه في أثير، وهذه في هواء، وأن هذا التنوع عند الله كتنوع الكلمات عندنا في اليسر وعدم العسر، ولذلك جاء في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وفيه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف:١٠٩].

وإذا كانت هذه العوالم ناجمة عن مادة واحدة كان فاعلها واحداً فإن ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحداً فاعلاً بأعضاء فمه في الهواء أفعالاً مقصودة ينتج منها ذلك القول المسموع المنتظم فهذا العالم المنظم المكون من حركات، صانعه واحد، وهذا هو برهان التوحيد لأن الآية مسوقة للوحدانية ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الخ.

فتعجب من العلم والدين كيف اتحدا وأتيا بالعجب العجاب وهذا هو بدء الخلق الذي أمرنا به في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]. هذا بدء الخلق وتكوين العناصر والمركبات، وبهذه الآية يجب على المسلمين أن يعرفوا أصول جميع الأشياء من بسائط ومركبات، كعلم الأجنّة، وعلم الحياة، وعلم الكيمياء العضوية، والكيمياء التحليلية وإلا دام العذاب عليهم في الدنيا أجيالاً لعلهم يعقلون. انتهى. انظر تفصيل تفسير: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الخ في سورة العنكبوت.

لطائف في علمي الحيوان والنبات

اللطيفة الأولى

شجر النارجيل، وهو الجوز الهندي، هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدماً، تنبت في الأقاليم الحارة ولا سيما شواطئ بحورها، وهي من أعجب ما خلق الله من النبات، ففيها لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن وفرش وحبال وأدوات وأسلحة وغير ذلك. روى أحد الثقات أن مسافراً كان يجوب رمضاء تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتاً تحيط به أشجار باسقة، معتدلة الأجذاع، على رؤوسها أوراق جميلة تسر الناظرين، فدنا من البيت فرأى فيه هندياً رحب به وأتاه بشراب شهي فيه طعم حموضة

أروى ظمأه وأنعشه، وبعد أن استراح دعاه إلى الطعام في صحون مختلفة في جفنة «قصعة» سوداء لامعة وسقاه خمراً لذيذاً ولم يشرب مثل ذلك قط، ثم أتاه بحلواء فاخرة ثم بغيرها، فقال وقد دهش: من أين لك هذه كلها في هذا القفر؟ قال: من شجرة النارجيل، فالشراب الذي سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه، واللبن الذي استطبته من ذلك الجوز بعد النضج، والطبيخ الذي لذ لك من أوراق تلك الشجرة، وتلك الخمرة من عصارة زهرها، ومن هذه العصارة كل ما عندي من السكر، وكل هذه الصحون والجفان والآنية التي رأيتها على المائدة من قشر جوزها، وهذا البيت الذي أسكنه منها، فجدرانه من خشبها، وسقفه من نسيج أوراقها، ومظلتي من نسيج هذه الأوراق، والثياب التي علي من خيوط أليافها، ومن هذه الألياف مناخلنا وحصرنا وقلوعنا وحبالنا، والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عصير لب جوزها، ولنا فيها مآرب أخرى، فدهش المسافر، ولما همّ بالانصراف سأله الهندي أن يبلغ كتابه إلى صاحب له في المدينة التي يقصدها، فقال: من أين لك الحبر والقرطاس؟ قال: من تلك الشجرة، فالحبر من نشارة أغصانها، والقرطاس من أوراقها، فأخذ الكتاب وهو في حيرة وعجب.

اللطيفة الثانية

نظر في عمر بعض الأشجار في اسكتلندا فكان أكثر من ثلاثمائة سنة، وأغرب من ذلك شجرة العندم «دم الأخوين» ويسمى «دم التنين» و«دم الثعبان» في بلدة تسمى «أوروتاوا» في جزيرة «تيناريف» إحدى جزائر كناريا في الأوقيانوس الأتلنتيك الذي كان يسمى عند أسلافنا بحر الظلمات من بعض جهاته، لا يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله، وقد انقضى منذ كشف تلك الجزيرة إلى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها، وقد حسب العلماء الزمان الذي خلقت فيه على حسب نمو جنسها، فقال: إنها خلقت قبل خلق الله الإنسان على الأرض.

اللطيفة الثالثة

من غرائب النباتات، النباتات الهوائية وهي أعشاب لا أصول لها في التربة، تتعلق على غيرها من النبات، وتتناول غذاءها من الهواء، وتنمو في الأقاليم الحارة، ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب، وهو حسن زاه يسحر الألباب، ويسحر العقل أن يرى الإنسان أزهارها على أعالي سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشاً يحوم على الأشجار، أو نحلاً يبغي جني العسل من الأزهار، ومن أزهارها ما يشاكل الرتيلاء، ومنها ما يشاكل الإنسان إلى غير ذلك. ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

اللطيفة الرابعة: النباتات المفترسة

وسماها بعض النباتيين بالحلمية، فهذه تتشبث بغيرها من النبات، وتغتذي بعصارته، فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها. انظر هذه النباتات وصورها البديعة في سورة الرعد عند آية: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ [الرعد: ٤].

اللطيفة الخامسة

الفجل والبصل والخس وما أشبهها والنخل والعبل والسنط وما أشبهها

تأمل أيها الفطن الذكي شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة، وشجرة الخس أيضاً، وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى، وشجرة تسمى «ثوب السيدة» من جهة ثالثة.

تأمل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر، وتعجب من أوراقها، أوراقها مختلفة، فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه ويرسله إلى جذر البصلة والفجل، وكذا ورق الخس وما أشبهه، ينزل المطر فيجد الورق بوضع يصلح معه أن يجد سبيلاً إلى الاجتماع عند الجذر، وكأن الورق مساق تصب ماءها عند الجذور، ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص، وكذا ورق التين والرمان وما أشبهها لا تصلح لجمع المطر لينزل على جذع النخلة وأصل التين والرمان، لِمَ ذلك؟ ولِمَ هذا التباين؟ ورق يجمع المطر وورق يفرّقه، أما الجاهل فإنه لا يعنيه.

وأما العالم فإن له في كل نظرة حكمة، وفي كل فكرة علماً، وفي كل نباتة جمالاً وبهاء وسعادة ونوراً. اجتمع المطر في الفجل والبصل والخس عند رأس البصلة والفجلة والخسة، لأن الجذور غير متشعبة ولا متفرقة، وإنما هي متجهة إلى أسفل باستقامة، فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعاً لاجتماع الجذر.

أما في النخل والعبل فإن العروق الضاربة في الأرض متفرقة منبثة في الجهات كلها، فلذلك وضع الورق على حال لا تصلح لانحباس المطر فيسقط على الجذع، بل يتفرق حوله لتفرّق العروق.

أما الشجرة المسماة «ثوب السيدة» النابتة في جبال الألب التي ذكرها اللورد افبري في كتابه «جمال الطبيعة» صفحة ١١٣ فإن المطر إذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر ألا وهو أنه يكون خفيراً لها يحفظها من العطب كالعساكر والجيوش التي تحمي الملوك على العروش، وذلك أن قطرات المطر أو الندى ترى متجمدة لشدة البرد، تلمع كحبات اللؤلؤ على تلك الأوراق، فإذا رأتها الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولّت عن الشجرة ولم تقربها لتلك العساكر الجليدية الثلجية المتلألئة المانعة كل ما يقرب الشجرة، فتأمل وتعجب كيف كان الورق جامعاً للمطر تارة، ومفرقاً له تارة أخرى، وحارساً أميناً حيناً، كل ذلك والمسلمون يأكلون الفجل والبصل والتمر والبرتقال والليمون وهم نائمون عن حكمة ربهم وعجائب صنعه، والفرنجة فيها مفكرون.

يا عجباً كل العجب لعالم أضاع حياته في أقوال جدلية وكلمات لغوية وقد أغمض أجفانه، وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة، فلتفهم إذن قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر:٢١]، وقوله: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر:١٩]، وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨].

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان في محاولة الإبصار، وبين ورق الفجل والبصل وأمثالهما في استقبال ماء المطر لسقي الرؤوس النازلة في الأرض، وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له في الحيوان، وفي الحيوان ما يناسبه للانتفاع به، فبينما نرى أعين الحيوان مدوّرة الشكل محدبة الأعلى حاوية مادة زجاجية، وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين.

وهذه الأشكال في علم الضوء معدّة لقبول الضوء وجمعه مهيأة لحفظه فترسله إلى ما وراء الحدقة، وهي الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التي حملها الضوء، وتوصلها إلى المخ الذي هو الناظر الحقيقي، ولو أنها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت إلى المناظير الزجاجية المعينة على إيضاح الصور وإقرارها فوق تلك الأعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون في زماننا.

وهكذا نرى ورق الفجل والخس والبصل، قد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقي الرأس، ولم يحصل على هيئة مبعثرة له حتى لا تنتفع به أصولها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٤٩، ٥٠] وما أحوج الشبان في المدارس وفي المعاهد الدينية إلى ورود مناهل هذه الحكمة والارتواء منها. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

اللطيفة السادسة: النبات المفترس للحيوان

قد ثبت للخاصة والعامة أن النبات طعام الحيوان مسخر له، ولكن لم يدر في خلد إنسان أن الحيوان طعام النبات، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص، فاعلم أن نباتاً يسمى «الديونيا» من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر، وفي وسط الورقة مفصل، وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحس بها الوبر فانطبقت الورقة حالاً عليها، وخرج منها مادة لزجة قائمة مقام لعاب الإنسان لتمتص تلك الفريسة، فانظر كيف كان المفصل لتتحرك الورقة، وكيف قام الوبر بالإحساس كبصر الحيوان، وكيف كان فيها ما هو كالريق وكالعصارة المعدية في الحيوان. انتهى. والتفصيل الوافي في سورة الرعد كما قدمنا.

اللطيفة السابعة: أعمار الحيوان

يقال في المبدأ المشهور: إن عمر كل حي ثمانية أضعاف مدة نموه، فسريع النمو سريع الزوال، وما يبلغ الكمال سريعاً ينقص سريعاً، وعلى هذا المبدأ يكون في استطاعة الإنسان أن يعيش فوق المائة بل إلى المائتين إذا لم تصادفه تلك العقبات في غذائه وأحواله، فقد مات أحد الإنجليز وعمره مائة وتسع وستون سنة، وكذلك من آبائنا العرب، عاش أحد بني تميم نحو هذا القدر، وهذا وإن كان لا يعقل عادة يصلح في قدرة الله تعالى أن يتم، والإمكان واسع، ولكن العادة لا تبيح ذلك، والحيوانات الجماء تعمر أكثر من القرناء، والجريئة تحيا أكثر من الجبانة، والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية، غير أن الرخمة، والنسر، والببغاء، والغراب تعيش قدر ما يمكن أن يعيش الإنسان.

اللطيفة الثامنة: القرود وتقليدها

إن جماعة من أهل العلم كانوا مشتغلين في أمريكا الجنوبية بما يتوصل به إلى معرفة شكل الأرض فكانوا حين يبعدون عن الأدوات تأتي القرود وتنظر في المنظار وتنصب الأخشاب وتأخذ الأقلام وتغمسها في المداد وتخط على الورق ما تيسر.

ومن محاكاة القرد للإنسان أنه تفشى الجدري في بعض السنين في قرود بعض الآجام في أمريكا الجنوبية، فأتى «بنكرد» الطبيب بولدين ربط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدري أمام قرد كبير حذاءه قرد صغير، ثم ذهب بالوالدين وترك مادة التلقيح والأدوات، فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتلقيح الطبيب للولدين، وحذا حذوه غيره من القرود.

اللطيفة التاسعة: عجائب الحرباء

هذا الحيوان بدنه كالإسطوانة، وله رأس كبير، وعنق فاحش القصر، وذنب طويل كالحية، وله براثن كمخالب الببغاء، وهو يتلون ألواناً كثيرة، وتقول فيه العرب: «أصور من عين الحرباء»، أي أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس ويستقبلها بعينيه ليستدفئ، وقد رآه الباحثون وراقبوه، فوجدوه تارة يجعل جسده أخضر إذا كان على شجرة، وقد يكون في حال أخرى أصفر، وإذا تهيج حصل في لونه خطوط متقاطعة على ظهره، ثم تمتد إلى سائر جسمه تقريباً، فإذا دام التهيج صار الجسم كله أسود، هذا في لونه. أما حجمه فأعجب، فتارة يجعل جسمه كأنه فأرة في زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ، وتارة ينشر ذنبه ويحني ظهره فيكون كالأسد المزبئر، وتارة يصير كورقة النبات، ويرى خط أبيض مار ببطنه إلى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة، ثم يرق كالسكين، فيتنكر بذلك أعظم تنكر.

اللطيفة العاشرة: ذكاء الفيلة

مرضت فيلة مرضاً شديداً فعالجها أحد العلماء فشفيت، وبعد مضي خمس سنين رأته في الطريق فتذكرته، فأسرعت إليه، ووضعت خرطومها في يده كأنها تحييه وتشكره على صنيعه، ثم نظرته ثانية فدنت منه ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل.

فانظر إلى عجائب الحيوان والنبات، واعلم أن هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يعلموه، وأن يعملوا به في الدنيا، ويرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله، وما دام المسلمون لم ينظروا ولم يعلموا ولم يعملوا في الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع فإنما هم كافرون لنعمته غير شاكرين لها، فهذه من آثار قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾.

واعلم أن الدين الإسلامي كما قال أحد العلماء الهولنديين: كان عند أمة تعرفه في صدر الإسلام فارتقت به، فلما دخل في هذا الدين أمم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهماً معوجاً فانحطت ونزلت أسفل سافلين. وهانحن أولاء أبناء محمد ﷺ وتابعيه نفسر القرآن على الوجه الذي نزل لأجله على قدر الإمكان، ونبشر الأمة بأيام سعادتها، وأن هذا القول وأمثاله من أقوال العلماء سيسري في الأمة

سريان الضياء والكهرباء، فالدين ديننا، وهاهو ذا العلم أمامنا، واللغة لغتنا، فما دهى المسلمين وأذلهم إلا جهل القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصابيح الدجى أولي الألباب.

اللطيفة الحادية عشرة

يروى أن واحداً قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إني أتعجب من أمر الشطرنج، فإن رقعته ذراع في ذراع، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد، فقال عمر بن الخطاب: هاهنا ما هو أعجب من ذلك، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر، ثم إن موضع الأعضاء التي فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا يتغير البتة، ثم إنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يشتبهان في الصورة.

اللطيفة الثانية عشرة

تعاون النبات والحيوان السنط والنمل

هل سمعت أيها الذكي بملك في قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود، وهم يجندلون كل يوم في ساحات الوغى مئات الألوف من الأعداء، يقتلونهم حفظاً لشخصه وإبقاءً لذاته مدى الزمان، وقد أحاط بقصره منازل خضر يأوي إليها الحراس، وقد أعد لهم من الطعام كل ما لذّ وطاب من ألذ الطعام، كلا إنك لم تسمع به لا في الحقائق ولا في الخرافات، ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم والناس ساهون لاهون ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف:١٠٥] ذلك نوع من السنط المدجج بالسلاح من السهام البيضاء، تكون له قرون مجوفة فارغة، وعلى ورقه نقط من العسل، وحوله آلاف الآلاف من النمل تؤمه للقوت، تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة الضارات لها المؤذيات لنموها وحياتها، فهذا النمل يجندل تلك الجحافل، ويميت تلك العساكر، ويسكن تلك المساكن، وهي القرون الخضر، ويشرب ذلك العسل النقي. وقد ذكر العلامة «فورل» أنه كان يرى نحو ٢٨ حشرة في الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه.

فانظر وتعجب كيف أصبح النمل في هذا المقام حارساً للسنط الذي هو أغنى النبات بالسلاح، وكيف احتاج هذا المدجج القوي البأس إلى تلك الجيوش الجرارة من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والدود والسوس، وبهذه الخصلة كان خشب السنط متيناً جداً ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، وهذه من جنود الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١]، ثم أردفها بما يفيد أنها مذكرات لنا فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر:٣١]، وانظر كيف يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨] ثم أفاد أن هذا كله في علمه المكنون ولوحه المحفوظ فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨] وقال أيضاً: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦]، فلا يفتخر الإنسان فالله تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

اللطيفة الثالثة عشرة

تعاون النبات والحيوان أيضاً الزهر والحشرات

يطوف المرء في الحقول والغابات والأشجار والبساتين الغناء، وجمالها وعجائب خلقها، وأزهارها الجميلة الفاتنة، من أحمر قان، وأصفر فاقع، وأزرق زاهر، وأبيض ناصع، ذوات رائحة ذكية عطرية، وفيها مادة حلوة عسلية، والحشرات طائفات من زهرة إلى زهرة، ومن شجرة إلى شجرة، وهنّ مغنيات فرحات راتعات في بحبوحة العيش ونعيم الحياة، فما كان قصارى خيال الشعراء إلا أن يتذكروا أحبابهم، والوجوه الجميلة، والقدود، وأوقات الصفاء والهناء، هذا ما يدور بخواطر الشعراء، وقد غفلوا عن الحكمة في تلك الحشرات وطوافها، والأزهار وألوانها، والعسل في أسافلها، وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلاً، وهو بالنهار مغمض الأجفان، فإذا جن الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهي الأصفر، وفاحت رائحته، وعم شذاه العطر، فإذا ما طلع الفجر رأيته ذابلاً لا جمال فيه، ولا رائحة، ولا رونق، فهو كالخفاش ينام نهاراً ويقوم ليلاً، وهو نبات اسمه «القطرب».

ثم كيف كان بعض الزهر يغمض أجفانه ليلاً، ويستيقظ نهاراً مخالفاً للأول موافقاً للناس، وأكثر الحيوان، فهو بالنهار أنس وجمال، وبالليل مسدل الستار غافل نائم، وذلك هو «الأقحوان».

ثم كيف كان بعض الأزهار يتفتح عند طلوع الفجر، فإذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجفانها ونامت إلى طلوع الفجر من اليوم الثاني، ويسمونها في بلاد الإنجليز «يا ولد اذهب ونم عند الظهر». ومن الأزهار ما تفتح صباحاً في الساعة السابعة، وتنام عند الخامسة مساء وهو نوع من الهندباء، يطوف الإنسان في الحقول ويرى هذه العجائب، وهو عنها غافل.

ثم يرى بعض الشجر كالصنوبر والزان والبوداق والسنديان، أزهارها صغيرة، ولا لون لها، ولا رائحة، ولا جمال، فيا ليت شعري جمال فتان في بعض الأزهار، وعدمه في بعضها الآخر، ونوم بالنهار، ويقظة بالليل، وعكس ذلك، ما فائدة ذلك كله، وهل لهذا كله حكمة أم هو مما تموج به الطبيعة موجاً بلا عقل يضبطها ولا هدى ولا كتاب منير.

أقول: اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبحثوا فيه في عصرنا، فوجدوا أن النبات فيه الذكور والإناث، وذلك كالقرع وقد أتى باللقح الذي في الزهرة التي فيها الطلع المذكر، ووضعه في الزهرة الأنثى وطنينا عثمان باشا مرتضى وأرانيها في حديقة قرب المنصورة فوجدت أن الزهرة في اليوم الثاني قد حملت حملاً خفيفاً، وقال لي: إن الناس إذا ألقحوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافاً مضاعفة وتارة يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة، ثم إن الذي ينقل طلع الذكور إلى الإناث إما أن تكون الرياح، وإما أن تكون الحشرات كالنحل، وقد جعل الجمال والألوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات وهكذا الرائحة العطرة تشوّقها إلى ورود تلك المناهل، وأما العسل في داخل الزهرة فإنما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملاً لها على دخولها، فإذا دخلتها حملت على جسمها من ذلك الطلع الذي يرى على تلك الأعمدة التي كأنها مدقات، فتطير إلى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها، فإذا صادف أن كانت

أنثى حملت بالثمرة المطلوبة، وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى فيطلع النخل، وبهذا تثبت أن الذكورة والأنوثة عامة في سائر النبات البالغة فصائله خمسمائة ألف.

ولقد بحث العلماء حبات اللقاح في زهرة النبات المسمى عود الصليب فوجدوها من ٣,٠٠٠,٠٠٠ إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ أليس هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[ق:٧]، ولقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات:٤٩]. ولما كانت هذه العجائب مدهشة للب، مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه العجائب، أردفه بقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[الذاريات:٥٠].

قد قلنا إن الحشرات هي الحاملة للقاح من الذكور إلى الإناث ولذلك نراها طائفة في الحقول والبساتين مغنية، تجري في جو من الجمال والآمال، تطلب العسل من الزهر وتشرب رحيقه المختوم، تخدم أنفسها بالجمال والروائح العطرية وشرب العسل، وهي تؤدي عملاً نافعاً للشجر فإنها سبب في بقاء نوعه ودوام جنسه وكأنها تغني طرباً كما تغني النساء وهن يزففن العروس إلى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والدوام التي تزف على أيديهن لأنواع المخلوقات.

فأما نوم الزهرات في أوقات مختلفات فذلك مطابق لعادات الحشرات، فالزهرات الساهرات تسهر حشراتها تبعاً لها، والنائمة ظهراً أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات، فثبت إذن أن هنا عالماً عجيباً ونظاماً بديعاً وبدائع وأعمالاً متقنة، وليس الإلقاح خاصاً بالحشرات، فإن الرياح تلقح كثيراً من الأشجار، ولذلك نرى أن أزهارها لا جمال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلاً، فإن الريح لا تحتاج لشيء من ذلك، وإنما تؤدي عملها بلا شهوة ولا عقل، فترى شجر السنديان والصنوبر والزان خالياً من جمال الزهر والحلية والزينة، فإن ذلك لا تحتاج إليه الريح ولا تعقله.

ولو أن الحشرات كانت موصلة للطلع في تلك الأشجار لجمل الزهر، وحسن شكله، وظهر عسله، وذكت رائحته، فإن الله تعالى لا يخلق الأشياء إلا لحكمة، ولا حكمة في جمال لا ناظر له، ولا في طعام لا آكل له، ولا في رائحة لا شامّ لها، وهو هنا الرياح، أوَليس هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر:٢٢]، أوَلست ترى معي أن المسلمين قد قصروا وزادوا في التقاعد والتقاعس والنوم والغفلة، أوَليس هذا من مقتضى دينهم، وكيف يفوز الفرنجة بمعرفة الحقائق التي نطق بها كتابنا وهم لا يعلمون أنها فيه، ونحن أجهل منهم بحقائقه، أفلست ترى أن المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها.

اللهم إني نصحت أمتي وعملت جهدي وما كتمت العلم، اللهم نوّر بصائر أولي الألباب فيها، وأرهم رشدهم واجعلهم نوراً وهدى للعالمين.

وسترى في سورة الحجر عند قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر:٢٢]، عجائب الأزهار وإلقاحها مما يدهش الألباب. وفي سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾[الشعراء:٧]، فهناك ترى جنة عالية قطوفها دانية، من المعارف الجميلة والمحاسن البهجة الشارحة للصدور، المرقية للعقول.

ولنختم الكلام في هذا المقام ونبتدئ الكلام على:

تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض

اعلم أن كل هواء هبّ فإنه يسمى ريحاً، ومن عجب أن السرعة في الرياح على مقدار ثقلها، فإذا كان ثقلها على القدم المربعة ٧٢ , ٠ من الدرهم كانت سرعتها ميلاً في الساعة، وإن كان ضغطها ٨٨ , ٢من الدراهم كذلك كانت سرعتها ميلين، وإذا كانت ٤٨ , ٦كانت سرعتها ثلاثة أميال، ومعظم سرعة الريح المسماة زوبعة وإعصاراً والمسماة زعزعاً وزعزاعاً وزعزعاناً ٨٤ ميلاً في الساعة الواحدة للأولى، وواحد وتسعون ميلاً للثانية، وفي النادر أن تجري في الساعة مائة وعشرين ميلاً أو أكثر.

الزوبعة أو الإعصار

ريح تصعد في السماء بالمواد كأنها عمود تثير الغبار والسحاب، وقد تخرب الديار وتقلع الأشجار وتحملها وتذرو أثمارها في الآفاق فيظن الناس أن السماء أمطرت أثماراً وقد تحدث على وجه المياه وترتفع بعض حيواناتها فتمطر ضفادع وأسماكاً، وهي نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين، وقد يحدث بسببها أن يثور من السحاب مخروط معكوس تدور به، فينحدر من الجو وتثير من البحر مخروطاً مستقيماً، فإذا تلاقى المخروطان حدث ما تسميه العامة بالتنين، وقد يكون قطر المخروط مائتي قدم.

عجائب السحاب وحكمه

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الأرض في الجو أكثر من ستة ألف ذراع، وأن أقربه ما كان مماساً لوجه الأرض، وذلك نادر في بعض البلدان، إذ لو كان السحاب في كل وقت وفي كل بلد مماساً لوجه الأرض لأضر ذلك بالحيوان والنبات وأمتعة الناس، كما يرى ذلك يوم الضباب، وفي البلدان القريبة من السواحل مثل البصرة وأنطاكية وطبرستان لقربها من البحار، فبينما الناس في غفلاتهم إذ فاجأهم الطلّ والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتلّ الثياب والأمتعة، ولو كان السحاب دائماً قريباً من وجه الأرض لأضر الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسماعها، ولو كان بعيداً شديد الارتفاع في الهواء حتى لا يرى لكانت الأمطار والثلوج تأتي مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لا يتحرزون، فيكون الضرر عاماً كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢]. فتعجب كيف كان السحاب يأتي غالباً عند الحاجة إليه وليس يكون بعيداً جداً فلا نحترس منه، ولا قريباً جداً حتى نستضرّ به، فبعده وقربه بحساب، وكثرته وقلته بحساب، ولو دام متواصلاً لقتل الخلائق ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وانظر كيف جعل الله بعض الأماكن يقل فيها المطر ولا أنهار فيها لتكون فاصلاً بين الممالك والقارات، أو لتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم، وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها، وإلا لتعفن

بتواصل العمران ولم يكن هناك خلاء نقي. ولما كانت هذه العجائب لا يفهمها إلا العقلاء قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء

ذكر الله الفلك في هذه الآية وذكر السحاب والرياح، ولقد تشاركت السفن والسحب في أنها جميعاً تجري بالرياح وبالكهرباء، لقد أضأت لنا يا الله السبل، وأريتنا العجب، وأسبغت علينا النعم، فأريتنا السحاب تجري بالرياح مسخرات في جو السماء، والهواء يسوقها لسقي الأرض، فيخرج النبات ويحيي الحيوان.

ولقد جعلت بحكمتك الأرض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالحمام، فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار في الحمام، وماء البحر أشبه بالماء الذي يسخن فيه، والبخار الصاعد من البخار في الجو أشبه بالبخار الصاعد في الحمام، والجبال الشامخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل يحبسها فتسقي المروج والبطائح وراء الجبل كحيطان الحمام الحافظة للبخار، والزمهرير الذي يعلو إليه البخار فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطراً أشبه بسقف الحمام يتراكم عنده البخار الصاعد فيتساقط، سبحانك ربنا أريتنا أن الجبال أشبه بالسدود وبالحبوس، وهي التي يسميها العامة في مصر بالخزانات تصد الرياح الجاريات بالسحب حتى لا تجاوزها فتحبس المطر أمامها فيسقى الزرع ويدر الضرع والجبل، كما يحفظ الماء في السحاب أن يجاوز البطائح التي أمامه، هكذا نراه قد خزن الماء في جوفه الذي ينزل من المطر أو من الثلج الذي سطعت عليه الشمس فذاب قليلاً قليلاً وخزن في باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قبلاً فكان منه العيون الجاريات وبها تكون الأنهار، فالجبل حفظ الماء في الهواء وفي باطنه.

اطلع بعض المغرمين بالعجائب على السحب من فوق الجبال الشوامخ، فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلاً مربعاً، وسمكها ميل، ورأوا السحب صاعدة من الحضيض جارية إلى تحت أقدامهم، ومن السحب ما لا يزيد سمكها عن عشرين قيراطاً، وأدنى السحب ما كثرت فيها الكهرباء، ومسير السحب الرياح غالباً، وكثيراً ما شوهد زمن سكون الرياح سحائب صغيرة متقابلة تجاذبت وكانت إحدى المتقابلتين كهربائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجاذب. فانظر كيف أمر الله الكهرباء أن تقوم بتسيير السحاب إذا ركدت الرياح فجرت تلك السحب، ثم كيف كانت السفن في البحار تجري بالرياح كالسحاب واستعملت الكهرباء أيضاً في تسييرها وجريها في البحار، أفليس حب الله الذي سأشرحه لك في المقال الآتي يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه، وأسبابه كما سترى هو العلم بما صنعه المبدع الحكيم، والانتفاع به، وقبول نعمه بالعمل، ويكون ذلك هو الشكر، أرسل الله سبحانه الكهرباء فسخرها، فجرى السحاب، فجاء الإنسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها إلى السفينة. إن ذلك يا الله قبول منا لهديتك، وشكر لنعمتك، ألا وإني أشهد أننا معاشر المسلمين مقصرون في حبك، والاطلاع على عجائبك، والولوع والغرام بمصنوعاتك.

جرت السفن في البحار تارة بالرياح وتارة بالبخار وآونة بالمجاديف التي يقاوم الإنسان بها الماء فتسير إلى الأمام ووقتاً سلط الإنسان الطاقة الكهربائية المتولدة من الطاقة الميكانيكية «الحيلية نسبة لعلم الحيل» لما يسمونه بخار التربية على محركات السفينة وهي المجاديف أو الرفاصات، وقد أسفر ذلك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الإنجليزية، فجرت السفن كما جرت السحب بالكهرباء وبالرياح والبخار المتولد من الماء والحرارة بالفحم أو غيره كالهواء في ضغطه فهو ملحق به معنى، فسبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم ولقد جعلت يا الله حركات الماء كلها بركات، فإذا جرى في الأنهار كانت قوة اندفاعه من أعلى كما في خزان «سد أو عرم» أسوان بمصر فيها قوة لو استعملت لولدت كهرباء أجرت جميع القطرات في البلدان ولأنارت جميع القرى والمدن، ولأغنتهم ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه فالحركة تولد الكهرباء بحيل علمية كما تكون منها الحرارة ومن الحرارة الضوء وهكذا، والماء بلطافته يندفع بخاراً فيجري السفن والقطرات، فهو ماء مبارك ونعم عظيمة ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون:١٤].

لقد جعلت يا الله هذه السفن الماخرات في اليم في حاجة إلى النجوم السيارة يعرفها العاملون فيها بجداول حتى يلاحظوها في أسفارهم ومعهم البوصلة، وهي بيت الإبرة المعروف، تكون فيه تلك الإبرة الممغطسة الناظرة في اتجاهها إلى الشمال وإلى الجنوب كأنها تقول: إذا غاب النجم الذي به تهتدون كما قال الله: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[النحل:١٦]، فأنا أقوم مقامه، وأهديكم في ظلمات البحر، لأن هداية الله تعم سائر الأقطار بالليل والنهار، والظلمة والنور، فعلم الكواكب وتقويمها من النعم، والبخار من النعم، والكهرباء من النعم، وحركات الماء من النعم، وعموم الكهرباء في أجسام كثيرة من النعم.

كل ذلك والمسلمون نائمون كأن هذا القرآن جاء لغيرنا، وكأننا من سكان المريخ، وكأن الذين يعقلون هذه الآيات غير المخاطبين، فإليك يا الله أضرع أن تقر عيني باستيقاظ المسلمين، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، إن ذلك هو الحب، فالحب والعشق والشوق كلها ترجع للعلوم، ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال:

المقصد العاشر

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أي من الأصنام والرؤساء، ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ أي يطيعونهم ويعظمونهم تعظيم المحبوب ﴿ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ كتعظيم الله والخضوع له، أي يحبون الأصنام كما يحبون الله، يعني يسوون بينه وبينهم في محبتهم، لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه، وقيل: يحبونهم كحب المؤمنين لله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من المشركين لآلهتهم لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه، وقوله: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد إذا عاينوا العذاب يوم القيامة ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ لو يعلمون شدة عقابه للظالمين لندموا أشد الندم.

وقوله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ بدل من «إذ يرون» ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي رائين العذاب، والواو للحال، و«قد» مضمرة، وقيل عطف على «تبرأ» ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ وهي الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحابّ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ «لو» للتمني، وجوابه ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإبراء الفظيع ﴿ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ أي عبادتهم الأوثان ﴿ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ندامات وهو مفعول ثان لـ«يريهم»، ومعناه أن أعمالهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون إلا حسرات ﴿ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ بل هم فيها دائمون.

وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ نزلت في قوم حرّموا على أنفسهم أحسن الأطعمة والملابس، والحلال المباح الذي أباحه الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه، والطيب قيل المستلذ، وهذا ليس بجيد، لأن المدار في الطعام على نفعه في الجسم صحة واعتدالاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى تحريماً وتحليلاً، والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم، أو هو

مخلوق حي يوسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ بيان لعداوته ووجوب التحرز من متابعته، والفحشاء ما أنكره العقل.

وقوله: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ في موضع الجر بالعطف على «بالسوء» أي وبأن تقولوا كأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الضمير للناس وهم المشركون أو اليهود لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان واتباع القرآن ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا ﴾ وجدنا ﴿ عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَ ﴾ يتبعونهم ﴿ وَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا ﴾ من الدين ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ للصواب، ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ﴾ بهائم ﴿ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ النعيق التصويت، يقال: نعق المؤذن ونعق الراعي بالضأن، والنداء قد يسمع وقد لا يسمع، والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ رفع على الذم ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الموعظة، ثم بين أن ما حرّمه المشركون حلال بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ أي من جيده في منفعتكم وفيما هو أصح لأبدانكم أو حلالاتكم ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن صحّ أنكم تخصونه بالعبادة.

ثم بين المحرّم فقال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ وهو كل ما فارقه الروح من غير ذكاته مما يذبح أي ما حرم عليكم إلا الميتة ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾ أي السائل لقوله في آية أخرى: ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾[الأنعام:١٤٥] ﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ أي الخنزير بجميع أجزائه ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله، وأصل الإهلال رفع الصوت، أي رفع به الصوت للصنم، وكانوا في الجاهلية يقولون: باسم اللات والعزى ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ أي ألجئ فأكل حال كونه ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ للذة أو شهوة أو للاستئثار على مضطر آخر ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متعدّ مقدار الحاجة وسد الرمق، أو الجوعة، أو غير باغ على الوالي، ولا عاد بقطع الطريق، فعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر، وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله، ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ في تناوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فعل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالرخصة فيه فيأكل الميتة عند الضرورة شبعاً ولا يتزود منها.

ومعلوم أن الهدايا والمآكل والرشا التي يقدمها المرؤوسون للرؤساء الذين يضلون عن سبيل الله ليست حلالاً كالتي يأخذها رؤساء اليهود، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ عرضاً حقيراً ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ ﴾ أي ملء بطونهم ﴿ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ كلاماً يسرّهم، ولكن استحقوا قوله: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ بكتمان نعت محمد ﷺ للمطامع والأغراض الدنيوية ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ

عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس بموجب النار من غير مبالاة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في جنس الكتاب فيقولون في بعض كتب الله إنها حق وفي بعضها باطل، ﴿ لَفِى شِقَاقٍ ﴾ خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

إذا قيل للمشركين اتبعوا القرآن جنحوا إلى التقليد، وهكذا اليهود، وقوله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ الهمزة للتعجب، وهذه الآيات تدعو إلى التنفير من الانقياد الأعمى للزعماء ذوي الأغراض الساقطة كملوك الإسلام السابقين في الدول الإسلامية فإن كل من أغرى قوماً بما لا ينبغي ثم وقعوا في العذاب إما في الدنيا بالأسر وغيره، وإما في الآخرة بجهنم، تبرأ المتبوعون من التابعين، وندم التابعون على انقيادهم الأعمى، وهذا هو الداعي لتأليف مجالس الشورى في الإسلام، لأن القادة لا ينفعون الناس في الحساب الدنيوي ولا الأخروي، ويقع الذل على الأمة، فتارة يفتكون بالقادة كما حصل في اليونان أيام تأليف هذا الكتاب، قتلوا وزراءهم لما أوقعوهم في حرب كانت عليهم وبالاً، وتارة ينجو الرؤساء كما هو غالب في العالم مثل «ولسن» في أمريكا أضرّ بأمته في الصلح وخانهم ولم يقتلوه. وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الخ، أي مثل داعي الذين كفروا إلى الإيمان كمثل الراعي الذي ينعق بغنمه وهي لا تسمع إلا دعاء ونداء فهي لا تعقل. وقوله: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ أي أكلها ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾ وقد كانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم ذلك.

هنا أبان أن دين الإسلام دين أساسه العلم وعماده النظر وسقفه الحكمة، فمن قلدوا في أعمالهم وآرائهم فأولئك هم الضالون، إذ تبرأ المتبوعون من التابعين، وقد أحاط بهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، وقال التابعون: لقد ظلمتمونا بأقوالكم وآذيتمونا بإفككم، ويا ليت لنا كرة إلى الدنيا ورجعة إلى الحياة فنتبرأ منكم كما تبرأتم منا، وهذا المقام سنوفيه حقه قريباً لشدة حاجة الأمة الإسلامية إليه في هذا الزمان، وأكثر الناس في الحياة صمّ عن أن يسمعوا النداء، عمي فلا يستطيعون الاهتداء، فهم لا يسمعون ولا يبصرون، وإذا قيل لهم انظروا بعقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء، أيكون ذلك، ولو كان الآباء لا يعقلون؟ ومن ذا الذي يقتدي بالعميان؟قتل الإنسان ما أشد جهله، وأقل علمه، ولعمرك ما حرمت الأنعام، وإنما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر اسم غير الله عليه، ويحلّ ما حرم من ذلك للمضطر إذا لم يبغ على الرفقة الآكلين فيما يأكلون، ولم يجاوز الحد فيملأ المعدة، ولا يجتزئ بما يسد الرمق، فهذان محرم عليهما الرخصة، شأن الأمم إذا دنا أجلها وذهب مجدها أن تستبدل الترهات بالحكمة وأقوال الدجالين بالعلم، كأهل سبأ إذ ربطوا هررهم بجانب عرمهم لما أعرضوا عن حكمهم، وجهلوا نظام العمران، وهندسة البنيان، وهكذا العرب الجاهلون لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسوا دين إبراهيم، وماتت عقولهم، وذلت نفوسهم، وتخطفتهم الأمم المحيطة بهم من كل جانب لولا حمية جاهلية وشنشنة عربية، فكانوا يحللون ويحرمون

بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، والمسلمون اليوم حذوا حذوهم، واتبعوا خطوات غيهم، واعتزلوا عقولهم، إلا من رحم ربك، ولذلك أنزل الكتاب لهم.

ولألخص الكلام في مقامات ثلاث في هذه الآيات: المقام الأول: الحب، الثاني: الرؤساء والمرؤوسون، الثالث: الحلال والحرام. وهاك بيانها:

المقام الأول: الحب والعشق والشوق، وما معنى حب الله

اعلم أن كل ما حولنا ونشعر به ونعلمه بالنسبة لنا ينقسم قسمين: موافق ومنافر، فكل موافق أحببناه، وكل منافر كرهناه، فالحب والبغض تابعان للموافقة والمنافرة، لا فرق في ذلك بين الطيور في وكناتها، والآساد في آجامها، قاعدة عامة لا يشذ منها حي في العالمين. الحرير والورد والعسل، والصور الجميلة، والنغمات الموزونة مع الأصوات الحسنة نحبها لموافقتها لحاسة اللمس والشم والذوق والبصر والسمع. والشوك والروائح الخبيثة والحنظل، والصور القبيحة، والأصوات المنكرة، نكرهها لمنافرتها للحواس المتقدمة على الترتيب المذكور. فهذه عشر صور، خمس للمكروهات وخمس للمحبوبات، وهكذا سائر ما حولنا من الناس، والدواب، والمعادن، والنبات، ملحق بهذه العشرة مقسم إلى هذين القسمين.

الخيال والتصور

ثم إننا إذا غابت عنا تلك الصور الجميلة والنغمات اللذيذة، والمطعومات الحلوة والمشمومات المرغوبة، فإنا نتصورها بقوة الخيال، ونستحضرها في العقول ونتذكرها، ولنا فيها مآرب شتى هناك فنستلذ بحضور صورها كأنها مشاهدة، أو بالاستنتاج من أحوالها، أو بتذكر ما كان منها، وهذه لذة تحاكي لذة الإحساس ولكنها أضعف منها، وهكذا الصور المكروهة نتصورها فتؤلمنا كأنها حاضرة، ولكن الألم يكون أقل لأن هذا خيال وذلك حقيقة.

العلم

ثم إننا لا نقتصر في الحب على المشاهد، فإننا نحب المحسنين في أي ملة ودين ونحلة، ونحب الشجعان الذين حكيت لنا قصصهم وتواريخهم، ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجمال وإن لم نشاهدهم، فإننا نرى أن العامة الذين يسمعون قصة عنترة يهيمون غراماً بعبلة ويزوجها، ولا يهنأ لهم طعام ولا شراب إلا بذكر تلك الأسماء ومدحها وإعظامها وإجلالها. نرى المتعلمين العصريين يعجبون بنابليون لشجاعته وهمته. نرى فريقاً من الناس يحب عيسى، وفريقاً يحب بوذا، وفريقاً كونفوشيوس. كل ذلك تابع للعلم بتاريخهم، والاطلاع على علمهم، فالشجعان والعلماء محبوبون، والمحسنون والصابرون والصادقون، إن ذلك راجع للجمال العقلي، وكل ذلك لموافقته لفطرنا ونفوسنا، ونحن نكره المخربين للأمم وننفر منهم مثل نيرون وقراقوش الظالمين، ونكره الجهال والجبناء والكسالى لأن ذلك لا يوافقنا.

وبالإجمال: المحبوب والمكروه يكونان في المحسوس والمعقول بهذا البرهان، وبهذا تبين أن المحبة والبغض تابعان للعلم، والعلم إما بمحسوس أو معقول.

العشق

فإذا ما تمادى الإنسان في حب شيء ودام على ذلك، وغفل عما عداه، وصار هو همه الشاغل له كان ذلك عشقاً، فالعاشق يكون مولعاً بمشوقه لا يحب أن يفارقه، والعشق الإنساني الذي هو المظهر المحسوس معروف متداول بين الناس، والجمهور لا يفهم من العشق إلا هذا المعنى مع أنهم يجدون التاجر الذي نسي كل شيء إلا تجارته، والصانع، والمزارع، والقائد، والعالم، والمهندس الذي خلبت الهندسة عقله، وسلبت لبه، حتى لا يرى أجمل الصور أمامه لشدة شغفه بالهندسة، فنحن نسمي المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شيء إلا ما هم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقاً، إذ القاعدة في الحب والعشق أن ننظر إلى ما فضل على ما سواه عند المحب العاشق، ونقيس نفسه بمن جلس على مائدة وأمامه التفاح والموز، فننظر إلى أيهما تمتد يده، فلا شك أنه يقدم عند الأكل أشهاهما لنفسه فنقول: هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلاً، هكذا إذا رأينا رجلاً يحدث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر، علمنا أن حبه له أكثر من حبه للآخر، ونرى الشاب القوي البنية له خطيبة جميلة مرغوبة، قد يفضل السفر والغربة إلى أوروبا ليحيي قلبه بالعلم، ويتحمل مضض الفراق، فنحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلي وهو الرقي في الحياة على العشق الحسي، علمنا من هذا أن الحب يكون للعلم وللقدرة التي هي الشجاعة، وللإحسان وللجمال، فالعالم محبوب والشجاع محبوب، والمحسن محبوب، والجميل محبوب.

حب الله

وعند النظر في هذه العوالم المشاهدة والتأمل في جمالها وبهائها، نجد هذا الجمال والبهجة والحسن في الورد والزهر والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصور الجميلة الخالبة للعقول الجاذبة للنفوس، إنما هي نقوش في هذه المادة، والمصور لها أجمل منها، وهي مظاهر ذاته كما يقول الصوفية، وكما رأيت في كلام «سبنسر» وهكذا علم الكيمياء، وحكمة الحكماء، ونبوة الأنبياء، إنما هي من عنده، فهذه العوالم المشاهدة تدلنا أن صانعها أقدر من نابليون وعنترة، وأعلم من عيسى ومحمد، والجمال لعزة وليلى من جماله، فالجمال له، والعلم له، والحكمة له، والقدرة له، ونحن قد قررنا أن الحب يكون على مقدار الموافقة، ولو أن المحبوب كان جميل الصورة، حسن النغم، حسن الخلق، عطر الرائحة، فصيحاً ذكياً عالماً، لكان ذلك فوق كل جمال، ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفني فيه وأصبح هائماً، بل ربما سلب عقله، هذا عند المدرك له، لأن من ذاق عرف، ومن عرف أحب، ومن زاد حبه عشق، ثم يكون الوله والفناء، فأما من قلّ إدراكه فإنه لا يعرف إلا على مقدار ما وصله، ألا ترى أن الأعمى لا يدرك الصور الجميلة، والأصمّ لا يعرف جمال النغمات، فهذان لا يمكن أن يعقلا أو يتصورا صور الجمال وبهجة النغمات، فالمدار على المعرفة في المحبة، ومن جهل شيئاً

عاداه، ولذلك نجد الأمم تنشر لغاتها وعاداتها بين الناس لتحب، فأما المجهول فهو منبوذ، فمن تحقق في الله أنه هو المتصف بالجمال والقوة والعلم والإحسان، ذابت أمامه صورة عزة وليلى، ورأى عنده من العلم والقدرة والإحسان ما لا يدانيه علم عالم ولا نبي ولا حكيم، ولا إحسان محسن، ولا قوة شجاع، وحينئذ يصبح هائماً في جماله وعلمه وقوته وإحسانه أكثر من كل جميل عالم مقتدر، وأن إلى ربك المنتهى.

الشوق

قد قدمنا أن المحبوب إذا غاب عن عياننا حضر بصورته في خيالنا، ونقول الآن: إن هذه الصورة تحثنا أن نستكمل مشاهدتها، لأن حضور الصورة في الخيال ناقص، والنفس تحب أن تتمتع بالرؤية التامة، وهذا هو الشوق، فالمشوق حاضر بعضه غائب باقيه، والنفس لا تفتأ تجدّ حتى تستكمل التمتع بالجمال، وعلى ذلك نشتاق إلى المحبوب لنراه ونستكمل المشاهدة، وهكذا إذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس إلى بقية جماله، وما خفي وراء ذلك، فالمطلوب للمشتاق إما غائب كان حاضراً، وإما حاضر ستر بعضه، فهو يودّ استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد.

الشوق لله

ولا جرم أن هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال، فالكواكب بحساب، والنبات منظم عناصره الداخلة فيه، وكل شيء بمقدار في هذا العالم، ومن ينظر ليلاً للنجوم يجد من البهجة والحسن والنضارة ما يذهل عقله، وإنما غاب هذا الجمال عن الجهال لأنهم أشبه بالعميان أمام الغادات الحسان، وبالصمّ عند سماع الأوتار في أيدي القيان، ولم تفتق لهم الحاسة التي بها يدركون، ومن الموانع لمعرفة هذا الجمال أنه مبذول لكل إنسان، ولقد قدمنا في هذا التفسير أن أكثر النوع الإنساني عبيد العصا، فإذا قرعهم الله بعصاه وأدّبهم وأنزل عليهم البلاء، ثم نفحهم رحمة من عنده حمدوه لأنهم لا يعرفون النعمة إلا بعد البلاء كالحيوانات العجم، هكذا لا يعرفون الجميل إلا إذا اختبأ عنهم وترفع، فحينئذ يعز عليهم ويعظم في أعينهم، فأما المبذول لهم فهو مبتذل، والسماء وجمالها أجمل من الجواهر واليواقيت والصور البديعة المعلقة في القصور، ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لا يعقلون من الجمال إلا ذلك الحقير الذي في قصورهم وأدورهم كالدرة والمرجانة، ولعمرك ليس في الأحجار الثمينة من الجمال إلا أثره بالنسبة للكواكب. وقال الإمام الغزالي ما معناه: إن الناس لا يفرحون بالكواكب لأنها مبذولة لهم، وهي لا نسبة بين جمالها، وجمال الحدائق الغناء في الأرض، وتراهم إذا رأوا حديقة قد منعوا من دخولها ازدحموا عليها لأنهم مغرمون بالممنوع معرضون عن المبذول. أقول: ولذلك قلّ الأنبياء والحكماء في نوع الإنسان الذين أدركوا الجمال وتفرغوا لهداية الناس فهم المغرمون بالعجائب لأنهم عرفوا واشتاقوا، فشوقهم لله يحثهم على البحث في جمال العالم، ولا يزالون يجدّون وكلما وصلوا إلى جمال طمعوا فيما وراءه، ولهذا تجد الحكماء يقرؤون سائر العلوم، وهي حقيقة الجمال، ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بأفكارهم، ويجدون لذة لا يعرفها سواهم كما لا

يعرف الأعمى جمال الصور، ولا الأصم حسن النغمات، فهؤلاء مدفوعون بحب الجمال هائمون، وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال، فإنهم في هذه الدنيا مغمورون في المادة يقرؤون العلوم، وينظرون جمال النجوم، ويعلمون أن ذلك قشور، وأنهم بالموت أو بالتجرد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجدّون في تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم، حتى إذا ماتوا وصلوا إلى الجمال الحقيقي كما أن العاشق إذا قابل من أحبه تمتع بالجمال الأكمل، فهاهنا طلب العاشق الأمرين: زيادة الاطلاع على الجمال، وحضور ما غاب من المحبوب كما في العشق المادي الذي شرحناه أن الناس مغمورون في الجمال من شمس وقمر وكواكب وعلوم ورياض ناضرات، وحقول بهجات، وأكثرهم نائمون، فتبين أن حب الله راجع إلى الغرام بالعلم، والغرام بالعلم يرقي الأمم.

ونتيجة القول: إن حب الله قليل بين المسلمين لأنهم عن العلم معرضون، وبالجهل قانعون، ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بمحبة الله الجزئية لا الكلية، وبالفتوح في الدوائر التي خلقوا فيها من تهذيب الأخلاق أو نحوها، وهذا والله قصور وعيب، فالعلم بالتعلم، وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا في حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية، والتفكر، والتعقل، وليكن ذلك على مقدار الاستعداد، فحب الله يرقي المسلمين، وبالإعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين، فأين حب الله أيها المسلمون، وما الحب إلا نتيجة العلوم، فأين العلوم، وأين الحب؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

عجيبة

لعلك أيها الفطن تقول: وهل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ يفيد هذا الذي أطلت به.

أقول: على رسلك لماذا جاءت عقب قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخ، أعني لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء والأرض، والليل والنهار، والسفن، والنبات، والحيوان، والرياح، والسحب، هل هذا الترتيب لغير فائدة؟ كلا، وإنما يقول: إن حبي تبع للعلم، فعلى مقدار العلم يكون الحب، فتعجب من الترتيب العجيب، وبهذا فلتعرف معجزة الأنبياء، فلعمرك إنها لمعجزات دائمة.

وقال ابن الفارض فيمن غرتهم العلوم اللفظية وأعرضوا عن الحقائق:

ولا تك ممن طيشته دروسه ... بحيث استخفت عقله واستقلت

وقال شكسبير الإنجليزي، وقد ترجمته من قبل إلى العربية:

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذي ... براه فأولاه الجمال وتمما

فما ذا يراه عاقل غير أنه ... قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الروماني: «ما أعجب أمرك أيها الإنسان وما أشد غفلتك، لو أن امرأً وهب لك أيها الإنسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته حمداً كثيراً، أوَلم تعلم أن الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المتسعة الأرجاء البعيدة المدى، فهلا شكرته عليها وهلا عرفت نعمته، ولو أن امرأً وهب لك نقوداً من ذهب أو فضة لأكبرت فضله ولأجللته أعظم الإجلال، أوَلم تعلم أن الله

قد خزن لك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في الجبال، أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاءه، ولو أن امرأ أهدى لك بيتاً جميلاً فخماً لحسبت أنه خير المحسنين، ولكنت مولاه ورهين إحسانه مدى الحياة أفلا تعرف نعمة الله عليك في هذا البيت العظيم الذي أعطاكه، سقفه القبة الزرقاء المرصعة بأجمل الدراري، وأسفله هذه الأرض التي تسكنها، ألم تر الشفق والبدر المنير، قل لي بحق من أين جاء النور لعينيك، ومن ذا وهبك الدم فكنت به حياً، أولم تحسّ بالجوع فأكلت، فعرفت فضل الله عليك، ألم يهب لك أنواعاً من الأنعام وأصنافاً من الحيوان غذاها بالكلأ وقوّاها بمرعاها، أيها الإنسان احمد الله الذي خلقك ولم تكن شيئاً مذكوراً، وأخرجك من الظلمات وجعل لك نوراً». هذا كلام «سنيكا الروماني» وذلك كلام «شكسبير الإنجليزي».

أيها المسلمون أفلسنا نقول لهم نحن أحق بالله منكم، نحن أرباب الديانات موسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام، فكيف يكون منهم من يهيم بفعل الله تعالى، ويقلّ فينا مثلهم اليوم، نقلت لك كلام «سبنسر» وهو فيلسوف الإنجليز واللورد «افبري، وسنيكا، وشكسبير» في مواضع مختلفة، أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم، هؤلاء عرفوا العلم بعقولهم، ونحن لنا عقول، ولنا نبي، وقد جاء في القرآن: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤] وجاء هنا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، وإنما كان الذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جماله، وأين المدركون الجمال إلا القليل، وسيكثر فينا هؤلاء إن شاء الله، نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية، ولكن يجب أن يكون طوائف من المسلمين منهم، أو من غيرهم، تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا، فإن التقصير في ذلك نقص في حب الله، وعيب فاضح في الأمة، والله هو الولي الحميد.

ومن الغرام بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذي امتاز به الناس عن الحيوان، وازداد به الحكماء عن العامة ما جرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجميل العجيب المدهش الذي ارتجت له الأرض، وتجاوبت بذكراه أصداء البرق، وخرت لعظمته الفحول من الحكماء سجداً، وصار موضوع إعجاب العامة والخاصة، ذلك هو كشف مقبرة بالوجه القبلي من بلادنا المصرية لملك تولى عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد، يسمى «توت عنخ أمون» فيكون قد مضى لها نحو ٣٢٠٠ سنة، ووجدوا بها من التماثيل والأحجار الثمينة والصناعة الدقيقة ما لا نظير له في عصرنا، وفي هذا الكنز لحم وفاكهة تملأ خمساً وعشرين حقيبة لا تزال حافظة شكلها، وفيه مركبات «عربات» مرصعة بأحجار ثمينة، وعليها كتابة هيروغليفية ومتكآت وثياب رقيقة وتيجان مرصعة بأحجار ثمينة مختلفة، وعلى كل تاج ثعبان عجيب، وهناك من الأدوات والزينة ودقة الصنع ما لم يحصر عند كتابة هذه الأسطر. وقال العارفون: إن جمال الصنعة والإتقان في هذا الكنز أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالاً بالنسبة لما شوهد في هذه العجائب، إن جميع العالم في الشرق والغرب دهشون، والكاشف له رجل إنجليزي مغرم بالعلم والبحث، فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة والصناعة، والرجل صرف مالاً كثيراً للغرام بالعلم، وقضى سنين وليس له من الكنز إلا نشر العلم، ولعلك تقول: ما لتفسير القرآن

ولهذا الحادث؟ أقول: نحن الآن في مقام حب الله تعالى، وقد قررنا أن حب الله يدعو للبحث في جمال صنعته وإتقانها، وكلما زدنا بحثاً زدنا سعادة.

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفني الزمان وفيه ما لم يوصف

فإذا رأينا الناس يقدسون هذا الملك المصري لظهور آثار دولته وإتقان صنعته فما ذلك إلا لتمنعها عن الناس، واحتجابها قروناً طويلة، فافتتن الناس بما منع عنهم كما قدمنا في شأن الناس أنهم يهرعون إلى ما بعد عنهم.

أما جمال الله وصنعته فهما مكونان في جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان، وما الذهب الذي زين به عرش توت عنخ أمون إلا قطع مما كنزه الله في الجبال للناس، فلما كان هذا شأن الناس في كل جيل لا يفرحون إلا بالممنوع المحبوس عنهم، غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الإلهية، ولم تفتح عين أحد منهم إلى مشاهدتها إلا الحكماء من كل أمة، فأولئك لا يزالون يفكرون ويبحثون ويعقلون وهم يزدادون عشقاً، وكلما فتحوا كنزاً ازدادوا شوقاً حتى يبهرهم الجمال ويفنوا بأرواحهم في البهاء والنور والعرفان، فلئن بهر الأمم اليوم مقبرة «توت عنخ أمون» فللحكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جدة، وما يعقلها إلا العالمون، وقد صوّر الله الوجوه الجميلة وأبدعها في منظرها البهيج، وزوّق عقول الحكماء بأنواع الجمال العلمي، وألهم الصناع النقش والتصوير وذوي الأصوات الجميلة التفنن في الألحان وضرب العيدان الشجية الأصوات، وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر، وأمر الملوك السابقين بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتي بعدهم، إن كل ذلك إلا لتتزين بتلك الألوان من الجمال عقول الناظرين في الجمال، السامعين للنغمات، القارئين للعلم والحكمة، المطلعين على الآثار القديمة، تمريناً على قبول الحكمة، وتشويقاً إلى الازدياد منها، فلا تظنن أن الله ألهم القدماء أن يفعلوا هذا إلا لحكمة دبرها، وعدة أبرزها، فالجمال المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالاً عند الناظر والقارئ والسامع، وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على الجمال الأعلى الذي لا يعقله إلا قليل، فالجمال الأدنى داع إلى الجمال الأعلى، فإذا كان الناس يسمعون النغمات ويرون الصور الجميلة ويهرعون إلى رؤية مقبرة الملك «توت عنخ أمون» فما ذلك إلا مقدمة لفهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الخ، ففهم المقبرة والصور الجميلة والنغمات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس، ولكن هذا العالم لا يعقله إلا العالمون «بكسر اللام».

الموضوع الثاني: الرؤساء والمرؤوسون

اعلم أن الأمم والأفراد على قسمين: قسم تفانى في شهوات نفسه، وتعامى عن المصالح العامة، ولا يعامل سواه من الأمم والأفراد إلا لحظ نفسه، فترى الأمة تذكر الحرية والمساواة والعدل، ثم تسوق تلك الأقوال إلى إحياء أنفسها بذبح الأمم الضعيفة، وهذا هو الذي عاشت به بعض الأمم الغربية بل أكثرها، وترى الأفراد الذين هم أصحاب رؤوس الأموال أبداً لا يوفون العامل أجره ولا ينصفونه في

المعاملة، فيقف الوزير وفي يده اليمنى سيف مصلت، وفي يده اليسرى ذهب مضروب ويقول لرؤساء الأمم الضعيفة إن أطعتموني أعطيتكم هذا الذهب وأدخلتكم في مصاف الأمم العظيمة مثلي، وإن عصيتموني سلطت عليكم سيفي هذا، فمن أطاع من الأمم الضعيفة الشرقية ودخل في حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أو أنزلوه منزلة الجماد، ومن عصاهم أرغموه بالسيف فإن قاومهم أصبح محترماً معظماً وعاملوه بالإكرام معاملة الإنسان للآساد، ويقول أصحاب رؤوس الأموال وفي أيديهم اليمنى سيوف مصلتة لطرد العمال من أعمالهم، وفي أيديهم اليسرى دريهمات يعطونها أجرة، ويقولون: أيها العمال إن أطعتمونا أعطيناكم هذه الدريهمات لتعيشوا بها، وإن عصيتمونا طردناكم، فإن اتحد العمال وقاوموا نالوا حظاً، وإن أطاعوهم طحنتهم رحى الأغنياء وباؤوا بالنكال.

أما الأمم الضعيفة فأولئك إذا سلموا لرؤسائهم وقد ملك الجبن أفئدتهم، وسلط عليهم الظالمون من الأمم القوية أنواع النعيم والحظ، وغمسوهم في الترف وزجوهم في الهوى والفسق فلا شك أنهم يكونون على الأمم المسكينة أشد بطشاً وأعظم خطراً من كل مصيبة، وحينئذ يصبحون صعيداً جرزاً تذروه الرياح، وتعاملهم الأمم القوية معاملة الإنسان للدجاج وللحمام تذبح أبناؤها ويحقر شأنها، فهؤلاء الرؤساء لا يزالون للظالمين ناصرين وللمظلومين آكلين حتى يأتي أجل هذه الأمة وتندمج في الأمة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾[إبراهيم: ٢١] فيقولون: إن الله قد حكم علينا ويتبرأ الرؤساء من المرؤوسين ويقول كل منهم نفسي نفسي، حين يرون العذاب المحيط بهم، فيقول التابعون: ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا سادتنا وكبراءنا، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[غافر: ٤٧، ٤٨] وقال سبحانه وتعالى في سورة أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾[سبأ: ٣٣] الآية، وفي سورة أخرى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٦٧، ٦٨] وآيات كثيرة في هذا المعنى، إياك أن تظن أني أجعل معنى هذه الآيات التي هنا في أحوال الدنيا، إن هذه الآيات واردة في أحوال الآخرة حقاً، وإن الرؤساء والمرؤوسين يتجادلون، ويقع العذاب على الجميع، وكل مسؤول لا فرق بين رئيس ومرؤوس هذا لا شك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا، والناس قد نراهم في الدنيا على هذه الطريقة سالكين فالرؤساء والمرؤوسون قد مثلوا هذا كله لا سيما في أمم الشرق، وبعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا هو الذي رأيناه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾[الإسراء: ٧٢] فهذا وحقك هو العمى في الدنيا، وسيكون العمى في الآخرة، ويبقى الاحتجاج متصلاً والظالمون والمظلومون في الدارين يتجادلون وكل يجعل الذنب على صاحبه، أفليسَ هذا مما يوجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين، أوَليس ما جرّبه المسلمون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كافياً في الرجوع إلى القرآن وينظر في سياستهم من هم أهل للحلّ والعقد منهم، ويجعلون بين أصحاب الأموال وبين العمال مودة ورحمة، وقانوناً يتفق مع المصلحة العامة حتى لا تقع

فيما وقع فيه أهل الغرب، فكانت البلشفية فليكن العدل قائماً كأيام عمر، أوَليس ما تفعله الفرنجة معهم من أنهم يعرضون عليهم عذاباً وجهنم في أيمانهم، ونعيماً وجنة في شمائلهم، وأن من أطاعهم عذب، ومن عصاهم ينعم بالحرية، أشبه بما ورد في صفة المسيح الدجال أن من أطاعه ودخل جنته وجدها ناراً، ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة، أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيح الدجال، ولست أقول إنهم هم نفس المسيح الدجال، ولكن أقول هم جنوده، هم أتباعه، هم تلاميذه. الدول الظالمة القوية المنتشرة في الشرق هي هي الممثلة لذلك المسيح الدجال، هي هي التي نقول في صلواتنا صباحاً ومساءً: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»، أوَيظن المسلمون في الشرق والغرب أن الصلوات التي تكرر صباحاً ومساءً وأدعيتها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف في أقسام الكلمة «لأنه جاء لمعنى» فكيف يكون لنا نبي، ولنا عقول وأسماع وأبصار، ونكرر الألفاظ ولا نعقل لها معنى، قدّمت لكم أننا نذكر إبراهيم الخليل ونصلي عليه في كل صلاة كما نصلي على نبينا لنتذكر تكسيره للأصنام ورجوعه للعقل ونبذه التقليد، ثم النظر في العالم العلوي والسفلي، وهكذا مما ذكرته هناك عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾[البقرة: ١٣٠] فارجع إليها، فهكذا أقول هنا: هل ذكر المسيح الدجال لغير معنى، يا قوم إن الدجالين قد أحاطوا بالعالم الإنساني، فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون، والأمم التي تغوي أولئك الرؤساء دجالون، وأصحاب رؤوس الأموال الظالمون للعمال دجالون، والمنافقون والمخادعون والمخلفو الوعد دجالون، ولأكرر القول كرة أخرى: إنهم ليسوا هم المسيح الدجال، بل أتباع وجيوش أو أشباه، أو قل ما تشاء، وإنما هذا قصد الدين من الدعاء طلب الله منا في الصلوات أن ندعوه أن يخلع ربقة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا هو المقصود من إرسال سيدنا محمد رحمة للعالمين، يريد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية، وأن نكون أمة عدلاً، وأن تكون الرحمة التي أرسل لأجلها نبينا ممثلة فينا، ثم نبثها بين الأمم، فنبتدئ بالرحمة في عشائرنا، ويسود الحب بقدر الإمكان، ويمتنع الفحش والخمر من بلاد الإسلام، ونكلأ العاجزين الفقراء من مال الأوقاف والصدقات، فلا سائل من المتسولين في مصر والأستانة وعواصم الإسلام، ونجعل كل قادر على العمل مشغولاً به فلا بطالة ولا كسل، وهذا هو الذي سيكون في مستقبل الزمان ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧] وهذه الأمة التي تفعل ذلك هي القسم الثاني المقابل لقسم الظالمين في أول هذا المقال.

القسم الثالث في هذه الآيات الحلال والحرام

أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها، واستثنى الشرع السمك والجراد، والسمك الميت الطافي على وجه الماء حلله الشافعي، وكرهه أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جني، وحرمه سيدنا علي وابن عباس وجابر بن عبد الله، وأباحه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال أبو حنيفة في الجراد: يحل ما أخذته وما وجدته ميتاً، وحرم مالك ما وجد ميتاً ولم يحل عنده ما أخذ حياً

إلا إذا ذكى ذكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى، فإن غفل حتى يموت فلا يحل، واتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به. وحرم الشافعي جميع الدماء المسفوح منها وغير المسفوح، وقال أبو حنيفة: دم السمك ليس بحرام، قال لأنه إذا يبس يصير أبيض، واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال، ففي الحديث: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال». أما الخنزير فقد أجمعت الأمة على تحريم جميع أجزائه، وجمهور العلماء أنه نجس، وقال مالك بطهارته فإن كل حي عنده طاهر، ومذهب الشافعي أنه كالكلب إذا ولغ في الإناء، وفي القديم يكفي في ولوغه غسلة واحدة، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[المائدة:٣] من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم، وهؤلاء جوّزوا ذبيحة النصارى إذا ذكروا اسم المسيح عليها لأنه من طعام أهل الكتاب، وطعامهم حل لنا، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد ابن المسيب، وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يحل ذلك لذكرهم اسم غير الله، فأما سيدنا علي فقد قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا، وإذا لم تسمعوهم فكلوا. اهـ.

الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة أقوال

١ - يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ وبعده، وهو قول الزهري.

٢ - تستعمل كلها بعد الدباغ، وهو قول داود.

٣ - يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها، وهو قول مالك.

٤ - تطهر كلها إلا جلد الخنزير، وهو قول أبي حنيفة.

٥ - يطهر الكل إلا جلد الكلب والخنزير، وهو قول الشافعي.

٦ - يطهر جلد ما يؤكل لحمه فقط، وهو قول الأوزاعي وأبي ثور.

٧ - لا يطهر منها شيء بالدباغ، وهو قول أحمد بن حنبل.

الكلام على صوف الميتة وشعرها

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعي، ويحل ذلك عند مالك ما عدا الانتفاع بعظمها خاصة، وأما شعر الخنزير فأكثر الفقهاء وجمهورهم متفقون على تحريمه.

ولقد أتممنا المقال في الباب الأول من سورة البقرة، فلنشرع الآن في الباب الثاني وهو مقاصد.

الباب الثاني من سورة البقرة وهو عشرون مقصداً

المقصد الأول: كمال الإنسانية. وهو من قوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[١٧٧].

المقصد الثاني: القصاص.

المقصد الثالث: الوصية.

المقصد الرابع: الصوم والجهاد.

المقصد الخامس : الحج الخ .

المقصد السادس : الخمر والميسر .

المقصد السابع : اليتامى .

المقصد الثامن : أحكام النكاح .

المقصد التاسع : المحيض .

المقصد العاشر : الحلف بالله .

المقصد الحادي عشر : الإيلاء والطلاق .

المقصد الثاني عشر : أحكام الطلاق .

المقصد الثالث عشر : الرضاعة وما بعدها .

المقصد الرابع عشر : عدة المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها .

المقصد الخامس عشر : أسرار الجهاد وما فيه من قصص بني إسرائيل وأعدائهم .

المقصد السادس عشر : صفات الرسل ، وصفات ذات الله ، وفيها آية الكرسي .

المقصد السابع عشر : درجات ثلاث للعلم : الإيمان بالفطرة ، ونور النبوة كالعصر الأول للإسلام ، والإيمان بالجدل كمسألة النمروذ وإبراهيم الخليل ، والإيمان بالمعاينة كمسألة الطير ، ومستقبل الأمة الإسلامية .

المقصد الثامن عشر : بيان المنفق عليهم وأحوال الإنفاق ، ضرب الأمثال العجيبة الغريبة في طلب الإنفاق .

المقصد التاسع عشر : بيان المعاملات في الأموال من الربا والرهن ونحوهما .

المقصد العشرون : خاتمة السورة بالإيمان بالله ورسوله ، والتكليف ، والدعاء ونهايته بالنصر .

المقصد الأول

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ كل فعل مرضي ، وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب ، والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، وقوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي على حب المال . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال : أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، وقوله : ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ فأما ذوو القربى فإيتاؤهم أفضل، أعني: المحاويج منهم. قال صلى الله عليه وسلم: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك اثنتان صدقة وصلة»، وأما اليتامى فجمع يتيم وهو الذي لا أب له مع الصغر، أي وآتي الفقراء من اليتامى ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ جمع مسكين، وهو الذي أسكنته الحاجة لأنه دائم السكون إلى الناس ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر سمي بذلك لملازمته الطريق ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ هم الطالبون المستطعمون ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ يعني المكاتبين، وكذلك أن يفك الإنسان الرقاب بالعتق وفداء الأسرى، وقوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ أي الزكاة المفروضة، وما تقدم كان في النوافل من الصدقات ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ﴾ عطف على «من آمن» ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ منصوب على المدح، ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال كما قدمنا في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة:١٥٥] فراجعه هناك، والبأساء: الفقر ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ المرض ونحوه، و﴿ ٱلْبَأْسِ ﴾ مجاهدة العدو ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

لما ذكر الله عزّ وجلّ أحوال الكافرين والمنافقين، وخبائث اليهود، ورجس العرب المشركين، وما أحلوا من المحرّمات، وحرّموا مما أحل الله، طفق بذكر هيئة البر، وتَمام الإيمان، وجماع خصال الخير فقال: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ الخ. وورد في أسباب التنزيل أن اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق، وأن المسلمين أولعوا بالكلام في التوجه للقبلة، وأذهلوا عما عداه، فقال الله لهم: ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه، إن الإنسانية كثيرة الوجوه، متنوعة المشارب، فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم، وللإنسان قوة فكرية وصورة جسمية، وأخلاق نفسية، وأموال مملوكة فمن قصر نظره على الصلاة وهي بالجسم والروح، أو على الإيمان، أو الأخلاق الفاضلة، أو المعاشرة بالمعروف، أو إنفاق الأموال، فذلك قاصر، فالبر أن تجمل النفس البشرية بالمعارف، وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية، وأن يسخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والحج، وأن يكون حسن العشرة، فيعطي المال لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وهو الضيف أو المسافر وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف إذا وعد، وكأن يصبر عند الملمات كالفقر وشدته، والمرض وحدته، والقتال وصدمته لا فرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة الذين أمر بالوفاء وبالكرم، وهذا هو الجمال والبهاء، وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره، ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم: «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»هذا هو الإيمان الكامل كأنه يقول: هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلا جدوى، فهلا نبذوا الشقاق ونهجوا نهج الوفاق وسارعوا إلى البر بالعلم والعمل والصبر والإحسان، يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه، أي على العمل كالجهاد والعلم، وعن الحرام، وعلى البأساء والضراء، وليكن ذلك في أبواب كأبواب الفقه المشهورة، ويذكر فضائل ذلك، ويذكر أن الصبر تقوية للعزيمة، ومن لم يمرّن على الأعمال وعلى المشاق والمصائب كان في جميع حياته طفلاً،

وجميع الأنبياء صبروا على أنواع كثيرة، راجع ما كتبناه في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] الآية، إذ بينا هناك أن السعادة محصورة في الصابرين في هذه الحياة الدنيا، فما بالك إذا كان يوم القيامة، فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوباً على المدح للإشارة إلى ما ذكرناه، ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للإنسان قوة غضبية وقوة شهوية، وهما أبداً يتسارعان فيهدم هذا البنيان كما جاء في قصة آدم وقرر في بني إسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصاص وهو:

المقصد الثاني

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ أي شيء من العفو، وإذن يكون بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص، وقوله: ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي فليكن اتباع بالمعروف أي: فلا يعنف ولي الدم في المطالبة، وقوله: ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أي: وعلى القاتل أداء الدية إلى ولي الدم بإحسان من غير مماطلة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم المذكور ﴿ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لما فيه من التسهيل كما سيأتي في الإيضاح ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قتل بعد العفو وأخذ الدية ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة، وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ أي بقاء، لأن القاتل إذا علم أنه إذا قَتل قُتل ترك القتل فيكون بذلك بقاؤه وبقاء عشيرته وعشيرة الذي يريد قتله، لأنهم كانوا يقتتلون طول الحياة لو أقدم على القتل، وقوله: ﴿ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي ذوي العقول الكاملة، وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي تنتهون عن القتل خوف القصاص. انتهى التفسير اللفظي.

الإيضاح

كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن يتباوؤوا القصاص، من قص الأثر إذا تتبعه، فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدخ رأس، وهذا قول الشافعي ومالك وأحد قولين عن أحمد، ومذهب الحنفية السيف، وليس في الآية من دليل على ما ذهب إليه مالك والشافعي رضي الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر، وإنما الدليل ما ورد في السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد، ولا حر بعبد، وهكذا فعل الصحابة من غير نكير.

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الأمة، فلقد كان العفو عند النصارى، والقصاص عند اليهود، وكان العرب تارة يوجبون القصاص، وأخرى يوجبون الدية، ومنهم من يطش فيقتلون في الرجل رجالاً، وفي المرأة رجلاً، وفي العبد حراً، فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس في الأرض، فسوّى الله بين الناس وجعل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فلا يتجاوز عنه إلى ما تفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحر فإنما هو محل الاجتهاد بين الأئمة رضوان الله عليهم.

وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص، وللولي المطالبة بالدية، وعلى القاتل دفعها، وعلى ولي الدم اتباع المعروف ومطالبة بلا عنف، وعلى القاتل وعاقلته أداء إليه بإحسان، ولا جرم أن هذا تخفيف على الأمة ورحمة بها وفتح باب للمسامحة والمساهلة، فلو قتل ولي الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. إن القصاص حياة وإبقاء للأجسام والأرواح، ألا ترى أن الاضطراب ما ولج في أمة إلا أنزلها من شاهق، وأحل بها العذاب الهون، ولما كان الإنسان بالقتل أو الموت مفارق الديار، وعليه أن لا يذر ورثته يتخبطون خبط عشواء ذكر الله حكماً عاماً لكل من دنت وفيته، وحضرت منيته، وجاءت ساعته، فقال:

المقصد الثالث

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

شرعت الوصية في صدر الإسلام للوالدين والأقربين، لما كانت عليه العرب من الإيصاء للأجانب طلباً للمباهاة والمفاخرة وإظهار الكرم، ثم نزلت آية الميراث: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [النساء:١١]. وروي عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة النبي ﷺ وهو يخطب، فسمعته يقول: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»، فنسخت الآية في حق الوارثين، ويبقى وجوبها فيحق من لا يرث من الأقارب عند ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم ابن يسار، والمذاهب المشهورة بين المسلمين على خلافه، وعندي أن هذا وجيه لئلا تبقى الثروة في يد وارث ويحرم من هم من أسرته، وهذا هو الذي تسعى له الأمم الأوروبية، ولقد سنّ الإنكليز من نحو سنة أن يؤخذ من مال الغني جزء للأمة لئلا يبقى المال في يد وارث وتحرم الأمة من التمتع به، وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين بيدهم زمام الأمة الآن، ولا يسن إلا إذا كان المال وفيراً والخير كثيراً.

ثم قوله في الآية: ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي أسبابه وظهرت أمارته، وقوله: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً كثيراً، و﴿ ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ هي التقدم إلى الغير بما يعمل به، أو القول المبين لما يستأنف من العمل ﴿ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ وكانت الوصية للوارث في بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالعدل فلا يفضل الغني ولا يتجاوز الثلث ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ مصدر مؤكد، أي: حقّ ذلك حقاً، وقوله: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ أي غيره من الأوصياء والشهود ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ ﴾ أي إثم الإيصاء المغيّر ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ أي على مبدله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما أوصى به الموصي ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بتبديل المبدّل ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ ﴾ أي توقع وعلم، وقوله: ﴿ جَنَفًا ﴾ أي ميلاً وجوراً في الوصية وعدولاً عن الحق، وقوله: ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ أي ظلماً ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي لا حرج عليه، والمعنى: إذا حضر رجل مريضاً، وهو يوصي فرآه يميل في وصيته، فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إن أصلح وصيته بعد الجنف والميل.

روي أن رجلاً قال لعائشة رضي الله عنها: إني أريد أن أوصي، فقالت: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف درهم. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إنما قال الله: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾، وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك، والوصية مؤكدة في الدين.

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». وقال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا ووصيتي مكتوبة عندي.

ولا يجوز تبديل الوصية ولا تحريفها، ولا تزيد على الثلث، فإنه هو المعروف، ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء، فإذا أصلح بينهم فتبديله جائز، إن الوصية إحسان وتجاوز عن المطامع وإيثار، فكانت مما يطلبه علم الأخلاق من التعالي عن الاستخذاء للشهوات فناسب أن يعقبها الصوم وأحكامه، والفدية من العاجز كالشيخ الهرم والمريض مرضاً لا يرجى برؤه، فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية، وكذلك الوصية، والفدية، كلاهما ترك للحرص على المال الذي هو من أكبر الآفات، ورذائل الأخلاق، فنظم الله عزّ وجلّ نبذ الحرص بعد الموت، والحرص في الدنيا في سمط ولزهما في قرن.

وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى تستبين لك حقيقته إجمالاً تبصرة وتذكيراً لما يأتي من الآيات.

واجبات الصوم ستة

١ـ مراقبة أول شهر رمضان، وذلك برؤية الهلال، فإن غمّ فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان، ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى، وهلال شوال لا يثبت إلا بعدلين، والمراد بالعلم غلبة الظن وإن لم يقض القاضي.

٢- النية، ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة مبيتة، فإذا نوى الفرض مطلقاً، أو الصوم مطلقاً أو شهر رمضان دفعة واحدة، أو بالنهار في الفرض، أو في ليلة الشك، لم يصح الصوم.

٣- الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة، وليس يفسد بالفصد، والحجامة، والاكتحال، وإدخال الميل في الأذن، والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يدخل المثانة، ولا ما يصل بغير قصد من غبار طريق، أو ذبابة تصل إلى جوفه، أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة إلا إذا بالغ فيها فيفطر، ولا يفطر الناسي.

٤- الإمساك عن الجماع، فإن جامع ناسياً لم يفطر، ومن احتلم أو جامع فأصبح جنباً لا يفطر وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع في الحال صح صومه، فإن صبر فسد ولزمته الكفارة.

٥- الإمساك عن الاستمناء، وهو إخراج المني قصداً بجماع، أو بغير جماع، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكاً لإربه، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى، وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المني أفطر لتقصيره.

٦- الإمساك عن إخراج القيء، فالاستقاء يفسد الصوم، وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى.

لوازم الإفطار أربعة

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبيهاً بالصائمين: فأما القضاء فوجوبه عام، فالحائض تقضي وكذا المرتد، أما الكافر والصبي والمجنون فلا، ولا يجب التتابع في القضاء.

وأما الكفارة فلا تجب إلا في الجماع، وأما الأكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب فيه كفارة، والكفارة عتق رقبة، وهذا لا وجود له الآن لمنع بيع الرقيق، فإن لم يقدر فصيام شهرين متتابعين، فإن عجز فإطعام ستين مسكيناً مداً مداً.

وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولدهما لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء، والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مداً.

وأما إمساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه، ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها، ولا على المسافر إذا قدم مفطراً من سفر بلغ مرحلتين، ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك.

والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق، ولا يفطر يوم يخرج إذا كان مقيماً في أوله، ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً.

السنن في الصوم ست

تأخير السحور، وتعجيل الفطر بالتمر، أو الماء قبل الصلاة، وتركه السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخير، وهذه الأحكام على مذهب الإمام الشافعي، وفي بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السآمة.

أسرار الصوم

الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص: أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدم تفصيله، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل، وسائر الجوارح عن الآثام، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزّ وجلّ، واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا، إلا دنيا تراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا، فهذا الصوم إقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله، وتلبس بمعنى قول الله: ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام: ٩١]. انتهى الكلام في الصوم وأسراره.

ولعلك تقول: كيف جمعت بين المتناقضات في هذا التفسير؟ذلك أنك قلت في مواضع كثيرة: إن طلب العلم وحوزه والصناعات واستعمالها واجبة، وإن المسلمين مفرطون في ترك تلك العلوم للفرنجة حتى أخذوا ديارهم واستحلوا أموالهم، ثم إنك هنا تقول ترك ما سوى الله وعدم التفكر إلا في الله، فلن يتفق الأمران للمسلم، وهذا منك عجيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الضدين، ولعلك أصبحت مقلداً في الدين، ومقلداً لعلماء العصر الحاضر فألفت بين متناقضين، وهذا مستحيل.

أقول: لتتذكر أن ما كان من أمور الدنيا ضروري للدين، حافظ له، موجب لبقائه، يصبح ديناً لا دنيا، فجميع الصناعات واجبة وجوباً كفائياً على المسلمين، وهكذا العلوم فالصناعات من الإبرة إلى المدفع والقطار، والعلوم من النحو إلى علم الفلك والطبيعة، كلها واجبة، ولعلك تقول أيضاً كيف تنظم هذه الدنيا نظاماً تاماً كأوروبا أو نسقها كما تقول، والدين يقول لا تفكروا إلا في الله، وصوموا وصلوا وقوموا الليل، والموت يكتنفنا من كل جانب، وكيف تنظم هذه الحياة، ونحن لا شك تاركوها إن الفكر في الآخرة، والاستعداد لها مثبط للعزائم موجب للاعتكاف في المساجد أو النوم والكسل حتى يأتي اليوم الموعود.

أقول: على رسلك إن الأمثال حاضرة مشاهدة ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ألم تر إلى الفتاة في منزل أبيها كيف تعلم أن سعادتها إنما تكون في الحياة مع خطيبها، وهي كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والدها كأنها لن تفارقه أمد الحياة، وترى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى مما هم فيه لا يزالون يغارون على المصلحة التي هم فيها غيرة صادقة كأنهم لا يفارقونها وهم يعلمون أنهم لها تاركون، وهذه الأسئلة إنما ترد من الأمم الإسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الإسلامي والاقتصار على ظواهر العبارات وإلا فكيف كانوا يفتحون البلاد شرقاً وغرباً، وهم يصومون النهار، ويقومون الليل ويتهجدون، وكيف كان الفرس والروم في أبهة الملك وعظمته غارقين في المادة والنعيم، وكان آباؤنا صائمين مصلين متهجدين، ثم يكسرونهم في الحرب ويأخذون بلادهم ويسبون نساءهم، ولقد كان في مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلاً عن الأمة المصرية التي كانت أكثر عدداً من المصريين اليوم، وما فتحها إلا اثنا عشر ألفاً من آبائنا العرب، وروى المؤرخون أن المقوقس سأل رسله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم

من الرفعة، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا تهمه، وإنما جلوسهم على الأرض، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، وما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا الحر فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم، فقال عند ذلك المقوقس: لو أنهم استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد. اهـ.

فانظر كيف جعل الزهد في الدنيا، والترفع عنها، والخشوع في الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيادة فيها، وكأن الناس كلما كانت نفوسهم أقرب إلى التجرد وأرفع عن الانغماس في المادة كانت أملك لها، والله هو الولي الحميد.

المقصد الرابع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا

عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ هو مصدر صام ، والمراد صيام شهر رمضان كتابة ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ أي مثل ما كتب ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي بالصيام ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ موقتات بعدد معلوم ، أو قلائل فإن القليل من المال يعدّ عداً ، والكثير يهال هيلاً ، أي صوموا أياماً إلى آخره ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أو راكب سفر ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ أي فأفطر فعليه صيام عدد أيام فطره ، والعدّة بمعنى المعدود أي أمر أن يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ سوى أيام مرضه وسفره ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وسيأتي إيضاحه قريباً ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ فزاد في الفدية ﴿ فَهُوَ ﴾ أي التطوع ﴿ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ ﴾ أيها المطيقون ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الفدية وتطوّع الخير ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة اخترتموه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ أي ابتدئ فيه إنزاله ، وكان ذلك في ليلة القدر ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ أي أنزل هادياً إلى الحق ، وهو آيات مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل .

إيضاح هذه الآيات

نقول : إن الله عزّ وجلّ ما ترك الأمم السالفة ، والأجيال البائدة ، بلا تهذيب وتأديب ، فأوجب عليهم أن يجتنبوا التغالي في الشهوات والإكثار من الطعام ، فإن النفوس الإنسانية لها عروج إلى الملأ الأعلى إذا ما عفت عن الطعام ، واقتصدت في الشهوات ، فلم يدع الله أمة إلا أدبها ، ولا ترك جيلاً إلا أنذره وحذره ، ولقد كتب على النصارى صياماً ، وعلى اليهود صياماً ، وقال لنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي .

ولما كانت الأمة الإسلامية أمة وسطاً عدولاً لا تتغالى في الشهوات فتنزل إلى حضيض الحيوانية وتحرم من المراتب الروحية ، ولا تتغالى في التبري من الأغذية فتضعف أجسامها وتذل نفوسها كما حصل للصين والهند إذ صاموا صوماً دائماً ، فنبذ البراهمة والبوذيون الشهوات نبذاً مفرطاً فغلبتهم الأمم ، وداستهم أمم الغرب وأذلهم الطامعون ، لذلك جعل الله عزّ وجلّ صوم هذه الأمة أياماً معدودات وهي شهر رمضان لتنال الحظين : قوة الأجسام ، ورياضة النفوس ، وانشراح الصدور ، وأمة هذا شأنها جديرة أن تمسك بأعنة الشرق والغرب ، وتشهد على الأمم ، وتقود غيرها إلى طريق الفلاح ومراقي النجاح . وعلى المريض مرضاً يعسر معه الصوم ، والمسافر سفر قصر إذا أفطر أن يصوما أياماً

أخر، وعلى الذين يطوقونه أو يطيقونه فيطوقونه أي يصومونه بجهد ومشقة كما يطوّق المرء طوقاً أي قلادة في عنقه، أو يكلفونه بمشقة على هؤلاء فدية أي جزاء لما وقع من تقصير في العبادة وهي نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومدّ عند فقهاء الحجاز، أو فطور فقير وسحوره عند ابن عباس، فمن تطوع خيراً، وبرّ الفقراء، وزاد في العطاء فله ثوابه، على أن الصوم أفضل، لأن الصبر عليه أشد، والتكلف فيه أشق، فإنه خير للشيخ الهرم والمريض والمسافر والمريض مرضاً لا يرجى برؤه وليست هذه الخيرية إلا إذا قدروا، وإلا فقد يحرم وقد يكره وذلك بلا ريب تابع أحوال الناس، مختلف باختلافهم، ثم قال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ على البدل من قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ أي صيام شهر رمضان الذي فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هادياً للناس بإعجازه، وآيات واضحات بما يهدي به من الحق، ويفرق بينه وبين الباطل لما فيه من الأحكام.

ولما كان الصيام لا يجب إلا إذا رؤي الهلال أعقبه عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أي هلال الشهر فليصمه، وخصصه بما بعده وهو قوله: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ألا ترى أن المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال، فكلاهما شاهد وكلاهما مرخص له في السفر ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وما أراد الله عزَّ وجلَّ إلا اليسر ولم يرد العسر ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أوجب الصيام على الشاهد لتكملوا العدة والقضاء على المريض والمسافر لتكبروا الله وتعظموه لما هداكم لطاعته ونوعها، وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد. ولما كان الصوم سبباً لعروج الأرواح إلى عالم الجمال، ولا جرم أن أوقات الصوم أقرب الأوقات لإجابة الدعاء، ناسب أن يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

روي عن كعب أنه قال: قال موسى عليه السلام: «يا رب أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ فقال: يا موسى أنا جليس من ذكرني، قال: يا رب فإنا نكون على حالة نجلك أن نذكرك عليها من جنابة وغائط، قال: يا موسى اذكرني على كل حال». فلما كان الأمر على ما ذكر رغب الله تعالى في ذكره وفي الرجوع إليه في جميع الأحوال فأنزل هذه الآية.

روي أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فأنزل الله هذه الآية، والدعاء بمعنى العبادة، أو بمعنى الطلب، وقوله: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾ الاستجابة والإجابة بمعنى. قال كعب الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وإجابة العبد لله طاعته، وإجابة الله للعبد إعطاؤه ما يطلبه، وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ـ في قراءة بفتح الشين والأخرى بكسرها، ففيها ثلاث قراءات ـ يقول: إن أجابوني بطاعتي والإيمان بي أجبتهم وأعطيتهم رشدهم في مصالح دنياهم وآخرتهم.

انظر إلى هيكلك وجسمك ألست ترى أن يديك تلمسان بحاسة اللمس المواد الصلبة، وفمك يذوق بحاسة الذوق ألطف ما في المادة، وأنفك يشم ما يتناثر في الهواء من ذرات المادة، وهي ألطف مما

قبلها، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم، وعينيك تنظران النور الذي يتعالى عن المادة وهو ألطف منها بل هو أصلها.

فانظر أليس عقلك وهو أعلى مكاناً من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة، وهو العالم الإلهي الروحاني، أرواحنا متصلة بالعالم الروحاني اتصالاً عقلياً لا حسياً، معنوياً لا جسمياً، وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالاً يناسبها كاللمس والذوق والشم والبصر، فكذا اتصلت النفوس بالعالم الأعلى الروحاني، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم:٤٢]، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فهنا قرب معنوي لا حسي، فليس الله مادة ولا جسماً ولا عرضاً، وإنما هو مقدّس عن المادة يتعالى عن النور، وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء:٨٥] وقوله عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه عرف ربه»، فعقولنا من العالم الإلهي الروحي منزلة منزلة العين من النور، والأذن من المسموعات، وحاسة الشم من المشمومات، ولكن أكثرها مغمور في الطبيعة محاط بالمادة، وكثيراً ما تتنزل إليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى، وقد تختلط معلوماتها بالأوهام فجعل العقل والمنطق ميزاناً لها، فالله عزَّ وجلَّ قريب من العبد، فإذا سأله وهو موقن بالإجابة طائع فإن الله يرشده ويجيب دعاءه، ولن تصح الإجابة إلا إذا توجه القلب لله عزَّ وجلَّ توجهاً جازماً على شريطة أن يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة، ولا جرم أن في العالم ما يناسب هذا، ألا ترى أن المطر ينزل على الأرض، والحديد يجذبه المغناطيس، والبخار تجري به الفلك في البحر فمتى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجهاً تاماً ثم فكر بالعقل فيما يعمله ويزاوله بعد ذلك فلا جرم يأتي له مطلوبه كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل:٦٢] وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم: «الاعتماد على النفس» وذلك أنها بتوجهها إلى الله تقوى همتها فتجدّ في العمل ولا تخاف الزلل ولا تخشى الملل فهذا مقصود قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، تدعونني فأجيب وأنا أدعوكم فأجيبوني بالطاعة والإيمان.

ادعوا الله أيها الناس في خلواتكم، ووجهوا إليه هممكم، ولا تقعدوا عن العمل، وإياكم أن تدعوا وأنتم كسالى، الدعاء توجه الهمة إلى الله، والله قريب من العقول، والأرواح لها قرب من العالم الروحاني كقرب العين من الضياء، فوجهوا هممكم إليه تزدادوا همة، وقد قرر العلماء أن الهمم تنقلب إلى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الأركان، فنتيجة القول تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ولتعلموا أن الدعاء إذا لم يصحب بعمل وخالف فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب ينزل الإنسان من درجته إلى مرتبة تحت الجمادية فضلاً عن الحيوانية، ألا ترى أننا نرى الطيور في جو السماء تغدو وتروح للعمل، ولم نرها نامت في أوكارها، وطلبت أرزاقها.

وهكذا الانتكاس في المسلمين اليوم هو السر في أن دعاء الخطباء على المنابر يأتي بعكس ما يدعون، وهكذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحاً ومساءً ولا عمل لهم فليس فيه تهذيب النفس، ولا استنشاقها نسائم الرحمات، فإن كان القصد ذلك فنعما هو، فإن في ذلك الابتهال سعادة لا يعرفها

إلا ذائقوها، وهناك تحس النفس بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب الجاهلين من البشر، ومتى وجّه المرء همته إلى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لا محالة، الدعاء فتح لباب الحرية والاعتماد على الله، ومنع النفس عن الذلة للمخلوق، ويشير لتلك الحرية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠] فكأنه يقول إنهم يضاهئون أي يشابهون في ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله.

فأما أنتم أيها المؤمنون فلا تدعوا إلا الله لتكونوا أحراراً ناظرين بعقولكم لا مقلدين، ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجبابرة والملوك الظالمين، فادعوني أستجب لكم، ولست غائباً حتى تنادوني في البوادي والقفار وفوق رؤوس الجبال، أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشي، وفي هذا رد على بعض جهلة السياسيين كالذي يقول: إن المسلمين يعتقدون أن الله بعيد عنهم، ولذلك يجأرون بالليل والنهار ويصرخون في الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلا يجدونه، ولم يعلم أن الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتمام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل. ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته.

ولقد كان المسلمون إذا أمسوا أحلّ لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء، ثم إن عمر رضي الله عنه باشر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ والرفث الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، ويراد به هنا الجماع إطلاقاً مجازياً، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، وهو هنا الجماع، وقوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ أي أن كلاً منكما يشتمل على صاحبه، وأيضاً هو ستر له يمنعه من الفجور ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي تظلمونها بالجماع ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور ﴿ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ ما فعلتم قبل الرخصة ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ لما نسخ عنكم التحريم، وعلى المباشر أن يطلب بقاء النوع، فلا قصد من الشهوات إلا منافع وفضائل، وما عداه فمقدمات زائلات وهو قوله: ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ معناه: حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد في الأفق وما معه من غبش الليل المشبهان خيطين أبيض وأسود، فالفجر بيان للخيط الأبيض، والليل الذي حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الأسود.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: لمّا نزلت ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله عزّ وجلّ بعده ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار. وروي مثله عن عدي بن حاتم إذ عمد إلى عقالين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ، ثم بعد ذلك عرّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بين آخر وقته فقال: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ ولما كان من السنة أن يعتكف الإنسان في الصوم فإنه آكد من غيره وأكثر ثواباً وأعظم أجراً وأقرب زلفى من الله عزّ وجلّ أعقبه جلّ وعلا بقوله: ﴿ وَلَا

تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك، فالجماع مبطل للاعتكاف، فالنهي في العبادات يوجب فسادها، ولا يكون الاعتكاف إلا في المساجد، وقد كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده، والجماع حرام في الاعتكاف وما دونه مكروه.

واعلم أن الاعتكاف سنة، ولا بد أن يكون في المسجد الحرام عند سيدنا علي كما نقل عنه، وفي المسجد الحرام، ومسجد المدينة عند عطاء، وفيهما وفي بيت المقدس عند حذيفة وفي كل مسجد جامع عند الزهري، وفي كل مسجد له إمام ومؤذن عند أبي حنيفة، وفي سائر المساجد عند الشافعي ومالك وأحمد، وهو في المسجد الجامع أفضل، وهو في الصوم أفضل، وقال أبو حنيفة الصوم شرط، وأقله لحظة عند الشافعي، ولا حد لأكثره، وأقله يوم عند أبي حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر، ويخرج منه بعد غروب الشمس، والجماع كما تقدم حرام ومبطل له، وما دون الجماع كقبلة مكروه، وبعضهم يجعله مفسداً للصوم، وأما الملامسة بغير شهوة فجائزة، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بالمخالفة والتغيير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

ولما كان الصيام والفدية والوصية تصرفاً في مال وقمعاً للقوة الشهوية، وهكذا الاعتكاف فإنه كف للنفس عما هو مباح بحيث يلزم المرء مسجده فلا يبرحه إلا لحاجة من لحظة إلى أيام، فهو كف للنفس عن الشهوات، ناسب أن يلحق به الإدلاء أي الإلقاء بحكومات الأموال إلى الحكام فلذلك قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون فإن حكم الحاكم لا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً، ولذلك روي أن عبد الله الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهم به، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:٧٧]، فارتدع عن اليمين وسلم الأرض إلى عبد الله فنزلت هذه الآية، ولما كان الصوم لا يثبت إلا بالهلال ورؤيته، وقد سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضي الله عنهما النبي ﷺ فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، وهكذا كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون أو يخرجون من فرجة ويعدّون ذلك براً، بيّن الله لهم الأمرين بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، سمي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم وصومهم وفطرهم وحجهم ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها أي بأن تدخلوها من ظهورها أي من خلفها في الإحرام، فبيّن لهم أن هذا ليس ببرّ وإنما البر من اتقى المحارم والشهوات فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ برّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرّم الله كالصيد ونحوه ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾ ادخلوها ﴿مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ التي كنتم تدخلونها وتخرجون

منها قبل ذلك ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ واخشوا الله في الإحرام ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تنجوا من السخط والعذاب. ويقال إن كنانة وخزاعة هم الذين كانوا يفعلون ما تقدم من الدخول من غير الباب فكانوا يدخلونها من الخلف ومن السطح.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في طاعة الله في الحل والحرم ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ يبدؤونكم بالقتال ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ ولا تبتدؤوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ المبتدئين بالقتال ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ من مكة، وهذا وعد من الله بفتح مكة لهم ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ ﴾ الشرك بالله وعبادة الأوثان ﴿ أَشَدُّ ﴾ أشرّ ﴿ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ في الحرم، أو ما يفتتن به الإنسان من المحن كالإخراج من الوطن أصعب من القتل ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ ﴾ ابتداء ﴿ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ في الحرم ﴿ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ في الحرم بالابتداء ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ ﴾ بالابتداء ﴿ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ ﴾ هكذا ﴿ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بالقتل ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ عن الكفر والشرك وتابوا ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ لمن مات على التوبة ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ شرك ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي خالصاً لله لا يعبد دونه شيء ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ عن قتالكم وعن الشرك والكفر ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ ﴾ فلا سبيل لكم بالقتل ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المبتدئين بالقتل ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ ﴾ الذي دخلت فيه لقضاء العمرة ﴿ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الذي صدوك عنه، لأنه ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة سنة خمس أو ست من الهجرة، فصده المشركون عن البيت عام الحديبية، فصالحهم على أن ينصرف عامه ويرجع من قابله فيقضي عمرته، وقد تم ذلك، أو يقال هذا في القتال، أي فإن بدؤوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص ﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ بالقتل في الحرم، أو بمطلق القتال ﴿ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ فقاتلوه ﴿ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ واخشوا الله بالابتداء ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ معين المتقين بالنصر. ولما كان القتال يعوزه المال قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تصدقوا في رضا الله، وهو عام في الجهاد وغيره ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ أي ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة، وهذه التهلكة إما بأن تمنعوا النفقة في سبيل الله فيقوى العدو عليكم فتهلكوا، وإما بأن تسرفوا في الإنفاق حتى تفتقروا، وإما أن تنهكوا فتيأسوا من روح الله فتهلكوا ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ﴾ الظن بالله كما تحسنون أعمالكم وأخلاقكم، وكما تحسنون بالإنفاق على من تلزمكم نفقته، وكما تحسنون بأداء الفرائض ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في جميع ما تقدم، وقد نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى هاهنا في المحرمين مع النبي ﷺ لقضاء العمرة بعد عام الحديبية، ومن الإحسان بأداء الفرائض تأدية الحج، فلذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[البقرة:١٩٦] وهو المقصد الخامس الآتي. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ في أعمالهم الدنيوية والعبادات لا سيما الحج ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ كلا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾

بفعل الطاعات وترك المعاصي، وفيه إيماء إلى أن السؤال عن سبب تغير الهلال وتطوره كالدخول للبيت من غير بابه، فالبر ألا يعكس المرء في سؤاله، وأن يأتي الأمور من أبوابها في الدين والدنيا، ولما كان الصوم والاعتكاف كفاً للنفس عن الشهوات، والقتال وملاقاة الأعداء من أهم أنواع الصبر، ناسب أن يلزا في قرن وتنظم جوهرة الصيام، وفلذة الجهاد في سمط واحد، فكلاهما صبر، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية، فالصوم تعالي النفس عن شهوة الطعام، والذلة للحطام، والجهاد رفع لها عن أن تستخذي للظالمين أو تذل للقاهرين، فالصوم جهاد الآمنين، والقتال جهاد الخائفين على الأعراض والأموال، وعلى الناس أن يربؤوا بأنفسهم عن الدنايا فلا يذلوا للشهوات كالعجماوات، ولا يسلموا قيادهم لمن يغلبونهم بل ليفكوا قيود الذلة عنهم، ويرفعوا نير العبودية عن أعناقهم، ويكسروا أصفاد الذلة وأغلال الظالمين، وليقاتلوا في سبيل الله.

الإنسان في جهاد مستمر وعمل دائم، الإنسان في الحياة محوط بالأعداء من كل جانب، فمنهم من هم في داخل جسمه كالشهوات، ومنهم من هم خارجه كالحيوان الكاسر، والعدو المهاجم، فليبدأ بقتال عدوه الداخلي، فإذا فرغ منه فما أحراه أن يقهر الأعداء المهاجمين.

وترى الأمة الإسلامية لما كانت تعظم الأعمال الدينية وترعاها حق رعايتها غلبت أعداءها، فلما تفرقت أهواؤها، وخضدت شوكتها، تخطفتها الأعداء من كل جانب، فإن الناس إذا استعبدوا لشهواتهم، وذلوا لأهوائهم، تفرقت كلمتهم، وذهبت ريحهم، وذاق بعضهم بأس بعض، فلا يرى العدو أمامه إلا أشباحاً فارغة كأنها خشب مسندة، ونفوساً مائتة، وعقولاً خامدة، فيحصدهم حصداً ويتخذ سيدهم عبداً. هذا سر قوله ﷺ عند رجعته من إحدى الغزوات: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس»، وسره ما علمت من أن النفوس أيام أمنها واستيثاق الناس بأخلاقهم يدعو ذلك لائتلافهم، وما غلبة العدو إلا ثمرة الائتلاف، ولا ائتلاف إذا تعددت المآرب وتفرقت القلوب وذهبت شذر مذر، فلذلك قال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ الآيات، قد كان ﷺ ممنوعاً من القتال، فلما أمكنته اليدان وصده المشركون عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ثم يعود من قابل فيقضي عمرته، ثم رجع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته، ولما أن أزمع على عمرة القضاء وتجهز هو وأصحابه خافوا أن لا تفي قريش بما قالت وتصدهم عن المسجد الحرام، وقد عاهدتهم أن تخلي مكة ثلاثة أيام، فكره الصحابة أن يحاربوهم في الشهر الحرام في البلد الحرام في حال الإحرام، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ وإياكم أن تقتلوا الشيوخ والنساء والصبيان والرهبان ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ بالقتال مفاجأة، ولا بقتال المعاهد، ولا تمثلوا بالمقتول، ولا تبدؤوا بالقتال من غير دعوة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾، ثم ازداد الأمر واحتدم ونزل ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ والثقف الحذق، كأن من أدرك عدوه فهو حاذق، وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقتلون في حل وفي حرم، فهي أشبه الآيات بآية الخمر، فلقد حرّم شيئاً فشيئاً فهكذا هنا منع القتال، ثم شرع للمقاتلين، ثم عمم، وقوله: ﴿ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ ﴾ أي من مكة، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح.

ولا ريب أن التعذيب بالإخراج من الوطن أشد من القتل فهو عذاب واصب لازم، والموت راحة، فالفتنة والابتلاء بإخراجهم من مكة أشد من قتلهم، ثم نهاهم عن ابتدائهم بالمقاتلة عند المسجد الحرام حتى يبدؤوهم بالقتال، وقوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي خالصاً من الشيطان ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ عن الشرك فلا تعتدوا على المنتهين، إذ لا يعتدى إلا على من اعتدى، هذه الآية ترجع لقوله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ للدرجة الثالثة، وهي تعميم القتال، وقوله: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الخ تأييد للدرجة الثانية، وهي قتال المعتدي بمثل ما اعتدى ﴿ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ ﴾ في الشهر الحرام، أو البلد الحرام أو في حال الإحرام ﴿ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ فإن الحرمات وهي ما يجب أن يحافظ عليها وتحترم يجري فيها القصاص، ثم لخص هذا كله بفذلكة فقال: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، وهو في المرتبة الثانية، ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ بالكف عن القتال، أو عن الإنفاق فيه، والباء زائدة، أي: ولا تلقوا أيديكم أي أنفسكم إلى التهلكة، أي: الهلاك، كما تقدم في التفسير اللفظي.

ألا ترون أن الأمة الإسلامية لما نكصت على أعقابها ونامت على وساد الراحة الوثير، وتقهقرت إلى الوراء، ونامت عن جمع المال، وإنفاقه في الجهاد، وسبقتها الأمم أخذت تبيد وتهلك، فهذا هو الإلقاء للتهلكة، وذلك هو السر في حشد الجنود، ورفع البنود، ومخر السفن في البحار، وإعداد الآلات والتسابق في الميدان، والتنافس في صنع المدمرات، وسير الطيارات الطائرات ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ﴾ أعمالكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو، فليس يغني دفع العدو عن الفضائل الأخرى، كما لا تغني تلك الفضائل عن الجهاد، وكما أنه ليس البر قاصراً على أمر القبلة والتولي إليها، وليس البر أن تسألوا عن الأهلة، هكذا ليس يغني جهاد العدو عن جهاد النفس، فليكن المسلم جامعاً لصفات الكمال بعيداً عن خصال الشر، وإياكم أن يغركم أنكم مجاهدون أو صائمون، فلذلك أعقبه بمسائل الحج، وبعض مسائل من القتال، وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نسرد أحوال الحج ليسهل عليك أيها الذكي معرفة الآيات الآتية، ولتكون لديك صورة تعقله بها.

شروط وجوب الحج خمسة

البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة، ومن وجب عليه الحج، وجبت عليه العمرة، والاستطاعة أن يكون صحيحاً، وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة، وأن يملك ما يقضي به ديونه، وأن يقدر على ما يحمله في السفر، ثم إن كان مغصوباً وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الأجير من حجة الإسلام لنفسه.

شروط صحة الحج

اثنان: الوقت والإسلام، فيصح من الصبي، فيحرم بنفسه إن كان مميزاً، ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً، أو يفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيرهما، وأما الوقت، فهو شوال، وذو القعدة

وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فمن أحرم بالحج في غير هذا الوقت، فهي عمرة، وجميع السنة وقت العمرة.

شروط وقوعه عن حجة الإسلام: الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت.

الأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة: الإحرام، والطواف، والسعي بعده، والوقوف بعرفة، والحلق بعده على قول، وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف.

كيفية الحج

إذا وصل إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه، يغتسل وينوي به غسل الإحرام، ويكمل الطهارة، ويخلع ثيابه المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدي ويتزر بثوبين أبيضين، وعند ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة إقراناً أو إفراداً، ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام، ويسنّ أن يقرنه بالتلبية، ثم يدخل مكة، والأفضل أن يكون من ثنية كداء، بفتح الكاف كما فعل رسول الله ﷺ ثم إذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بني شيبة، ثم يقصد الحجر الأسود ويمسه بيده اليمنى ويقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يعوقه عن الإسراع لذلك إلا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف، وليكن في هذا الطواف وفي كل طواف مراعياً شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والخبث في الثوب والبدن والمكان وستر العورة، فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام، فإذا أتم الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب، وليتعلق بالأستار وليدع الله بما شاء، ثم ليصل خلف المقام ركعتين، ثم يخرج من باب الصفا، وهو جبل فيرقى في مقدار قامة الرجل فيه ثم يسعى سبع مرات بينه وبين المروة، وهو يكبر ويدعو ويمشي حتى ينتهي إلى الميل الأخضر، فإذا بقي بينه وبين الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل، حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين، ثم يعود إلى الهينة، فإذا انتهى إلى المروة صعدها كالصفا، وهذه مرة واحدة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان وهكذا حتى يتم السعي، وقد فرغ من طواف القدوم والسعي، وهما سنتان، والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة، وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف، وإنما ذلك شرط في طواف الركن، نعم شرط كل سعي أن يقع بعد طواف أيّ طواف كان، إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات ينبغي أن لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فليمكث محرماً وليكن الخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها وبالغدو منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال، إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر، وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة لطيفة وقعد، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية، ووصل الإقامة بالأذان وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن ثم رجع بين الظهر والعصر، فإذا أفاض من عرفة قبل غروب الشمس فليكن بسكينة ووقار، حتى يبلغ المزدلفة فليغتسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها، ثم إذا انتصف الليل يتزود الحصى منها فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة، وليسر إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح

في الغلس بها، ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس، ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة، فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جمرة العقبة ويرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرمي سبع حصيات مكبراً مستقبلاً القبلة أو الجمرة، ويقول مع كل جمرة الله أكبر، فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق، ثم ليذبح الهدي إن كان معه، ثم ليحلق بعد ذلك، والمرأة تقصر الشعر، والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه، ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول، وحلّ له كل المحظورات إلا النساء والصيد.

والمحظورات في الحج والعمرة ستة

الأول: لبس القميص والسراويل والخف والعمامة، وإنما يلبس إزاراً ورداء ونعلين، ولا ينبغي أن يغطي رأسه، وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه، فإحرام الرجل في رأسه وإحرامها في وجهها. الثاني: الطيب، فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً، فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة. الثالث: الحلق والقلم وفيهما الفدية، أعني دم شاة، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر. الرابع: الجماع، وهو مفسد قبل التحلل الأول، وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه. الخامس: مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرّم وفيه شاة، وكذا في الاستمناء، ويحرم النكاح والإنكاح فيه ولا ينعقد. السادس: قتل صيد البر، أعني ما يؤكل أو هو متولد من الحرام والحلال، فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب، هذه هي المحظورات. وقد قلنا إنه برمي جمرة العقبة قد تحلل التحلل الأول، ولم يبق عليه من المحظورات إلا النساء والصيد، ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه أولاً، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أيّ وقت شاء، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الإحرام، ولا يحل له النساء إلى أن يطوف، فإذا طاف تَمَّ التحلل وحلّ الجماع، وارتفع الإحرام بالكلية، ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى، وهي واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحج، ثم بعد هذا الطواف، السعي إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم، وإلا اكتفى به، وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين، والأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف، ثم يخطب الإمام خطبة وداع رسول الله ﷺ، ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد إلى منى للمبيت والرمي، وتسمى ليلة القرّ لأن الناس يقرون فيها غداً ولا ينفرون، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة، فيرمي إليها بسبع حصيات، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف في هذه، وفي الأولى بعد الرمي يكبر ويهلل ويدعو بحضور قلب، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً، ثم يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى، وتسمى هذه الليلة

ليلة النفر الأول، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق ورمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله، فهو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة، فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني أحداً وعشرين حجراً كما سبق، وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم، وليتصدق باللحم وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى، هذا هو الحج من أوله إلى آخره مختصراً واضحاً يسرّ أولي النهى.

العمرة

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل وليلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج، ويحرم بالعمرة من ميقاتها، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية، وينوي العمرة ويلبي ويصلي في مسجد عائشة بعد ذلك ركعتين ويدعو الله بما شاء، ثم يعود إلى مكة وهو يلبي، ومتى دخل المسجد ترك التلبية، وطاف وسعى سبعاً كما تقدم، ثم يحلق رأسه، وقد تمت بهذا عمرته. وهذه الطريقة، أي: الحج أولاً ثم العمرة تسمى الإفراد.

وهناك طريقة ثانية، وهي: القران، وهي أن يجمع بين الحج والعمرة، فيقول عند الإحرام: لبيك بحجة وعمرة معاً، فتندرج العمرة في الحج كما يندرج الوضوء في الغسل، ويكون السعي الذي بعد طواف القدوم محسوباً منهما، ولكن الطواف الأول ليس بمحسوب كما تقدم، فيكون طواف الركن بعد الوقوف، وليس على الحاج شيء في هذا إلا شاة، إلا أن يكون مكياً فليس عليه شيء.

وهناك طريقة ثالثة، تسمى: التمتع، وهي أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة، ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج، ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة ما لم تكن عمرته في غير أشهر الحج، وما لم يرجع إلى ميقات الحج، ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج، فإذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة، وسبعة إذا رجع إلى الوطن، والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران.

هذا ما أردت ذكره في العمرة والحج، وبهذا تتصور الأحكام والأماكن وتفسير آيات الحج، وتفهم ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٩٦] وقوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[البقرة:١٩٨]، وقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٢٠٣] وهذه الأحكام على مذهب الشافعي، وفي بعضها خلاف سيأتي في تفسير الآيات.

أسرار الحج وبقية أركان الإسلام

اعلم أن الإنسان في الدنيا كولد الموسر التاجر أو الملك الذي ورث الثروة عن والده، ثم إنه رباه فزاد هو في تجارته، وزاد نماء أمواله، فالإنسان خلق في الدنيا تحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر، فإذا تحملها وصبر عليها وقويت همته واستجمع عزيمته، كان ذلك قوة عظيمة لسعادته في الدنيا لا يحس بها الصبيان ولا الحيوان، فكلاهما لا صبر له لأن الصبر بالعقل، وهو خاص بأهله، إن النعيم

والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنسين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء وهي مضطربة غير ثابتة، ولا سعادة إلا ما بناه الإنسان لنفسه بنفسه، وذلك بأن يتخذ لـه من الحوادث درعاً، فيتقي إذ ذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة، وتمر عليه أنواع الفرح والترح فلا تؤثر في سعادته وهذا هو المذكور في آية: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٦] وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك، وهذه أشبه بالميراث في مثال الصبي الغني، لأنها عامة لسائر الناس، ثم إن الله أراد أن يزيد الإنسان إسراعاً في الرقي ويعطيه أجنحة ويقوّي سيره إلى العلا، فأنزل عليه الكتب، وألهمه دراسة العلوم، ومنها ما نزل بالوحي على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم وذلك بالتخلية والتحلية، فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء في الصوم، وتارة بنزع ما تميل إليه النفس وما تعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات، إن العاقل كلما زاد عقلاً زاد معرفة بالعشيرة والأمة التي هو منها، فيجزع لما حل بقريبه وولده وأبويه وصحبه وأمّته، فإذا صبر كان ذلك جمالاً لنفسه وأجنحة يطير بها إلى المعالي، وهاهنا في الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسياً لهم، فهو عند الحزن عليهم صابر، وعند الغنى والثروة شاكر، ويكون هو في نفسه قد قلل العلائق التي تربطه بهذه الدنيا وباللذات فيكون زاهداً فيها، فلا ينقطع فؤاده لذكر الموت، ولا يهلع ويجزع لموت دابة أو ضياع مال، ويكون إذ ذاك كالحر الذي لم تستعبده هذه الدنيا، ثم إنه كما تخلى عن شهوة الطعام والشراب والنساء في أيام رمضان، وتخلى عما ربطه بأوثق رباط من المال، هكذا يتخلى عن اللباس في الحج، فلا يلبس المخيط، وإنما يقتصر على إزار ورداء أبيضين كالكفن، وقد كشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس، وقد خرجوا من الأهل والوطن، وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرّم عليهم النساء هذا هو التخلية في الزكاة والصيام والحج. أما التحلية، فإن الصلاة فيها مناجاة لله عزَّ وجلَّ، وقد توضأ الإنسان ونظف ثوبه ومكانه، وتوجه قلبه إلى من فطره، فأخذ يذكر بلسانه، وقد أحضر في الفؤاد أنه رحمن رحيم، عمّت رحماته سائر الخلائق بتصويرهم ورزقهم وإغداق النعم عليهم، فيقول: إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الخ، وهو حاضر في قلبه كأنه يراه، ويشعر في قلبه بهذه الرؤية، وهذه هي التحلية، فبالزكاة وبالصيام وبإنفاق الأموال في السفر للحج، وفي الهدي وترك المخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة، وأما التحلية ففي المناجاة والتوجه لله في «إياك نعبد» وفي الاستعانة به تعالى، وفي الحج قائلاً عند الإحرام: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، لبيك وسعديك والخير كله بيديك، والرغباء إليك لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»، فهذه هي التحلية، ففي الحج تخلية عن المال، وعن النساء، وعن الطيب، وعن حظوظ النفس بالامتثال في السعي بين الصفا والمروة وبالطواف، وبرمي الجمرات التي يجهل العبد حكمتها، فبهذا كله تخلى المرء عن حظوظه وشهواته، وامتثل أمر الله وهو تخليه، وفي التلبية والتوجه لله تحلية بالرجوع إلى من خلقنا وفطرنا وصوّرنا، ولا تظن أن أعمال الحج خالية من الحكمة المعقولة، كلا فإن كل ما توجه به العبد من قول أو عمل أدّى المقصود منه، فكما أن في أقوال الصلاة توجهاً بالقلب، وكما أن هناك فرقاً بين فعل اللاعبين والمصارعين في

وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم وبين الصلاة في الركوع والقيان، وأن الأول يقصد به تقوية العضلات والمسابقات، وآثارها في النفس لا تخرج عما قصدت له، والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع إلى الله، والآثار حقيقة تكون بحسب ما وجهت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة في سائر نوع الإنسان، هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات الثلاث وبين الأفعال التي تماثلها من عوائد الإنسان، وتكون هذه الأفعال مستحضراً بها عظمة الله تعالى والطواف ببيته الذي جعله حرماً آمناً محترماً حرم صيده والقتال فيه إعظاماً وإجلالاً لصاحبه، وهكذا يسعى بين الصفا والمروة، وهذا السعي يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً ذاهباً إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورمي الجمرات كالتبرؤ من الذنوب والخطايا، ولا جرم أن هذه الأفعال يصحبها عند القصد ما جعلت له، ولذلك نجد عند الحجاج من المسرات والابتهال وذكر الله ما لا يوجد فيما يناظره من الأعمال الأخرى لنوع الإنسان، فكما أن الألفاظ لها أثر على حسب المدلولات، هكذا الأفعال لها آثار على مقتضى ما جعلت له في الشرع ديناً، وفي اصطلاح الناس عرفاً، ألا ترى أن التحية عند بعض الأمم بأن يتفل على وجه صاحبه، وعند بعضهم بأن يضربه، وعند بعضهم بأن ينام على الأرض منبطحاً، وعند بعضهم بأن يولي ظهره إليه، وكل عمل من هذا يؤدي المعنى الذي جعل له عرفاً، وإذا لم يقم به الإنسان وأخلّ به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء، فإذا كان هذا في عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم، فهكذا جعل الله هذه الأعمال من الركوع والسجود والطواف والسعي والرمي قوالب وظواهر لذكر الله عزَّ وجلَّ، وامتثالاً لأمره، واستحضاراً لصفاته وجماله، وتبرياً من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا. هذا ولتعلم أن الحج المبرور هو الذي فيه هذه المعاني الشريفة، وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه، وتبرأ من الدنيا، وفرح بالموت قبل حلوله، وأحب لقاء الله، وأعطى كل ذي حق حقه، وهذا سر الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». أما الصلاة والحج اللذان خلوا من هذه المعاني فإن صاحبهما لا ينال منهما تلك السعادة العالية. اهـ.

المقصد الخامس

في الحج وبعض أحكام القتال وغير ذلك

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن

تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٖ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ
كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ
وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي
ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ
فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِۚ
فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۚ
وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ
ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلْ
نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٖ
﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ
لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ
يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ
ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ
خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ
عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ
أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ
قِتَالٖ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ

مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

ولما كان الحج قد يمنعه العدو كما اتفق لرسول الله ﷺ عام الحديبية سنة ست، وحصر هو وأصحابه، وحبسوا عن المضي فيه، ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد، فقال: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي ائتوا بهما تامّين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، فهما واجبان ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي منعكم العدو، يقال: أحصره وحصره كما يقال صدّه وأصده، وليس عاماً لكل مرض أو غيره كما عند الحنفية لقول ابن عباس رضي الله عنهما: لا حصر إلا حصر العدو. وعليه الشافعي ومالك، ولا يلحق به غيره من كسر أو عرج أو نحوهما إلا إذا شرط، لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير: «حجي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»، ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ ﴾ أي فعليكم ما استيسر من الهدي، جمع هدية من بدنة، أو بقرة، أو شاة، فمن أحرم بالحج أو العمرة ومنع من إتمامه لعدو أو غيره على قول، فليتحلل منه، وليذبح هدياً، وليحلق رأسه، ولا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدي محله، أي: مكانه الذي يذبح فيه، وهو حيث أحصر من حل أو حرم ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ ﴾ والحنفية على أن محله الحرم، فلا يحلق رأسه حتى يعلم أن من أرسله بلغ الحرم بالهدي إن كان معتمراً ويوم النحر إن كان حاجاً، والأول أوجه، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ وحلق رأسه، ثم أخذ يشرح حالاً أخرى لحلق الرأس غير حلق التحلل، فقال: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿ أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ كجراحة أو قمل ﴿ فَـ ﴾ عليه ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ إن حلق ﴿ مِّن صِيَامٍ ﴾ ثلاثة أيام ﴿ أَوْ صَدَقَةٍ ﴾ ثلاثة آصع على ستة مساكين ﴿ أَوْ نُسُكٍ ۚ ﴾ جمع نسيكة، هي الذبيحة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة: «لعلك آذاك هوام رأسك؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: احلق وصم ثلاثة أيام، أو تصدّق بفرق على ستة مساكين، أو انسك شاة» والفرق ثلاثة آصع، ثم أخذ يشرح حكماً ثالثاً، وهو حكم ما إذا أحرم أولاً بالعمرة من الميقات، ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات في الإحرام إلى أن يحرم بالحج فعليه مثل ما على المحصر: بدنة، أو بقرة، أو شاة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ ﴾ أي فعليه ذلك، وهو دم جبر أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه، وقال الحنفية: دم نسك، فهو كالأضحية ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ أي فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الاشتغال به بعد الإحرام، والأحب أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ ﴾ أي فرغتم من أعمال الحج سواء كان في طريقكم أو عند أهلكم، وهو مذهب الحنفية، وللشافعي قول إذا رجعتم إلى أهلكم

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ فليست السبعة للتكثير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم المذكور ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ بأن كانوا على مسافة قصر فأكثر من الحرم عند الشافعية، وعند الحنفية أهل المواقيت من قرن ويلملم والجحفة وذي الحليفة وذات عرق، فكل هؤلاء ومن دونهم إلى مكة حاضرو المسجد الحرام، ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم، وأما حاضرو المسجد الحرام فليس عليهم دم لأنهم ليسوا ممن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات، وعند الحنفية ليس لهم التمتع، وإن فعلوه فعليهم دم جناية ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وهو ظاهر.

ثم قال: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ معروفات، وهي شوال، وذو القعدة، وتسع من ذي الحجة بليلة النحر عند الشافعية، والعشر عند الحنفية، وذو الحجة كله على مذهب مالك ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أي أوجب على نفسه بالإحرام فيهن عند الشافعية، أو بالتلبية، أو سوق الهدي عند أبي حنيفة ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أي: لا جماع أو لا فحش في الكلام ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ لا خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ لأمراء مع الخدم والرفقة ﴿ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ أيامه، أي: لا يجوز ذلك ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي وتزودوا لمعادكم بالتقوى فإنها خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن، كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون كلاً على الناس، فأمروا أن يتزودوا، ويتقوا الإبرام والتثقيل في السؤال ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وفي هذه الآية السابقة دليل على وجوب العفة، وترك أذى الناس، وعدم التثقيل عليهم، فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب، وقد كان للعرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب في سوق عكاظ، وذي المجاز، ومجنة، فتأثموا أن يتجروا فيها.

فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي عطاء ورزقاً وربحاً في التجارة ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم ﴾ أي دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء إذا صببته بكثرة ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وهو جبل يقف عليه الإمام، ويسمى قزح ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة للمناسك وغيرها ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي قبل هدايته لكم ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ ﴾ يا قريش ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي كسائر الناس، لا من المزدلفة وأنتم مترفعون عنهم ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٩٩) ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ كان العرب في الجاهلية إذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آبائهم ومفاخر أجدادهم نظماً ونثراً كما هو معلوم في سوق عكاظ وغيره، فلما جاء الإسلام أمروا فيه أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو كذكر ذاكر أشد ذكراً منهم لآبائهم، وذلك ليعرفوا حقه عزَّ وجلَّ، وليكونوا أمة وسطاً متحدة، فذكر الله يجمعهم، وذكر الآباء يفرقهم ويشتتهم، وذلك هو التضامن والتحاب العام، وتوجه النفوس إلى الوحدة الدينية العامة، والتنائي بها عن الوحدة الخاصة، و«أو» بمعنى «بل»، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، قيل له: قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه، فقال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عصي أشد من غضبك لوالديك إذا شتما. انتهى.

ولا جرم أن هذا هو النظام العام، والناموس الشامل، والقانون العام الكامل ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ كانوا في الجاهلية يقولون: اللهم أعطنا إبلاً، وبقراً، وغنماً، أو يقولون: اللهم إن أبي كان عظيم الفئة، كبير الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، وعبد الخميصة ـ ثوب من خز أو صوف معلم ـ إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإن شيك، فلا انتقش» والانتقاش: إخراج الشوكة، وشيك: دخلت الشوكة في جسمه، وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف، وتوفير الخير، والحسنة في الآخرة الثواب والرحمة، فدخل في الأول المرأة الحسنة، وفي الثاني الحوراء، وكذلك العلم والعمل في الأول أيضاً، ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذين ذكروا من الفريقين ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فيحاسب الناس في لمحة، والساعة قريب، فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي أيام التشريق، وهي أيام منى، ورمي الجمار، وسميت معدودات لقلتهن، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، ويكون التكبير إدبار الصلوات وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار وغيرها ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ ﴾ أي استعجل النفر ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي يوم القر، والذي بعده، أي: فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عند الشافعية، وقبل طلوع الفجر عند الحنفية ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ باستعجاله ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ حتى يرمي في اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافعي، أو قبل الزوال جوازاً عند الحنفية فلا إثم عليه في التأخير، ولقد كان الجاهلية يختلفون، فمنهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر، والذي ذكر من الأحكام ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ إذ لا منتفع به سواه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أيها الناس في جميع أحوالكم وأموركم ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جل جلاله، وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكر من هو كالأخنس بن شريق الثقفي إذ كان حسن المنظر، حلو المنطق، يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدّعي الإسلام، ويقول: إني أحبك، ويحلف بالله على ذلك، وقد خنس، أي: اختفى يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ يوم بدر، وقال: إن محمداً ابن أختكم فإن يك كاذباً كفاكموه الناس، وإن يك صادقاً كنتم أسعد الناس به، قالوا: نعم ما رأيت، قال: إني أخنس بكم فاتبعوني، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: في شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ ﴾ أن ﴿ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ موافق لكلامه ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ شديد العداوة والمخاصمة ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أعرض أو صار والياً ﴿ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ كما فعل الأخنس بثقيف إذ بيّتهم، وأحرق زرعهم، وأهلك مواشيهم، أو كما يفعل ولاة السوء بالقتل والإتلاف والظلم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ لا يرضاه، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ الأنفة، أي حملته حمية الجاهلية الأولى على الإثم الذي

يؤمر باتقائه لجاجاً، من قولك: أخذته بكذا، أي: حملته عليه ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي كفته جزاء وعقاباً ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ والمهاد: الفراش، ثم جاء بضده، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ يبيعها ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي يبذلها في الجهاد طلباً لرضاه، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك أن صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد، فقال: إنني شيخ كبير لا ينفعكم كفري ولا يضركم إيماني، فخذوا مالي ودعوني، فقبلوه منه وأتى المدينة ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ لأنه أرشدهم إلى مثل هذا الشراء.

ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تراد لتهذيب النفوس، وائتلاف القلوب، واتحاد الشعوب، وكان فريق من الناس لا يثوبون إلى رشدهم ولا يرجعون عن غيهم، وفريق اهتدى، فالأول كالأخنس المنافق ابن شريق، والثاني كصهيب دعا الله المسلمين كافة إلى السلم والطاعة ونبذ المشاحة والصلح والإيمان بسائر الأنبياء ليتحد المتشاكسون ويتفق المختلفون، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ أي استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً حال كونكم ﴿ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ بالتفرق والتفريق ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ عن الدخول في السلم ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه الانتقام ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا ينتقم إلا بحق، ألا وإن هذا النوع البشري سعادته بالصفاء والسلم، وشقاؤه بالخلاف والشقاق، فإذا تفرقت الأهواء، وزلت القدم واتبع كل امرئ هواه، جاءهم العذاب من حيث يرجون النعيم، وحل بهم الشر حيث يرجون الخير.

هذا هو الناموس العام والسبيل الإلهي، ألا ترى أن الناس يعذبون بنفس شهواتهم، ويذلون بأطماعهم فمن لم يطع انقلبت لذاته آلاماً وصارت أفراحه أحزاناً كما يرى في الفاجرين الفاسقين حين يقلب الدهر لهم ظهر المجن، وكذلك الأمم الكاسلة المنتكسة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها أعداؤها بنفس هذه الصفات، فمثل الأمم إذ ذاك كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي أمره أو بأسه ﴿ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ السحاب الأبيض حيث يرجون الخير ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ لأنهم المسخرون للعالم القائمون بتدبيره ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ تم بهلاكهم ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فجاءهم الشر حيث ينتظرون الخير، والضر حيث ينتظرون النفع، كما هي حال ذوي الشهوات والمغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق، لا سيما المسلمين، فإذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم؛ كان ما فرحوا به عليهم شقاء وبلاء، ثم ضرب مثلاً ببني إسرائيل إذ يقول: ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ معجزة ظاهرة وتبيان في التوراة على أيدي أنبيائهم، شاهدات بالحق، فأولوا وبدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الأمة الإسلامية، فوعدوهم على قليل العمل كبير الأجر، فكان الهدى سبب الضلال، والخير سبب الشر ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فيعاقبه أشد العقوبة لارتكابه أشد الذنوب فيجعل هلاكه بما ظن أنه حياته، كما جعل آيات الكتاب الهاديات سبباً للضلال. وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضاً بالأمة الإسلامية، فلكم افترى الأحبار والرهبان حفظاً للرياسة؟ فسلط الله

عليهم المسلمين، هكذا كذب كثير من أهل العلم في الأقطار الإسلامية وفسروا الأحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأزاغوهم عن حكم القرآن، فسلط عليهم من سخرهم، فكان المفروح به هو الحزن، والمطلوب هو المرهوب كالظلل من الغمام. ولما كان ذلك ناتجاً من الغرور بالحياة أردفه بقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ كبلال وعمار وصهيب ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ في الدارين.

ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسلمين أن يدخلوا في السلم والحب العام والطاعة ولا يتفرقوا أتبعها بما يذكر ما كانت عليه الأمم قديماً، فلقد كانوا في جنة السعادة ونعيم الحياة إذ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ وعاشوا قروناً كثيرة كما تشهد بذلك المكتشفات الحديثة، وكما يرمي إليه الدين البرهمي في الهند والبوذيون، فهذه الأمم تروي عن أسلافها السلام العام، وهكذا تشير أشعار هوميروس الشاعر اليوناني وغيره، فحصل الطمع والجشع فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وبدأ بنوح، وكانت الأمم قبله في هناء وسعادة ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي جنسه ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه، فجاء الأمر معكوساً والوضع مقلوباً، فجعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شراً ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ حسداً وظلماً لحرصهم على الدنيا ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ أي للحق الذي اختلف ﴿ فِيهِ ﴾ المختلفون ﴿ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فالله يدعو الناس إلى الوئام والاتحاد ويرشدهم للمحبة والوداد، ويذكرهم بما سلف للأمم قبل نوح، فقد كانوا في سعادة وراحة، فلما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتال، وينادي الله الأمم أن ترجع سعدها وتردّ مجدها القديم والنعيم، ولما كان السلم العام لم يزل بعيداً، وأشرب نوع الإنسان العداوة والبغضاء، واستنبط الظلم، وراش سهم الغدر، أمر الله النبي والمؤمنين أن تكون حياتهم صبراً وجهاداً ليقيموا الحق حسب الطاقة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلى ركوبها

فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة ﴿ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ بيان لتلك الحال مستأنف ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ أزعجوا إزعاجاً شديداً ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ لتناهي الشدة، و«يقول» بمعنى «قال»، فقيل لهم تبشيراً ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فالإنسان في الحياة مجاهد لعدوه الخارجي الظالم، ويعوزه الثبات ولعدوه الداخلي ويعوزه الصبر، وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بغلبة الحق على الباطل في الأمم وبارتياض النفس وراحتها في الأخلاق ودخول دار السلام بعد الموت، ولما كان إنفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلاكها أخذ يحرّض على الإنفاق والجهاد.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمرو بن الجموح الأنصاري رضي الله عنه كان شيخاً هماً ذا مال، فقال: يا رسول الله، ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فأجيب ببيان المنفق عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ الخير المال، وقدّم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولاً، ويليهما الأقرب فالأقرب ثم اليتامى الخ، وإنما كانت الإجابة ببيان المنفق عليهم، لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها. قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تعدّ صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ والنفوس البشرية إذا تعودت الخير ألفته، فصار ملذوذاً فلا سعادة إلا في لذة النفس ورضائها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولو أن الناس تركوا أنفسهم وهواها فزينت لهم الحياة الدنيا، لصار المحبوب لهم نقمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة.

وهكذا النفوس تحب القعود عن الغزو، وهو شر لما فيه من طمع العدو، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم، ونزل بساحتكم، وإذا علم أن فيكم شهامة كفّ عنكم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وقال الزهري: كتب الله القتال على الناس، جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فبها ونعمت، ومن قعد فهو عدّة إن استعين به أعان، وإن استنفر نفر، وإن استغني عنه قعد. قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥] ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يعده بالحسنى. اهـ.

واعلم أن هذا القول أجمع ما قيل في هذا المقام، فلتكن الأمة كلها في جهاد، إن دخل العدو البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة، وإن لم يدخل وجب أن يجاهد كلّ فيما اختص به، فالعالم والصانع والزارع كلّ يتقن ما في طاقته، فلا قتال إلا بالعدة والسلاح، ونظام الطرق، وترقية جميع مرافق الحياة.

ثم أخذ يتمم مسائل الجهاد بما روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة، قبل بدر بشهرين، ليترصد عيراً لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا العير، وفيها تجارة الطائف، وكان ذلك غرّة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فاحتجّ قريش على النبي ﷺ وقالوا: استحلّ محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف، ويذعر فيه الناس إلى معايشهم، فأجيبوا بأن القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ولكن صدكم الناس عن الإسلام، وكفركم به تعالى، وصدكم الناس عن المسجد الحرام، وإخراجكم النبي ﷺ وأصحابه منه؛ هذه الأربعة أكبر عند الله مما فعلت السرية خطأ، وتكون النتيجة أن ما فعلتموه من الفتنة بهذه الأمور الأربعة أشد من ذلك القتل، وهذا معنى قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ذنب كبير ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصرف عن الإسلام ومنع عنه، أو عما يوصل العبد إلى الله من الطاعات ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله ﴿وَ﴾ صد ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ أي إخراج أهل المسجد الحرام منه وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون

﴿ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ مما فعلته السرية خطأ ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه مما تقدم من قتل الحضرمي.

روي أن عطاء كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت، وجمهور العلماء على أنها منسوخة بقوله: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] يعني في الأشهر الحرم وفي غيرها. اهـ.

ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما تقرر أن الناس مختلفون وقد فسد الزمان، فقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾، هذا إخبار من الله بعداوة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم، و«حتى» للتعليل، وفي المرتد رأيان: فالشافعي يرى أنه لا يبطل عمله إلا إذا مات على ردّته، وأبو حنيفة يرى أنه يحبط عمله وإن أسلم. واعلم أن المرتد يجب قتله، وتبين زوجته، كما لا يستحق الثواب على عمله كما فصلناه، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ظاهر مما تقدم، نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم، وذلك أن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله، هل نؤجر على وجهنا هذا، ونطمع أن يكون لنا غزو؟ فأنزل الله هذه الآية. اهـ.

ولما فرغ من الجهاد مع الأعداء أخذ يشرح النظام الداخلي وما يحفظ كيان الأمة بعد الذبّ عنها من العدو المهاجم، وبدأ بالخمر والميسر وأحكامهما وهو:

المقصد السادس والسابع والثامن والتاسع

في الكلام على الخمر والميسر، وكيفية الإنفاق، واليتامى، وأحكام النكاح، والحيض

في هذا المقام ستة أسئلة

الأول: سؤال عمرو بن الجموح المتقدم إذ أجيب ببيان المنفق عليهم.

الثاني: سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام.

الثالث: سؤال عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار في الخمر والميسر.

الرابع: سؤال عمرو بن الجموح المتقدم أيضاً، سأل في هذا عن كيفية الإنفاق كما سأل أولاً عن المنفق عليهم.

الخامس: سؤال المسلمين عن اليتامى.

السادس: سؤال أبي الدحداح في نفر من الصحابة عن المحيض، والأسئلة الثلاثة الأولى بلا عطف، والثلاثة بعدها بالعطف لافتراق أزمنة الأولى واقتراب أزمان الثانية.

ولنفسر المقاصد الأربعة في قوله تعالى:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

روي أنه نزل بمكة قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمراً ومعاذاً في نفر من الصحابة رضي الله عنهم، قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ عن شرب الخمر وعن القمار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بعد التحريم ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قبل التحريم بالتجارة بها وبأخذ مال بغير كدّ ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ بعد التحريم ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ قبل التحريم، أو وإثمهما من التخاصم والتشاتم، وقول الفحش والزور الخ. فلما نزلت شربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ناساً منهم، فشربوا فسكروا، فأمّ أحدهما فقرأ: «أعبد ما تعبدون» فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء:٤٣] فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك بن سعد بن أبي وقاص في نفر، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير فشجّه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠] فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب.

والخمر مصدر من خمره: إذا ستره، سمي به ما اتخذ من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب إذا اشتد وغلا وقذف بالزبد، وسمي خمراً لأنه كان يستر العقل كما سمي سكراً لأنه يسكره أي يحجزه فإذا طبخ حتى ذهب ثلثاه حلّ شربه عند الحنفية، وان أسكر حرم، لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى بعض عماله: إن أرزاق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، وفي رواية: أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فإن له اثنين ولكم واحد، والطلاء والشراب المطبوخ من عصير العنب.

وروي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: حرمت الخمر بعينها، قليلها وكثيرها، والمسكر من كل شراب، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أن الخمر عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد، وكذلك نقيع الزبيب والتمر، والمتخذ من العسل والحنة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر، وأكثر علماء الأمة الإسلامية على سدّ باب الفتنة يحرّمون القليل والكثير مطلقاً، ومال إليه متأخرو الحنفية. والخمر وإن أفادت الالتذاذ، وتشجيع الجبان، وتقوية الطبيعة أولاً، فكم فيها من رذائل ومضار مما شرحه علماء الغرب، ولكم من رسالة في ذمّها قرأتها، ورواية عن طبيب درستها، حتى ألحقوا بها شرب الشاي والدخان والقهوة. ولقد رأيت في كلام «هنري» الفرنسي في كتابه «خواطر وسوانح في الإسلام» أن أحدّ سلاح يستأصل به الشرقيون، وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وإدخالها، ولقد جرّدنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبت شريعتهم الإسلامية أن يتجرعوه، فتضاعف نسلهم، ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كتلك القبيلة التي تشرب خمرنا وتحملت إذلالنا، وقال «بنتام» المشرّع الإنجليزي: «من محاسن الشريعة الإسلامية تحريم الخمر فإن من شربها من أبناء أفريقيا آل أمر نسله للجنون، ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله، فليحرم شربها على الأفريقيين، وليعاقب عقاباً صارماً الأوروبيون، ليكون العقاب مقدراً بمقدار الضرر».

ولقد رأيت في كتاب لطبيب أمريكي يسمى «كيلوج» منع التداوي بالخمر، إذ بان له أن ضرها في الجسم عند التداوي أكثر من نفعها بالشفاء الموقت، لما تفعل في الأمعاء وباقي الأحشاء من الضراء. ولما فشت الخمر في بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت، وأذهبت العقول، ونحن نرقب من الله الخروج من مأزقنا، وبعد ما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى «كتاب اليد في الطب» فرأيته كتب في ضرر الخمر نحو ٣٠ صفحة، وكتب في الدخان والشاي والقهوة والكاكاو، وشدد النكير على الناس جميعاً، فجمعت من ملخص ترجمته خطبة مع إضافة شذرات من كتب أخرى، وهاك نص ما جاء في الجرائد والمجلات ببلادنا التي نشرتها في العام الماضي قبل الطبع «أي طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هجرية».

نشر اليوم خطاباً ألقاه «فلان» في المدرسة الخديوية، وكذلك في الكلية الأمريكية على ملأ من العلماء والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية، لا سيما طلبة الطب في موضوع «مطابقة الكشف الحديث لما ورد في الحديث النبوي من أن التداوي بالخمر ضارّ» كما قاله أكابر الأطباء في إنجلترا وفرنسا وأمريكا، ولم نقصد بذلك إلا إيقاظ أطبائنا وعلمائنا كيما يقوموا بما هو مفروض عليهم نحو أبناء وطنهم، كما قام غيرهم من الأمم الأخرى، وهاهو ذا الخطاب بتمامه. قال حفظه الله:

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد فإليكم أيها السادة الأفاضل، يا نخبة مصر وأساطين العلم والطب، ويا زهرة الشبيبة المصرية، أنتم قدوة الأمة، وعيونها المبصرة، وآذانها السامعة، ورؤوسها المفكرة، أنتم قادتها وسادتها، أنتم الرأي العام، أوجه خطابي هذا راجياً أن تصغوا إلي قليلاً، لأتلو عليكم ما جاش بقلبي، وما أملاه علي وجداني، ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هذا

الموضوع العظيم وهو «الخمر»، كما أني أشكركم على ما تفضلتم به من تلبية الدعوة لسماع خطبتي.
أيها السادة: إن الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها، وقامت من سباتها، والعلم يدعو حثيثاً بالأمم إلى العلا، والإنسان اليوم غيره بالأمس، هذه حركة فكرية عامة للتطور الاجتماعي الإنساني العام، ومصر التي شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلي دلوها في الدلاء، وأن تبحث مع ذوي الآراء في الأمور الهامة والمسائل العامة، وتحذو حذو الأمم الرافعة للعلم حتى لا يسلقنا خلفنا بألسنة حداد، ويقول أبناؤنا: لقد قصر آباؤنا الأولون، ونام علماؤنا السابقون، فوجب علينا أن ننقي مجتمعنا من بعض المضار والمصائب التي أهمها مسألة «الخمر».

تحريم الدين للخمر

أيها السادة: حرّم القرآن الخمر تحريماً قاطعاً، ولم يستثن حالاً من الأحوال، ولا أباحه، ولا أجازه لهضم الطعام، ولا رضيه لتقوية الشهوة عليه، ولا لإكثار الدم في الجسم، بل عمم التحريم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩٠-٩١].

التداوي به في الدين

اختلف الفقهاء في التداوي به، فأباحته طائفة إذا لم يقم غيره مقامه، وقال آخرون: الخمر لا يتداوى به، واستدلوا بالحديث: «لم يجعل الله دواء أمتي فيما حرّم عليها» ويقول القرآن: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩١].

المدنية الحديثة والدين

هجمت المدنية الحديثة في الشرق، وأخذت تسرع في أسباب الرقي، ففشت الخمر، وعمت الأمصار والقرى، وشاعت بين الخاصة والعامة، وتبعها في ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرها، ويقول القرآن: ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائدة: ٩٠].

مطاردة المدنية الحديثة للأديان

كان أسلافنا يقيمون الحدود، ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة، فكان ذلك مخففاً من سطوة الخمر ومانعاً لطغيانها، وكان لرجال الدين سطوة وبأس، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩١].
جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها، وشاركتنا في الأولاد والأموال، وهجمت علينا، ولم يبق للدين سطوته، فانحسر عن المدن إلى القرى، ثم انحاز إلى أطراف البلاد، وهي تطارد الدين، ولكن المدنية بلا علم ضلال، والعلم الناقص وبال، والبلاهة ـ كما قال الغزالي ـ خير من الفطانة البتراء، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين، فإما الدين كله وإما العلم كله، ونحن أخذنا من الديانات

أسماءها، ومن العلوم قشورها، فخسرنا الصفقتين، وربحنا الرزيتين، وسبقنا المتدينون، وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون، فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم، أولئك ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف:١٠٤]، فحق علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثاً علمياً حتى نكون أتينا البيت من بابه، وأرجعنا الأمر إلى نصابه، فالعلم اليوم هو السلاح الذي به تصول الفضيلة، وبه تحارب النقيصة، فبهذا السلاح أقاتل معكم وبهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتي المصرية المحبوبة، فلأقص عليكم أنباء ما عثرت عليه في هذا الموضوع مرتباً على مقتضى الترتيب الزماني، وينحصر ذلك في أربعة مباحث وهي:

١ـ ما قاله علماء الاجتماع من أنه يفني النسل ويستأصله.

٢ـ ما قاله علماء التشريح من أنه يورث الجنون في الأقطار الجنوبية.

٣ـ أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر، وما جاء في خطبة رئيسها في مصر.

٤ـ ما جاء في كتب الطب الإفرنجية، وخصوصاً الأمريكية، وكيف منعوا التداوي به.

المبحث الأول

لقد قرأت في كتاب «خواطر وسوانح في الإسلام» تأليف «الكونت هنري كاستري الفرنسي» المطبوع في سنة ١٨٩٨ في ص ١٣٥ ما يأتي: «وعندي أن هجرة القبائل إلى الصحراء الكبرى جنوباً من الجزائر وهم باطل، كالقول بإمكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئاً فشيئاً، أما انقراض الأهالي بالتدريج بعد دخول التمدين الأوروبي بلادهم، فنحن لا نصدقه إلا قليلاً، فإن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل وسائل العيش عندهم، ولكن لا يؤثر في وجودهم، بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين، ونضيف إلى ذلك: أن المسكرات التي استعملها بعض الفاتحين، لا تؤثر عند أهالي الجزائر، لكونهم يمقتونها مقتاً شديداً». اهـ. ولقد دهشت عند قراءة هذه الجملة، وقلت ما قاله نصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكو ... وإن الحرب أولها كلام

فإن كانت أمية في سبات ... فقل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب، كيف يقرأ قومي وهم غافلون: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١] وكيف يقول ذلك الفرنسي العظيم: إن الخمر آخر سلاح يقتل به الأمم المستعمرة، وبه فناء نسلهم، وأهل بلادي في غفلة ساهون، ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول: ألم تقرأ أمتنا هذا الكلام؟ أو قرؤوا وهم لا ينتهون، فالمسألة موت أو حياة. اهـ.

المبحث الثاني

قال العلامة الإنجليزي «بنتام» في كتاب «أصول الشرائع» ترجمة المرحوم «أحمد فتحي زغلول باشا» تحت عنوان «الجرائم الشخصية» ما نصه: «النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله، وفي الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون، ففي الأول يكتفي بمعاقبة الأول على السكر كعمل

وحشي، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه بالتشرر، وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات، وهذه من محاسنها». انتهى كلامه.

المبحث الثالث

منذ ثمان سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة «البرلمان» للسويد والنرويج ذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر في العالم، وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا، وإنجلترا، والروسيا، والصين، واليابان، وكل الحكومات ساعدته، وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل، وذكر أنه في أمريكا حرم خمسة وأربعون مليوناً من أهلها الخمرة على أنفسهم، وكان ذلك قبل الآن، وقد حرمت في هذه السنة تحريماً عاماً في هذه البلاد، وقال: إن ولي العهد لبلاد السويد رُبّيَ على أن لا يشرب الخمر، ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر في أوروبا.

المبحث الرابع

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسي مصري، فأراني كتاباً إنجليزياً مؤلفه أمريكي، وقال: إن مؤلفه يقول فيه: إني لست أبحث في منع الخمر للسكر، فهذا فرغ منه العلماء، وإن بحثي اليوم في مضاره الطبية، وأن التداوي به يجلب للإنسان أمراضاً لا قبل له بها، فإذن التداوي به ممنوع طبياً، وليس فيه أدنى فائدة، فقلت له: لماذا لا ترفع صوتك بهذا في البلاد، فقال: إن إخواني الأطباء يسلقونني بألسنة حداد، فقلت: أليس في أمريكا علماء محققون، فقال. بلى، ولكن لا يطاع لقصير أمر، فلما دعيت للخطابة في هذا الموضوع طلبت منه الكتاب، وهو يسمى «اليد الطبي» تأليف الأستاذ «كيلوج» كتب تحت عنوان «الاستعمال الطبي للخمر» من صفحة ١٧٥ إلى صفحة ٥٠٤ فلأذكر لكم جملاً منه، وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه إن رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا، وإلا فساعدوا على منعه كما منعه أعظم الأمم علماً ومقاماً، وهي أمريكا.

قال المؤلف: من كان عنده أقل ريب أو ظل للشك أن الخمر سم فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة، فإن الغشاء المخاطي يصير محتقناً ويخرج مقداراً من المخاط ليحمي نفسه، وترى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع في إخراج ما وصل إليها بأسرع ما يكون، أليس ذلك مزيلاً لشك الشاكين، وريب المرتابين، في أن الخمر من أنواع السموم. وقال الأستاذ «ليبج»: إنه إذا اعتدل الإنسان في شربه قوي جسمه وأكسبه نشاطاً، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين، وهم الأستاذ «للمان» والأستاذ «بيرن» والأستاذ «دوري»، ثم الأستاذ «أدوارد سميث» الإنجليزي، وقد برهن الثلاثة الأولون على بطلان ما تقدم بقولهم: إن الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها، وزاد الأخير بقوله: إنه حلل الدم، فلم يجد فيه أدنى شيء من العناصر التي يتركب منها الخمر. وقال الدكتور «ملر» الاسكوتلاندي: الخمر لا يشفي شيئاً. وقال الدكتور «هيجنبوتوم» أمام الجمعية الطبية البريطانية: أنا لا أعلم مرضاً قط شفي بالخمر. وقال الدكتور «جونسون» الإنجليزي: إن الخمر ليس ضرورياً البتة ليستعمل دواء.

وقال في إبطال قولهم: إن الخمر غذاء، وإنه يحفظ الجسم، أو يقوي العضلات: ما هذه القوة إن هي إلا اسم آخر من أسماء السموم. فقولنا: فلان نشوان طرب ثمل، معناه: مسموم، وبرهن على ذلك بقوله: إذا أدخلنا الخمر، أو أي سم آخر من العقاقير السامة التي تعد بالمئات في الجسم، فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لإخراجه من الجسم، ومن هنا كان النشاط. وقال في نقض قولهم إن الخمرة تمنع المرض: إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة، فإذا كان ما تقولون حقاً فأضرار الخمرة أشد من تلك الأمراض فتكاً بالجسم، فكيف بها إذا كانت لا تشفي منها شيئاً، فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لا تترك أثراً في النسيج والأثر الحقيقي إنما يكون في النسيج.

وقال الدكتور «سميث الإنجليزي» رداً على الأستاذ «ليج»: إن الخمرة يخسر بسببها الجسم جزءاً من الحرارة، بل يزيد ذلك الفقد، ومن العجيب أن سيدنا محمد ﷺ أثبت ضرر الخمر في الحديث الصحيح، فقد جاء في صحيح مسلم مع شرح الإمام النووي صفحة ٣٦٤، أن طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه، أو كره أن يصنعها، فقال إنني أصنعها للدواء، فقال الرسول ﷺ: «إنه ليس بدواء ولكنه داء»، أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث. يقول الدكتور «سميث»: إن الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة، وقد منعت الدولة الأمريكية الخمرة بتاتاً بناء على أمر الأطباء، وعلى الاكتشاف الحديث المنافي لآراء الدكتور «ليج»، وهذا الكشف الحديث معجزة إسلامية.

وقد أثبت الدكتور «باركس» ثم «السيرجون هيل» مفتش عموم الجيش البريطاني، والدكتور «هنري مارتس» وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفي المرض ولا ينفع الجسم. وقال في إبطال قولهم، إن الحب والفاكهة فيها سم: إن بعض الناس يقول إذا كان في الخمر ضرر فذلك ليس خاصاً به أنه من الحب والحب فيه قليل من السم، فلم أكثر الأطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه، وفيما أخذ منه؟ فأجاب عن ذلك بقوله: نعم إن الخمر من الحب، ومن ذا يقول إن الحب فيه سم؟ إن الحب لم يكن سماً إلا بعد إتلافه، والخشب لا يكون دخاناً إلا بعد إتلافه، فليس الخشب دخاناً، وليس الحب خمراً.

ولا جرم أن السم حدث في الفاكهة والحب بعد إتلافهما، فالحب لا سم فيه، وكذلك الفاكهة، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور، وهي كاذبة وهل تدس الطبيعة التي أعدت لنا الحياة، السم في الدسم؟ كلا.

وقال في إبطال قولهم إن الشرب المعتدل لا يضر: إن كلمته مشتقة من كلمة لاتينية معناها السم فالشرب المعتدل يصير عادة لا يتخلى الشارب عنها فهو يتجرع السم قلّ أو كثر، فويل للشاربين وأبطل قولهم: لا ضرر في الخمر الصافي، بقوله: إن الخمر الصافي هو سم صاف، فإذا احتج الشارب بأمثال هذا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦] لأنه أثبت أن الخمر سم سواء أكان نقياً أو مخلوطاً فهو ضار للصحة، مهلك للأبدان.

ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات، فقال: إنه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذي تتقطع له القلوب أسى أن يخضع الإنسان العالم أمام جنود الشهوات والرذائل المخزية،

ومما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم، ومرامي سهامهم، وقتلى علمهم وهم لا يشعرون.

أوَليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم في ذلك أوحت بها شهواتهم، وقضت بها أوهامهم، وهم عن العلم معرضون، ألا ساء ما يصنعون، وأخذ يبطل قول الشاربين: إن الخمر يمحو الهم والكسل، ويجعل الفقير الذي لا منزل له ولا صاحب، يشعر بأنه غني، أو ملك، وقد أطال في ذلك، وقال في الرد عليه: إن الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه، وفقد الإحساس ونسي ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها، لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية، الرفيعة القدر، الشريفة المنزلة، والشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية، إن الفرار من الحق جبن، وأبطل ما يدّعيه الشاربون من قولهم: إن الخمر لا يضرني، ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات والمسكرات من الأفيون، والخمر ونحوها، وقال: إنهم فريسة له ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون، وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون: إن الخمر عادة إنسانية وطبيعة بشرية، وكيف لا، ونحن لا نرى أمة إلا شربت الخمرة، ولا جيلاً إلا عاقرها، ولا قبيلاً إلا كرع منها، وهاهم أولاء الصينيون، واليابانيون، والشرقيون، والغربيون، والمسلمون، والنصارى، واليهود، والمجوس، والبوذيون كل منهم يشربها، ومن ذا يقاوم الطبيعة، أو من ذا يقف في طريقها؟ فردّ عليهم قائلاً: أليس في هذه الأمم ضالون وفاسقون وكذابون ومنافقون ومخادعون ولصوص خائنون، فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعياً أنه طبع في البشر، أفلا نأسف لشيوعه، ونأنف من وقوعه وتكاثره في بني الإنسان؟ إنه من موجبات الحزن والأسف، لا مما يحتج به للاعتذار، ويصار إليه بالتقليد والاتباع.

هذه هي نبذة من آراء المؤلف «كيلوج» الأمريكي، ولا ريب أن الحكومات لا تقطع أمراً حتى يثبته العلماء، ويطلبه الشعب، ولولا أمثال هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر، ومصر أولى بذلك لأنها في أول نهضتها بين الدول الإسلامية، ولأن الخمر أضرتها كثيراً، ولي أمل في رجال الطب، وعلماء الأمة أن ينصحوا الشعب بالإقلاع عن هذه العادة، والله موفقنا إلى الإصلاح. هذه هي الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين.

متناقضات الأمم وعجائب الإسلام

تأمل أيها الذكي وتعجب كيف كانت أمريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه، ودينها لا يمنعه، وقد بلغنا لهذا العهد أن هذه الأمة كسبت من تحريم الخمر سعة في الرزق، وبسطة وأمناً في البلاد وزادت مجالس العلم، وكثر الداخلون في المعاهد العلمية، وقل القتل والسرقة، وازدادت الأموال بنسبة مطردة. هذا هو سر الإسلام وتحريمه للخمر. ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحاً ومساءً في مصر بلادي، وفي الأقطار الإسلامية الأخرى، ولم يحرم شربها في تركيا إلا بعد أن استقلت البلاد في هذا العام، فمنعوها وحرموها وهي بلاد إسلامية.

ثم أقول: إن المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها، ولم تكن عنايتهم موجهة إلا إلى الأمور الفقهية، ومنها تحريم الخمر، فإذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام، ونسينا العلوم التي في جمال النجوم، وبهجة الزرع والشجر، فتأخرنا في كل شيء، وسبقنا الفرنجة، واختصاصنا إنما هو بعلم الفقه، ثم ننظر فنرى أن الخمر أول من منعها الفرنجة، والمسلمون يكثرون منها صباحاً ومساءً، فيا الله ماذا جنينا وماذا عملنا؟ فلا في العلوم الكونية نجحنا، ولا في الحلال والحرام اتقينا، والفرنجة سبقونا في الأمرين، فما فعل المسلمون إذن، وعسى أن يكون الوقت أزف كما هو أملنا، وأن يرجع إلى هذه الأمة مجدها، ويبزغ قمرها، ويظهر فضلها، وتأخذ دورها في العالمين.

تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وذكر أنها نجسة

ثم اعلم أن الأمة أجمعت على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها، وقد كانوا في الجاهلية يصيبون الربح من ثمنها، وفيها أيضاً الفرج والطرب، وهذه من المنافع المذكورة في الآية فحرّمت، والخمر نجسة العين قد حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها.

حكم الميسر

أما الميسر فهو القمار، واشتقاقه من اليسر، لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب، وقد كان في الجاهلية نوعان: أحدهما أن يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله. والثاني أنهم كانوا يذبحون جزوراً، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً، ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام، سبعة منها ذات أنصباء، أولها الفذ بواحد وأعلاها المعلى بسبعة ومجموعها ٢٨، وثلاثة لا أنصباء لها وهي: الوغد، والمنيح، والسفيح، وأما السبعة فهي: الفذ، والتوءم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلى، وكانوا يجمعون القداح في خريطة يسمونها الربابة، ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المحيل فيحيلها في الخريطة، ويخرج منها قدحاً باسم رجل منهم، فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح، وإن خرج له قدح من الثلاثة التي لا أنصباء لها لم يأخذ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كله، وقيل لا يأخذ ولا يغرم، ولعلهما كيفيتان، وكل ما فيه خطر فهو قمار، حتى لعب الصبيان بالجوز والقمار وإن كان فيه أخذ المال بسهولة في وقت ما فإن فيه خطراً، وليس مكسباً طبيعياً للنوع البشري، وإنما المكسب الطبيعي ما كان من أعمال جرت العادة بنفعها واستثمارها، ومن عجب أن هذا النوع من الخطر عاش مع الإنسان من مبدأ الخليقة حتى رأوا آثاره في الخرابات القديمة من العصور الذاهبة، كأن هذا الإنسان عشق المغالبة والمخاطرة فأبرزها في صورة القمار غلطاً، وإلا فإنه خلق ليركب كل صعب وذلول ويرقى إلى العلا، ويغالب الطبيعة، ويذلل المسالك، ويقتحم الأخطار، ويقامر على روحه وقواه، ويقول: إما هلك وإما ملك، فالقمار رمز فقهه العالمون، واغترّ به الجاهلون. حرّم الله القمار وأوجب السعي للعلا، والقمار على الأرواح والمخاطرة بالأشباح واقتحام الأخطار. هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب.

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

وقد ابتليت الأمة المصرية اليوم بالخمر والقمار، جلبهما الأوروبيون واستتروا في المحال الممقوتة، واستهووا العقول، وضحكوا على الذقون، وانتهبوا الأموال وأخلوا الديار، وبات الشاربون على شر الأحوال، وهم غافلون، وأولئك ساهرون مستيقظون. ومما يذكره العلماء عادة في هذا المقام النرد والشطرنج، فأما النرد فيحرم اللعب به، قال رسول الله ﷺ: «من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله» أخرجه أبو داود، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: النرد والشطرنج من الميسر، ومذهب أبي حنيفة في الشطرنج أنه حرام، برهن وبغير رهن، ومذهب الشافعي أنه مباح إذا خلا الشطرنج عن الرهان، واللسان عن الطغيان والهذيان، والصلاة عن النسيان. اهـ.

أقول: ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة في بلادنا، ولو كان العلم محبوباً لهم لكانوا به فرحين، وعليه عاكفين، فليحبب العلماء العلم للشبان بإظهار الجمال والمحاسن في هذه العجائب الكونية لتصدهم عن ضياع أوقاتهم، وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون. اهـ.

ولما كان في القمار نوع من إطعام الفقراء لأن تلك الأسهم كانوا يعطونها للفقراء ويفتخرون بها ويعدون من لم يتقدم لذلك برماً، أي بخيلاً شحيحاً، أعقبها الله بآية: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ الخ فأجيب بأن الذي ينفق هو العفو، وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى، فالعفو نقيض الجهد.

روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم، فقال: خذها مني صدقة فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً، فقال: هاتها، مغضباً فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه، ثم قال: يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى، فكأن الله عزَّ وجلَّ لما منع التصدق بطريق مجهول وغير منظم، وهو القمار الذي فيه منفعة الفقراء، وفخر الأغنياء كما يفعل اليوم عند فعل المبرات أمر أن يتصدق الناس بما فضل عن حاجاتهم بطريق منظم واضح معلوم السبيل، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

وأما مسألة اليتامى فذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] الآية. اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ العنت: المشقة، وحاصل الأمر يرجع إلى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة إرادة إصلاحهم، واجتناب الطمع فيما عندهم، والله أعلم بما في القلوب، ولو شاء الله لكلفكم ما يشق عليكم وعليهم، فلم يجز المخالطة إن الله عزيز غالب يقدر على الإعنات، حكيم يحكم بما تقتضيه الحكمة، ثم أخذ يشرح نكاح المشركين، فحرم نكاح كل كافر كتابي وغيره، وكذلك حرم نكاح كل كتابية ومشركة، وخصصت الثانية بآية: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] والمراد بالعبد والأمة: الرجل والمرأة، لأنهما عبدا الله، فهذا ملخص قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ ﴾ اشتركت معكم في الرأي والدين وتشابه الأخلاق والعادات الدينية ﴿ خَيْرٌ

مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لأن الجمال الظاهري لا ثبات لمحبته، إلا إذا قوي بالباطني، فالظاهر كالزهرات والباطن كالثمرات، والزهرات ذابلات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ وأنتم تدعون إلى الجنة، والختلا ف المشارب داع لاختلاف النفوس، وهو سبب الأذى ونكد العيش ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، ولما كان هذا القانون نظاماً خلقياً أفاد شرفه فقال: ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

ولما كانت مسألة الحيض مختصة بالنساء أعقب ما ذكر بها، فقال جل جلاله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. كان الناس في الحيض قسمين: فاليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء حتى في الأكل، وكان النصارى يجامعونهن ولا يبالون بالحيض، وكانت العرب كاليهود، فسأل أبو الدحداح وجمع من الصحابة النبي ﷺ فنزلت، والمحيض الحيض، يقول عزّ وجلّ: إن الحيض أذى تنفر منه النفس ويستقذره الطبع ويؤذي من يقربه، فلا تجامعوا النساء في المحيض حتى يطهرن إما بالاغتسال كمذهب الشافعية، وإما بانقطاع الدم كمذهب الحنفية، وعند ذلك يحل الجماع في مكان الحرث لا غير، وأجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالحائض بما فوق السرة ودون الركبة، ويحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد ومس المصحف وحمله، وعليها قضاء الصوم دون الصلاة.

ولما كان الشرع موقظاً للنفوس، منبهاً للعقول، لم يدع فرصة تمر إلا ذكر، ولا إجابة عن سؤال تقال إلا وعظ وحذر، فانظر كيف تسامى عن المسائل الفقهية إلى المعاني الحكمية، وتعالى عن الأذى والحيض بعد الإجابة إلى الحكمة التي أودعها، والخلقة التي أبدعها، فقال: أيها الناس ما الشهوات إلا آلات للتناسل، وما نساؤكم إلا مزارع، وما أنتم إلا زارعون، فإياكم أن تكون مقاصدكم الشهوة فحسب، وإنما يراد تناسلكم، فالشهوات مقصودة لغيرها، وما أريد لسواه لا يليق أن يزاد فيه عن الحاجة وليكن أشرف مقاصدكم وأهم أغراضكم الولد، فما الشهوات إلا مقدمات، والمنافع نتائج، وكما أن ثمرة الغذاء البقاء، هكذا ثمرة الجماع بقاء النسل، وكأنه نبه أن القصد من الطهارة والنجاسة، وأحكام الشرع ما هو شريف من بقاء الأجسام وطهارة الأرواح.

ولما فرغ من أحوال الزواج، وأحكام الحيض، أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعي العجيب، وابتدأ بذكر الحلف بالله، وأنه لا ينبغي أن يجعل عرضة وهو:

المقصد العاشر

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

إيضاح

العرضة: من قول الرجل: قد جعلتني عرضة للومك، وقال الشاعر:

ولا تجعليني عرضة للّوائم

وقوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ تفعلوا البر فتكونوا بررة، اعلم أن المؤمن الذي يعرف الله جل جلاله يعظم جلاله في قلبه، ويمتلئ هيبة لعظمته، وتعظيماً لقدرته، فينزهه عن أن يمر اسمه بلسانه في محقرات الأمور وصغائر الأشياء، بل يتعود الصدق في القول حتى يثق به الناس ويعتقدوا أنه من الصادقين، وإذا كان من يحب أحداً من المخلوقين يغار عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين، فما بالك بالإله خالق السماوات والأرض كيف يقرن اسمه بالأمور المحتقرات فيحلف باسمه على متاع أو فعل أو ترك، واعلم أن من اعتاد الحلف في صغائر الأمور وكبائرها لا يلبث أن تصير له عادة محكمة وجبلة راسخة، فيسبق لسانه للحلف صدقاً وكذباً حقاً وباطلاً، فيستحق مقت الله وغضبه ويحتقره الناس، فلا يثقون بقوله ولا أيمانه إذا حلف فيخسر رضا ربه وثقة الناس به، وإذا كان أولئك الذين يكثرون القول يزدريهم الناس، فما بالك بمن يتجشم أوعر مسالكه، ويقتحم هضابه من الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة، فأولئك شر مكاناً، وأوهى مكانة، وأنزل مرتبة، يقول الله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «اليمين الغموس» التي تغمس صاحبها في نار جهنم لكونها فاجرة «تترك البيوت بلاقع»، أما أولئك الصادقون في أقوالهم الذين لا يحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عزّ وجلّ، متقون ما يخلّ بتعظيم مقامه وجلاله، مصلحون بين الناس لثقة الناس بهم، فتقبل حججهم لصدق أقوالهم، وقال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[المائدة: ٨٩]، وكان العرب يمدحون الإنسان على الإقلال من الحلف، قال الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برّت

أي لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لوثوقهم بكم، وللآية معنى آخر، وهو أن العرضة الشيء المانع للناس من السلوك والمرور، واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه معارضاً لكلامه، أي: مانعاً من تثبيته، وعليه فالمعنى: ولا تجعلوا الله عرضة ومانعاً بسبب أيمانكم من ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وذلك أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم، وإصلاح ذات البين، فإذا طلب منه ذلك يقول: أخاف الله إن حنثت بيميني، فيترك البرّ ليكون باراً بيمينه، فنزلت هذه الآية وأمر الإنسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعاً من تلك الخيرات والصلات والصلح بين الناس، وحينئذ يحنث ويكفر عن يمينه، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسمع أيمانكم ويعلم نياتكم من تعظيم الله والإعراض عنه، وقوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، قال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى: لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدّ تربصاً للتوبة.

تفصيل الكلام على ثلاثة مواضيع من الآيات السابقة

الميسر، والطهارة، وصون اللسان عن الحلف

الأول: الميسر، قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب، وكيف كانوا يذبحون جزوراً ويقسمونه ٢٨ جزءاً، ويجعلون لكل قدح منها جزءاً أو أجزاء، والقداح عشرة، سبعة منها لها أنصباء، فالأول ١ والثاني ٢ وهكذا إلى السابع، وهو القدح المعلى، فله ٧ ومجموعها ٢٨، وهذه القداح والسهام متى أخذت أنصباؤها من الجزور تصدقوا به على الفقراء، ولم يكن ذلك باب ربح، بل كان من باب المفاخر، ومع ما في هذا النوع من العطف على الفقراء حرمه الله تعالى، فإن المدار في تربية الأمم على تقوية الإرادة والعزيمة، فانظر إلى ما طرأ على الأمة الإسلامية بعد ألف وثلاثمائة وأربعين سنة، انظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الإسلامية التي نزل الفرنج بساحتها، ولقد ابتدعوا من الفنون للربح ما يذيب المهج، ويغضب الرب، ويزري بالشرف الرفيع والمجد المنيع، والهمة القعساء، وأهل الشريعة السمحاء.

ذكر بعض الميسر في بلادنا المصرية اليوم

سباق الخيل، رمي الحمام، التيرو، يانصيب «اللوتريه»

اعلم أني لما وصلت إلى هذا المقام عند طبع التفسير أحببت أن أشاهد بنفسي تلك الأماكن التي ابتدعها الفرنجة في مصر ليكون قولي عن مشاهدة، فصاحبني إليها فاضلان مفتشان يرقبان اللعب من وزارة الداخلية، وهما من المغرمين بالعلم، الباحثين عن الحقائق، فتوجهنا إلى محل صيد الحمام بشبرا ويسمونه «التيرو» كلمة تليانية، يوم ١٨ مارس سنة ١٩٢٣م، فوجدنا مكاناً متسعاً في الفضاء، عليه سور في صدره كراسي للجلوس، وهناك أدوات الرمي، وترى الرماة هناك مصطفين في مدخل المكان، وقد كانوا في ذلك اليوم ١٥ رامياً كل منهم يحمل بندقيته يرمي بها، وهناك أوراق معلقة بالحائط وباسم كل واحد من هؤلاء الرماة جملة، فيأتي المقامر فيختار ورقة يدفع ثمنها، وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالباً من الرماة، ومتى أخذت الأوراق يبتدئ الرمي.

صفة الرمي: قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس في أقفاصه فيطيره صاحب المحل، وهو الإفرنجي، ويرمي الرماة واحد بعد واحد، فإنه يطير حمامة، فيضرب زيد ويطير أخرى، فيضرب جرجس، فمن كان أكثر إصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز، وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفاً لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم ويحرم الباقون، ثم يعاد اللعب ويعاد سحب الورق، وهكذا.

ولما رأى رجال الحكومة أن ضرب الحمام فيه إبادة للنوع، استبدلوا به أطباقاً مصنوعة من الزفت والجير والإسمنت، وهناك آلة شاهدتها ترفع تلك الأطباق للجو فتطير كما يطير الحمام، ويضربها أولئك الرماة كما يضربون الحمام، وهناك محل آخر للصيد، وهذان المكانان يكسبان في السنة ما بين ٢٠ و ٢٤ ألف جنيه، وبيان ذلك أن المقامرين كلما وضعوا نقوداً كان لصاحب المكان منها اثنا عشر

ونصف في المائة من هذا المبلغ، والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف في المائة توزعها على الجمعيات الخيرية منها للمصرية نحو الثلثين، وللفرنجية نحو الثلث، ثم إن اللاعب كلما لعب دوراً فقد بعض ما معه حتى يرجع خاوي الوفاض، صفر اليدين، لا يملك شروى نقير، وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيهاً واحداً من يد صاحب المحل، وبعضهم شرقيون، وبعضهم غربيون.

١ ـ سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية

ويقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا، ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدم في الرمي، والمال المجوع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر، وليس للحكومة إلا مائة جنيه في كل سباق، وصاحب المحل الإفرنجي هو الذي يعطي للفرس السابق جائزة، فأما النقود فإنها تفنى بتتابع الرهن كما مر في السابق، والذي يركب هذه الخيل في السباق سائسوها أو غيرهم، وليس لأصحاب الخيل من نصيب في فضيلة الركوب بل ذلك للربح.

٢ ـ السبق والرمي في الإسلام ومقارنته بما عندنا اليوم

إن في الكتب الفقهية باباً واسعاً يسمى «كتاب السبق والرمي» كما يقولون كتاب الصلاة. وقد جاء فيه أن المسابقة سنة نبوية بإجماع المسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] والقوة هي الرمي، ولقوله ﷺ: «لا سبق إلا في خف، أو حافر، أو نصل»، فيسابق الناس على الخيل والإبل والفيلة، وبالرمي بالسهام والرماح والأحجار والمنجنيق، وذلك هو الذي كان معروفاً عند أسلافنا المسلمين، وقال ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً». وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان، على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد، ومن فاز أخذ رهن صاحبه، وقد كان ذلك للتشويق للمعالي، والتعويد على اقتحام الأخطار، ونيل المجد، وحفظ البلاد، فانظر كيف غفل المصري عن ماضيه وحاضره، وهو جاهل بما كان في تاريخ أجداده من العز والأنفة والشمم. فأصبح الرامي الآن أجيراً عند صاحب المكان المعد للصيد، وهو الذي يأخذ مال الحاضرين. ثم إن المقامرين يكسب بعضهم من بعض. وليس لهم في الرمي أدنى نصيب. فانظر كيف جهل الرامي فصار أجيراً، وجهل المقامر الأمرين: ١ ـ ليس له حظ في الرمي ولا في السبق. ٢ ـ وإن صاحب المحل هو الذي يستنزف ثروتهم جميعاً وهم غافلون، والذي أراه أن يجعل السباق والرمي في كل قرية وبلدة بنظام تام برهن وبغير رهن على الطريقة الإسلامية الشريفة، ويمرن كل شاب مسلم على ذلك تقوية لجسمه، وتشجيعاً لحماية البلاد، وحفظاً للديار من إغارة الأعداء. أما هذا الذي رأيته فإنه يورث البطالة والكسل، مخرّب للبلاد، مغن للفرنجة الذين هم بذلك فائزون.

٣- النوع الثالث يانصيب أو اللوتريه

وكيفيته: أن يبيعوا أوراقاً كل ورقة بقرش مثلاً، وهذه الأوراق ربما بلغت مئات الآلاف، ويسمونها نمراً، وبعد جمعها يسحبونها، كما كانت تفعل العرب قبل الإسلام، ويجعلونها في صندوق فتخرج منها مئات تكسب كل واحدة منها جنيهاً واحداً مثلاً، وعشرات تكسب الواحدة منها من جنيه إلى عشرة جنيهات، وآحاد تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات، وواحدة فقط تكسب مئات

الجنيهات، وأما بقية النقود ففي جيوب الفرنجة، وقد نشروها في بلادنا، وأعدها بعضهم للإحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حذو النعل بالنعل.

إن سباق الخيل والرمي قد مُسخا مسخاً فأصبحا عاراً على الأمة الإسلامية، أصبح الرمي وسباق الخيل مرتزقاً للفرنجة، فيأخذون عشرات الألوف من جيوب المصريين، ويا ليت الأمر وقف عند ما ذكرته، بل هناك محالّ فيها أنواع من القمار سرية يلعب فيها الأغنياء وأهل الوجاهة والعظماء وهم كالسابقين يضيع مالهم بمئات الألوف في يد الأوروبيين، وهم جميعاً غافلون، وكل حزب بما لديهم فرحون، لعمرك ما شبهتهم حين رأيتهم إلاّ بنعاج يُجزّ صوفها ويؤكل لبنها وسمنها، ويُشترى البرسيم من ذلك الثمن، يكسب زيد من المقامرين جنيهاً وهو لم يأخذه إلاّ من جيوب أصحابه المصريين، وصاحب المحل الإفرنجي هو الفائز بثمن ما يدفعون في كل مرة من مرات اللعب، فيبني القصور والدور في البلاد، ويخرب المصري، ويبيع ما ورث من آبائه المثرين، وإذا كان أجدادنا العرب قد كانوا يقامرون للفضل على الفقير كما في «يانصيب» وقد حرم عليهم، بل أُمروا بالإنفاق اختياراً، فكيف تقامر قماراً لا حظ للفقير فيه من مالنا؟ وإنما الحظ الأجنبي يأخذ المال ونحن غافلون، ولم يجز في الإسلام الرهان إلاّ في السباق، وفي الرمي على الطريقة الشريفة، أما هذه فهي مضيعة للمال، مخجلة للأمة، والمال في يد الأجانب، والأجانب هم الفائزون، ليكن السبق والرمي في سائر البلاد، في القرى، وفي المدارس، وفي الجامعات الدينية، إنها من الدين، إن لها في الفقه كتاباً ككتاب الصلاة، وليست لجماعة من الفرنجة يضحكون على أذقان المسلمين، المسلمون فيها مقصرون، ولقد أدّيت ما عليّ، والله هو الولي الحميد. ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

المسألة الثانية: الطهارة

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحب التوابين من الذنوب ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمخالطة الحائض مخالطة خاصة.

فانظر كيف قرن التوابين بالمتطهرين، وجعل حب الله لهما معاً، ولم جعل التباعد عن قذر الحيض وملامسة الحوائض من موجبات حب الله تعالى، وكيف كان للتوبة ذكر معها. فاعلم أن هذا هو السر الذي عرفه علماء الشرق قديماً، والغرب حديثاً، أما أهل الشرق فقد شرحه الإمام الغزالي منهم أوفى شرح، وجعل العلاقة تامة ما بين الطهارة الظاهرية والطهارة الباطنية، وأن الظواهر تدعو حثيثاً للبواطن، وكلما كان الإنسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره، جرّ ذلك إلى العناية بالباطن، وليس المقصود من هذا أن كل من كان أنظف جسماً كان أنور عقلاً. كلا، وإلا فالعروس إذن تكون أطهر العالمين قلباً، وإنما جرت العادة أن من عجز عن الصغائر فهو عن الكبائر أعجز، فمن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية، فإنه عن العناية بقلبه وعمارة نفسه أعجز، ولذلك ورد:

«أصلحوا ظواهركم فعسى أن تصلح بواطنكم» فظواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس، وإذا كان الإنسان يجهل ظواهر القرآن فهو عن بواطنه أعجز، فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ونظافة الباطن ونزاهته شاقة صعبة المسالك، وعرة الطرق، وهي المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام، كل تلك الظواهر ليس لها نهاية ولا غاية إلا جمال البواطن. وكيف تطير النفس إلى العلا، أو تظهر لها محاسن عن هذا العالم الجميل، والقلب مشحون بالكبر والإعجاب بالنفس وبالحقد، والحرص، والطمع، والتملق، والرياء، والغيظ، والكدّ، وضياع الوقت، والكسل، والإسراف في الكلام، وفي الخصام والجدال، كل ذلك أسوار مانعة، وحصون لا يقدر العلم أن يهدمها فيصل للنفس، وجسور ليس فيها منافذ لسقي أرواحنا، وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطي الغذاء الروحي اللذيذ، والفاكهة التي ليست مقطوعة ولا ممنوعة.

تلك الأمراض النفسية التي تغشى على القلوب منعت كثيراً من النفوس الإنسانية أن تتمتع بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، جنة العارفين هي جنة العلم، جنة الحكمة، ومن لم يدرك تلك البهجة في الدنيا مات وليس له حظ إن كان صالحاً إلا في الجنة المحسوسة، وهو غافل ساه على قدر ما نال في الحياة. هذا هو الذي يدور عليه كلام حكماء الإسلام وكبرائهم، وكبار الصوفية فيهم، وفيهم أهل الشرف، وذلك أنسب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وأما ما قاله علماء الغرب فإليك منها ما قاله العلامة «بنتام» الإنجليزي في أصول الشرائع، وقد ترجم هذا الكتاب إلى كثير من اللغات الأوروبية، وهو مترجم إلى اللغة العربية عن الفرنسية، ترجمه المرحوم «أحمد فتحي باشا زغلول». قال في صفحة ١١ من الجزء الثاني عند الكلام على المسجونين:

النظافة والصحة

ذهبوا إلى أنه يجب تطهير المسجون قبل إدخاله السجن، وأن يحاط ذلك بصلاة أو موسيقى خشنية ليكون مؤثراً على فكره، ثم يلبس لباساً خشناً أبيض ليضطر إلى حفظه نظيفاً، ويحلق رأسه، أو يقص قصاً جيداً، ثم ينبغي استحمامه في أوقات معينة، ويلزم منع التدخين، وكل عادة لا تليق بمنزل نظيف، ثم تغير الملابس في أوقات مخصوصة، إلى أن قال: على أنه يوجد بين التنعيم الجسمي واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظه كثير من المؤلفين، فإن النظافة تبعد الكسل، وتحمل المرء على التحرز في أفعاله، والتمسك بالوقار في أطواره، والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جداً، حتى إن شرائع المسلمين حثت عليها كلياً، وجعلتها من الواجبات الأولية، فمن لم يصدّق بتلك الأديان لا ينكر تأثيرها الجسماني.

هذا ما كتبه العلامة «بنتام» المشرع الإنجليزي في كتابه «أصول القوانين» أي تلك القواعد الكلية التي من ضوئها تقتبس القوانين، ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق، ثم يطبقونها على الحوادث في سائر الأمصار، فهو إذن فوق واضع القانون، وواضع القانون فوق القاضي. انظر أليس قوله: «إن بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية ارتباطاً، وأن هذا لاحظه كثير من المؤلفين» هو بعينه ما ذكره

علماؤنا من أن نظافة الظواهر تدعو حثيثاً إلى نظافة البواطن التي هي المقصود الأعظم. أوَليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فذكر لفظ «يحب» مع التوبة، وهي راجعة إلى طهارة الباطن وسلامة النفس، وأعاد ذكر الحب ثانياً مع الطهارة وهي تشمل الحسية والمعنوية، وقدّم الطهارة الباطنة لأنها هي المقصودة، ثم أتبعها بطهارة الجسم بحسب اللفظ لأنها وسيلة. أليس اقتران الظاهر بالباطن في الآية هو بعينه ما قاله حكماء الإسلام في الشرق، وحكماء الشرائع والقوانين في الغرب. هذا هو سرّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.

المسألة الثالثة: تنزيه الله عن الحلف باللسان

لقد ذكرنا للآية وجهين: أحدهما وهو المقصود هنا أن العرضة من قول الرجل للرجل: جعلتني عرضة للومك. فإذا نطق لسانه بالكلام، وأكثر من الحلف، وجعل الله عرضة لأيمانه، كذبه الناس وضاعت ثقتهم به ولم يصلح لأن يصلح بينهم، فأما إذا ما احترس من الكلام، وحفظ لسانه، وصان مقامه، وكان موقراً في نفسه، صار قوله حجة، وصار تقياً، لأنه اتقى شرّ لسانه، والغوائل التي تنشأ منه، وأصبح وقوراً يمكنه الإصلاح بين الناس. هذا هو المعنى الذي ذكرته فيما تقدّم.

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

قد شرح علماء الإسلام قديماً آداب النفس، ومن أهمها آداب اللسان، وليس كلامي الآن في الحلّ والحرمة، ولكن كلامي في النتائج والفوائد الدنيوية المشاهدة على الوجوه، وفي الأخلاق والعوائد.

يقول علماؤنا كالإمام الغزالي: «إن الصمت والوقار، وغض البصر عن المحرّمات، يعطي الوجه سمة الكمال، ويكون عليه مهابة وبهاء»، فإن هذه الظواهر الجميلة من حسن السمت والوقار وصون اللسان، تؤثر في القلب سكوتاً عن كل ما لا فائدة منه، فللكلام أثر في القلب ووقع كوقع السهام خيراً أو شراً، ومعلوم أن جميع الأمم تربي الجند بالحركات الدالة على إطاعة الرؤساء، وهذا مؤثر في العقول، موجب للطاعة، فإن الباطن لوح الظاهر، يكتب فيه ما يملى عليه، ألا ترى أن تعوّد الإنسان على تحسين خطه زمن التعلم يولد في النفس ملكة تدعوه إلى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ما تقبلته من الجوارح، وهكذا الآلة الحاكية «الفونوغراف» تقبل الصوت أولاً فيرتسم على لوحتها رسماً خفياً بحفر الإبرة، ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكي الجبل صوت من رفع صوته في جواره. هذا بعض ما قصده علماء الإسلام أوضحته مختصراً مع التصرّف في بعض الأمثلة.

وبعد أن شرح الآداب الواجب سلوكها مع الله في الحلف، شرع عزّ وجلّ يبين حكم الإيلاء، وهو نوع من الحلف:

المقصد الحادي عشر

أحكام الإيلاء والطلاق، فللإيلاء قوله تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

يقال: آلى عليه، إذا حلف، وعدّى هنا بـ«من» لتضمنه معنى البعد، والإيلاء: أن يحلف الرجل أن لا يطأ زوجته مدة تزيد على أربعة أشهر، فهو مول، فيتربص به أربعة أشهر، فإن فاء، أي: رجع ووطئ، فإن الله غفور له إثم حنثه إن كفر عن يمينه، وإثم ما حصل بإيلائه من ضرار، فإن لم يفئ إلى الوطء، وذلك بعد مطالبة الزوجة، وعزم الطلاق، أي: قصده أو تحققه بالإيقاع ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ للطلاق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات والأغراض. فإن لم يفئ ولم يطلق، طلق عليه الحاكم واحدة عند الشافعي وعمر وعثمان ومالك وأحمد، وعند ابن عباس وابن مسعود وأبي حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة، وقال سعيد بن المسيب والزهري تقع طلقة رجعية، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث، فيدعها وشأنها لا أيماً، ولا ذات بعل، ضراراً وتنكيلاً، وجرى عليه المسلمون في ابتداء الإسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلاً. ولما كان الإيلاء جامعاً لليمين وللطلاق جاء بينهما، فكان اليمين، ثم الإيلاء، ثم الطلاق، فقال:

المقصد الثاني عشر

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

التفسير اللفظي

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾، واحدة أو اثنتين ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ ينتظرن بأنفسهن في العدة فلا يتزوجن ﴿ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ جمع قرء، وسيأتي تفصيله في الإيضاح. ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الولد والحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الرجعة ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة في الإخبار عما في الرحم من الحيض أو الولد ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ أي أزواج المطلقات ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً.

وقوله: ﴿ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: في زمان التربص ﴿ إِنْ أَرَادُوٓاْ ﴾ بالرجعة ﴿ إِصْلَٰحًا ﴾ لما بينهم وبينهنّ وإحساناً إليهنّ، ولم يريدوا مضارّتهنّ ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾ ويجب لهنّ من الحق على الرجال من النفقة، وحسن العشرة، وترك المضارّة مثل الذي يجب لهم عليهنّ من الأمر والنهي ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ في إحسان الصحبة والمعاشرة، ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فضيلة في العقل والميراث والدية والشهادة بما عليهم من النفقة والخدمة ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ بالنقمة لمن ترك ما بين المرأة والزوج من الحق والحرمة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم بينهما.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ أي طلاق الرجعة مرتان ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ ﴾ قبل التطليقة الثالثة ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن الصحبة والمعاشرة ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أو يطلقها الثالثة بإحسان يؤدي حقها ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ﴾ أيها الأزواج أو الحكام، لأنكم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليكم ﴿ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أعطيتموهنّ من المهر ﴿ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ ﴾ يعلما الزوج والمرأة عند الخلع ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أحكام الله فيما بين المرأة والزوج، ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ علمتم ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ فيما بين المرأة والزوج ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت ﴿ فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ أن يأخذ ما اشترت المرأة نفسها به من الزوج بطيبة نفسها، ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما حدّ من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق والخلع، وغير ذلك، ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الضارّون أنفسهم ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ﴾ من بعد التطليقة الثالثة ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ ﴾ تتزوّج ﴿ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ ويدخل بها الزوج الثاني ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ على الزوج الأول والمرأة ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ بمهر ونكاح جديد ﴿ إِن ظَنَّآ ﴾ علما ﴿ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أحكام الله فيما بين المرأة والزوج ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ هذه أحكام الله وفرائضه ﴿ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يفهمون ما بيّن لهم. وقوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ إلى آخر الآيات تفسيرها ظاهر في الإيضاح الآتي:

إيضاح

إن في هذه الآيات لعظات جمة، وفوائد عجيبة، مزج فيها الوعظ بالأحكام، والأخلاق بالفقه وهاهنا من الإبداع في القول، والترغيب في المودة، والترهيب من الإضرار ما لا نظير له، ائتمن النساء على أرحامهن فأتى بالأمر بصورة الخبر كأنهن يتربصن، أي ينتظرن ويرتقبن بلا وازع من خارج، ولا آمر، وذلك هو التربية العالية، بحيث يكون المرء على نفسه رقيباً تسمو فيه ملكة قوة الإرادة وثبات العزيمة، حتى إن المرأة لا يعوزها مرشد للتربص في الأقراء، والقروء: جمع قرء، وهو: الحيض أو الطهر، والبعولة: مصدر كالعمومة والخؤولة أي: أهل بعولتهن، والعضل: المنع والتضييق.

قال أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهـد بالذي يذمك إن ولـي ويرضيك مقبلا
ولكنـه النـائي إذا كنت آمنـاً وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

أي ضاق، يقول الله: على المطلقات أن يتظرن ثلاثة قروء، أي: أطهار أو حيضات، وعلى الأول جمع من الصحابة، كزيد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهري ومالك والشافعي. وعلى الثاني عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وأبو موسى وأبو الدرداء والضحاك والسدي وأبو حنيفة، رضي الله عنهم أجمعين، وأصل القرء: الوقت.

يقال: جاء فلان لقرئه، أي: وقته، ولا جرم أن أيام الحيض وقت، وأيام الطهر وقت، وليس الخلاف عظيماً بين الأئمة رضي الله عنهم، فكيف والأطهار تتبعها الحيضات، ولكن ظهور الثمرة في أحوال قليلة، والمذهبان الكليان متشابهان في حفظ الأنساب، ألا ترى أن الأطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد، وهذا في المدخول بها من ذوات الأقراء، فأما الكبيرة التي أيست، والصغيرة، واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر، والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، وعدّة الحامل أن تضع، فهذه الآية في حال خاصة.

ثم أبان أن الطلاق الذي تصح الرجعة بعده مرتان، فإما إمساك بمعروف وحسن معاشرة، أو تسريح بإحسان، وذلك بأحد أمرين. إما أن يترك رجعتها إلى تمام عدتها، وإما أن يطلقها الثالثة، وهنا أتى بحكم الخلع فقال: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ الآية، ذلك أن جميلة بنت أبيّ ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعتبه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، وما أطيقه بغضاً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة من الرجال فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً. فنزلت آية الخلع، فقال ﷺ لجميلة: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: أردّها وأزيد عليها. فقال صلى الله عليه وسلم: أما الزائد فلا، اقبل الحديقة وطلقها تطليقة. وهذه الآية خطاب للحكام وللأزواج. يقول الله: ولا يحل لكم أيها الحكام والأزواج أن تأخذوا مما آتيتموهن من المهر شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله.

إن هذه الآية جاءت تالية الطلقتين إذ جاءت بعد المرتين ويليها طلقة ثالثة وهي قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ﴾، فهي فسخ عند ابن عباس وطاوس وعكرمة وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وعند الشافعي في القديم. وطلاق عند عثمان وعلي وابن مسعود والحسن والشعبي والنخعي وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهري، والشافعي في الجديد، وأبي حنيفة ومالك وسفيان الثوري.

اعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية أحوالاً ثلاثة: ١ ـ إما أن يراجعها. ٢ ـ وإما أن لا يراجعها بل يتركها حتى تنقضي عدتها فتصير بائناً. ٣ ـ وإما أن يطلقها طلقة ثالثة.

وللأولى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾، وللثانية: ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾، وللثالثة: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾، فيكون نظم الآية هكذا: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ وعلى هذا يكون الخلع الذي فصل الثالثة عن الثانية أجنبياً عنهما . وإنما دعا إلى ذلك أن الرجعة والخلع يستويان في أنهما لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة ، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك ، فلهذا جاء حكم الرجعة ، وتبعه حكم الخلع ، وبعد الجميع حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة للجميع ، ثم إن المطلقة بالثلاثة لا تحل لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : أن تعتدّ منه وتعقد للثاني ويطأها ثم يطلقها ثم تعتدّ منه ، وتعلق بظاهر الآية فاقتصر على العقد ابن جبير كابن المسيب ، واتفق الجمهور على أنه لا بد من الوطء ، فمنهم من جعل هذا من نفس الآية ، فإن العرب تقول : نكح فلان فلانة : عقد عليها ، ونكح زوجته أو امرأته : جامعها ، والآية هنا من الثاني ، ومنهم من قال : الآية دلت على العقد وثبت الوطء بالسنة ، لما روي أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ : إن رفاعة طلقني فبتّ طلاقي ، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدبة الثوب ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت : نعم ، قال : لا ، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك . فالآية مطلقة قيدتها السنة ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ الزوج الثاني ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا ﴾ الآية .

ثم أبان حكم المطلقات بعد انقضاء عدتهن ، وأمر أن لا يعضلن ويمنعن من أزواجهن ، إذ روي أن معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع إلى زوجها ، فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ الآية . هذا ملخص الأحكام في هذه الآيات .

إني عجبت لهذه الآيات ، إنها آيات أحكام وقوانين شرعية ، وأحكام فقهية ، ولكن الناظر فيها يدهشه نظمها ، ويبهره وضعها ، الآيات مفعمة بالموعظة ، ما ذكر حكماً إلاّ أتبعه بعظات ، ولا قال كلمة فقهية إلاّ أتبعها بالزاجرات ، ألم تر كيف أعقب القروء الثلاثة بقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الحيض أو الولد ، وأعقبه بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل كيف أباح الرجعة والردّ في العدّة على شريطة إرادة الإصلاح ، ولم يكتف به بل سوّى بين الرجال والنساء في الحقوق فقال : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ولم يكن للرجال إلاّ فضل الإشراف عليهن والإنفاق .

ثم ختم المقام بذكر أنه عزيز غالب يقهر من عصى من الأزواج والزوجات بكتم ما في الأرحام ، أو بالرجعة بغير إرادة الإصلاح ، وأنه حكيم في عقابه وأمره مكين . ثم انظر كيف أعقب ذكر الطائفتين بكلمتين جميلتين : المعروف أولاً ، والإحسان ثانياً ، فلا يمسك الرجال النساء إلاّ بالمعروف ، ولا يسرحوهن إلاّ بإحسان ، ولم يدع مجالاً للزوج أو الحكام أن يأخذوا من مال المرأة بالخلع إلاّ إذا حصل مثل ما اتفق لجميلة ، وحذّرهم أن يأخذوا أكثر مما أنفق الأزواج ، بل جعله أقلّ بـ«من» التبعيضية ، فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات ، وإن أفتى الفقهاء بخلافه مع كراهتهم له فلقد نفذوه وكرهوه ، ولم يبح في الآية الخلع إلاّ بعد شقاق وخلاف ، وكذلك ورد في الحديث : «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» ، ولم يشأ أن يدع آيات الطلاق والأحكام بعد أن ذكرها بلا تذكير ووعظ في خواتيمها كما وعظ في أوائلها فقال : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ

﴿ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي قارين الأجل على أحد إطلاقيه فهو للمدة كلها ولنهايتها والمراد الثاني. يقول محذراً: فإذا قارين الأجل فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، وإياكم أن ترجعوهن مضارّين لتظلموهن، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا جرم أن أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع ويضارّوهن لأشبه بمن يتخذون آيات الله هزواً، ذلك أنهم يطلبون الباطل بالحق، والجهل بالعلم، فكأنهم جعلوا الآيات هزواً. ثم ذكر الناس بالنعم فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ بالحياة والصحة والدين والمنزل، فإذا أضعتم الأيام في التنغيص والأكدار كانت الحياة وبالاً والعيش خبالاً والعلم ضلالاً.

ثم ختم المقال بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ ﴾ أي أنفع ﴿ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾ من دنس الآثام ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ﴾ أن الحياة لا تسرّ ولا تنفع إلاّ إذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب، وعاشا قريري العين، فلا طلاق إلا بإحسان، ولا إمساك إلا بمعروف، ولا منع للزوجة عن زوجها إذا أحبت الرجعة إليه، فتكون الحياة سعادة، والموت بعدها شهادة، والبنون قرّة، والأصهار مودّة. فإذا خالفتم ما رسمنا، وجهلتم ما علمنا، وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية، والأحكام الشرعية، وظننتم أن هذا هو الإسلام فما أنتم أيها الناس إلاّ أضل من الأنعام ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ العواقب، ولا تدركون ما يكون من المصائب، فأنا إن حذرتكم المغاضبة ومنعتكم المشاقة، فما أردت إلاّ سعادة الحياة الدنيا وعقباها الآخرة، فإذا أشقيتم الأزواج واستحللتم أموالهن بغير حق، وأرهقتموهن في أمر فلتعيشنّ في شقاق، ولتموتن على حال أشبه بالنفاق، لأنكم اتخذتم الآيات هزواً، فكأنكم كفرتم بالقلوب، وآمنتم بالألسنة، فلست أريد منكم وثائق وشرائط ودعاوى، والقلوب منبوذة، والعقول مطروحة، وإنما أريد حياتكم السعيدة في أحوال سديدة. هذا هو دين الإسلام، هذا هو العلم والحكمة. فليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن هذا هو الدين، وهو المقصد، وما عداه فقشور. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذه الآيات تدخل في علم الأخلاق، وحسن المعاشرة، وطلب الفضيلة، والأخلاق العالية، أوَليس من العجيب أن يحذو الجنس البشري اليوم حذو هذه الأحكام، فقد علمنا في الأمة الأمريكية اليوم محكمة تحكم بفراق الزوجين متى يستبين أنهما لا يقيمان حدود المعاشرة، وقد أخذ الناس ينسلون إليها من كل حدب حتى ضاقت أرضهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق. وشرطوا أخيراً أن لا تقام دعوة إلاّ لمن أقام عندهم ستة أشهر، وقد بلغنا أنهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لأنه قذر الثياب وسخ الملابس، فقد أثبتت زوجته أنه لم يكن ليغتسل.

أفليس العالم أخذ يقترب من الإسلام شيئاً فشيئاً. ألا ترى أن هذه كمسألة جميلة، هذه بقبح الصورة وتلك بقذارة الجسم، وهل أجمع لهذه المعاني وغيرها من قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ ﴾.

يا رب إن الإنسان إلى الآن ما عرف حقك، وجهل سياسة الأزواج، وسياسة المدن، وقد عصوك في نظام المدن فظلموا، وعصوك في نظام البيوت ففسقوا، فأسألك اللهم رحمة بالأمم وبأهل المنازل،

إنك أنت الرحمن الرحيم. اللهم اهد الإنسان إلى أحسن حال. ولما كانت نتيجة الزواج الولادة، ولا حياة للولد بلا رضاع، وقد يختلف الزوجان في أمره أعقبه:

المقصد الثالث عشر

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ المطلقات ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ سنتين كاملتين ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ يعني الأب ﴿ رِزْقُهُنَّ ﴾ نفقتهنّ على الرضاع ﴿ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بغير إسراف ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ إلاّ بقدر ما أعطاها الله من المال ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا ﴾ أي: لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بإرضاعه، كما لا تُكره على إرضاعه إذا قبل الصبي لبن غيرها ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ ﴾ وهو الأب ﴿ بِوَلَدِهِۦ ﴾ أي: بأن يُطرح الولد عليه بعد ما عرف أمه مضارّة له، كما لا يُلزم أن يعطي أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الصبي من غير أمه، ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ ﴾ وارث الأب إذا مات ﴿ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة. والوارث نفس الصبي إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فعلى الأم، ولا يُجبر على نفقة الصبي غير الأبوين، وبه قال مالك والشافعي.

وقيل: على وارث الصبي أي الذي يرثه إذا مات مثل ما كان على الأب في حال حياته، وهم إمّا عصبة كالجد والأخ والعم وابنه، وإمّا كل وارث له من الرجال والنساء، وبه قال أحمد. فيجبرون على نفقة الصبي كلٌّ على قدر سهمه، وإمّا كل من كان ذا رحم محرم منه، وبه قال أبو حنيفة. ﴿ فَإِنْ أَرَادَا ﴾ أي الزوج والمرأة ﴿ فِصَالًا ﴾ أي فصال الصبي عن اللبن قبل الحولين ـ يعني فطاماً ـ ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا ﴾ بتراضي الأب والأم، ﴿ وَتَشَاوُرٍ ﴾ بينهما ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ زادا على الحولين أو نقصا، وهذه توسعة بعد التحديد، والتشاور: استخراج الرأي، من شرت العسل إذا استخرجته ﴿ وَإِنْ

أردتُمْ أن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ غير الأم لسبب مَا كأن تريد أمه الزواج مثلاً ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فلا حرج على الأب والأم ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم ﴾ إذا أنفقتم ما أعطيتم ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالوجه المتعارف وبالموافقة من غير مخالفة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ اخشوا الله في الضرار والمخالفة ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها. ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ يموتون من رجالكم ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ بعد الموت ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ينتظرن ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ في العدة ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ يعني عشرة أيام ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ فإذا انقضت عدتهنّ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ على أولياء الميت في تركهنّ ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ ﴾ من التعرض والزينة للخطاب ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ الذي لا ينكره الشرع ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن. ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ كأن يقال لها: أنت جميلة، أو صالحة، أو أريد أن أتزوج، أو نحو ذلك، لا أن يقال: إني أريد أن أتزوجك تصريحاً ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلا تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ ستذكرون نكاحهنّ ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ نكاحاً أو جماعاً، عبّر بالسر عن الوطء لأنه ممّا يُسرّ، ثم عن العقد لأنه سبب فيه ﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ المستثنى منه محذوف، أي: لاَ تواعدوهنّ مواعدة إلاّ مواعدة بقول معروف كالتعريض المتقدم ﴿ وَلَا تَعْزِمُواْ ﴾ لا تُحققوا ﴿ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ حتى تبلغ العدة وقتها، وسميت العدة كتاباً لأنها فُرضت به ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ما في قلوبكم من الوفاء والخلاف على ما قلتم ﴿ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ فاحذروا مخالفته ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب من مخالفته ﴿ حَلِيمٌ ﴾ إذ لم يعجله بالعقوبة. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

في هذا المقصد ثلاثة درر: الأولى: تربية الولد وإرضاعه، الثانية: مدّة المتوفى عنها زوجها، الثالثة: الخطبة في العدّة.

الدرة الأولى

يقول الله تعالى للرجال والنساء: ليكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنازع، فإن ذلك أكثر احتياطاً للولد، وعلى الأم إرضاعه لأن لبنها له أشهى، وثديها له أوفق من غيرها كما نصّ عليه الأطباء قديماً وحديثاً، فالولد بضعة منها، وقد أعدّ الله عزّ وجلّ لبنها له ولم يخزنه في الثدي إلاّ والولد يتحرك في جوفها، ويضطرب في رحمها، فعليهن إرضاعه لصحته، فقوله: ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ خبر معناه الأمر، أي: ليرضعن، وذلك على سبيل الاستحباب إذا قام غيرها مقامها، ولم يضره لبن الأجنبية، وقبله الصبي، فأما إذا لم توجد الأجنبية، أو كانت، ولم يقبل لبنها، أو قبله وأضر جسمه، فعلى الأم إرضاعه وجوباً، وعلى الأب لها كسوة ونفقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، هذه قسمة عادلة، على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن، ولا يصح استئجار الزوجة والمعتدة عند الحنفية، وهو وجيه، وخالف الشافعية، وعلى الأم الإرضاع.

تعجب كيف أخذ عزَّ وجلَّ ينهى الوالدين عن إضرار ولدهما، فقال: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ قرئت بالرفع والنصب، والماضي: ضارٌ، ويحتمل البناء للفاعل وللمفعول في الحالين، والمعنى على البناء للفاعل عند النهي، أو الخبر هكذا: لا تضر والدة ولدها، والباء زائدة، ولا يضر مولود له ولده، بين الله لكل عمله، هذه إرضاع، وهذا إنفاق، ورحمهما فقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الإرضاع ولا نفقة لها، ولا الوالد يكلف ما لا يستطيع من النفقة، فلما أن عرفهما ما عليهما وأنه رفع المشقة عنهما أخذ يوصيهما بولدهما وفلذة كبدهما، وقال لكل واحد على حدته: أوصيك بولدك، لا تضار والدة بولدها كان تسيء غذاءه، ولا تنظف ثيابه، أو تجهل الأحوال الصحية، أو تكثر المشاقة والمشاحنة مع الوالد فيكدر العيش ويتنغص، فيسري الحزن والمرض في اللبن فيضر الولد، وقال: ولا يضر المولود له ولده بإساءة الزوجة، أو ترك الإنفاق، أو نزعه منها، وهو بها متعلق، وليس يصح للزوجين أن يفطما الصبي دون الحولين إلا باستشارة وتراض بينهما.

يا عجبا لهذه الآيات، أوجب الله علم الصحة، وأوجب مبادئ التربية على النساء بقوله: لا تضر والدة ولدها، ولا جرم أن الجهل بتربية الصغار إضرار، وإياكم أيها المسلمون في أقطار المسكونة أن تظنوا إضرار الصبي قاصراً على ما يرتكب من جناية، كلا، فالجهل بالصحة هو الذي يهدم بنيان جسمه ويقوض أركان صحته ويذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحمام.

مبادئ علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوباً شرعياً على كل امرأة قبل زفافها، وعلى ولاة الأمور والعلماء والأغنياء التضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالاً لما أمر الله به من إحسانه للولد وترك إضراره.

علم الله حال الإنسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف، ولا سبيل لصلاحه إلاَّ بالتعلم، وقد علم الله الطيور في أوكارها بالإلهام ما اضطرت إليه واحتاجته في حياتها، ألا ترى كيف يتنزه أفراخ الطير في أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة، وكيف ألهم الله السخلات إذا ولدتهنّ النعجات أن لا تبغم حتى لا يسمع الذئب بغامها فيأكلها، ثم كيف أخرجت أفراخ الإوزة عالمات بالعوم يوم يولدن، وصغار العناكب عالمات بالنسج بلا تعليم ولا تدريب، وسلب الإنسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات، فقال في القرآن: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾، ولقد أيقنا أن الولد قليل المواهب، سريع العطب، والأم جهول لا تقوى على تقويم صحته إلاَّ بالعلم لما في النوع البشري من الجهل العام، فالسبيل القويم تعليم الفتيات والفتيان بعض تقويم الصحة.

وفي ظني أن عشرين درساً كافيات لكل من الصنفين، وإلا فكيف يتشاور الرجل والمرأة وهما يجهلان الصحة ومبادئ التربية، وذلك للمرأة ألزم، فعلى رجال الأمة أن يفكروا في هذا، فلقد سبقنا به أسلافنا أهل الأندلس، وكان النساء هنّ القائمات بالتمريض، وهنّ المطعمات للجدري، وعنهم أخذ الإفرنج هذه الدروس العلية فعلموا بناتهم وربّوهن تربية صحيحة، والله يهدي من يشاء.

ولقد رأيت لهؤلاء الإفرنجة في التربية كتباً، فكان أهمها كتاباً يسمى «تربية البنات» للمرحوم «صالح بك حمدي حماد» ترجمه عن «فنلون» الفيلسوف الفرنسي، وقد طبع في بلادنا بمصر، وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكمائهم مثل هذا الحكيم، فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الأولى وكذلك التباهي بالعلم، وأوجب أن تعلم المرأة العبادة مع التفكر، وحضور القلب، والإخلاص لله، وحرم عليها قراءة الروايات التي فيها أبطال خياليون لم يخلقوا في الأرض، فتكون طلبتها رجالاً فوق من تراهم، وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة، لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونساؤهم في التربية. أما المسلمون فإنهم قلدوهم فلم يحسنوا التقليد، ولم يرجعوا إلى كتابهم المقدس، ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هذا الأسبوع في الميثاق الوطني الاقتصادي التركي ما شرح صدري، وحمدت الله إذ رأيت في حياتي أمة إسلامية قد ظهرت، وقد جاء في هذا الميثاق أن التركية تعلم ابنها، وتربيه تربية علمية صحيحة موافقة للعلم، وهذه أول أمة أخذت تنهض بعد خمود الأمم الإسلامية أجيالاً طويلة، وسيجعلون التربية على أساس شرقي إسلامي بالاستقلال الفكري العقلي، لا كالتربية الإفرنجية المزوّرة التي انتشرت في مصر وبعض بلاد الإسلام، وأنا واثق أن الأمم الإسلامية سيتبعون الأمة التركية في نهوضها واستقلالها في كل شيء.

ولما كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكرته هنا لفائدته، فقد جاء في الجرائد أنه قد قرّره ١١٣٥ عضواً منتدباً من طبقات مختلفة من صانع، وزارع، وتاجر، وعامل، في تركيا نائبين عن الأمة في المؤتمر الاقتصادي المنعقد في أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا، وكان تقرير هذا الميثاق بالإجماع.

المادة الأولى: أن تركيا عنصر من عناصر السلام والارتقاء في العالم، مستقلة داخل حدودها القومية استقلالاً لا شائبة فيه.

المادة الثانية: أن الشعب التركي قد حصل على سلطانه القومي بما ضحاه من دمائه وأرواحه، فهو لا يتنازل عن هذا السلطان القومي بأي ثمن، وهو ظهير إلى الأبد لمجلسه وحكومته القائمتين على أساس السلطة القومية.

المادة الثالثة: أن الشعب التركي شعب معمر لا يقع شيء من التخريب بيده، وكل مساعيه مبذولة في سبيل إعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية.

المادة الرابعة: أن الشعب التركي يعمل جهد الطاقة لإنتاج المواد التي يستهلكها، وهو كثير السعي وينفر من الإسراف في الوقت والثروة والواردات الأجنبية، وشعاره العمل في النهار، وفي الليل إذا اقتضت الحال لإنتاج المحصولات القومية.

المادة الخامسة: أن الشعب التركي عالم بأنه جالس على خزائن الذهب ويحب غابات بلاده كحبه لأولاده، ويقيم للأشجار عيداً، ويغرس غابات جديدة، ويستثمر مناجمه لاستعمالها في حاجاته القومية، ويسعى لأن يعرف ثروته أكثر من معرفة غيره لها.

المادة السادسة: أن عدونا الأعظم هو العقوق، والكذب، والرياء، والكسل، وقاعدتنا في كل شيء أن نكون ذوي صلابة دينية في كل شيء بشرط الابتعاد عن التعصب، ونقتبس دائماً كل جديد مفيد بسرور وابتهاج، والشعب التركي ينفر من الدسائس التي يدسها الأعداء ضد مقدساتنا وأوطاننا، وأشخاصنا، وأموالنا، ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة.

المادة السابعة: الترك عشاق العلم والعرفان، وهم يصرفون أيام حياتهم في سبيل الاكتساب حيثما وجدوا، غير أنهم أبناء وطنهم قبل كل شيء، وهم يحتفون بيوم المولد باعتبار أنه عيد كتاب أيضاً.

المادة الثامنة: أن أعظم ما لنا زيادة نفوسنا التي نقصت أيام الحروب الكثيرة التي توالت علينا، والفاقة التي منينا بها، وأن يزداد شعبنا قوة وصحة، والتركي يتقي الميكروبات، والهواء الفاسد، والأقذار، ويحب الهواء الطلق النقي، والشمس، والنظافة، ويسعى للاقتداء بأسلافه في الفروسية، والرماية، والقنص، والسباحة، وغير ذلك من الرياضات البدنية، وبمقدار اهتمامه بدوابه يهتم بإصلاح جنسها ونسلها.

المادة التاسعة: التركي صديق للأمم التي ليست عدوّة لدينه وقوميته وأوضاعه، وليس هو مبغضاً لرؤوس الأموال الأجنبية، غير أنه لا يعامل المتاجر التي لا تخضع للغته وقانونه، مع أنها موجودة في وطنه، وحيثما وجد التركي تجدداً في العلم والصناعة يبادر إلى اقتباسه مباشرة، ولا يرغب في كثرة الوسطاء بأي عمل من الأعمال التي يقوم بها.

المادة العاشرة: التركي يحب السعي والعمل، وهو ناصع الجبين، لا يحب الاحتكارات الاقتصادية.

المادة الحادية عشرة: الترك يحب بعضهم بعضاً مهما اختلفوا في الصناعات والطبقات والأعمال، وإذا اتحدت أعمالهم ومسالكهم، فإنهم يكونون يداً واحدة فيها، ويقومون بالسياحات بقصد التعارف، والوقوف على أحوال الوطن.

المادة الثانية عشره: أن المرأة التركية، والعالم التركي يعملان لتربية الأطفال، وفقاً لقواعد هذا الميثاق الاقتصادي أزمير ٤ مارس سنة ١٩٢٣.

وإنما ذكرته هنا برمّته لأنهم جعلوه مما تربي المرأة ولدها على مقتضاه، وهو أقرب للآية هنا، فإن الرجل والمرأة أمرهما الله ألا يضرا ولدهما، ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته، ومصالحها، واقتصادها، وعدم الإسراف، فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية، أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقي والشمس والأعمال الرياضية، أليس من المفيد له حب بلاده واستخراج كنوزها، وحب دينه والتمسك به، كما في هذا الميثاق، فهذا قوله تعالى: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ على معنى لا تضر والدة ولدها ولا مولود له ولده، كما ذكره المفسرون. وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي وارث الأب أو وارث الصبي، وهم الأقارب على تفصيل يختلف باختلاف المجتهدين، فيكون في مال الصبي عند الشافعي، لأنه الوارث للأب، أو كل وارث له محرم عند أحمد على حسب أسهمهم في ميراث الصبي لو مات إلى غير ذلك، ثم قال: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ ﴾ المراضع ﴿ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية، وهو ظاهر.

الدرة الثانية

في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ الآية

يأمر الله عزّ وجلّ المتوفى عنهن أزواجهن أن يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشراً، يقال: إن الجنين لا يتحرك إلا لثلاثة، وقد يتأخر لأربعة، فاعتبر أقصى الأجلين، وزيدت العشر استظهاراً، ومن عجب أمر العدّة فترى المطلقة بثلاثة الأشهر أو بالأقراء، والمتوفى عنها زوجها بالأشهر والأيام ليرينا الله عزّ وجلّ اختلاف الصور واتحاد المعنى، فالمعنى براءة الرحم في الجميع، وزيدت أيام معدودات في المتوفى عنها زوجها مراعاة للآداب ومجاملة، فليس من حسن العشرة الإسراع بالتزوج بعد الموت، والاكتفاء بثلاثة أقراء، فربما تزوجت بعد شهر وأيام، فحدد الله ذلك الأجل تحقيقاً لبراءة الرحم، وحثاً على حسن المجاملة، ومراعاة لحقوق الزوجية، ويظهر لي أن المرأة لو زادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها، وأجمل، وأدلّ على حسن خلقها إن كانت عفيفة حسنة السيرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

خصّ عموم الآية بالحامل لآية: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[الطلاق: ٤] فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب، ويباح لها كل ما اضطرت إليه، وإذا اكتحلت بالليل فلتمسحه بالنهار، فإذا بلغن أجلهن وانقضت عدتهن فلا جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن في أنفسهن من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة بالوجه المعروف الذي يرضاه الشرع، ولا ينكره العرف ولا تأباه الأخلاق.

أفادت الآية أن المسلمين متضامنون، فعليهم كف العاصي، وردع الفاسق إذ خاطب الناس بقوله: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فإن قصرن فعليكم الجناح، وليس ذلك قاصراً على هذا المقام، فالمسلمون جميعاً متضامنون، فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ معاقب إذا قصر همه على نفسه وجهل مصلحة العموم.

الدرة الثالثة

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية

ذكر الله عدة المتوفى عنها زوجها، وحرّم عليها الزينة حداداً على الزوج، ثم أباح أن يتعرضن للخطاب، ويتزينّ بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدة، فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يعدموهنّ الصبر في العدة. أمر الله النساء بالحداد، وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجونهن ولا يذكرونهن بأمر الرجال، وأباح رحمة بالناس التعريض، وهو من قسم الكناية فليس من الحقيقي ولا المجازي. ولقد روي أن سكينة بنت حنظلة تأيّمت فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدّتها، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحقّ جدّي عليّ وقدمي في الإسلام، فقالت سكينة: غفر الله لك أتخطبني في العدة، وأنت يؤخذ عنك، فقال: إنما أخبرتك

بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة في عدة زوجها أبي سلمة، فذكر لها منزلته من الله عزّ وجلّ، وهو متحامل على يده، حتى أثر الحصير في يده صلى الله عليه وسلم من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة.

يقول: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيما كان تعريضاً مثل هذا أو مكتوماً في النفس بلا تصريح ولا تعريض، ولما كان من عادة الجهلاء إذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة في عدة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها، ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدة، نهوا عن ذلك الزنا، فيكون السر الجماع، وهو قول الشافعي، وهكذا روي عن ابن عباس.

وقال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني ... كبرت وأن لا يحسن السر أمثالي

بسباسة اسم امرأة، فلم يبح إلاّ بالقول المعروف، وهو التعريض، ثم قال: ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا ﴾ أي لا تقطعوا عقدة النكاح حتى ينتهي ما كتب من العدة.

المقصد الرابع عشر

المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾

التفسير اللفظي

يقول تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ لا حرج عليكم ﴿ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ تجامعوهن ﴿ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي إلا أن تفرضوا أو حتى تفرضوا، أي لا تبعة على المطلق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسمّ لها مهراً، فإذا كانت ممسوسة فعليه المسمى أو مهر المثل، وإذا كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها، فلها نصف المسمى ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ متعة الطلاق ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ ﴾ مقداره الذي يطيقه ﴿ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ قدر إمكانه وطاقته، فمتعوهن ﴿ مَتَٰعًا ﴾

تمتيعاً ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي من غير ظلم ولا حيف، حقّ ذلك ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى المطلقات بالتمتيع ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ تجامعوهن ﴿ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وقد بينتم مهورهن ﴿ فَ ﴾ عليكم ﴿ نِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ أي نصف ما سميتم من مهرهن ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ أي إلاّ أن تترك المرأة حقها على الزوج ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ أي أو يترك الزوج حقه على المرأة فيعطي مهرها كاملاً ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ ﴾ أي وأن تتركوا حقكم أيها الأزواج والزوجات بأن يعطي الزوج المهر كاملاً، وأن تسقط المرأة كل مالها على الزوج ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ ﴾ التفضل ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ يقول للمرأة والزوج: لا تتركوا الفضل والإحسان بعضكم إلى بعض ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الفضل والإحسان ﴿ بَصِيرٌ ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها وما يجب فيها ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ أي الفضلى من بين الصلوات، وهي صلاة العصر، وقيل الظهر، وقيل الفجر، وقيل المغرب، وقيل العشاء، وقيل هي غير معينة كليلة القدر، وسيأتي زيادة بيان في الإيضاح ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ في الصلاة ﴿ قَٰنِتِينَ ﴾ مطيعين خاشعين، ذاكرين الله في قيامكم، قائمين بالركوع والسجود ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره ﴿ فَ ﴾ صلوا حال كونكم ﴿ رِجَالًا ﴾ أي راجلين وهو جمع راجل، كقيام وقائم ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ على الدواب جمع راكب، أي: فصلوا مشاة على أرجلكم، أو ركباناً على دوابكم، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، وذلك في حال المسايفة والمقاتلة في وقت الحرب ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ أي فإذا زال خوفكم ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي فصلوا صلاة الأمن ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ أي ذكراً مثل ما علمكم ﴿ مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ من صلاة الأمن ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ يا معاشر الأزواج ﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ زوجات فليوصوا ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ في أموالهم متعوهن ﴿ مَّتَٰعًا ﴾ تمتيعاً بالنفقة والسكنى وما تحتاج إليه، ووصف المتاع بقوله كائناً ﴿ إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ غير مخرجات من بيوتهن، والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام ثم نسخ بآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ الخ ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ بعد الحول ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ ﴾ من التزين والتعرض للخطاب ﴿ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ بما ليس بمنكر شرعاً ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ بالنقمة لمن ترك ما أمر به ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ ﴾ أي نفقة العدة ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ حق ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وليس بواجب لأنه فضل على المهر على وجه الإحسان ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ما سبق من أحكام الطلاق والعدة ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ وهذا وعد من الله بأنه سيبين لعباده ما يحتاجون إليه من الأحكام والدلائل الدالة على جماله وإبداعه مثل ما ظهر في زماننا وجاء في هذا التفسير وقرأه المسلمون في أقطار الأرض فهو مصداق للوعد هنا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الرابع عشر.

في هذا المقصد جوهرتان: الجوهرة الأولى: المتعة، والثانية: اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها إلى الحول.

الجوهرة الأولى

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعة من مهر ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ الآية: إذا تزوج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهراً، ثم طلقها قبل المسيس، يجب لها عليه المتعة بمنطوق الآية عند الشافعي وأبي حنيفة وأحمد، ويستحب عند مالك، فإن سمى لها مهراً؛ وقد طلقها قبل الدخول بها؛ فلا متعة لها، والمطلقة المدخول بها مفوّضة، أو مسمى لها، لا متعة لها، لأنها تستحق المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، وفي القديم عند الشافعي، وفي رواية أخرى عن أحمد، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾. قال ابن عمر: لكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها المهر، ولم يدخل بها زوجها، فحسبها نصف المهر. ومن لطيف هذا المقام أن الشافعي رضي الله عنه قدّم القياس، أي قياس المدخول بها مفوّضة ومسمى لها على المفهوم، ألا ترى أن مفهوم قوله: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يقتضي أنه لا يجب للممسوسة متعة فإن قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وارد على المرأة المقيدة بما ذكر، المتعة مقدّرة بحال الزوج يساراً وإعساراً لا قيد لها ولا حصر في أمر معلوم، فالعرف والمروءة هما القاضيان في ذلك، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا﴾ أي تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة، وقد حق ذلك ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فانظر كيف جعله حقاً، وكيف مدحهم بالإحسان، ففيه إيجاب ومدح، فالإيجاب عند المشاحنة والمدح تهييج للإحسان المروءة، ولذلك متع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء، ومتع الحسن ابن علي رضي الله عنهما زوجته بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق. فأما تقدير ابن عباس لأعلاها بخادم، ولأوسطها بثلاثة أثواب: درع وخمار وإزار، ولأقلها بشيء من الفضة أو مقنعة، أو نحو ذلك كمذهب الشافعي، وتقدير أبي حنيفة لها بنصف مهر مثلها، وتقدير أحمد لها بما تجزئ فيه الصلاة، فذلك كله لاختلاف الأحوال ولأمور خاصة، وإلا فالمروءة في المتعة لا حدّ لها، وللقاضي أن ينظر ما يقتضيه الحال، ولا يتقيد بقيد، ألا ترى كيف يقول: ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من المروءة والشرع، وكيف يصفه بالحسن، وليس المعروف والمروءة خاصين بمن لها متعة، بل المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهراً ونصف مهرها نالت حظاً من السعة في المقدار الذي يعطيها الزوج، ألا تراه يقول: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. يقول: لهن نصف المهر إلا أن يتجاوزن فيتركنه للرجل فلا يأخذن منه شيئاً، أو يعفو الرجل عن النصف الآخر، وقد ساق إليها المهر كاملاً، وقد عفا عن حقه وهو التشطير، ثم رغب الرجال وخاطبهم قائلاً: وأن تعفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لأنكم قوّامون عليهن، والرجل أولى بالفضل وأحقّ بالإحسان. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعفو، ولما كان مثل هذا الفضل عظيماً زاد في الحضّ عليه فقال: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بالمماحلة والمغاضبة وإقامة القضايا ورفع الدعاوى، وإيجار المحامين ونحو ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع فضلكم ولا إحسانكم، فإياكم أن تضيعوا أوقاتكم ومروءاتكم وشهاماتكم في المشاجرات والمماحلات

فتنسوا المعروف والمروءة والفضل، فذلك لن ينبغي أن يكون، ليحسن بعضكم إلى بعض فلا تضيعوا المعروف بينكم بالعداوات، ولا تتركوا الصلاة، بل حافظوا عليها، ولا يشغلنكم أمر الطلاق والمتعة والمقاضاة وأحوالكم المؤلمة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات عن أجلّ الأمور وأعلاها وأرفعها وأوفاها، وهما شيئان: المعروف بينكم، ورجوع الأفئدة لله في الصلوات ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ كلها ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ الفضلى، والأفضل يسمى الأوسط، وهي صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً»، وقال عليه الصلاة والسلام: إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب، وإنما فضلت لأن الناس مشغولون بأعمالهم من تجارة وزراعة وصناعة، وقد خارت القوى، وسئمت النفوس.

الصلاة راحة للنفوس الإنسانية من الهمّ، ومدعاة للسرور، ولعروج الروح عن هذا العالم الذي ملئ نصباً وتعباً، لا بد للناس من أويقات يروّحون فيها أنفسهم من مآزق الحياة، وأثقال الهموم التي تنقض ظهورهم، وتكدّر صفاءهم، وتحملهم الأثقال، وفيها تحيط بهم الآلام، فليصلوا وليقوموا لله قانتين، أي خاشعين، وإياكم أن يشغلكم الخوف من حرب أو غيره، فإن خفتم فصلوا رجالاً أو ركباناً، جمع راجل وراكب، كقيام جمع قائم، سواء أكنتم واقفين أم ماشين، محاربين أو خائفين، من سبع أو غيره، فأوفوا بالركوع والسجود، وليكن السجود أخفض من الركوع، وصلوا مشاة على أرجلكم، أو ركباناً على دوابكم، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ومنع أبو حنيفة صلاة المشاة، وذهب إلى التأخير كما أخر ﷺ صلاة الظهر والعصر، وقضاهن بعد غروب الشمس يوم الخندق، واحتجّ الشافعي بهذه الآيات، وهذا حال الخوف ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ أي ذكراً مثل ما علمكم ﴿ مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ من صلاة الأمن.

ثم رجع إلى مسائل الأزواج ليختمها بعدة المتوفى عنها زوجها فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ الآية وهي:

الجوهرة الثانية

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث، هاجر إلى المدينة ومعه أبواه وامرأته، وله أولاد، فمات، فرفع ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية، فحرم المرأة من الميراث، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً كاملاً، والآية تدل على مجموع الأمرين أن لها النفقة والسكنى، وأن عدّتها سنة كاملة، وهي مخيرة بين السكنى في منزل زوجها وبين الخروج، وتسقط النفقة، ونسخت الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث، ونسخت عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر، ورأى الشافعي لها السكنى، ولم يرها أبو حنيفة رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَصِيَّةً ﴾ أي فليوصوا وصية، وقوله: ﴿ مَّتَٰعًا ﴾ أي متعوهن متاعاً، و﴿ إِلَى ٱلْحَوْلِ ﴾ صفة لـ«متاعاً»، وقوله: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ وصف مؤكد، وقوله: ﴿ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ ﴾ أي من التزين والتعرض للخطاب.

ولما أن ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات في عدتهن، فقال: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ ﴾ نفقة العدة ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. ومن فسر المتعة بغير نفقة العدة جعلها شاملة للمندوبة والواجبة، ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة، وهذا المقام مكارم أخلاق، فعلى المرء أن يجدّ في الفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب. اهـ.

تفصيل الكلام على قوله تعالى

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾

أمر الله بالمحافظة على الصلاة في هذا المقام، ويجب ذلك في جميع شرائطها، كالطهارة من الحدث والنجس في البدن والثوب والمكان، وبالمحافظة على ستر العورة، استقبال القبلة، العلم بدخول الوقت، وبالمحافظة على جميع أركانها كالنية، وتكبيرة الإحرام، والقيام عند القدرة، وقراءة الفاتحة، الركوع الرفع منه، والسجود الأول والثاني، والتشهد الثاني، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه، والسلام، وهكذا مع اختلاف الأئمة في ذلك بالزيادة والنقص، وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواء أكان ذلك من أعمال القلوب أم من أعمال اللسان، وأهم الأمور في الصلاة رعاية النية فإنها هي المقصودة أصالة من الصلاة، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[طه:١٤].

وهنا يرد سؤال فيقال: المحافظة مفاعلة من الجانبين، فإذا حفظ العبد صلاته، فأين الطرف الآخر؟ قالوا المعنى: احفظ صلاتك ليحفظك الله، أو لتحفظك الصلاة من المعاصي ومن استذلال المحن والبلايا لك، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[المائدة:١٢]، ومعناه كما يقول الرازي رحمه الله: إني معكم بالنصر والحفظ إن كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وهذه الأدلة كثيرة في القرآن والحديث.

وهذه الأمور لا يعقلها الناس إلا بالتجربة، فإذا قام امرؤ بأمر الصلاة، وكان حاضر القلب في جميع الأركان، وفي القراءة والركوع والسجود والتشهد، هو مع ذلك نظيف الظاهر، حاضر القلب، مخاطب ربه، طالب منه الهداية كأنه أمامه، وهو يناجيه ويكلمه ويحمده، ويقول له: إن كل حمد صدر من مخلوق، فهو لك، وأنت الرحمن الرحيم، فالعبادة لك، والاستعانة بك وحدك، وعند الركوع يتذكر تلك العظمة، وهكذا عند السجود، ويقول في التشهد: إن كل تحية وكل تعظيم فإنما هو لك، ومعلوم أن الغافل الذي يقول: إياك نعبد، وقلبه في حقله، أو في دكانه، كاذب في دعواه، كما قال الإمام الغزالي: غير مصلّ ولا عابد، وقال أيضاً: إن فتوى الفقهاء تسمي هذا مصلياً ما دام قلبه عند النية، والفقهاء لا علاقة لهم بأمور الآخرة ولا بتهذيب النفوس، وإنما الفتوى معلقة بالظواهر، والظاهر هنا أنه صلى، فنقول: له ما لنا، وعليه ما علينا، وليس له في الآخرة من نصيب، والصلاة بلا حضور قلب، جسم بلا روح، ولفظ بلا معنى، هذا ملخص ما قاله الإمام الغزالي والعلماء الصالحون والحكماء المحققون.

أقول: إذا قام المصلي بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصي كما تقدم، ومن بعض المحن والبلايا، وهل صاحبها ينصره الله؟ هذا السؤال له أحد جوابين:

أما الأول فإنا نقول: لينظر إن عمل على هذا الوجه الأكمل في نتائج حاله، وإذن يجد المعونة من الله. وهذا لا يطلع عليه إلا هو نفسه، وإذن يكون خاصاً به، فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس.

وأما الثاني: فإننا ننظر في العلوم التي كشفها علماء أمريكا وأوروبا في هذا المقام التي اطلعنا عليها، وإن كان لها نظير في كتب غير مشهورة عند أسلافنا الذين ورثوا علوم الأمم فنقول:

اعلم أن النفوس الإنسانية المتصرفة في هذا الجسد ذات قوى كثيرة ومآرب شتى وأعمال كثيرة، والناس فريقان: فريق ترك تلك القوى في غفلاتها، تجري تبع هواها، فاللسان يقول ما يخطر بالنفس، والعين يطلق سراحها، وجميع البدن حرّ في تصرفه، لا يردعه رادع من عقل ولا دين ولا مروءة، فهذا يصبح ضعيف الأثر، خامد النفس، أما الآخر فهو الذي حفظ هذه القوى وخزنها في نفسه، ولم يفرط فيها، فالكلام بمقدار، والنظر والسمع والعقل كل ذلك موزون بميزان، فهذا قد حفظ «البطارية» الكهربائية السالبة والموجبة في نفسه، والمغناطيسية الحيوانية التي كسبها فلم يفرط فيها. وإذن ببقائها تكون عوناً له مساعداً، وهو لا يشعر. أما الأول فقد تبعثرت قواه وطاحت وتفرقت، فهذه القوى ببقائها في النفس تجعل لصاحبها احتراماً وجذباً للأفئدة وحباً.

ولقد اطلعت لهم على تجارب يعلمونها لتلاميذهم تعوداً لهم على حصر الفكر وقوة الإرادة كأن يأمروهم بالتفكير في أمر واحد زمناً ما، أو يكرروا كلمات بعض دقائق خاصة بالغرض الذي يطلبونه، أو يحبسوا الهواء الداخل في الرئتين زمناً ما داخلاً أو خارجاً، ويقولون لهم: إياكم والتحدث عن أنفسكم، والفخر في المجالس وذكر الوقائع، لإظهار العواطف المختلفة، وإياكم أن تعاقروا الخمر أو تجترحوا الآثام الشهوية، فإن كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوة من المغناطيسية المودعة في نفوسكم، فاحفظوها وتعلموا كتمان الأسرار والسكوت والسكون، ويقولون: إن نتيجة هذا كله قوة الإرادة، فقوة الإرادة عندهم هي كل شيء. هذا كلام علماء الجمعية النفسية في أمريكا، وهذا هو الذي دونوه، ومن مقالهم أنهم يأمرون التلميذ أن يجلس في حجرة وحده ويقوم ذهاباً وإياباً مخاطباً شخصاً خيالياً بكلمات ذات معنى أو غير معنى حاضراً عند كل كلمة بنبرات حسنة حازمة كأنه خطيب، ويكون ذلك مقدار نصف ساعة، وإن كانت تلك الكلمات في غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه، والقصد من ذلك قوة العزيمة والإرادة والهمة، هي كفيلة بتحقيق الأغراض، ولهم فوق ذلك ما لا وقت لذكره.

وأنا أقول: أنا لست الآن في مقام الاستهجان أو الاستقباح، وإنما الذي أسمعتكه من كلامهم جار نظيره في ديننا، ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦] وتلك المسؤولية يظن الناس أنها في الآخرة وحدها، والحق أنها في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١] والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معاً، وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحهم في

الدنيا فعذبوا فيها وفي الآخرة، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾[هود:٢١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾[الرعد:١١] .

فانظر كيف جعل الأمر راجعاً إلى خسارة النفس وإلى تغيير ما بالنفس، فالنفس وقواها رأس مال الإنسان، فإذا بذر فيها بالضحك وكثرته، والكلام وثرثرته، والحزن والفرح، واللذات، ضاعت قواها فلم يجد له معيناً أولئك ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾[الحشر:١٩] فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لا يقدرون على كبح جماحها، ولا يحصرون عزيمتهم، يصبحون عالة على المجموع، ولقد جاء في الحديث ما يقرب من هذا: «من أصبح وهمومه همّ واحد وقاه الله الهموم كلها»، أوليس هذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[الإسراء:٣٦] .

ولقد تجد في القرآن ذكر الهمة وعلوّها، وذكر أولي العزم، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف:٣٥] فجعل المدار على العزيمة، وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوة الفكرية وحصرها في غرض واحد، أوليس هذا هو كلّ، بل أكثر مما قالته جمعية المباحث النفسية لتقوية الهمة والنصرة والسعادة. أفلا تتعجب كيف يقول الله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾[البقرة:٤٥] .

وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التي يحضر القلب فيها، لا صلاة أكثر المسلمين النائمين اليوم. أولست ترى أن تمرين الأمريكيين بالخطابة في حجرة مع حضور القلب للكلمات التي تقال لأجل علو الهمة وقوة العزيمة، هو تقليد لصلاتنا، سواء أعلموا أم لم يعلموا.

أفلستَ أيها الذكي النبيل وأنت تقرأ هذا تتعجب معي غاية التعجب من المباحث النفسية التي جاءت مؤيدة لديننا، بل هي لم تصل إلى جلاله وجماله، وأن هؤلاء القوم لما حرموا من جلال الديانات التي تأخذ بمجامع عقولهم، بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة، وأنهم لو كان عندهم ما سمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها، أوليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾[فصلت:٥٣] .

أفليسَ هذا الذي ذكرته مما أراه الله لنا في الأنفس كما أرانا جماله في الآفاق. أفلستَ ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب في الأفعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته، مقوية للعزيمة نافعة في الدنيا والآخرة، وأن قوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾[البقرة:٤٥] له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس في مجلدات، وهم لا يعلمون أنها في الإسلام، وأن العامة ربما سعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لا يعلمون.

وأن أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقاً وغرباً، وهم يزكون ويصلون كانوا على حق، وأن المتعلمين تعليماً ناقصاً في مصر، وسائر أقطار الإسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم، فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية في نفوسهم، وأن هذا الذي قلته بلسان العصر الحاضر أقرب إلى أفهامهم، أنا موقن أن الأذكياء يجيبون لما دعوتهم إليه بعقولهم لا بالتقليد، أفليس هذا يوضح ما قاله علماؤنا، يقول هؤلاء الأمريكيون: إن الفرق بين تاجرين وعالمين تشابها في التجارة والعلم، واختلفا في العمل والشهرة، أن أحدهما قوي الإرادة تام المغناطيسية، إليه اتجهت الأفئدة، والآخر ضاعت

مغناطيسيته الحيوانية فلا محب له ولا جاذبية عنده، أليس هذا كلام أكابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب في الصلاة أولاً، ثم في سائر الأقوال والأفعال.

إيضاح

فإذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥] فذلك لأنها علمتنا حصر الفكر والاتجاه لله وخشيته، فقويت العزيمة، فكانت المغناطيسية عندنا تامة، أوليس ما يفعله علماء النفس بأمريكا من حصر أفكار تلاميذهم في نقطة واحدة ما بين ٥ دقائق و١٥ دقيقة، بحيث لا تميل عينه يمنة ولا يسرة، ويقولون: إنه بحصر الفكر قوى عزيمته، وبقوة العزيمة والتمرين مراراً يصير قادراً على حفظ قواه، فلا يقع في الإسراف فيها بالشهوات، وإذن يصير عضواً عاملاً في الأمة، أفليست المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها، من التكبيرة إلى السلام، ستنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتمتاز هذه عن آراء الأمريكيين من علماء النفس، أن التفكر في الله قد انضم هنا إلى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره في نقطة يراها بعينه يتجه لله فينال الأمرين: حصر الفكر، والاتجاه لله معاً مع الاعتقاد الديني، فيكون الله في عونه وقواه المغناطيسية كاملة تامة، فهو مستعد للمساعدة ممن هم حوله بتسخير الله، وتكون قوته النفسية موفورة، هذا هو الذي حضرني عند كتابة هذا الموضوع، فإذا كنا نرى الشبان المتعلمين في ديارنا يقرؤون هذا، ويعضهم يعمل به ابتغاء الغنى من طريق حصر الفكر، أفليس هذا بعينه في ديننا. ولأذكر لك شذرات من أخبار آبائنا المصلين الذين فتحوا فارس والروم، وهم كانوا يصلون ويصومون، ونحن لا صيام ولا صلاة مع أننا علماء بلغات الفرنجة وآدابهم وخمرهم، ونحن غنيمة لهم باردة، وبآدابهم معجبون، وفي محالّ لهوهم وشرابهم جالسون ولمالنا فيها منفقون.

١ ـ قال صلى الله عليه وسلم: «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها»، وكان يقول: «إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها».

٢ ـ وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل الله له صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عزّ وجلّ فيها.

٣ ـ وكان مسلم بن يسار من الخاشعين في صلاتهم، وقد نقل عنه أنه سقطت أسطوانة في المسجد وهو يصلي فلم يشعر.

٤ ـ ومثله عامر بن عبد الله الليثي، كان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف، وتحدث النساء في البيت، ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، أليس هذا هو الذي يلتمسه علماء الجمعيات النفسية، وفي أمريكا وأوروبا لما تضعضعت دياناتهم، وذهبت ريحها، أوليس هؤلاء المسلمون هم الذين فتحوا البلاد شرقاً وغرباً، وهم مصلون، إن المسلمين اليوم في سكراتهم يعمهون، إني لعمرك أيها الفطن الذكي لم أذكر لك أعمال الجمعيات النفسية ليكون برهاناً على أن ديننا حق بل لأبين للمتعلم الذي عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلاً عما كان عليه آباؤه الأولون.

حكاية مصرية

قد كانت أمتنا المصرية في أواسط القرن التاسع عشر، وهو القرن الماضي ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس المرحوم «محمد علي باشا» وكان يرسل الشبان في الإرساليات إلى فرنسا، ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين، وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لدروسهم، وترسل لهم خطابات بختم الأمير يظهر رضاه عنهم، في كل ما ظهر نبوغهم فيه، فاتفق ذات يوم أن مراسلاً لإحدى الجرائد الكبرى ـ وأظنها الطان ـ كان يجوب في المزارع وقت الفجر لغرض ما، فلمح من بعيد شبحاً، فذهب إليه إذا هو تلميذ مصري بجانب ماء جمد فصار ثلجاً، وكان ذلك زمن الشتاء، والتلميذ يلتمس قطرات منه ليتوضأ، فتعجب وسأله: لم هذا؟ فقال: أتوضأ لصلاة الصبح، فرجع وكتب مقالة عنوانها «مصر ستغتال أوروبا» وذكر الحادثة بتمامها، وقال: إذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج، فهذه العزيمة لا مثل لها في أوروبا، وهذه العزائم القوية تهد الجبال وتخرب المدن، وسيكون المصريون والشرقيون بهذه التعاليم، أقوى من أوروبا، ويرجعون إلى مج آبائهم الأولين، ويهدمون مجداً بنيناه وسداً أقمناه، وحصناً رفعناه. اهـ.

هذا استنتاج كتابهم في جرائدهم، فتطلعت أنظار أوروبا إلى تعاليم المصريين، فاحتال قوم منهم على بعض الحكام فأشاعوا الخلاعة والفسوق، وأغروهم باحتقار آبائهم ومجدهم ودينهم، فخر عليهم السقف من فوقهم، وآتانا العذاب في ديارنا ونحن صاغرون، أليس هذا الكاتب الفرنسي قد لخص معنى ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾، أوليس هذا العالم قد أدرك بفطنته أن مصر بأمثال هذا الشاب سترقى، وقد تمّ ذلك بعد سنتين، فإنها ملكت الحجاز والشام، وكادت تطير إلى أوروبا لولا ما حلّ بها من الجهل، إذ قامت تحارب خليفة المسلمين، أوليس كلام هذا الفرنسي عرّفنا سر ذكر هذه الآية ومعا الحرب إذ يقول: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ ﴾ أي فصلوا راجلين أو راكبين، وهي صلاة الخوف التي شرحها العلماء، أفليس ذكر الصلاة هنا مع الحرب يشعر بما ذكره ذلك الفرنسي، وقد صح ما تنبأ به ثم خمدت جذوة نار البلاد بالجهل والفسق بعد حين، أفلا يصح بعد هذا البيان أن نقول: إن الصلاة من قاموا بها نصرهم الله على أعدائهم، وذلك بقوة العزائم واجتماع القلوب، لعمري لقد وفيت لك المقام بغاية الاختصار.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ فاعلم أن فيها قولين يرجعان إلى معنى واحد:

أولهما: أن الصلاة الوسطى صلاة مجهولة لفائدة جهلها، وهي أن المصلي يتقن كل صلاة عسى أن تكون هي الوسطى، وذلك نظير ما في هذا العالم من الجهل الذي يثمر ثمراً لا ينتجه العلم، ألا ترى أن من أعظم النعم أن نجهل وقت موتنا لنجدّ ونغرس ليدوم العمران، هكذا هنا ليجدّ المصلي في كل صلاة.

وثانيهما: أن مجموع الصلوات الخمس هي الوسطى من الطاعات، فهي واسطة الطاعات، فلا هي أعلاها ولا هي أدناها، فإن أعلى الطاعات ما يمس القلب من الإيمان والعلم والحكمة الدينية، وهذا أفضل من سائر العبادات، وأدناها ما يكون من الأعمال الصغيرة كإماطة الأذى عن الطريق، فقد

جاء أن المؤمن حقاً من كملت فيه شعب الإيمان، «هي بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة»، رواه الشيخان هكذا على الشك من حديث أبي هريرة، فأعلاها الإيمان بالله وما عطف عليه، وأدناها كثير من الأعمال الصالحة، والصلاة من الأمور التي هي وسط بين الطرفين، وهذه الشعب ذكرها صاحب النقاية، وعدّها جميعها بطريق الاجتهاد، وهذا ما أردت ذكره في هذه الآية.

ولنرجع إلى المقام الذي فيه بحثنا العام، وهو:

المقصد الخامس عشر

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾

التفسير اللفظي

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تخبر يا محمد في القرآن ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ من منازلهم لقتال عدوهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ قيل ثمانية آلاف فجبنوا عن القتال ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مخافة القتل ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا﴾ فأماتهم الله مكانهم ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ بعد ثمانية أيام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ لذو منّ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على هؤلاء لإحيائهم، وعلى غيرهم إذ يبصرون ما يعتبرون به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك ولا يعتبرون ولا يستبصرون، ولما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه أمر المسلمين بالقتال ليفوزوا بالنصر أو التوبة فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله عدوكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول المتعلل عن القتال ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وعقوبتكم إن لم تفعلوا ما أمرتم به، ولما كان القتال لا بد له من مال أعقبه بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ أي يضاعف جزاءه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لا يعلم كنهها إلا الله ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي يقتر الرزق على عباده ويوسعه عليهم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ ألم تخبر عن الأشراف الذين يملؤون القلوب جلالة، والعيون مهابة ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ وهو يوشع أو شمعون أو اشمويل ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه ﴿نُّقَٰتِلْ﴾ بأمره ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي لعلكم ﴿إِن كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وأيّ داع لنا إلى ترك القتال، وأيّ غرض لنا فيه ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ من منازلنا ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ وذلك بسبي ذرارينا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ أوجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بعدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ حال كونه ﴿مَلِكًا﴾ ملكه عليهم ﴿قَالُوٓا أَنَّىٰ﴾ كيف، أو من أين ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وليس من سبط الملك وهم أولاد «يهوذا» ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنا من سبط الملك ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ليس له سعة المال لينفق على الجيش ﴿قَالَ﴾ اشمويل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ اختاره بالملك ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ فضيلة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي في علم الحرب والسياسة ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ الطول والقوة ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى﴾ يعطي ﴿مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بالعطية ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك، هنالك طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله إياه، فأجابهم بأن التابوت يأتيهم، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل العدو قدّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرّون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ سكون وطمأنينة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وعمامة هارون عليهما السلام ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما ﴿تَحْمِلُهُ﴾ أي التابوت ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إليكم، وكان في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت، فأصابهم بلاء، فتشاءموا من التابوت، فوضعوه على ثورين، فساقتهما الملائكة

إلى طالوت ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ في ردّ التابوت ﴿ لَآيَةً ﴾ علامة ﴿ لَّكُمْ ﴾ أن ملكه من الله ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين، فلما ردّ إليهم التابوت قبلوا ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ ﴾ خرج ﴿ بِالْجُنُودِ ﴾ من بلده إلى جهاد العدو ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم ﴾ مختبركم: أي يعاملكم معاملة المختبر ﴿ بِنَهَرٍ ﴾ وهو نهر فلسطين ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾ من النهر ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ فليس معي على عدوي، أو فليس من أتباعي ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ لم يشرب منه ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ هو مستثنى من قوله: ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾، ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ أي فكرعوا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ﴾ أي النهر ﴿ هُوَ ﴾ أي طالوت ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أي القليل ﴿ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ ﴾ أي قال الكثير لا قوة لنا ﴿ بِجَالُوتَ ﴾ هو جبار من العمالقة ﴿ وَجُنُودِهِ ﴾ لكثرتهم وقوتهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ ﴾ يوقنون بالشهادة وهم القليل ﴿ كَم ﴾ أي كثير ﴿ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بحكمه وتيسيره ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والإثابة ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي ظهروا لهم ودنوا منهم ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا ﴾ اصبب علينا ﴿ صَبْرًا ﴾ على القتال ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ بتقوية قلوبنا، وإلقاء الرعب في صدور عدونا ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أعنا عليهم ﴿ فَهَزَمُوهُم ﴾ أي هزم طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بقضائه ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ ﴾ النبي ﴿ جَالُوتَ ﴾ الكافر ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ والنبوة ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ من صنعة الدروع ومنطق الطير ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ كما دفع بداود شرّ جالوت عن بني إسرائيل ﴿ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ بأهلها. يقول: دفع الله بالنبيين عن المؤمنين شرّ أعدائهم، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد شرّ أعدائهم، ولولا ذلك لفسدت الأرض ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ بإزالة الفساد عنهم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ أي القصص التي اقتصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم إلى آخر ما تقدم من ذلك وغيره من أخبار الأمم الماضية حال كونها ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أصله. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

هاهنا فرغ الله عز وجلّ من إصلاح الأمة في أحوالها الداخلة، وللأمة حالان: نظام في داخلها، ودفاع عن بيضتها، وقتال عن حوزتها، ولقد مضى ما يمنع الهرج في البلاد، والحرج بين العباد، من الأصول الفقهية، والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية، وحفظ الأنساب، ومنع العقول من سكرتها بخمرتها، والأموال من ذهابها بضياعها، فمنع القمار، وحرّمه وحوّل مجرى الأموال إلى ما يحفظ المروءة والشرف، ويصون العرض، ويرضي الرب من بذله، للاتي كسرت قلوبهن، وشيكت أكبادهن بالفراق والطلاق، ولليتامى والأقربين والمساكين، ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات، والمحافظة على الأنساب إبقاء للألفة بين الناس، وتخليصاً لهم من الأرجاس، وبعثاً لهممهم، وتوجيهاً لجموعهم إلى ما هو نافع وجميل.

فلما أن فرغ من ذلك، شرع يحث الأمة على أن تدرأ عن نفسها العاديات وتستنهض الهمم لرد الهجمات ومهاجمة الأعداء، وقتال الظالمين.

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي صولة المستأسد الحامي

وكأنه عزَّ وجلَّ يقول: أيها الناس، لا يصدنكم التزاحم الداخلي، ولا التصادم والمعاملات عن التفكر في جلال الله بالصلاة، ولا يلهينكم مسائل الفقه كالنفقة والعدة، وأحوال المنازل عن ملاحظة الأعداء، فأصلحوا أمركم بينكم، ثم ائتوا صفاً ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ وإذا كنتم في الخوف، فصلوا راجلين وراكبين، أيقظ الأمة في ثنايا أحكام العدة والمتعة، ونحو ذلك، بذكر الله، وأدمج فيها حال الخوف. يقول: أيها المسلمون، إياكم أن تثاقلوا إلى الأرض، وترضوا بحياة المساكين الأذلاء، ولتكن منكم طائفة أعدت لجهاد العدو، وترصد أحواله، وترقب أطواره، ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها، ثم المتعة، وطفق يشرح حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الألوف، وكيف أماتهم الله، فلم يمنعهم الفرار من الموت، وكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله.

وهنا نشرح لك القضيتين اللتين ذكرهما الله في هذا المقام حضاً على الجهاد على طريقة المحاورة والمساءلة، ليكون أرسخ في الذهن، وأعون على الفهم، وأقوم طريقاً، وأقوى قيلاً، سأل بعض الطلبة بمدرسة دار العلوم ولنرمز لهم بحروف «س وص وع»، قال س: من أولئك الألوف، وما ديارهم وما قصصهم، وما مناسبة هاته القصة للاحقتها، وكيف أخرتا هنا، وكيف كان قصص موسى عليه السلام ومنّه وسلواه التي قد سيقت في أول السورة، وفي أي تاريخ ذلك؟.

اعلم أنه قيل إن قوماً من بني إسرائيل أمرهم ملكهم بقتال عدوهم فعسكروا، ولكن لم يكونوا بالشجعان الجحاجيح، ولا الصناديد القماقيم، بل استحبوا الذلة مع الراحة، واحتجوا بالوباء المخيم في أصقاع العدو، فحل بهم ما كانوا منه خائفين، وأخذ الموت يرهقهم، والهلاك يغشاهم، حين فروا على وجوههم من الموت هاربين، فدعا عليهم ملكهم، فماتوا في لحظة واحدة، حتى أروحت أجسادهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد بإعلامي إياك، وهو تعجيب، كما تقول: ألم تر إلى صنيع فلان، أي: هل رأيت مثل هؤلاء ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ زيادة عن عشرة آلاف ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ ذلك أن بني إسرائيل مكثوا في مصر عشرات من السنين وأربعمائة، ثم خرجوا إلى الشام، وقام الشيوخ بأمرهم نحو أربعمائة سنة، وكان أول قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل، ويقال له ابن العجوز، ويقال له ذو الكفل، كفل سبعين نبياً كما يقال، فلم يقتلوا، وحزقيل هذا هو الذي دعا الله أن يحيي هؤلاء الموتى فحيوا، وكان مع كل كاهن سبعون شيخاً من شيوخ بني إسرائيل هو رئيسهم ويقال: إن حزقيل النبي هو الذي ندب قومه إلى الجهاد فكرهوا وجبنوا فأرسل الله عليهم الموت، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم، فقال: اللهم إله يعقوب وإله موسى، ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم تدلهم على نفاذ قدرتك، وأنهم لا يخرجون عن قبضتك، فأرسل الله عليهم الموت، ثم إنه عليه السلام، ضاق صدره بسبب موتهم، فدعا مرة أخرى، فأحياهم الله.

ولقد تضمنت القصة فراراً من الطاعون، وفراراً من القتال، وكلاهما محرم، فلا يدخلن البلد الموبوء داخل، ولا يخرجن منها أحد، وذلك كما فعل عمر وهو ذاهب إلى الشام محارباً وأيد بالحديث النبوي، فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون، وقال: فررنا من قضاء الله إلى قضاء الله، ومنع الجيش أن يدخل الشام وهي موبوءة، ولا يجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو إسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا، وهذا هو المهم من سرد القصة، وليست تقصد لذاتها، ولئن مات أولئك موت الأجسام، ليموتن الجبناء في الحروب موتاً قهرياً بيد أعدائهم، أو أدبياً باستذلالهم وسقيهم كأس المذلة والهوان، وما أتعس الحياة مع الهوان، وما أشقى الأذلاء.

ولعمري إذا مات قوم عقوبة لهم على فرارهم، فكم مات من أمم خاضعة شراذم وجموع طغى الأعداء عليهم بالبغي والعدوان، واستزلوهم بعد عز من مراتبهم، وأودعوا سجن المذلة والصغار، ذلك شأن الأمم الإسلامية بعد أن خضعت شوكتهم، وسيموا الخسف وأوردوا موارد الحتف، ثم قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إذ يرفع أمة بعد خفضها، ويعزها بعد ذلها، وينصرها بعد ضعفها، ويرفع من أخلاقها بعد سقوطها، إن في ذكر إحياء الأمة بعد موتها لعلامة ظاهرة، وبشارة باهرة أنه لا يأس من روح الله، فإذا ماتت أمة وحييت فما أحرى الأمم الإسلامية المائتة بالجهل أن تحيا بالعلم، وهذا هو الفضل العظيم، فليشكروا الله وليعملوا، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وليس القتال اجتماع الصفوف، وجمع الجنود، ورفع البنود، وقيام الشاهد والمشهود فحسب، كلا، بل إن المال قوامه، وعماده وأسه وبنيانه، وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية إلا بالمال، لذلك قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال.

س ـ أرجو أن توضح هذا القصص الثاني، ولم جاء مؤخراً عن الأول؟

ج ـ اعلم أن قصص بني إسرائيل، إذ كانوا في التيه، وما حاولوا مع النبي موسى عليه السلام، وما زاول هو معهم، قد مضى في أول السورة، وقصة أولئك الذين ماتوا حين فروا في غضون مدة الشيوخ السبعين في أربعمائة السنة بعد خروجهم من التيه، ولما مات حزقيل الآنف الذكر، مرت سنون والأمة الإسرائيلية في اضطراب، والبلاد في اختلال، فعظمت الأحداث، فبعث الله إليهم إلياس المذكور في سورة الصافات، ومن بعده اليسع، ثم اضطربت الأحوال، فظهر عدو يقال له «البلتاثا» وهم قوم جالوت سكان سواحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة، وضربوا عليهم الجزية، ولم يبق إذ ذاك من بيت يتوسم فيه النبوة إلا امرأة عجوز فولدت ولداً سموه أشمويل، وهو النبي، فلما طغى جالوت والعمالقة، قالوا لأشمويل: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾هنا ابتداء عصر جديد وحياة أخرى لبني إسرائيل، فإنه بعد أن كانت حكامهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها، وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظالمين والعمالقة الطاغين عليهم لجؤوا إلى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم، فابتدأ إذ ذاك عظمة ملكهم وضخامة مملكتهم، وكان ما كان من أمر داود وسليمان وبناء بيت المقدس قروناً وقروناً حتى ظهر

بختنصر عليهم فأجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحي أصبهان، وما والاها من البلدان، وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة، وقصص العزير الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وكيف حييت قريتهم بعد موتها، وردهم إلى أوطانهم ملك فارسي حتى أجلاهم الروم الجلوة الكبرى.

ألا تعجب كيف جاء قصصهم في سورة البقرة مرتباً ترتيباً حقيقياً، وكيف كان قصص موسى وقومه في أولها أيام انقلاب حالهم من استعباد إلى حرية، ثم جاء قصص الفارين من الموت في غضون حكومة الأشياخ السبعين، ثم كان نبأ طالوت وجالوت وداود أيام الانقلاب ليبتدئوا دوراً فيه يسعدون وبه ينصرون، وهو دور الملك والعز، أليس ذلك ذكرى للنبي والمسلمين وإيقاظاً لهم، إنكم أيها الطلاب ستنقلون من حال إلى حال، وطبقاً عن طبق، ذلك عجيب، ثم كيف تراخى بعد ذلك مجيء قصص العزير بعد آيات، أفليس من المدهش أن تحوي سورة البقرة تاريخ الإسرائيليين نحو ألف وثمانمائة سنة مرتباً مفرقاً منظماً متراخياً، وأنت لو ضممتها لكانت تاريخاً متلائماً ذلك من أعجب ما قرأت، وأبدع ما فهمت، ولقد تبين لي في هذا التفسير ما لم أكن لأعلمه من قبل.

أرشدت القصة إلى اصطفاء الملوك وما صفاتهم. قال بنو إسرائيل: إن طالوت ليس من بيت لاوى بيت النبوة، ومنه موسى وهارون، ولا من بيت يهوذا بيت الملك، ومنه داود وسليمان، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلاً عن كونه فقيراً، ولا ملك إلا بالمال. فأجابهم بأن المال والنسب ليسا سبباً في الملك، وإنما الصفات الشخصية من العلم والقوة البدنية والشجاعة، هي المحور الذي عليه يدور رحى الملك، على أن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، وهو واسع الفضل، يعطي الفقير ملكاً ومالاً، عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره، هذه هي الداهية الدهماء، والطامة العمياء التي أحاطت بالمسلمين، فأوردتهم النكال، وألزمتهم الخسار، فإنهم أضحوا تحت رحمة البيوت المالكة في أكثر المعمورة، فأولئك إن أحسنوا حسنت أحوال الأمة، وإن أساؤوا ساءت، فقطعت هذه الآية معاذير الأمم الجاهلة، وحتمت أن يكون الملك تابعاً للعلم والقوة والشجاعة كما كانت حال طالوت.

لقد عكف المسلمون على عباده الأنساب، فذلت الأعقاب، ونعق في ديارهم البوم والعقاب، لقد عرف هذه الحقيقة الأمريكيون حتى ولوا مرة عليهم خياطاً، والفرنسيون صانوها لما رأوا من أخلاقهم وما عرفوا من آدابهم، عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستكانتهم، وأنهم يستخذون لذوي البيوتات والشرف، فعملوا بنصيحة كتابهم والسياحين منهم، إن المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف، وكبار الأولياء كالكتاني وماء العينين والتيجاني من بيت الملك كما يقال، وساقوا هذه الأمم إلى ساحات العذاب وباحات النكال، واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال، ذلك أنهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون.

أقول: اللهم إني أحمدك على نعم لا أحصيها، إن هذا الجزء يعاد طبعه الآن، ولقد رأيت أهل هذه البلاد «مراكش» من أذكى الأمم أمم الإسلام عقولاً، وأشرفها نفوساً، ولقد صادف هذا التفسير منهم أفئدة تهوي إليه، وهذه الأمة سيكون لها بحد لا حد لمداه، ولا عجب إذا كان الضغط يزيدها ارتقاء ونوراً، فإن الغضار لولا اصطهاره بالنار لم يصر حلياً.

وهاهنا سأل «ع» لقد طال بنا المقال فأتمم لنا قصص طالوت.

ج ــ قال أشمويل النبي إن علامة ملكه ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ الصندوق ﴿ فِيهِ ﴾ التوراة تسكنون إليها فهو ﴿ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء، وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات الله وآثار الأنبياء كرضاض الألواح وعصا موسى ونحو ذلك.

كان ذلك التابوت عند العمالقة فتشاءموا به لما أصابهم من جهد البلاء فوضعوه على عجلة يجرها ثوران وضربوهما بالسوط فسعيا وهدتهما الملائكة بالإلهام حتى حصلا في ديار بني إسرائيل وإذ ذاك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفاً كما يقال، وأخذ يبتليهم وينظر أهم ممن ينقاد للعادات أم هم أعفاء صلحاء.

لا جرم أن الأمم المنغمسة في الشهوات المترفة المنعمة، أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والذل، وأحرص على الدرهم والدينار، وأقرب إلى عذاب النار، وقتل السيف البتار، والمدفع والبارود، وحصد الجنود، وإهلاك الديناميت. شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة فيرأمونها، ولن يكون فيهم ليوث خوادر ولا شجعان جحاجيح ولا صناديد قماقيم فيستذلون للأعداء ويموتون بالداء.

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين إذ قال لهم: لا تكرعوا الماء من النهر، ولا تشربوا إلا غرفة باليد، فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته، وغلب عليه عطشه، فمن لم يذق الماء، ومن شرب غرفة بيده بلغوا مئات مختلفاً في عددها، فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه، وهم الذين لم يخالفوا، قال المخالفون: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله الخلص الذين لم يخالفوا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ كما هو مشاهد في سائر الأمم أن النصر تابع للعز والشجاعة والقناعة والاحتزاء بالقليل، وسألوا الله أن يصبر قلوبهم ويثبت أقدامهم، ثم ينصرهم على القوم الكافرين.

وأمر طالوت أن يسأل «إيشا» في عسكره أن يأتي بولده داود، فإنه هو الذي يقتل جالوت في علم الله فأحضره، ووعده طالوت أن يزوجه ابنته، فلما قتله، زوّجه إياها بعد اللتيا والتي، ثم حسده على حب الناس له، وأضمر قتله فلم يفلح، وعرف خطيئته في هذا، وفي مخالفة أوامر الله في الدواب التي غنمها من الفلسطينيين، وهام على وجهه في الحال، ثم أفتاه أشموئيل إذا حضرت روحه عجوز، فقال له أشموئيل: تقدم أنت وولدك العشرة لجهاد العدو، وموتوا في سبيل الله، فكان ذلك وملك داود، وابتدأت إذ ذاك عظمة بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ الآية.

واعلم أنه ما من أمة تسير على أثر داود في الصبر والقناعة والآداب إلا نصر قليلها على الكثير، ألم تر إلى البوير وهم قليل، نصرهم الله على أمة كبيرة، ذلك أنهم صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم، وعددهم ذلك من أعجب الأمور، وقانون لن يبور. انتهى.

ألم تر كيف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر، هكذا شأن الكتاب الكريم، يضرب الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم.

س ـ لم يزل في المثل غموض، وما الفائدة الواضحة، والحكمة الصريحة في ابتلائهم بالشرب من النهر، وما فائدتنا من هذا القول؟

ج ـ امتاز القرآن بضرب الأمثال للمعاني الغامضة، والأمور الشريفة، ولما كانت أخلاق الناس خافية، وأحوالهم مستورة لم يمتز الصابر من الجزع، والشجاع من الجبان، إلا بالابتلاء، وهل الصور الظاهرة، والملابس المتقاربة دالة على بواطن الأمور وما غاب عن الجمهور، فلا سبيل لإدراك الخفايا الإنسانية إلا بالابتلاء والاستجلاء، ولما كان النصر حليف الصابرين الأشاوس، والصناديد القماقيم، مزايلاً للمترفين، بعيداً عن المنغمسين في الشهوات، العاكفين على اللذات، ابتلاهم بمسألة جزئية ليدرك طالوت طباعهم الباطنية كأنه يقول: لا تعتمد إلا على الخلّص الكاملين ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[المائدة: ١٠٠] ولا جرم أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، والمائة يغلبون ألفاً، قد تبين في الأعصر الحاضرة أن هذا واقع ومشاهد، وهذا إيذان من الله ألا تصدّق امرأ إلا بعد تجربته، ولا تعتمد عليه إلا بعد اختباره، ألا ترى إلى ذلك الأعرابي الذي سبر إخوانه ليبتليهم أيهم أصدق مودة، وأمتنهم صداقة، فذبح شاة ودفنها بعد طبخها، وتظاهر بأنه قتل فلاناً، وقال: فهل لك أن تساعدني يا فلان، فكلّ تولى عنه معرضاً ولوى عنه كشحاً. وقال: ما لي بهذا يدان حتى عثر على ضالته المنشودة، وطلبته المحبوبة، إذ قال أوسطهم فضلاً وأقربهم زلفى: لا تخف، فلا معقب لك، وأنا النصير المبين، ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه، لئلا يعلم الأمر غيرهما. فقال صاحبه: لقد كنت أختبرك، وقد عرفتك صديقاً وفياً، واستخرجا الذبيحة من مدفنها فأكلاها هنيئاً مريئاً، هكذا مسألة الشرب من النهر ليمتاز الخبيث من الطيب في الجهاد، والله يهدي إلى سبيل الرشاد.

س ـ هل لك أن تذكر لنا بعض حكم داود عليه السلام؟

ج ـ قال في المزامير: لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار؟رحمة الله هي كل يوم، لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش، أحببت الشر أكثر من الخير، الكذب أكثر من التكلم بالصدق «سلاه» أحببت كل كلام مهلك، ولسان غش أيضاً يهدمك الله إلى الأبد يخطفك ويقلعك من مسكنك، ويستأصلك من أرض الأحياء «سلاه» فيرى الصديقون ويخافون عليه ويضحكون، هون الإنسان الذي لم يجعل الله حصنه، بل اتكل على كثرة غناه واغتر بفساده، أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله، توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد، أحمدك إلى الدهر لأنك فعلت وأنتظر اسمك فإنه صالح قدام أتقيائك.

وقال في المزمور الثالث والخمسين: «قال الجاهل في قلبه ليس إله، فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحاً، الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله، كلهم قد ارتدوا معاً فسدوا ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد». انتهى.

وفي المزمور الخامس والخمسين: «ألق على الرب همك فهو يعولك، لا يدع الصدّيق يتزعزع إلى الأبد». وقال في الرابع والخمسين: «اللهم باسمك خلصني، وبقوتك احكم لي، اسمع يا الله صلاتي، اصغ إلى كلام فمي. انتهى.

س ـ نريد أن نرجع إلى الآيات.

ج ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ «تقريره أن تقول»: إن الله عزَّ وجلَّ جعل الإنسان محتاجاً لغيره فلا يقدر على القيام بجميع شؤونه، فلا بد من الجمعية العامة، وكلٌّ لكل خادم، هذا زارع، وهذا حائك، وهذا بناء، وهذه الأنواع الثلاثة هي أصول الصناعات، وأكثر الصناعات مقدمات لهذه أو متممات لها كالنجارة والحدادة وهذا خباز، وهذا خياط، وهذا زجاج، وهذا مسير القطار ومجري الكهرباء كما سيأتي بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الأمة الإسلامية في آخر هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، وأن كل امرئ استعد لصناعة أو علم يجب على أهل الحل والعقد أن يأمروا الحكومات أن يخصصوه بها، وأن العناية والحكمة الإلهية قد أوجدت لكل عمل قوماً بحسب استعدادهم وما تهيئه إليه فطرهم، فكأن الناس جميعاً جسم واحد. ولما كان الأفراد يختصمون، والجماعات يقتتلون، والأمم تتحارب، نصب الله في الأرض قضاة بين الأفراد والجماعات، وجعل دولاً وممالك ليحموا المجموع، ويمنعوا الهاجمين عليهم والمعتدين، فهذا قوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بفصل الخصومات واتحاد الجماعات وصدّ الغارات.

وأما قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فالحق هنا أن تعتبر يا محمد أنت وأمتك بتلك الآيات والقصص، فكما ابتلى بنو إسرائيل بالأعداء فقاتلوهم، وجاء جالوت بجنوده، ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم أشموئيل، ثم داود فنصرهم الله، وغلب الحق على الباطل، ونصر المؤمنون بعد ما تحملوا الشدائد، هكذا سيكون أمرك وأمر قومك، لأن هؤلاء مرسلون ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أيضاً ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فلا بد من نصرك كما نصرناهم، ولقد احتمل الأنبياء شدائد، وقاسوا الصعاب الكثيرة كموسى وعيسى وإبراهيم وداود، فمنهم من كلم الله، ومنهم من أيدته بروح القدس، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان، فلتصبر يا محمد كما صبروا، فلذلك أعقبه بقوله في:

المقصد السادس عشر

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥) لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد

تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

والمقصد السابع عشر

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

إيضاح

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين ذكروا في هذه السورة كداود وسليمان، والذين لم يذكروا ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات بعضها فوق بعض ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ كموسى على جبل الطور، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ كأولي العزم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ كإبراهيم وعيسى ونوح، ثم خص عيسى بمزية قعساء، وعزة شماء، وفضيلة بيضاء، من إيتاء الآيات البينات، وتأييده بروح القدس، تبياناً لليهود وقد حقروه، وللنصارى وقد عبدوه، وإنزالاً في منزلة هو بها حقيق، ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم، والمقربين وفضائلهم، ثم أخذ يشرح أحوال الأمم التابعين فقال: ولو شاء الله ما اختلف التابعون، لقد اختلف الأنبياء واختلفت الأمم في الطاعات، كان الأنبياء مختلفين درجات في الزلفى لديه.

واختلف الناس في آرائهم، فمنهم من كفر، ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات البينات، وشاهدوا المعجزات الواضحات، بمشيئة الله اختلفوا، وبعلمه آمنوا وكفروا، ثم كررها مرتين، وعلقها بمشيئته كرتين، فليس في العالم إلا مراده، ولا معقب لما أراده، فهو الذي رتبا لرسل مراتب، وهو الذي حكم على الأتباع أن يكونوا شراذم.

هذا معنى الآيات إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾. وهذا تسلية للنبي ﷺ ولسائر الناس على ما يصيبهم من حوادث الدهر. هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم، ولا حاجة إلى نقل أقوالهم وحججهم ما دام الإجماع حاصلاً، ولكن لنذكر حديثاً واحداً، ففي الصحيحين عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت هاهنا لبنة فيتم بناؤك؟فقال محمد: كنت أنا تلك اللبنة».

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والإيمان بالأنبياء، ولما كان التوحيد لا قيام له بلا عمل، والأمور المعنوية لا قيام لها إلا بالمادة، وإيمان بلا زكاة، روح بلا جسم، ومعنى بلا لفظ، ، قول بلا عمل، أعقبه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم فلا بيع توفون به دينكم أو تفتدون بثمنه نفوسكم، ولا أخلاء تفزعون إليهم، ولا أصدقاء تستصرخونهم فيصرخونكم، ولا شفعاء يشفعون لكم إلا من أذن الله لهم، فأنفقوا الأموال في هذه الحياة قبل الفوات لا سيما عند القتال، فلقد يطغى الأعداء عليكم فيغتالون أموالكم، وينهبون متاعكم، ويستعبدون أبناءكم. فإنا حكمنا على الناس بالقتال، وحكمنا السيوف والنبال والديناميت، وقلنا: لو أنا شئنا ما اقتتلوا، فالمشيئة سابقة، والحروب لاحقة، فإذا أبت الأمة أن تصرف أموالها في المنافع العامة، وترفع شؤون العامة، فليوقنوا بضياع كيانهم، وذهاب استقلالهم، وتمزيق جامعتهم، ودوسهم بالأقدام، وطحنهم تحت رحى الإذلال، ووطء رقابهم، وانتزاع عقارهم، كأكثر الممالك الإسلامية اليوم، فلا شفعاء لهم يشفعون، ولا أخلاء لهم يواسون، ولا آمال لهم يبيعون.

ولقد قابلت شاباً من بلاد الجزائر عند تفسير هذه الآية، فقال: ضاعت أملاكنا، وأفل نجمنا، وانتزعت منا أرضنا، وأصبح خمسة الملايين عبيداً خاضعين، وصعاليك شحاذين، فلا صديق لهم حميم، ولا شفيع لهم مقيم، ولا مال لنا نفتدي من ذلك المعتدي.

فملخص هذه الآيات شيئان: توحيد وإنفاق، وهذا إجمال سيوضح فيما يتلى من الآيات على لف ونشر بترتيب.

أما التوحيد فقد أبرز له ثلاث مراتب عجيبة، ذلك أنه ابتدأه بآية الكرسي وما بعدها إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، وثنى بمحاجة إبراهيم والنمروذ، وثلث بقصص العزير وحماره، وإبراهيم وطيره.

فأما الأول فهو تقديس لله وتعظيم، ووصف لعظمته وجماله وحكمته، وعجائب صنعه في أرضه وسمائه، وهو بعصر الصحابة أليق، وبالصدر الأول أنسب. وقد ظهرت الدول العربية، وفتحت الأمم الغربية والشرقية، إذ كان إيمانهم نقياً من الجدال، بعيداً عن الخصام والشقاق.

والثاني شبيه بما حدث في الدولة من الجدال في التوحيد وتفرق الكلمة في علم الكلام، كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة.

والثالث أنسب بمستقبل الأمة المجيد، إذ ينظرون في خلق العالم العجيب كما أمر العزير أن ينظر لحماره، ويتدبر في تصوير لحمه وعظامه وكبده وكلاه وحلقومه وسائر قواه، وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرقها، ودقائق أجزائها وقد جمعها، فاطمأن قلبه لما رآه من عجائب صنع الله.

هذه أحوال الإسلام في المستقبل القريب، ووالله ليخرجن فيهم فلاسفة عظام وحكماء كبار، ذلك أنهم سيرثون العلم عن سائر الأمم، إذ يعلمون أن التشريح أهم علوم التوحيد، كما نظر العزير في عظام حماره ولحمه الكاسي، وسيحللون العناصر الكيماوية كما حلل أمامه الطير في البرية. فهذه العلوم أصل العلوم الدينية، بل أشرف علوم التوحيد، وأرقى وأدق علوم الدين. لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق، وعما قريب سيعلمون، ولتعلمن نبأ ارتقائهم بعد حين.

هذا ملخص ما سنذكره من مقاصد التوحيد الثلاث ومراتبه المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الإسلامية من أزمان النبوة إلى آخر الزمان، ولا يعلم إلا الله مداها، ولكن هذا ما وصل إليه علمنا، واستقر عليه فهمنا. إن تاريخ الماضي سيقف الآن وقفة ويبتدئ دور العلم من الآن. إني بهذا موقن أيما إيقان كالمشاهد بالعيان.

فأما الإنفاق وإيضاحه فسنريك ضرب أمثاله بالحبة والسنبلة والحجر والتراب والجنة والأعناب فافهم وتعجب من الترتيب، وكيف ابتدأ بمراتب الرسل، وجعل ذكرهم عنوان التوحيد، ثم ثنى بالأمم واختلافهم، وجعلهم مناط القتل، وأصحاب الميدان والنضال، وطلب إنفاق المال، لإصلاح داخل البلاد وخارجها، ثم رجع إلى التوحيد فأبانه أيما تبيان، وإلى الإنفاق فأوضحه أيما إيضاح، وفصله تفصيلاً، وأكثر من الأمثال، وأخذ يفصل أنواع المعاملات في الأموال. عجيب هذا النظام، وبديع هذا الإتقان. ولنفصل ما أجملنا، فنقول:

المرتبة الأولى: قوله تعالى

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

ورد في فضل هذه الآية أحاديث كثيرة، كقوله ﷺ لأبي المنذر: أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾، فضرب في صدري، وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر. وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي.

تأمل في هذا القول، وكيف فضلها على غيرها، وميزها على أترابها. فاعلم أن القرآن فيه قصص وأحكام، وأمثال ووعظ، ووعد ووعيد، وإنذار وتبشير. وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين، وهنات بني إسرائيل، وفظائع ما ارتكبوه، وذمهم وإنذارهم، ووعيدهم وتبكيتهم، وذكر أمر القبلة والحج والصلاة والصيام والخمر والحيض والطلاق والجهاد والإيلاء والحلف، وما أشبه

ذلك، وكل ذلك يرجع إلى تهذيب النفوس تارة بالذم للمخالفين، وطوراً بأدب المعاشرة مع الأزواج، والآداب في معاملتهن، وآونة بالتكاليف من الحج والصيام والصلاة والصبر، وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليها عن الرذائل بالمواعظ والصبر والمشاق، وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم والعلم هو الكمال، والمقام الأوفى، والذروة العليا، والسنام والمجد والشرف الأعلى، وأشرف العلوم ما كان لأشرف المعلومات، وأشرف المعلومات ﴿ ٱللَّهُ ﴾ جل جلاله، وأنه واحد لا شريك له ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وهو ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ لم يزل بالحياة موصوفاً لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد حياة ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم، وجميع ما هم في حاجة إليه ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فالسنة أول النوم، والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب، والمعنى لا تأخذه سنة فضلاً عن النوم، لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة، وأنه قائم بتدبير كل شيء على الارتقاء في الوصف من توحده وانفراده وحياته وقيوميته على كل شيء بالتدبير كان لا محالة يرد على النفس وارد فيقول: كم من حي قائم بتدبير ما يملك يعتريه النوم فينام، فقال: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ واعلم أن هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرارهم للراحة بعد العمل، والنوم بعد اليقظة، لتستكمل الأعضاء قوتها، ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها، ولقد كان ذلك محتاجاً إلى التفسير عند الجهلاء وإفهامهم بما يعلمونه من نفوسهم:

روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة: هل ينام الله؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينعس وينتبه وهما في يديه، في كل يد واحدة، حتى نعس فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما.

قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله تعالى له، قول: فكذلك السماوات والأرض، ولا تظن أن سيدنا موسى كان يجهل ذلك، وإنما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم، وأنه لو نام أو نعس الإنسان لانكسر ما في يده من القوارير.

هذا المثل يعقله العامة والعلماء، وهو حسن للجميع، ولكن العلماء ينفردون بعلم، ويختصون بحكمة، ألا ترى أنهم ينظرون الكواكب طالعة غاربة، والشموس مشرقة آفلة، والأقمار ظاهرة خفية، جارية بالليل والنهار فوق الأفق وتحت الأفق، والرياح تجري بالليل والنهار، وكذلك السحب والأنهار. وترى النبات والحيوان ينموان بالليل والنهار فلا يقفان في نموهما بنوم، فإنك إذا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع في أول شهر، وبعد مضي أسبوع وجدتها أطول بمقدار ثمن قيراط، فماذا تقول؟ أتقول: إن نموها كان بالنهار، أما بالليل فلا؟ كلا، بل إن النمو في سائر الأوقات لكل وقت قسط منه، وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل «أستراليا» ولا يزال في العالم نوم ويقظة في سائر الأحوال وليل ونهار، بل إذا كنت قارئاً ما أسلفنا من علم الفلك، ظهر لك أن كل ساعة تمر عليك، فجر عند قوم، وصبح عند قوم، وضحى عند آخرين، وظهر ومغرب وعشاء ونصف ليل وهكذا، ليس عند ربك صباح ومساء.

هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذي نحن فيه، فالقارورتان اللتان أوحى الله بهما إلى موسى هما السماوات والأرض، أو الأرض والشمس، وهما دائرتان دائماً أبداً، فلو أن الله تأخذه سنة أو نوم لاصطكت السماوات والأرض ببعضهما، أو لاصطكت الشمس مع الأرض، أو مع كوكب من الكواكب، فاختل النظام، وإنما اختار القارورتين لأنهما أقرب تمثيل إلى الكواكب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر: ٤١].

إذا عرفت ما قررته لك فهمت كيف أعقب الله ذلك بقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فتعجب كيف أعقب نفي السنة والنوم بأنه له ما في السماوات وما في الأرض كما بيناه لك فتأمل، واستغنى عن الاستدلال في القرآن بقارورتي موسى بالمقصود الذي شرحناه، وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعلم الأمم، وإلا فلماذا يقول الله لموسى: أمسك بالقارورتين، ويقول لأمة محمد: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، وهذا لا يعقله ولا يعرفه حق معرفته إلا أصحاب الفكر الثاقب. ولما كان الناس الذين لهم سلطان في الأرض كالملوك أو من يجري مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم، وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والعظمة والسلطان، وكان الكفار يقولون: إن الأصنام تشفع لهم عند الله، أعقبه بقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي لا يشفع عنده أحد إلا بأمره، كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء، فارجع إليه. وقد اخترنا أن تكون الشفاعة على وجه لا يخل بالمقصود من الدين وهو الجد والعمل، ونبذ التواكل والغفلة والكسل ومن تعدى ذلك فقد أضاع أمته ودينه، وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما بعدهم وما قبلهم ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ علمه أي معلوماته، وإذا لم يحيطوا بمعلوماته فهو منفرد بالعلم كما انفرد بالألوهية ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ ملكه وسلطانه وقدرته أو علمه ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ يثقله ويشق عليه ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ أي حفظ السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب أن يوصف به من معاني الجلال والكمال ﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ذو العظمة والكبرياء، أي: لا شيء أعظم منه.

واعلم أن الكرسي في لغة العرب: اسم لما يقعد عليه، مأخوذ في معناه من: تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه: الكراسة، لتركب بعض أوراقها على بعض، وهذا الكرسي ركبت خشباته بعضها على بعض، ويقول بعض العلماء: إن الكرسي هو نفس العرش، وهو السرير الذي يجلس عليه، وقال آخر: الكرسي غير العرش، وهو أمامه، وهو فوق السماوات السبع ودون العرش.

واعلم كما قال القفال: أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه، فقد خاطب الله الخلق في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، من ذلك أنه جعل الكعبة بيتاً له يطوف الناس به كما يطوفون ببيوت ملوكهم، وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم، وذكر في الحجر الأسود أنه يمين الله في أرضه، ثم جعله موضعاً للتقبيل كما يقبل الناس أيدي ملوكهم، وكذلك ما ذكر في محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيين والشهداء، ووضع الموازين، فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشاً فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥]، ثم وصف

عرشه فقال: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[هود:٧] ثم قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الزمر:٧٥]، وقال: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾[الحاقة:١٧]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ ﴾[غافر:٧]، ثم أثبت لنفسه كرسياً، فقال: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إذا عرفت هذا فكل ما جاء من الألفاظ الموهمة للتشبيه في العرش والكرسي قد ورد مثلها، بل أقوى منها في الكعبة والطواف وتقبيل الحجر، فإذا قلنا: إن المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بأنه منزه عن أن يكون في الكعبة، فكذا الكلام في العرش والكرسي، هذا ملخص كلام القفال.

ثم إن هذه الآية دلت على أن الله موجود، واحد، حي، واجب الوجود لذاته، قائم بنفسه، مقيم لغيره، لا يعتريه النقص والفتور، مالك الملك في العالمين، ذو البطش الشديد والقهر والعظمة، لا يشفع عنده إلا من صدر له إذن منه، يعلم الجليل والقليل، واسع الملك والقدرة. وقوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي لا يثقله متعال عما تدركه الأفهام وتتخيله الأوهام، عظيم لا تحيط به العقول، ولا تدركه الأبصار، هذه آية الكرسي، أفلا تذكر ما قاله ﷺ لأبي المنذر وقد ضربه في صدره: «ليهنك العلم» كأنه صلى الله عليه وسلم يقول: يا أبا المنذر اهنأ بالعلم، مشيراً بالضربة إلى أن قلبه امتلأ نوراً بالعلم، وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم، فلم خص آية الكرسي؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال واضح مما قررته لك هناك من أن المقصود من القرآن هو العلم، وأهم العلم ذات الله وصفاته وأفعاله، فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى، فأما ما عداها من أكثر الآيات، فلم تتعدّ الإنذار والتبشير، والحج والصلاة والزكاة، وتهذيب النفوس والأخلاق، ولعمرك إن هذه العلوم كالفقه، وعلم القصص، والأخبار، كل ذلك مقدمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس، ورقياً للمدنية، وسعادة للأمة وفوزاً مبيناً.

بذور القرآن

ولعلك تقول: أين سعادة الأمم في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ونحن نرى أننا نعرف ذلك، ونحن في أخريات العالم؟ أقول: على رسلك، لئن عرفنا ذات الله بالتقديس والتنزيه، وعرفنا صفاته بالكمال والجمال، وأفعاله بالنظام والميزان، لنكونن أرقى الأمم، ولأوضح لك ذلك.

فأقول: لقد بذر الله في قلوب العباد من المسلمين في مساجدهم وصلواتهم أن يقرؤوا آية الكرسي، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[البقرة:٢٨٥]، و﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[آل عمران:١-٢] الآيات، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[آل عمران:١٨] الآيات، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾[آل عمران:٢٦] الآيات، وقوله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحشر:١] الآيات، وقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾[الحشر:٢٢] أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحاً ومساءً عقب صلواتهم، لما جاء من فضلها، فقل لي، رعاك الله: لِمَ لَمْ يقرؤوا آيات غيرها، ولِمَ لَمْ يقرؤوا مثل: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾[المسد:١]، أو نحو قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:٦١]، ولماذا تكرر هذه الآيات، واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم، وأوصوهم بها؟ إن ذلك لعمر الله لسرّ قد آن انكشافه، ولعلم

هذا وقت ظهوره ، إن أولئك الأساتذة كانت تنشرح صدورهم لذلك التلقين ، ويعلمون التلاميذ ذلك الإكسير ، ليفتح الله عليهم بالقبول والوصول من طريق التقوى وتصفية الباطن ، ولكن الأمر عظيم ، إن ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم المطمورة ، والآثار المخبوءة ، والرموز المكتومة ، حتى جاء علماء الآثار فحلوا معمياتها ، ووقفوا على بعض جزئياتها .

وهكذا ترى علماء الإسلام اليوم يبحثون في أسرار القرآن ، فلألق عليك قلًا من كثر ، وقطرة من بحر الأسرار في الدين .

فأقول : لقد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها في آية الكرسي ، وترى الآيات الأخرى كذلك ، فقوله : ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[آل عمران:١-٢] وصف الله ، ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران:٦] بعد قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران:٥] أوليس ذلك يدعو إلى علم التشريح ، وعلم الكيمياء ، وكيف لا يدعو لذلك ، وهو يقول : ﴿ يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران:٦] أليس هذا يدعو إلى علم الحياة المخترع حديثاً الذي يبحث في حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، أوليس الجنين في الرحم مكوناً من الدم الناجم من خلاصة الغذاء . وبالتفاعل الكيماوي كوّنت هذه الأعضاء ، أوليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات؟ننظر نظرة أخرى في قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨] أوليس قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾[آل عمران:١٨] يدعو إلى سائر العلوم ، فإن القيام بالقسط هو نفس النظام ، أي : نظام الفلك ، ونظام الطبيعة .

وقد قال علماؤنا : لا يعرف معنى القيام بالقسط إلا من درس سائر العلوم ، كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ في سورة الرحمن [الآية:٧] ، إن هذا الميزان لا يعقله إلا الذي درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء ، فإن الذرات في التفاعل الكيماوي لها حساب دقيق ، ولا خطأ فيه ولا خلل ، كما ترى في تركيب الماء من الأوكسوجين والأودروجين ، وإن نسبة وزن الأوكسوجين إلى الأودروجين معلومة لا تتغير ، وهكذا نسبة حجم الأول إلى الثاني ثابتة ، وهذا أمر لا يستثنى منه شيء في العالم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾[يونس:٦١] .

والله لقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب في الطبيعة فأيقنا بنظام جميل بديع ، وتحققناه وألفينا حساب الله لم يذر ذرة إلا حسبها ، ولا أصغر منها إلا كتبها وأودعها في الطبيعة ، وألقاها إلى الناس أجمعين . وقال للمسلمين : هذه علومكم فادرسوها ، جعلتها في القرآن لتحفظوها ، ويتعبد بها الصالحون ويدرس بها ما صنعت وما نظمت العلماء المفكرون والحكماء المحققون ، فإن رضيتم بقشور القراءات ، ووقفتم عند حد التلاوات ، فإنكم يا عبادي في عداد الأموات ، وإن فكرتم في مصنوعاتي ، ودرستم مخلوقاتي ، وعرفتم موازيني ، وأيقنتم بقسطاسي ، فإنكم بذلك تحيون وترفعون رؤوسكم بين الأمم ، وهل يقرّ لكم قرار ، أو يكون لكم اصطبار ، وأنا أنعشت الأمم حولكم فجاسوا خلال دياركم ، وأنتم

عن الحكمة نائمون، وعن التبصرة معرضون، أولم تتفكروا في آية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾[آل عمران:٢٦-٢٧] الآية.

أوليست هذه الآية المقروءة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الأساتذة الأخيار دالة على أن الملك ينقل من قوم إلى قوم، وأنه لكل أمة يوم، وأنا الذي أصطفي من عبادي للغلبة من أشاء، كما زاد النهار تارة، والليل أخرى بحساب، وكما أخرج الميت من الحي، أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكواكب، وعلم الحيوان، أوليست هذه أفعالي، أوليست صفاتي في آية الكرسي لا يظهر لكم آثارها إلاَّ بأفعالي؟ فهاهي ذه أفعالي، وإذ أنزلت القرآن، وقرأتموه وكررت تلك الآيات التي هي من أهم العلوم، أفليس فيكم رجل رشيد؟ ألم يقم منكم قائمون يذكرونكم أن تلك التلاوات التي سيقت للعبادات يتبعها العلم والتفكر؟ أفلم يكن من رحمتي أني ألهمت أسلافكم حفظ آيات صفاتي وأفعالي لتكون ذخيرة لكم لعلكم تعقلون؟ أولم تقرؤوا ما كتبه الهندي في كتاب كليلة ودمنة من الحكايات الخرافية، وأنه قيل في أول ذلك الكتاب: إن الحكايات تكون تسلية للجهال، وغراماً للأطفال، ولكنها حكمة للحكماء، وعلم للملوك، وسياسات للقواد العظماء؟ فهل ترون ذلك في أحد عبيدي، ولا ترونه في كتابي الحق؟ كتابي يتعبد به العباد، ويدرسه الحكماء.

أقول هذا هو السر في اختيار هذه الآيات، وهي بذور للحكماء والعلماء، ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمة ظهر سر قوله: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة:٣٣]، وسر قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

هذا هو أوان اليوم الموعود للأمة الإسلامية، هذا هو السر المصون والجوهر المكنون، والجمال والنور المختبئ في القرآن الذي أبرزه تألب الأمم الغربية على المسلمين، فليقرؤوا كل علم وليعرفوا كل فن، بهذا أمر الله في الكتاب، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. هذا ولنرجع إلى الكلام إلى ما بعد آية الكرسي فنقول:

قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ أي تميز الإيمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الإيمان سعادة، وأن الكفر شقاء ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ بالشيطان أو الأصنام أو كل ما عبد من دون الله ﴿ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ طلب الإمساك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهذا مستعار للتمسك بالحق من النظر الصحيح والرأي القويم ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ لا انقطاع لها ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ محبهم أو متولي أمرهم ﴿ يُخْرِجُهُم ﴾ بما منحهم من التوفيق والهداية ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي الهدى والإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ المضلات من الشيطان والهوى والأصحاب وغيرهم ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ من نور الفطرة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

المرتبة الثانية: في التوحيد وهي قوله تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول: هل انتهى إلى علمك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم في ربه وجادله؟ وهو نمروذ، فقال: أنا أحيي بالعفو وأميت بالقتل. فقال له إبراهيم: فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس في سيرها، فصار الذي كفر مبهوتاً، وانتهى من المجادلة مقهوراً. وهل يهتدي الظالمون إلى الحجة البلجاء والعقيدة السهلة السمحاء. ثم أتبعه بـ

المرتبة الثالثة

ونظمها في سلكها، ورتبها بعد تمامها، فقال: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ والكاف صلة، كأنه يقول: ألم تر إلى الذي حاج، وإلى الذي مر على قرية، وهو أرمياء أو عزير، والقرية إما بيت المقدس أو إيلياء، وقد كانت خاوية ساقطة حيطانها ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ سقوفها ﴿ قَالَ ﴾ ذلك النبي استعظاماً لأمر الله واعترافاً بالقصور عن إدراك طريق الإحياء، ﴿ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، وقد كان من قبل ذلك سطا على بني إسرائيل بختنصر في جمع عظيم، فأنزل بهم العذاب، وأجلاهم إلى بلاد العراق وفارس، فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بإرجاعهم إلى بيت المقدس وتعميره وتعمير إيلياء، فلما أن قال ذلك النبي ما قال، وقد شاهدها خراباً بلقعاً ووحوشاً يباباً، وقد كان معه عصير عنب في ركوة وسلة تين، وهو على حماره، فمات لساعته ضحوة وحيي بعد مائة سنة، وقد عمرت القرية على رأس السبعين، وتمت وزكت في ثلاثين، هذا معنى قوله: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ ﴾ له الملك ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ التين ﴿ وَشَرَابِكَ ﴾ العصير ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ يتغير ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ نحييها أو نرفعها ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾.

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية، ذلك أنهم كانوا في مصر نحو أربعمائة عام ومكثوا في حكم الشيوخ السبعين والكاهن نحواً من ذلك حتى كان ما كان من أمر طالوت وشموئيل وداود وسليمان، فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم، ونفذت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن وبعض جهات الروم، وجاوروا ملوك الفرس، وذلك في نحو ستمائة سنة، وكانوا في تاريخهم أشبه بالعرب في سيرهم، فإنهم لما وصلوا في الفتوحات لمجاورة التتر، أزالوا دولتهم في القرن السادس، فهكذا هؤلاء لما ملكوا الأرض المقدسة حاربهم الفلسطينيون، وهم العماليق، وقلبوا جمهوريتهم إلى ملكية، ثم أخذ ملكهم يزداد، وعظمتهم تمتد، وطودهم يشمخ، وأوتادهم تثبت، حتى جاوزوا الفرات والجزيرة، فانقض عليهم جيرانهم، فأذاقوهم سوء العذاب، ذلك تاريخهم، فمبدأ سلطانهم في أول السورة عند ذكر موسى.

وقلب الجمهورية إلى ملكية في قصص شموئيل وطالوت وداود، وسقوط مجدهم، وهبوط نجمهم، وأفول سعدهم، أيام العزير، إذ قرأ لهم التوراة عن ظهر قلب.

ثم كانت خاتمة أمرهم أن أجلاهم الروم، ذلك أنهم، أي الروم، قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس، فإنه لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقائدهم اسكندر، ورثوا ملكهم، ومنه بيت المقدس، ثم لما غلبت الروم اليونان، ضموا اليهود إليهم، وأجلوهم الجلوة الكبرى، ونقلوهم إلى رومة وما والاها من البلدان، وفي أيامهم أرسل المسيح عليه السلام.

فاعجب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان، وترتيبها كترتيب التاريخ، وأهم منه ما أشرنا لك من قبل، عماد الأمر وقصاراه التأمل في حكمة الله، وانظر كيف يقول تعالى: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ﴾ الخ، فأمره بالنظر في جسم الحمار مرتين. وقال: ﴿ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ ﴾[الملك:٤]، أوجب علم البيطرة لبيطرة الدواب والتشريح لمعرفة الأجسام للإنسان والحيوان، ثم ذكر معها جملة من العلم في نمطها، ونظمها في سلكها، فجعلهما درتين في تاج الحكمة والعلم، ومصراعين لبيت الإسلام فقال: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لما حاج نمروذ إبراهيم، وقال له: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ وعفا وقتل بعد قول إبراهيم: الله يحيي بردّ الروح إلى البدن، انتقل إبراهيم إلى ما تقدم ذكره، ثم سأل الله المعاينة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ الآية، يقول إبراهيم: ربّ أرني كيف تحيي الموتى ليصير علمي عياناً ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ أَوَلَمۡ تُؤۡمِن ﴾ بإحيائي الموتى ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم له ﴿ بَلَىٰ ﴾ آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بضم العيان والمشاهدة للوحي والاستدلال ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ ﴾ طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة ﴿ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ﴾ أملهن إليك، من: صاره يصيره ويصوره، وقرئ: «صِرهن» بالضم والكسر، أي: اجمعهن ﴿ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ﴾ أي جزئهن، وفرّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك، وهي أربعة ﴿ ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ ﴾ قل لهن: تعالين ﴿ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ ﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ فهو بالعزة غالب، وبالحكمة منظم ومتقن.

إياك أن يلج في صدرك أن مثل هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزير وحماره، لتسمع قصصاً قضى، وتاريخاً خلا، من غير أن نعتبر ونذكر ونتفكر.

يقول الله: ﴿ ٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ثم يقول: انظر إلى عظامه ﴿ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ ﴾ ولا جرم أن ذلك يدعو حثيثاً لعلم التشريح، ويتلوه الطب، ولن يقوم للطب أساس، ولا للتشريح قائمة، إلا إذا درست العلوم الطبيعية من النبات والحيوان وفصائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها وبذورها وغير ذلك.

وتعجب كيف طلب الخليل من ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد التصديق بالاستدلال والوحي تعليماً للأمة الإسلامية أن يبحثوا، وتهييجاً لهم أن يتذكروا، بالله، من ذا ينكر إحياء الله للموتى من عجائز المسلمين والنصارى واليهود، ومن ذا الذي يختلج في قلبه أو يهجس في نفسه منهم أن يقول: إن الله لا يحيي الموتى، فضلاً عن القراء والعلماء والأنبياء، فكيف يكون حال إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

لا جرم أن الأمر فوق ما يظنه أغرار الناس، وأن الإيمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التي تتبع ارتقاء الأمم الإنسانية، يعوزها دراسة الأشياء المحيطة، وعجائب تركيب الأجسام، ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل، وكيف يكون التركيب.

وأنت إذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وغير الحية، اعتراك الدهش، وأخذتك الحيرة، وغشيتك غواشي العجب والبهر، وأذهلتك أيما إذهال. ولأرك طرفاً من علم الكيمياء لتدرك سراً من أسرارها، وحكمة من علمها، وقطرة من بحرها، لتعجب من هذا الوجود، وتدرك ما كان يرتضيه الخليل، وبما إذا أراد الله بهذا القصص، وما شأن الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات، وما شأن الحمار وعظامه، ولماذا أمر العزير بالتأمل في إنشاز عظامه، أي إحيائها، وبتحريك بعضها وضمه إلى بعض وأنه يكسوه باللحم؟ فأقول:

إن في علم الكيمياء كلمتين هما: المزج والاتحاد، فلو أنك مزجت عشرة جرامات من الفحم بعشرة من مسحوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظاً لخواصه الأصلية، حتى أننا لو نظرنا إلى هذا المزوج بمنظار، لشاهدنا أجزاء سوداء لا قانون له ولا ضابط ولا قاعدة، وإنما ذلك حسب الهوى، كما تضع الملح في إناء والتراب مع الملح، فلا اتحاد ولا التئام ولا انتظام.

الاتحاد

أما الاتحاد فهو السر المصون، والعلم المكنون، والنظام البديع الغامض المتقاعس عن الجاهلين، المترفع عن إدراك الغافلين، وهذا هو سر الله في أرضه، ومرمى آراء الخليل والعزير والنبي ﷺ، ومن أدركه فقد أدرك السر المكنون والكبريت الأحمر، وكأنما ملك الدنيا بحذافيرها، فإن هذا هو سرها وعجبها وبدعها، ومن يدركه إلاّ الفوقة القماقم، وصناديد العلم الأكابر، ففي الاتحاد تفقد الأجسام خواصها الأصلية وطبائعها وأوصافها وأحوالها وألوانها، وتتحول إلى شيء آخر مغاير لكل منها، خذ لك مثلاً:

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كوّنت في الأرض من هذه العناصر، وهي: البوتاسا، والصودا، والجير، والمغنيسيا، وحمض الفوسفوريك، وحمض الكبريتيك، والسلكا، والكلور.

أنت تعرف الجير، وقد دخل في القطن بنسبة ١٥ في المائة تقريباً، وفي القمح بنسبة ٣ في المائة، وفي البرسيم ٢١ في المائة، وأنت تعرف الجير، تراه بعينك، لكنك لو حللت النبات لم تر جيراً، وإنما هو نبات حوّل الجير إليه، وذهبت خواصه وصار عالماً جديداً.

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥,٥	٣١,٥٤	٣٤,٦
صودا	٣,٦٤	٣,٦٦	١١,٤
جير	١٤,٦٣	٣,١٤	٢١,٦
مغنيسيا	٨,٧٨	١٢,١٠	٤,٥
حمض فوسفوريك	٨,٣٤	٤٨,٥٠	٥,٣
حمض كبريتيك	٧,٧٧	٠٠,٠٨	٤,٢
سلكا	٨,٢٢	١,٨٨	٣,٨
كلور	٦,٣٧	٠٠,١٠	١٣,٩

هاأنت ذا حللت النبات ونظرته فألفيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحدة.

المواد والعناصر في الثلاثة متحدة، فأنت ما لبست ولا أكلت، ولا أكلت البهائم، إلاّ تلك العناصر المتحدة التي فقدت خواصها، ولعمرك ما حوّلت إلى تلك الخواص والأجسام الحادثة الجديدة، إلاّ بتلك النسب المحفوظة، فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذي مكن من إعطائها أشكالها النافعة، فكانت غذاء الحيوان، ورداء الإنسان، وزينة الرجال والنساء، فنحن نلبس ونتزين بما يأكله الحيوان، ولكن السر المصون هو النسب، فإذا حوّلت النسب، حوّلت الخواص وتغيرت الأسماء.

أليس ذلك من العجب، ولو أن البوتاسا صارت في القطن ٣٦ في المائة بدل ٣٥,٥ في المائة ما تركب قطناً، بل كان ممزوجاً لا متحداً، ولم تكن فيه خواص القطن، وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد.

إن اتحاد الأجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل مركب، وهو المسمى بقانون المقادير المحدودة، فترى الماء مثلاً مركباً من(١)أكسوجين و(٢)أودورجين، ونسبة الثاني إلى الأول وزناً كنسبة واحد إلى ثمانية، ويفقد كل منهما صفاته الخاصة، وتحدث صفات لم تكن لهما، وهي صفات الماء من طعم وهيئة وغير ذلك، ونسبة الأول إلى الثاني حجماً كنسبة(١)إلى(٢)، والأكسوجين عبارة عن جسم هوائي، إذا أدخلت فيه شيئاً قابلاً للاحتراق احترق، أما الأودروجين فهو جسم هوائي أيضاً طيار كالأول إنّما إذا أدخلت فيه حيواناً مات حالاً، فهو جسم مميت، أما الأول فهو جسم محرق، وهذان الجسمان باتحادهما مع بعضهما تكوّن الماء الذي به حياة كل شيء.

وتعجب مما سأذكره لك، وهو أنه إذا تركب جزءان من الأكسوجين مع جزأين من الأودروجين فإنه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء، وإنما هو جسم كاو محرق يسمى «ديتوكسيد»، وهو سائل محرق أكال لما يحل فيه، فتعجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقاً، ولما اختل الحساب جاء سائل آخر قاتل، فمتى كان جزءان من الأودروجين مع جزء واحد من الأكسوجين كان فيه حياة كل حي، ولما صار الأكسوجين جزأين كالأودروجين صار قاتلاً لكل حي، وانظر الفرق بين الإحياء والإماتة تجده جزءاً واحداً فقط، وكيف اختار الله هذا الترتيب وجعله محيطاً بالأرض وهو الماء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر:١٧].

ما أعجب ما ترى في هذا المقام، وما أبدع ما عرفت أيها الذكي، لم اختار الله هذا التركيب، أليس لأنه به الحياة، ولو أنه زاد الأكسوجين جزءاً واحداً لم يصلح المركب للحياة، أليس ذلك دلالة على أنه محيط بكل شيء ﴿هُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[الأنعام:٣]، وإلا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجاب. اهـ.

وهناك قانون آخر يسمونه قانون النسب المضاعفة «إذا اتحد جسمان وتكوّن منهما جملة مركبات، فإذا بقيت كمية أحدهما ثابتة، فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جداً».

فترى الأوزوت يتحد بالأكسوجين ويكون منهما خمس مركبات: (الأول) يحتوي ١٤ من الأوزوت و١٦ من الأكسوجين. (الثاني) على ١٤ من الأوزوت و١٦ في ٢ من الأكسوجين. (الثالث) على ١٤ من الأوزوت و١٦ في ٣ من الأكسوجين. (الرابع) على ١٤ من الأوزوت و١٦ في ٤ من الأكسوجين. (الخامس) على ١٤ من الأوزوت و١٦ في ٥ من الأكسوجين.

فترى من ذلك أن تركيب الأجسام جار على نظام ثابت بحساب معين، ونمط بديع، وهو السحر الحلال، وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وإنسان، وهذا معنى كونه عزّ وجلّ ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[النور:٣٩]، وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨] وقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر:٢١]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون:١٧]، وقوله: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن:٧-٨].

فإذا تصورت أن كل ١٨ جراماً من الماء فيها ١٦ جراماً من الأكسوجين وجرامان من الأودروجين وأنك لو زدت ذرة واحدة من أحدهما أو نقصتها، لم يكن اتحاد، وبقيت بخاصتها، وهكذا بقية المركبات المتحدات، أدركت كيف أمر الله عزّ وجلّ الخليل بالنظر في العوالم العلوية والسفلية، وكيف أمره بتحليل الطير ثم ركبه وهو ناظر إليه، ليقف على سر التحليل والتركيب والنظام البديع، وليكون إيمانه عن يقين لا برهان أو تقليد. وهذا أهم المسائل وأعجبها.

ولو أنك راقبت النبات في مدرستنا لرأيته يجتذب الذرات من الأرض، فتتمثل بجسمه وتنقلب ورقاً وزهراً وثمراً على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب، فإذا تفرقت أجزاؤه وتحللت عناصره أعيد كرة أخرى في نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة، فآية الطير واضحة أمامنا صباحاً ومساءً، كل حين، ونحن عنها غافلون، إنها لضرب مثل لما نشاهده كل وقت، فعلى قادة المسلمين أن لا يغفلوا عن هذه الحقائق، وأن لا يناموا عن هذه الدقائق.

وهاك جدولاً جامعاً لكثير من النبات المشهور النافع للإنسان والحيوان، وهاهو ذا:

	القطن			القمح		الشعير	
عناصر	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٥,٥٠	٣٢,٣	٣٢,٩	٣١,٥٤	١٥,٦٤	٢١,٣٠	١٨,٨٠
صودا	٣,٦٤	٦,٩	٥,٤	٢,٦٦	٩,٥٤	٤,٠٠	٦,٨٠
جير	١٤,٦٣	٥,٦	٢٨,٠	٣,١٤	١٠,٠٠	٢,٤٠	٤,٧٠
مغنيسيا	٨,٧٨	١٦,٥	٦,٣	١٢,١٠	٣,٥٠	٩,١٠	٢,٥٠
حمض فوسفوريك	٨,٣٤	٣١,١	٨,١	٤٨,٥٠	٣,١٠	٣٣,٧١	١,٦٠
حمض كبريتيك	٧,٧٧	٢,١	٥,٤	٠٠,٠٨	٤,٧٠	٢,١٠	٣,٥٠
سلكا	٨,٢٢	٠,٣١	٥,٩	١,٨٨	٤١,٩	٢٧,٥٢	٤٣,٠٠
كلور	٦,٣٧	١,٥٠	٧,٥	٠٠,١٠	٥,٢٠	٠٠,٣٠	١٧,٣٠
أوكسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦,٢٠	٠٠,١٥	١,٣٠

	الذرة		الفول		بطاطس	القصب		برسيم
عناصر	حب	سيقان وقوالح	حب	تبن	نوع من الكمء	ورقه وقماماته	مجرد من قماماته	
بوتاسا	٣٧،٩	٣٢،٠	٤٢،٥	٢٧،٨	٦١،٦	٢١،٥	٣٤،٣٠	٣٤،٦
صودا	٣،٠	٣،٠	٣،٣	٨،٦	١،٩٠١	٢،٤٠	١،٩٠	١١،٤
جير	٣،٤	٩،٧	٦،٠	٢١،٥	٢،٤	٧،٢٥	٤،٨٠	٢١،٦
مغنيسيا	٧،٥	٥،٥	٧،٣	٥،٦	٥،٠٠	٣،٨٠	٢،٩٠	٤،٥
حمض فوسفوريك	٤٤،٨	٢،١	٣٤،٦	٥،١	١٧،٦	٣،٣٥	٤،٨٠	٥،٣
حمض كبريتيك	١،٥٠	١،٤	٣،٥	٥.٩	٦،٢	٦،٣٠	٦،٥٠	٤،٢
سلكا	١،٤٠	٣٢،٨	٠٠،٩	٨،٧٠	١،٠٠	٤٤،٨٠	٢٦،٩٠	٣،٨
كلور	آثار	١٠،١	١،٤	١١،٥	٢.٢	٨،٢٠	٨،١٠	١٣،٩
أوكسيد الحديد	٠٠،٤	٣،٠	٠٠،٤	٤،٩	٠،٨	١،٩٠	٩،٨	

تأمل هذا الجدول تجد أن مطعوم البهائم، والآدميين، والملابس، والفاكهة، كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها، فيا عجبا كيف كانت مادة الذرة هي مادة القمح بعينها، بل مادة القطن، وباختلاف المقادير صار هذا ملبساً وهذا مطعماً ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:١٣].

حارت الأفكار في هذه الحكمة الباهرة، فإن نظرنا إلى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان، وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاماً، وإن نظرنا إلى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمة باهرة وأنها موزونة بميزان عدل، وإن نظرنا إلى عناصرها التي تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة، وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم والأشكال والألوان والروائح والمقادير، وما أشبه هذه النظم في ترتيبها بنظام السماوات، فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص، فكذلك ترى هنا جداول محكمة، ولقد صدق فيثاغورث في قوله: إن العالم مبني على الأعداد والموسيقى، ومن هذا نفهم سورة الرحمن، ولنذكر آيات منها لتفهم المقصود.

قال الله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[١-٤].

نعم خلق الله الإنسان فيه كل نظام وترتيب، ولما كانت الأشكال تحنّ إلى أشكالها وضع الروح ذات العلم والأدب وحب النظام والترتيب في هذا الجسم المشاكل والمناسب لخلقها، وأعربت وبينت عما استكن في هذا العالم الذي هو طبعاً يحكي الجسم، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[٤] فأبان ما يقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم واللطائف والعجائب إذ خلق العالم أولاً مقدمة لخلق الإنسان، وليكون دفتراً له وكتاباً يقرؤه، فله نفع في عقله، وفائدة في جسمه، فخلق الإنسان أولاً فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه، ولما كان هذا الكلام مجملاً، والمجمل لا يغني عن المفصل في التعليم شرع الرحمن يفصله تفصيلاً مظهراً آثار رحمته على أجسامنا أولاً، وعقولنا

ثانياً، بالخلق أولاً والعلم ثانياً، فقال: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[٥] ولقد أعدنا هذا الكلام مراراً واتضح لك نظام السماوات على أبهج أوضاعه وترتيبه، وبينا أيضاً أن العالم السفلي نظامه تابع للعلوي، لوصول الأثر من الثاني، فلذلك كان له نظام بحساب متقن كمتبوعه الأول كما رأيت هنا، فلذلك قال: ﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾[٦] هو ما لا ساق له ﴿ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[٦] فذكر المزارع من نبات وشجر، وقد رأيت حسابها فأفاد أنهما يسجدان، ولقد رأيت آثار السجود فيها من اطرادها على قانون واحد لا يتغير ولا يتبدل.

ولما كانت النباتات على سطح الكرة الأرضية، وهي مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها، وأمطارها ورياح جوّها، كانت الأرض ومزارعها ككرة طرحت بصوالجة فتلقتها هذه الحوادث الفلكية والجوية، وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الإحاطة المذكورة، فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾[٧] وهذه الرفعة حسية وعقلية، أما الحسية فظاهرة، وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة، فتارة تأتي ببرد، وأخرى بحرّ، ومرة بخصب، وأخرى بجدب، ولا ريب أن هذا يورث خللاً في النظام، وعدم ترتيب في الأحكام، فلا بد إذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ ﴾[النور: ٤٠] فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن:٧].

ولقد فهمت من الجداول السابقة في العالم العلوي والسفلي شيئاً من الميزان، فقس عليه كل أحوال هذا الكون، فكله موزون بهذا بعينه، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر:١٩] فلقد شاهدت الميزان في الجداول السابقة ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾[الحجر: ٢٠-٢٢].

ولعلك فهمت أيضاً من هذه الجداول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد:٣-٤]، فلقد رأيت أنه فضل القمح على الذرة في الجدول السابق، بالعناصر المقوية للعظام كالسلكا الذي هو مواد رملية، وحمض الفوسفوريك الذي يدخل في تركيب عظامنا، ومنه تصنع أعواد الكبريت، فهاتان المادتان في القمح أكثر منهما في الذرة، بخلاف الكبريت، فهو في الذرة أكثر منه في القمح، وهكذا بقية العناصر، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام.

قلنا إن الفوسفور في القمح أكثر، وهو داخل في تركيب العظام، وهذا مشاهد في عظام الموتى، فإنك ترى أبخرة تتصاعد، وكثيراً ما ترى بالليل ناراً ساطعة، وما هي إلاّ تلك المادة الفوسفورية التي ذكرناها في الأغذية، وكمنت في العظام، قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة في الهواء، وهي الأكسوجين

فاتقد ناراً فظن العامة أنها كرامة لولي أو نحو ذلك، وقد فهمت الحقيقة، وقس على هذين النباتين غيرهما. ثم إن هذه المواد تدخل في تركيب الأجسام النامية، وتبقى إلى أمد معلوم، ثم تنحل ويذروها الهواء وترجع ثانياً، وتدخل تركيبها كما قال تعالى: إنما ﴿ مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[الكهف:٤٥] استدلال بالطبيعة على بقاء الأرواح وإليه رمز: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٤]، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه:٥٥].

ولعلك تقول: الآية واردة في خلقنا بعد الموت، قلنا: نعم، وإنما نحن ذكرناها على سبيل الإشارة والرمز أو نحو ذلك، مما ذكره علماء البيان، بل بقاء العناصر الأرضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت، وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة المظلمة الميتة، وتهلك تلك الأرواح الطاهرة المنيرة الحية العالية، بل كان الأجدر بالقياس أن تهلك المادة وتبقى الأرواح، فإذا بقي الأخس فالأشرف أولى بالبقاء، لأن الروح إذا كانت بسيطة كما هو إجماع الحكماء، فكيف تفنى؟ والفناء إنَّما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين: روح وجسم، ففناء الأرواح ليس يقبله العقل بالكلية. فافهم.

لطيفة

من أعظم أسرار القرآن التي ظهرت في هذا الزمان سر ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فإني بينما أنا جالس بالمنزل يوم الثلاثاء ٥ شهر مارس سنة ١٩٣٢م الموافق أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٠هـ إذ حضر عندي عالم من ذوي الذكاء والفطنة، فقال بعد أن قرأ هذا الموضوع في الطبعة الثانية: لقد أحسنت وأجدت في إيضاح عجائب الخلقة، ولكن أريد أن أطلع على نفس التكوين عياناً من نفس علم الطبيعة، لأن الله عزَّ وجلَّ إذا قال: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ علم أن في الإمكان ظهور نفس الخلق والتكوين ووضوحه في العالم المشاهد كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] بحيث تراه العيون، وتمتلئ القلوب بعجائب التكوين، وتنطق الألسنة، فيقول المشاهد هذه الجملة: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومعنى هذا أن الإنسان يكون مشاهداً بنفسه ومعايناً لتكوين الأجنة وتدرّجها في النمو شيئاً فشيئاً، كما رأى العزير تكوين حماره سواء بسواء، وهناك يكون الإيقان بعلم الله وقدرته على كل شيء، ويكون المطلع على هذا ممن قال الله فيهم: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الزخرف:٨٦] فهذه شهادة عن معاينة، والشهادة عن معاينة شهادة بالحق. هذا ما أردت أن أسألك عنه الآن. انتهى سؤال زائري.

فلما سمعت ذلك قلت: أيها الصديق، إن هذا السؤال خطر لي منذ عشرة أيام، وصممت إن طالت الحياة أن أؤلف لهذا رسالة خاصة تكون في ملحق هذا التفسير، ولكن أوجز القول هنا إيجازاً فأقول:

إن ما سألت عنه اليوم هو سر ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول هذه السورة وهي البقرة، فقال: واعجبا، وأي سر في ﴿ الٓمٓ ﴾؟ إن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول هذه السورة من الحروف التي لا معنى لها، وسرها عند الله لا عندنا. وهل ما ليس له معنى يكون فيه سر عظيم عندنا بني آدم؟ فقلت: إي وربي إنه لحق، فقال: فأريد أن تكشف لي هذا السر، فقلت: إن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة مفتاح العلوم في مستقبل الزمان، ومفتاح السياسة لأمم الإسلام، فقال: هذا نبأ عظيم، فما هذا القول؟ فقلت: اعلم أيها الأخ الصديق أن أذكياء القراء إذا ابتدؤوا في قراءة القرآن صادفتهم الفاتحة، والفاتحة مدخل ومقدمة لبقية القرآن، فإذا ابتدأ يقرأ ما بعدها صادفه ﴿ الٓمٓ ﴾ فيقول في نفسه: هذه حروف لا معنى لها، ثم هو لا يزال يقرأ في سورة البقرة وهو متربص أن يعرف سر ﴿ الٓمٓ ﴾ فما يشعر إلاَّ وقد فوجئ بنفس هذه الحروف في قصة الذين خرجوا من ديارهم فارّين من الموت، وفي قصة طالوت الذي حذر جنده من كثرة شرب الماء من النهر، وكان امتثال ذلك التحذير سبباً للفوز، ومعنى هذا أن الأمم لا تقهر أعداءها إلاَّ إذا هذب أفرادها نفوسهم، لأن الأمم أفراد مكررة، وذلك سر نصف الفلسفة، وهي الفلسفة العملية، تهذيب الشخص والأسرة والمدينة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وفي قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ثم إذا أتم هذه الآية يستمر في قراءته فتصادفه آية إبراهيم ونمروذ، والمحاجة التي كانت بينهما كمحاجة علماء المنطق، ويتلو ذلك ما كان من أمر الله للعزير إذ يقول له: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ ثم مسألة الطير وإبراهيم، إذ فرّق أجزاءهن ثم جمعت، وقال الله له: ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، فإن في هذا المقام ﴿ الٓمٓ ﴾ قد ذكرت مرتين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ و﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾.

ولا ريب أن علوم أهل المشرق والمغرب لا تعدو أحد أمرين: إما علوم علمية وهي العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية، وإما علوم عملية، وهي تهذيب الفرد والأسرة وسياسة الأمة، ولما كانت العلوم العملية ظهر سرها فيما تقدم، ظهر سر العلوم العلمية هنا، وذلك بمشاهدة عظام الحمار وكسوتها لحماً، وتفرق أجزاء الطير واجتماعها. ولا جرم أن علم الحيوان من العلوم الطبيعية، وهذه العلوم لا نظام لها إلاَّ بمقاييس ونظم وإحكام لا يدركه إلاَّ الدارسون، والاستنتاج من ذلك كله يكون بالعلم الإلهي، إذن هنا إشارات إلى العلوم العلمية المتقدمة، وعليه يكون سر ﴿ الٓمٓ ﴾ في هذه السورة أنها مفتاح لعلوم الأمم شرقاً وغرباً، مسلمة وغير مسلمة، فبينما القارئ يتربص ليعرف ما هو السر في النطق بحروف ﴿ الٓمٓ ﴾ إذا به قد ظفر بكنز علوم السياسات الإنسانية ومعارفها، وبعبارة أخرى: إن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول البقرة تشير لكل علم في الأرض، وهذه بلاغة لا نظير لها في بلاغات أهل الأرض، وهذا من السر الذي نزل به القرآن، وظهر في هذا الزمان وحده، إذن هذا القرآن بعد هذا البيان لم يكن

لأمة دون أمة، لأن هذه المعاني تصلح لأن يقرأها أهل جميع الأرض، لأن نظام العلوم ونظام السياسة محتاج إليهما جميع الناس. فقال حسن حسن، ولكنه يعوزه إيضاح أعظم من وجهين: الوجه الأول زيادة التفصيل لما تقدم، الوجه الثاني إيضاح ما سألتك عنه أولاً ولأجله سقت هذا الحديث، وهو أني أرى في نفس الطبيعة بعيني ما رآه العزير في حماره، فقلت: أما أول الأمرين، فلن يتسع له هذا المقام، وسأكتبه في ملحق هذا التفسير بهيئة أعجب، وأما الأمر الثاني فإني أعجله لك الآن، وذلك أن هذه الآيات ذكر الله فيها من الحيوانات الفقرية الحمار من ذوات الأربع والطير، وبقي من ذوات الفقرات الإنسان والزواحف والسمك.

ولما كانت الضفادع متوسطة بين السمك والزواحف، وكان في مشاهدة نمو أجنتها عجب عجاب لا ينقص عن مشاهدة العزير حماره وهو يكسى لحماً، أردت أن أذكرها هنا إجابة لطلبك، وإغاثة لمطالب شوقك، فترى بيض نوع من الضفادع وهو في قاع البركة ذات الماء الغليظ، وستشاهد درجات نمو الجنين في البيض شيئاً فشيئاً، وتعجب من تلك المادة الهلامية التي تحمل ذلك البيض، وكلما نما الجنين في داخلها أخذت هي تكبر قليلاً قليلاً، لترفعه من ثقل الماء إلى خفة الهواء، وقد أعدّ لذلك من الحكمة عجيبتان: عجيبة حيوانات ذرية تتنفس بالأكسوجين وهي لا ترى، ونباتات لا ترى أيضاً، وهاتان العجيبتان تؤثران في تلك المادة انتفاخاً فترتفع ارتفاعاً متناسباً مع نمو جنين الضفدعة كما ستراه موضحاً، ثم ترى بيض نوع آخر من الضفادع موضوعاً بهيئة صفوف متوازية ملتئمة بالمادة الهلامية أيضاً فبهذه المشاهد ترى مصداق مسألة العزير في نفس الطبيعة، وستعجب كل العجب من خياشيم صغار الضفادع المشبهات خياشيم السمك، وكيف تتنفس بها أولاً، ثم تخلق لها الرئة كحيوانات البر، وتخلق الأعضاء بالتدريج عضواً عضواً، فقال صاحبي: هذا أمر عجب فأرجو أن أراه الآن، فقلت:

الكلام على الحيوانات الضفدعية

الحيوانات الضفدعية هي حيوانات فقرية من ذوات الدم البارد، ويظهر في هذه الحيوانات طور الانتقال من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية، وذلك باختفاء العوّامات في الحيوانات الضفدعية، وهي التي كانت تتمتع بها الأسماك، وكذلك وجود الأصابع بأطرافها، وقد علمنا أن أطراف السمك خلوة منها، ولكننا نجد أن الحيوانات الضفدعية تمضي أطوارها الأولى في الماء، وتتنفس بالخياشيم، وتعيش في طورها الكامل على الأرض بالقرب من المياه، وتتنفس الهواء الجوي بواسطة الرئة، وتتنفس الضفادع كذلك من جلدها، وبهذه الطريقة يمكنها البقاء ساكنة زمناً بدون تنفس رئوي.

القلب في هذه الحيوانات مركب من ثلاث حجر: أذينين وبطين واحد، ولهذا يتغذى جسمها بمزيج من الدم النقي وغير النقي، الأجناس في الضفادع مختلفة ، تضع الإناث عدداً عظيماً من بيض صغير في الماء، ويحصل إخصاب البويضات في الماء، إذ تفرغ عليها الذكور مادتها المنوية، وعندما يفقس البيض يحصل بالأجنة تطور خاص إلى أن يكمل نموها. ومن أمثلة الحيوانات الضفدعية:

(١) الضفادع، وهي التي تكون أصابعها خالية من المخالب، وتضع بيضها بشكل كتلة هلامية.

(٢) ضفدع البرّ، تنتهي بعض أصابع أرجلها بمخالب، وتضع بيضها بشكل أحبال تربطها بالنباتات المائية الموجودة على جوانب الترع والمساقي.

(٣) السمندر: هي حيوانات ضفدعية لها ذنب طويل، وتشبه الأبراص والسحالي.

الضفدعة

تعيش الضفادع في الأراضي الرطبة القريبة من الترع والمستنقعات، ويغطى جسمها بجلد رطب أملس تبعاً لوجود غدد به تفرز مادة لزجة تحفظ الجلد رطباً، وهذه المادة سامة بدرجة قليلة، تثب الضفادع على الأرض بقوة أرجلها الخلفية الطويلة، وعندما تنزل في المياه تعوم بواسطة الأرجل الخلفية أيضاً تبعاً لوجود غشاء رقيق بين أصابعها، إذ يجعل الرجل عريضة كالمجذاف.

يكثر وجود الضفادع في الربيع والصيف، أما في الشتاء فيندر وجودها تبعاً لاختفائها، حيث تدفن نفسها في الطين بشواطئ الترع، وتحت الأحجار وغيرها مدة هذا الفصل، ويقال: إنها في بيات شتوي، وفي هذا الوقت تكمن الضفدعة فلا تتحرك ولا تتغذى ولا تتنفس تنفساً رئوياً، وتنشط في أوائل الربيع، وتجتمع معاً في حفلاتها الليلية، وتحدث نقيقاً عالياً، وفي هذا الفصل تضع الإناث بيضها بشكل كتلة هلامية، وتفرغ الذكور عليها المواد المنوية أثناء خروجها من الأنثى، أو إذا عثرت بها فتخصب البويضات.

يفقس بيض الضفادع المخصب بعد أسبوعين تقريباً، وتخرج منه كائنات صغيرة متطاولة كالأسماك، تسمى بـ«أبي ذنيبة» تعرف عند العامة بالطعلب، وهذه الكائنات تعوم في الماء بذنبها الطويل، لأنها تكون عديمة الأطراف، وتتنفس بالخياشيم، وتتغذى بالنباتات وتنمو، وتحصل بأبي ذنيبة تطورات تدريجية، وذلك بأن تنمو له الأطراف الخلفية أولاً ثم الأطراف الأمامية، ثم يأخذ الذنب في التلاشي تدريجياً، وتبتدئ كذلك الرئتان في النمو، ثم تتلاشى الخياشيم، ويصير التنفس إذ ذاك رئوياً، فتترك الضفدعة الماء وتعيش على الأرض. ويستغرق هذا التطور ثلاثة شهور تقريباً، وعند ذلك يكون قد تم تطورها، وتتغذى في هذا الوقت بمواد حيوانية، وتكبر في الحجم. أما غذاؤها فهو عبارة عن القواقع، التي يكثر وجودها على شواطئ الترع، والديدان والحشرات المختلفة والذباب، وتقتنص الضفدعة الذباب بلسانها الطويل اللزج، إذ تلتصق به الذبابة بمجرد ملامسته لها. اهـ.

إيضاح ما تقدم بالتصوير الشمسي

وهذه صورها الموضحات لما تقدم (انظر شكل ١)

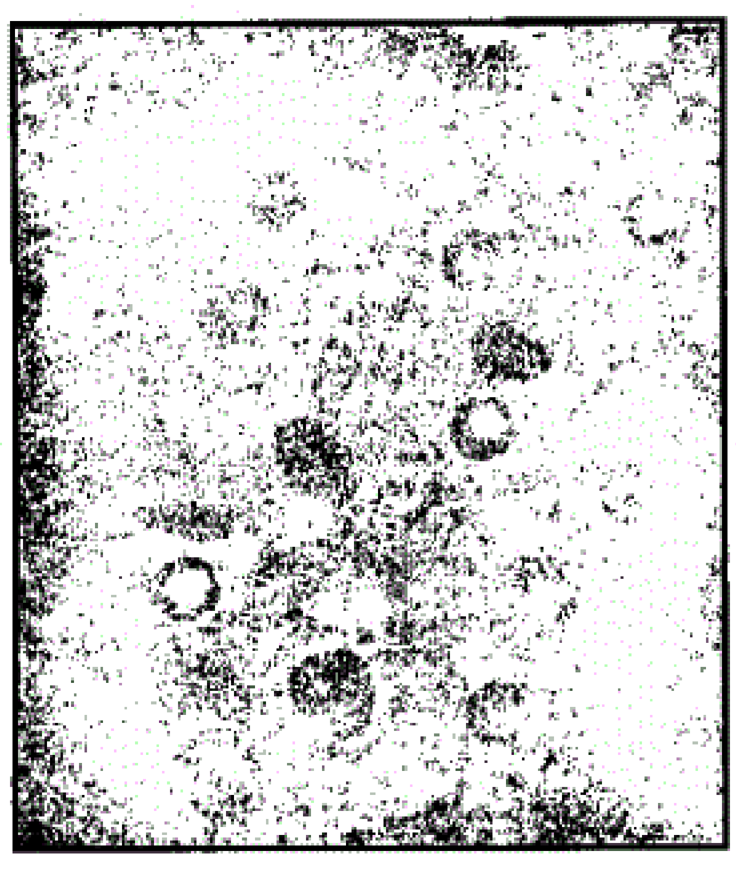
الضفادع تضع بيضاً ما بين ألف وألفين، وقطر البيضة الواحدة عشر البوصة، ويحيط بها مادة هلامية، وهذه المادة تنتفخ شيئاً فشيئاً، وتحمل ذلك البيض من قاع البرك إلى سطح الماء.

(انظر شكل ٢).



(شكل ١ ـ بيض الضفادع المعتادة)

هاهو ذا يحمل الكرة الهلامية التي تربى فيها، كما كانت هي تحمله، كأنها رافعة ترفعه إلى أعلى حينما يشتد ثقل الماء، ولقد كانت لها فائدة أعظم، وهي أن طعمها كريه فلا تكون الصغار عرضة لأكل الحيوان، ومن أعجب العجب أن هذه الكرات الهلامية يتخللها نباتات ميكروسكوبية لا تراها العيون المجردة أي «ذرية» يخرج منها أكسوجين، وفيها حيوانات ميكروسكوبية لا تراها العيون، وهذان يكفلان تحليل هذه الكرات الهلامية (انظر شكل ٣ و٤).



(شكل ٢ ـ أبو ذنيبة وهو ذرية الضفادع)



(شكل ٣)

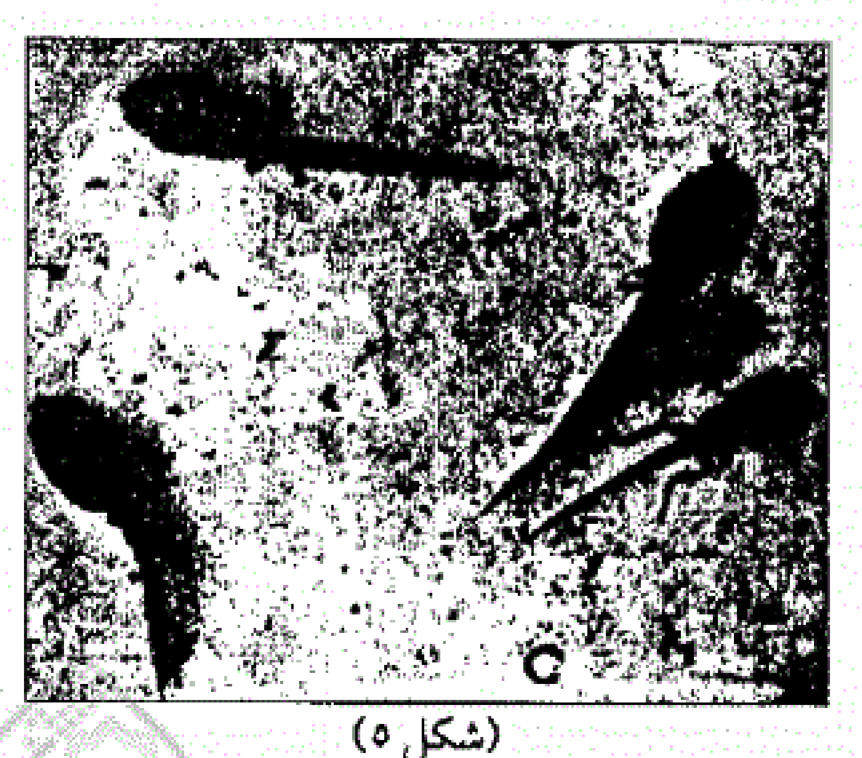
(شكل ٤ ـ أبو ذنيبة الكبير)

إن أبا ذنيبة الذي خرج من البيضة حديثاً لا يزال ينمو، ولذلك لا يزال فمه مقفلاً، والعينان اللتان لا تزالان تنموان في الرأس لم تصلا إلى الجلد، وهناك فيه غدة من الإسمنت، بها يلتصق أبو ذنيبة في حشائش البحر متى أراد.

حينما يكون أبو ذنيبة ابن شهرين، تظهر أعضاؤه، وهذه الصورة الشمسية تريك الدرجات المختلفات في ظهور الأعضاء زوجاً واحداً، فترى هذا ظهر له روج واحد من الأعضاء، وذلك ظهر له زوجان، والذيل ذو العضلات وظيفته أنه أشبه بسكان السفينة «الدفة».

وفي هذه السن لا يزال أبو ذنيبة يتنفس بواسطة خياشيمه على طريقة السمك، وهذه الخياشيم مختفية تحت الأغشية المغطية له، ولكن تلك الصغار مع ذلك تعلمت كيف تستعمل رئتها وتجتذب النفس من الهواء فوق سطح الماء، فهي إذن أشبه بسمك الطين الذي يتنفس بطريقتين معاً، فهو في الماء يتنفس بخيشومه، وفي الطين برئته. انتهى، وبذلك تمّ الكلام على النوع الأول من الضفادع.

النوع الثاني: الضفادع المسماة بالفرنجية «تود» وبالعربية «ضفدع البر». (انظر شكل ٥و٦و٧و٨)



(شكل ٥)

بيض ضفادع البرك، وهو مكوّن من صفوف مزدوجات، وقد لصق بكل صف خيوط هلامية تبلغ عشرة أقدام طولاً



(شكل ٦)

أبو ذنيبة ارتفع إلى وجه البركة وهذه قد خرجت من بيضها منذ ١٤ يوماً



(شكل ٧)

رسم الضفدعة التي نمت وكبر حجمها في سن ثلاثة أشهر



(شكل ٨)

ضفدعة تمّ نموها، وقد ظهر جلدها الثخين، وهكذا غدتها ذات السم الناقع، موضوعة تماماً خلف عينها

وبهذا تمّ الكلام على النوع الثاني من الضفادع، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي ذلك، ونظر هذه الصور قال: هذا أمر جميل وبديع عجيب، ولكني أسألك ثلاثة أسئلة: أولاً: لم لم تكتب هذه المعجزة في الطبعة الأولى؟ ولم تأت بأسرار الحروف إلا في أول آل عمران. ثانياً: كيف غاب هذا عن المسلمين ١٤ قرناً، ولم يظهر إلاّ الآن؟ ثالثاً: بأي العلوم المعروفة يكون هذا الإعزاز؟

فقلت: أما السؤال الأول فإني أقول إنه لم يفتح علي بهذه المعجزة في الطبعة الأولى.

وأما جواب السؤال الثاني، فإني أقول: إن هذا هو الزمان اللائق لهذه المعجزة لأمرين: الأمر الأول أن العلوم كثرت في هذا الزمان، الأمر الثاني: أن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم، وقد ملئت الأرض بالعلوم وكشف كثير من عجائب الدنيا، فهذه المعجزة ظهرت اليوم لإنهاض الأمم الإسلامية لأن هذا أوانه. وأنا أقول: بعد ظهور هذا السر وقراءته في هذا التفسير لن ينام أذكياء المسلمين، ولن يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا حياة، إلاّ بالعلم وكشف حقائق هذا الوجود، وسيظهر في أمم الإسلام رجال لا نظير لهم في أسلافهم، ولا في الأمم المحيطة بهم، ومن يعش يره.

ألم تر أن الله جعل في ملوك الإسلام في القرون الماضية من انتفعوا بحروف «ا ل م» فحقنت دماء المسلمين بها، وذلك في خبر السلطان محمود الغزنوي الشهير، إذ بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة، فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث إليه كتاباً فيه تهديد ووعيد، قال في جملته: «لو أردت نقل حجارة ببغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت»، فبعث إليه الخليفة كتاباً مختوماً، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلاّ ألفاً ممدودة، وفي وسطه ل، وفي آخره م، والصلاة والحمد لله، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك، حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني، ففكر في ذلك، وقال: عندي شرحه، فقال: اذكر ولك ما تريد. فقال: بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه (ا) و(ل) و(م) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[الفيل:١] إلى آخر السورة، فارتاع السلطان لذلك، ووقع في قلبه الخوف والندم، وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضا والأدب.

إذا علمت أيها الأخ فلتعلم أن القرون الماضية كانت ممهدة لما كتبناه اليوم من هذا السر، فلم تذهب تلك القرون سدى، بل هم ممهدون لنا، وعلينا أن نعمل لمن بعدنا، وبسبب أمثال هذه الأسرار استحق القرآن أن يقال فيه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء:٨٨].

وأنا أقول: من ذا يقدر من البلغاء أن يأتي بكلام فيه سر كسر ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول البقرة الذي مضت القرون، والناس لا يعلمون ما كنز فيها من العلوم حتى وضحت في هذا التفسير الآن بمعاونة العلوم القديمة والحديثة.

وأما الجواب على السؤال الثالث فذلك أن هذا من باب المعاني والإشارات الرمزية، وهي من الكناية، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، وهي أنواع كثيرة، وقرينة هذه الكناية أننا في زمان انتشار العلوم، والكناية من علم البيان كأنه يقال: تأملوا في الآيات التي في حيز ﴿ الٓمٓ ﴾ أعني أن

القارئ حينما يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم؛ «ا ل م»؛ في البقرة يفكر حالاً في كل جملة تقع بعد هذه الحروف، فيجد عجباً عجيباً مدهشاً، يجد: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذه في موضوع آية النسخ، والنسخ أسراره تقدمت وهي مدهشة، ويجد: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ﴾ كما تقدم، ويجد: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾، ويجد: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ فيجد إذن نفسه في جو من أجواء نظام الأسرة ونظام الأمة ونظام الطبيعة.

هذا جواب ما سألتني عنه، فقال: لقد رأيت منه عجباً، وشرحت صدري، وفتح الله لي كنزاً من العلوم لم أكن لأحلم به، فإني الآن يخيل لي أن قرّاء القرآن في المستقبل سيكونون أعلم الأمم بنظام الأمم، وبسر الكون، فإن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول البقرة التي جاءت بعد مدخل القرآن وهي الفاتحة، تشير إلى هذه العلوم التي تحيط بالمسلمين وهم لا يشعرون، ومن هذه يبحث القارئ في كل معنى يجيء في حيز «ا ل م» ولو كان في غير سورة البقرة مثل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] الخ، وهكذا، فهذا أعجب العجب، فقلت له: الحمد لله رب العالمين.

تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية

اعلم أن بقاء الروح في الدين سمعي لا برهان عليه، وإنما للرسل معجزات تقنع تابعيهم أنهم مبلغون عن الله، ثم بعد ذلك ما يقولونه عن الله يكون مقبولاً، فكل ما جاء عن الرسل يقبله أتباعهم بلا نكير، ولكن من الأتباع من لا يكتفي بالتقليد والسماع، ويريد أن يقف على الحقائق بنفسه، ويقول: لي عقل فلم خلق؟ هل خلق للاتباع بلا بصيرة ولا فكر، فلذلك لم يترك الدين هنا الناس في حيرة، فجعل على العامة التقليد، وأما الأذكياء فسبيلهم النظر، وإذا فرطوا في نظرهم أثموا كما يأثم العامة لو حاولوا الاستقلال بالرأي في الدين الذي لا يطيقونه، فما نصبه الله للخاصة والأذكياء في القرآن أمثال هذه القصة، فتجد أن إبراهيم الخليل مأمور بالتحليل فذبح الطيور وفرقها، ثم دعاها فجاءت، واعلم أن هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح، والقول وإن كان في ظاهره للعامة فهو في باطنه للخاصة.

البرهان على بقاء الأرواح
إما بالنظر العقلي، وإما بعلم الأرواح

أما النظر العقلي في ذلك، ففيه طرق ثلاث:

الطريقة الأولى: ما ذكره ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق إذ استدل على بقاء الأرواح بأنها بسيطة قائلاً: إن الروح ليست جسماً ولا عرضاً في جسم، ذلك أننا نرى أن الجسم لا يقبل إلاّ صورة واحدة، ولا يكون قابلاً لصور كثيرة في آن واحد، فلن يقبل التربيع وهو مثلث، ولا التخميس وهو مربع، بل لا يقبل صورة ويلبسها حتى يخلع الأولى، ولن يقبل التثليث إلاّ إذا بطل منه التربيع، هذه طبيعة الأجسام، أما النفوس فإنا نراها على خلاف ذلك، نرى أننا نتصور الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، والمثلث والمدوّر والمربع، والطويل والقصير، والأعلى والأسفل، والجميل والقبيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه، وفوق ذلك نعرف ونتصور علوماً كثيرة، والجسم لا طاقة له

إلاّ بشيء واحد، ومتى خلعه لبس غيره، وأيضاً نرى العقل كلما انغمس في الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعفّ عنها اقترب من المعقولات، وأيضاً نرى الإنسان كلما زاد في طعامه وشرابه كرهه الناس واحتقروه، أما الذي يزيد علماً فهو محبوب، وأيضاً نرى أننا إذا نظرنا بأبصارنا، وهي من الآلات الجسمية، إلى عين الشمس، حصل لها الكلال وضعفت قوة أبصارها، فأما إذا نظرنا بعقولنا في المسائل العويصة فإنها تكون سبيلاً لقوتنا على فهم ما هو أسهل منها، وذلك كله دلائل أن النفس من طبيعة تخالف المادة، فهذه تقبل المختلفات والأخرى لا تقبل، وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره، وهذه إذا شغلت بما هو أقوى زادت قوة والأخرى تضعف، فهذه وأمثالها دلائل على أنهما مختلفان فتكون النفس ليست من عالم الأجسام، بل من عالم آخر بسيط غير مركب، لأن الأجسام مركبة، والذي يعقل ويحس فينا مخالف لها، وأنه لو كانت الروح مركبة لأمكن أن يكون جزءاً منها عالماً والآخر جاهلاً باعتبار أن المسألة قد قامت ببعضها وتركت البعض الآخر، لأنها مركبة، وفي هذا اجتماع النقيضين علم وجهل، وهذا محال، هذا ما أتذكره من أدلته في أول الكتاب، ولست أذكر هذا على أني قائل إن هذه البراهين كلها قطعية، وإنما ذكرتها لتعلم أيها الذكي طريقته في الاستدلال لمناسبة مسألة الخليل والطير وتقطيعه، وأن ابن مسكويه قارن ما بين الروح والجسم، وحلل تحليلاً علمياً، وسترى فيما بعد التحليل الجسمي لغيره. واعلم أن طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة «سقراط» الفيلسوف الشهير إذ قال: إن النفس جوهر غير مرئي، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركاً بإحدى الحواس، وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مركبة لأن التركيب من طبيعة الأجسام، وإذا كانت بسيطة فإنها غير قابلة للانحلال، لأن الانحلال يرد المركب إلى المواد التي تركب منها، فإذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها، وقال أيضاً: إن النفس هي الآمر، والبدن هو المأمور، فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون آمرة ومتصرفة، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة، فالنفس إذن من الأمور الإلهية وهي غير قابلة للزوال، فهي إذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشرك البدن في أدناسه، فإنها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها، فتبقى معه سعيدة مبتهجة محررة من أوهامها وأخوافها، وكل ما كان يسخرها، ويهوّش عليها، إذ كانت في قيد الحياة، وإذا تركت ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويلبس ويدرك بالحس، فلا يسعها إلاّ أن ترجع إلى حياة مشابهة لطبيعتها. انتهى باختصار ما ذكره ابن مسكويه وما يشابهه من مقال سقراط.

الطريقة الثانية: ما ذكره العلامة ابن سينا في كتاب الإشارات مستدلّا على أن النفس غير البدن بما ملخصه: إن الإنسان يعلم بوجوده وإن كان غافلاً عن جميع أعضائه، والمعلوم هو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم، فتكون ذاته غير جسمه، وهي التي يعبر عنها بلفظ أنا. ألا ترى أن الإنسان لو قطعت يداه ورجلاه وسلخ جلده، فإنه لا يزال يقول أنا، فلماذا يشير؟ أيشير إلى أعضائه الباطنة، كالقلب والكبد والطحال والرئتين، كلا، فإن هذه لا تعرف إلاّ بالتشريح، وقد فرضناه غافلًا عن كل هذا وعن التشريح وعن كل شيء إلاّ نفسه. ولقد أطال في ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب، وإنما

أتينا بما يفيد الغرض. وعلى ذلك ثبت عنده بهذا أن المعبر عنه بأنا غير الأعضاء الظاهرة والباطنة، بل هو شيء غير الجسم، وهو المطلوب.

الطريقة الثالثة: طريقة ابن الطفيل في كتابه الذي سماه «حيّ بن يقظان»، فقد جعل موضوع الكتاب أن فتاة ألجئت أو تودع ولدها الحديث الولادة في جزيرة خضراء، فعطف على ذلك الغلام غزالة وأرضعته سنتين، وصار هو يراها أمه ويقلدها في بغامها وغدوها ورواحها، ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات، ويستتر بالورق، ويتحلى بفروع الشجر ليظهر بالأبهة أمام الحيوانات الكاسرة، ويستعين بالقرون في المناطحة والمقاتلة. ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الأشجار ويعطف عليها وهو في ذلك كله يقلد طوائف الحيوانات فيما هو الأحسن والأنفع، وهو في أثناء ذلك كله ينظر في أنواع الأشجار والزرع والثمر والحب، وأنواع الحيوان، ويقارن بين نفسه وبينها، ولم يفكر في أمر الروح إلاَّ عندما رجع مرة فرأى أمه الظبية جثة باردة، فأخذ يحركها فلم تتحرك، وأخذ ينظر في عينيها وفي أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التي كانت تعطف عليه، ثم أخذ جثتها قائلاً في نفسه: إذا لم أجد حبيبتي العاطفة علي في ظواهر جسمها، فعسى أن أجدها في باطن الأحشاء، فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والحالبين والمعدة والأمعاء والعروق والشرايين والرباطات والأعصاب والمخ والمخيخ والفقرات الظهرية وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعات منها الواصلة إلى سائر الجسد الموصلات جميع ما تشعر به الحواس إلى المخ، ثم تكون هناك الأوامر الصادرة إلى الأعضاء جارية في أعصاب الحركة لتسخر الأعضاء في الطلب تارة، والهرب أخرى، على مقتضى الأوامر الصادرة من المخ، فلم يجد في جميع هذا الجسم المختلف الأعضاء والأحوال لتلك الحبيبة أثراً، ثم لمح بعض الدم في باطن القلب، فقال: إن الحبيبة التي كانت هنا تعلقت بهذا الدم لما كان جارياً قوياً سارياً في الجسم، ولست أرى أن الدم هو الروح، كلا، فإني أرى أن الروح كانت حاكمة عليه، وهو القائم بإيصال الغذاء إلى سائر الجسد. ثم أراد أن يجرب هذه النظرية، فعمد إلى حيوان وانقض عليه وهو يجري واصطاده، إذ ضربه بالقرون التي جعلها عدته، فلما خر صريعاً شق صدره واستخرج قلبه، فرأى الدم حاراً وله بخار لطيف، فقال في نفسه: إن حبيبتي كانت سارية في هذا البخار اللطيف الدموي، وهو يسري إلى الحواس والأعضاء مع الدم، لأن هذا البخار لطيف، وهو قريب من العالم الروحي، إذ هو ذو مزاج لطيف، ثم رفع طرفه إلى النجوم والشمس وقال: إن هذه الأجرام بينها وبين حبيبتي علاقة، وإن حرارة القلب تصلح لتعلق الروح بها، ولعل هذه السماوات لها مدبر، ولعل ذلك المدبر جعل للحرارة أثراً في الحياة، وهكذا أخذ يفكر أفكاراً فيها بعض الحقائق، كما أن فيها كثيراً من الخيال الذي يبدو للناس في أول نظرهم، وأخذ يبحث حتى قال: لعل حبيبتي لما رأت هذا الجسم لا يصلح مستقراً لها، توجهت إلى هذا العالم العلوي المتلألئ الجميل، ولا بد أن تكون هذه الروح بسيطة، أعني: أي لا جزء لها، والذي لا جزء له لا يفنى، لأن الفناء يكون بتحليل الأجزاء في المركب، والروح لا جزء له، فلا فناء له، هناك أخذت روحه تفكر في العالم العلوي الذي ظن أن أمه وصلت إليه، وقال: عسى أن يكون الذي أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده، وأنه هو نفسه خير منها، بل هو الذي ينبغي أن أسعى للقائه، ثم نظر

فقال: إن هؤلاء الحيوانات إخواني، وهذا النبات خلقه الله لنا، فعلي أن أرعى هذه المخلوقات، ويظهر أني خليفة ذلك الخالق عليها، وإذن أنصر المظلوم، وأنفع كل محتاج، وتكون لي شفقة ورحمة، لأن ذلك الذي ذهبت إليه أمي رؤوف رحيم، إني أراه قد أكثر الماء في الجزيرة والكلأ والفاكهة، وجعل الحيوان آكلاً النبات، والنبات مغتذياً بالعناصر، وهو كثير الرحمة فلأقلده، إنه خلق أمي لأتعلم منها الحب والعطف، وهو الرحيم فلأعطف على عباده، ثم نظر الكواكب وعرف السماوات على مقتضى ما عرفه القدماء، ثم أخذ يخترع طريقاً للعبادة ليقترب من ذلك الذي صنع السماوات، فدار على نفسه كما تدور الكواكب ظناً منه أن دورانها عبادة، إلى آخر ما جاء في ذلك الكتاب.

أقول: وإنما ذكرت لك ذلك أيها الذكي لتعلم أن العلماء السابقين لم يكونوا نائمين، بل ألفوا كتباً لإيقاظ الأمة، ونظروا في العالم، وضربوا الأمثال، وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء في هذه الآية، فإن تحليل الطير على يد الخليل في القرآن من النظر إلى هذه العالم، وأنا لا أقول: إن ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباساً من الآية، كلا، هو ألفه بعقله وصفاء ذهنه، وجودة قريحته، ولكن أقول: إن مسألة الطير في القرآن فتح لباب النظر من هذه الوجهة.

وإذا كان كتاب كليلة ودمنة جاءت فيه الأمثال على لسان الحيوانات، وكثير من الحكايات التي يتداولها المتعلمون، وقد جعلت للعقلاء تذكرة، وللحكماء تبصرة، وللسوّاس في الممالك عبرة، وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب ما لا ينال غايته إلاّ أولو الألباب، فبالأولى الكتب السماوية التي تنشر بين العوام والخواص ويحفظها الصبيان، فيقرؤون مسألة الطير وهم فرحون، فأما العالم فإنه يرى فيها فتحاً لباب النظر ومنفذاً للحكمة، ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقاً لما ذكرته لك، ولقد جعل كتاب «روبنسون كروزوا» وهي الرواية المشهورة الإنجليزية على منوال هذا الكتاب، ولقد انتشرت في أوروبا، وما سطرها مؤلفها إلاّ بعد ما قرأ كتاب «حي بن يقظان» كما قرأت ذلك في بعض الكتب، ولقد كان الفيلسوف «روسو» الشهير يذم الكتب وتعاليمها، ويأمر الشبان أن يقرؤوا هذه الرواية، ومدحها مدحاً كثيراً، وقال: إنها تعلم الحرية الفكرية.

ولا شك أن كتاب «حي بن يقظان» أجلّ منها، وإن كانت هي منسوجة على منواله، لأن قصة «روبنسون كروزوا» تعلم الاستقلال في العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة فحسب، وليس فيها عظيم عناية بإتقان العلم، هذا ما أردت شرحه في الطريقة الثالثة. إلى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلي.

وأما تحضير الأرواح، فإني أحيلك على ما تقدم في هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] إلى آخر الآيات، فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم في أوروبا وأمريكا وانتشاره، وقد طبقته على القرآن في كتاب الأرواح، والآن أذكر ما قلته في هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتي سنة ١٩١٨ وكتب في جريدة الأخبار، تذكرة لأولي العقول الشريفة.

جاء في عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٣٦هـ، ٦ أغسطس سنة ١٩١٨م، ٣٠ أبيب سنة ١٦٣٤ تحت عنوان:

العلم والبدع وواجب العلماء

كتب إلينا أحد الفضلاء يذكر مقال فلان في وفاة المرحومة والدته: من تجافي البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح، فرأينا أن ننشر كتاب هذا الفاضل، مؤملين أن يعتبر بما في الكتاب المذكور إخواننا المسلمون. قال حضرة الكاتب: منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوي جوهري ببلدة كفر عوض الله حجازي بمركز الزقازيق، فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشييع الجنازة، وحضر الأستاذ طنطاوي جوهري، وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الحكيم، القاضي بالمركز، فوقف الشيخ طنطاوي مخاطباً من حضر من نساء قريته، وقال لهن: معاشر السيدات، أتطلبن مني أن أخاطب والدتي في أذنها إيذاناً بإعلامها بحضوري، فلتعلمن رعاكن الله أن أرواح الأموات لا تزال حية، وأنها تسمع وتبصر، وأن والدتي ترفرف روحها علي حيثما كنت اليوم إذ قمت من القاهرة ولا تزال تراني الآن.

إن علماء ديني أخبروا أن للميت علماً بذلك، ونحن بذلك موقنون، فلتطمئن كل منكن على والدتي، ولتعلمن أن للأموات علماً ببعض أحوال الأحياء، ومن ذلك أنهم يحزنون ويجزعون لبكاء أقاربهم عليهم، فإن كل امرئ إذا علم أن حبيبه يحزن لأجله ويرق له، يود لو يخفف من لوعته، ويكفكف من دمعته، ويقلل من حسرته، ويكشف من غمرته، وربما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»، ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المغرمين بتلك العلوم أن هذه حقيقة ناصعة، كشفها العلم الحديث، واطمأنت لها النفوس تصديقاً لكلام النبوة، وتحقيقاً للمعجزة النبوية.

ولقد كان ﷺ يعاهد النساء أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه في معروف، ولا يبكين على ميت فقالت إحداهن: يا رسول الله، لا أعطيك عهداً حتى أذهب إلى فلانة فأسعدها بالبكاء كما بكت هي على قريب لي، فأباح لها ذلك، فقالت: أعاهدك يا رسول الله، ولم أبك بعدها على ميت، ثم أتى الشيخ إلى إحدى السيدات وقال لها: ألم تري أهل مكة لا يبكين على ميت، فقالت: إنهن لا يبكين بل يحنين أيديهن، ويلبسن الأبيض، فقال الشيخ: إن هؤلاء مسلمون، ونحن متبعون في ذلك عادات الجاهلية الأولى، لماذا تبكي الواحدة منكن على أخ أو والد أو حبيب؟ وهي في الحقيقة تعذبه بالبكاء، يا نساء قريتي، اتبعنني أهدكن سبيل الرشاد، اتبعنني واتركن البكاء، إلاَّ ما كان من دمعة جرى بها القضاء فلا بأس، فقال إحداهن: يا ابن أختي، نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبي ﷺ فسكتن جميعاً واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهن، فقال الشيخ لهن: شرح الله صدوركن، فلقد ملتن إلى الدين، وسيكون لوالدتي ثواب بعض هذا، فقال النساء بلسان واحد: عاهدناك على ذلك ما لم يغلب البكاء، وكان الشيخ إذ ذاك يتصبب عرقاً، فقالت إحداهن: كفى كفى، فإن سفرك في الحر ومفاجأتك بالفاجعة، ووقوفك بيننا كل ذلك أتعبك، فقرّ عيناً وانشرح صدراً، واسترح. انتهى المقصود منها.

هذا، ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد، وما تبعه، أعقبه بالكلام في القسم الثاني، وهو الإنفاق، وهذا هو:

المقصد الثامن عشر

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٦٩) وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢٧٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

إيضاح قد دخل به التفسير اللفظي

أي ﴿ مَّثَلُ ﴾ نفقة ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب، لكل شعب منها سنبلة فيها مائة حبة.

واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع الممثل به، وقد وجد نحو ذلك في الذرة في العصر الحاضر، وربما يكون في القمح وفي الدخن في الأرض المغلة ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ ﴾ هذه المضاعفة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ من المنفقين على حسب الإخلاص وكماله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ لا ضيق فيما يتفضل به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنية المنفقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ بعد النفقة ﴿ مَنًّا ﴾ بأن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ﴿ وَلَآ أَذًى ﴾ وهو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثواب إنفاقهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من بخس الأجر ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فوته، ثم أفاد أن الرد الجميل والتجاوز عن سائل الحاجة ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن إنفاق بمنّ وأذى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ عن معاجلة من يمنّ ويؤذي بالعقوبة، ثم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ ﴾ أجر ﴿ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَ ﴾ إبطال المنافق ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يرائي بإنفاقه فمثل المرائي في إنفاقه كمثل حجر أملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أملس نقياً من التراب ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون لهم ثواباً فيه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى الخير، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي تحقيقاً للجزاء صادراً من أصل أنفسهم، والجنة البستان، والربوة الموضع المرتفع وشجره يكون أحسن منظراً، وأذكى ثمراً، والوابل المطر العظيم القطر، ﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أي آتت أكلها مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل، فالضعف هنا المثل، ، الطلّ المطر الصغير القطر. والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله، وإن كانت تتفاوت قلة وكثرة، كما أن الجنة تؤتي ثمرها ضعفين سواء أكان المطر وابلاً أو طلا لجودة تربتها وحسن منبتها ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هذا تحذير من الرياء، وترغيب في صفة الإخلاص، وقوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ الإعصار: ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود، شبه حال المرائين في الإنفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والأعناب وجميع الثمرات، والأنهار تجري من تحتها، وقد أصابه الكبر وذريته ضعفاء صغار، لا قدرة لهم على الكسب، فأصاب هذه الجنة إعصار فيه نار فاحترقت، فهكذا المرائي قد ينفق الأموال الكثيرة العظيمة بلا نية صادقة، فإذا جاء يوم القيامة، وهو في أشد الحاجة إلى الثواب، وليس له ولي ولا نصير ولا شفيع، لم ينل الثواب وحرم منه في حال هو أحوج فيها إليه ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ﴾ تيمموا تقصدوا ﴿ ٱلْخَبِيثَ ﴾ الرديء ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ ﴾ أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته ﴿ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ أي تسامحوا. يقول الله للمؤمنين: أنفقوا من طيبات مكاسبكم، ومن الذي أخرجنا لكم من الأرض، فإنه خلقنا أنبتناه لكم، وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والأرض وبعض الحشرات والدواب في تنمية المزارع، فليس لكم فيها إلا أقل الأعمال، فكيف تبخلون بها على عبادي؟ فأنا المخرج من الأرض، وأنا المنمي للزرع، وأنا الآمر بالإنفاق، هذا هو الذي يحويه قوله: ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون، كأن تعطوا الفقير الحشف، وتصطفوا جيد التمر لكم، وعن ابن عباس رضي الله عنه، كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره، فنهوا عن ذلك، فهلا عاملتم إخوانكم بما تعاملون به أنفسكم، ولستم بآخذيه إلا على طريق المسامحة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذي يهلككم ويحببكم في هذه الدار فتجزعوا عند فراقها ﴿حَمِيدٌ﴾ بقبول ما تنفقون وإثابتكم عليه، ثم قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق ويغريكم بالبخل، والعرب تسمي البخيل فاحشاً ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل لمن أنفق ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنفاقه ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العمل ﴿مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فإنه خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة سراً أو علانية في حق أو باطل ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها أو يمنعون الصدقات ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي فنعم شيئاً إبداؤها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإسرار، والإسرار في صدقة التطوع أفضل من العلانية، وكذلك صدقة الرجل الذي لم يعرف بالمال، أما صدقة الفرض من غيره فإظهارها أفضل، وعن ابن عباس: صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً.

ولقد كان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل المدينة، فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرصه ﷺ على إسلامهم، فنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أي ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام، فحينئذ تتصدق عليهم، فأعلمه الله تعالى أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي يهدي من يشاء هداية توفيق وأما هداية البيان فعليك، فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي ثوابه أضعافاً مضاعفة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون ثواب عملكم بالنفقة، اعمدوا ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟﴾ أحصرهم الجهاد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون ذهاباً فيها للكسب لاشتغالهم بالجهاد ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي من أجل التعفف ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. ونزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة سراً، وعشرة علانية، وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم

سـراً، ويدرهـم علانيـة ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. انتهى التفسير اللفظي.

مباحث هذه الآيات ثلاثة

(١) تلخيص هذه الآيات التي فيها أمثال المنفقين والإنفاق.

(٢) علاقة هذه الآيات بالحال الحاضرة، وكيف قامت الاشتراكية في العالم الإنساني، وارتجت الأرض بسبب الأحوال المالية، وكيف كان القرآن يدعو إلى العطف والمحبة العامة، وأن المسلمين أسرة واحدة، والمال بينهم بمودة ومحبة، وما الذي يجب فيه الصدقة من المال.

(٣) أفضل عبادة المسلم التفكر في الرياض والحقول والسماوات.

المبحث الأول: تلخيص الأمثال المذكورة في الإنفاق والمنفقين

هاهنا أربعة أمثال: مثل الحبة والسنبلات، ومثل الحجر والتراب، ومثل الحديقة، ومثل البستان الذي احترق لما أصابته نار، هذه أمثال ضربت لحال المنافقين والمخلصين.

يقول في أولها، وهو مثل الحبة والسنبلة: يا أيها الناس إنما أموالكم كحبات، فإذا أنفقتموها في النفع العام، وهو سبيل الله، كتعليم أبناء الأمة، أخذ المتعلمون يزدادون بنسبة المضاعفات المطردة، ونما عددهم، وكان ثوابكم يوم القيامة تبعاً لهذه النسبة أبداً وأمداً، هكذا في الصناعات والزراعات والسياسات، وكل عمل تعملونه يزداد ثوابه بازدياد نموه وارتقاء نتائجه، فأما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين، وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فعصفت به الرياح، وذرته السافيات، وطيرته الذاريات، فلا نبات به يقوم، ولا خير منه يرتجى، فأما ثالث الأمثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها بربوة، فآتت أكلها ضعفين فإن لم تغث بوابل فطلّ، فهي أبداً مثمرة مزهرة ناضرة، وذلك مثل المخلصين فأما رابع الأمثال فهو تهويل لحال القوم الذين يراءون ولا يخلصون، فهو أشد من الثاني إذ شبه المرائي بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل، وقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، ورجا خيرها فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، فهو بإنفاقه الجم من المال يرجو عزة قعساء، وفضلاً واسعاً، فلما أن حرم من الإخلاص هدم بنيانه. ولقد يكون الإنسان فاضلاً سابحاً في بحار الحكمة، فيتخبطه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعد أن غرس الحكمة وطفق يجني ثمارها، فانقضت صاعقة الشهوات فأذهبت الثمرات.

مطالب هذا القسم

لقد أدركت ما سلكه الله في أول القسمين، وهو التوحيد، وقد فصله ثلاثة أقسام، وحشر في آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات، فأما هذا القسم فقد ازدان بسبع جواهر نضرات ويواقيت باهرات، وهي التعالي عن الرياء والإيذاء، وخوف الفقر بوعيد الشيطان، وإنفاق الخبيث، واتباع الحكمة، والإنفاق على مدى الأيام والأحوال سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً، وبيان المتفق عليهم.

(١) فأما ترك الرياء، فذلك واضح في الأمثال المضروبة كما فهمت، وأما الباقي فهو يقول:

(٢) أيها الناس، إياكم أن تبطلوا الصدقات بالمن على المساكين وأذى الطالبين.

(٣) وإياكم أن يخيفكم الشيطان بوعيده، ويزعجكم بتهديده، فيخيفكم من الفقر، ويأمركم بكنز الأموال.

(٤) والإنفاق من الحكمة العملية.

فالحكمة علم وعمل فمن أوتيها فقد نال الخيرات ورزق أعظم الثمرات، وهل يذكر إلاَّ أولو الألباب، ألا وإن الله يعلم صدقاتكم المعطاة، ونذوركم المعقودة، فأوفوا النذور.

(٥) ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون فإنكم لا تأخذونه إلا مغمضين ولا تقبلونه لا كارهين فعاملوا بما تحبون أن تعاملوا به.

(٦) فأعلنوا الصدقات وأخفوها، فإنها في الحالين محمودة مطلوبة، ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا: لا ننفق خيفة الرياء، فإن ذلك ضلال مبين.

(٧) فأما سابعهم فهم المنفق عليهم كأهل الصفة، وهم نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين منعهم الجهاد في سبيل الله، وطلب العلم لا يستطيعون ذهاباً في الأرض للكسب لانكبابهم على طلب العلم والغزو ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إلحاحاً، يقال: ألحفني فضل لحافه، أي: أعطاني من فضل ما عنده.

المبحث الثاني

اعلم أن مسألة المال اليوم هي الشغل الشاغل للنوع الإنساني، وترى الحرب الكبرى التي قلبت وجه الأرض لم يكن لها سبب إلاَّ المال، فالنوع الإنساني بعد أن استعبده الملوك، وقد خضدت شوكتهم وضعفت سلطتهم، وأصبح الأمر شورى في أغلب الممالك جاء له دور المال، وصار هو الذي به تقوم الممالك وتقعد، وله وحده قامت الحرب الحاضرة، وانتهى ملك دولة القياصرة ببلاد الروس، وقسمت الأرض على الفلاحين، وأصبح البلشفية يأمرون الناس جميعاً بالعمل، وزلزلت رؤوس الأموال زلزالها.

فانظر في آيات القرآن كيف أمر بالإنفاق وحض عليه وعلى الإخلاص فيه. البلشفية لا يهمهم الإخلاص، وإنما أخذوا الأرض نهباً من أربابها، والقرآن يقول: ليكن المسلم مخلصاً في إنفاقه، شاعراً أن المال مال الله، وأن الأرض لله، وهو الذي أخرج النبات وأنماه وأثمره، فليعطه للفقير إخلاصاً لله، لا خوفاً من السيف، فماذا يطلب القرآن؟ يطلب مطلباً فوق ما تقوله البلشفية، ولأقص عليك ما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء:

قال: إن شرط تمام الوفاء بإفراد المعبود بالعبودية في الشهادتين، أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، فإن المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت، والامتحان بأمرين: بذل النفس في سبيل الله، وبذل المال، ولقد انقسم الناس في بذل الأموال ثلاث فرق:

الفريق الأول: نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا ديناراً ولا درهماً، وأنفوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم، قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم؟ قال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله، فقال صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ فقال: مثله. وقال لأبي بكر رضي الله عنه: ما أبقيت لأهلك؟ قال: الله ورسوله. فقال صلى الله عليه وسلم: بينكما ما بين كلمتيكما.

الفريق الثاني: الممسكون أموالهم، ولكن ينفقون الزكاة وغيرها، وليس الإنفاق خاصاً بما جاء في كتب الفقه مما سأبينه قريباً، كلا، بل يجب إعانة المحتاج وذوي القربى، وما أشبه ذلك غير ما في الزكاة. وهذا مذهب النخعي والشعبي وعطاء ومجاهد، فهؤلاء يوجبون صرف المال في وجوه البر، وفي مواسم الخيرات. ويحرم عندهم التنعم، وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾[المنافقون: ١٠]. قيل للشعبي: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخ.

الفريق الثالث: أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة، وهذا أقلّ المراتب. وهذا ملخص ما قاله الغزالي.

ما قاله العلماء في الزكاة الواجبة

زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها إلاّ على مسلم حرّ. وزكاة النعم «الإبل والبقر والغنم» تجب إذا كانت سائمة، أي: ليست معلوفة، بل ترعى في المراعي المباحة، فأما إذا ظهرت الكلفة في مؤنتها بأن علفت وقتاً، وسيمت وقتاً، أو علفت دائماً، فلا زكاة فيها، ولا بد أن يحول عليها الحول في ملك المالك، ويشترط أن يكون مطلق التصرف في ماله، ولا بد أن يكون نصاباً، والنصاب في الإبل أقله خمس، وفيها جذعة من الضأن، والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية، أو ثنية من المعز، وهي التي بلغت السنة الثالثة، وفي عشر شاتان، وفي خمسة عشر ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض من الإبل، وهي التي في السنة الثانية، وهكذا:

وأما البقر فلا شيء فيه حتى يبلغ ثلاثين، ففيها تبيع، وهو الذي في السنة الثانية، ثم في أربعين مسنة، وهي التي في السنة الثالثة، ثم في ستين تبيعان، واستقر الحساب بعد ذلك، ففي كل أربعين مسنة، وفي كل ثلاثين تبيع.

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين، ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز، ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة، ففيها شاتان، إلى مائتي شاة وواحدة، ففيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة، ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة.

زكاة الركاز والمعادن

الركاز دفين الجاهلية، وقد وجد في أرض لم يجر عليها ملك لمسلم، فعلى واجده في الذهب والفضة الخمس، أما المعدن ففيه ربع العشر، ولا يكون إلاّ في الذهب والفضة.

زكاة الذهب والفضة

وتكون الزكاة في الذهب والفضة إذا ملكهما الإنسان حولاً كاملاً، وكان الذهب عشرين مثقالاً وكانت الفضة مائتي درهم، وفيها ربع العشر، وهو نصف مثقال في الذهب، وخمسة دراهم في الفضة.

زكاة التجارة

وزكاة التجارة كزكاة النقدين، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة وتقوّم عروض التجارة عند آخر الحول بما اشتريت به. وقال داود الظاهري: لا تجب الزكاة بحكم التجارة في العروض إلاّ أن ينوي به التجارة في حال تملكه.

الزكاة في الزرع

أوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الأرض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك.

وجمهور العلماء أوجبوا الزكاة في النخيل والكروم، وفي كل ما يقتات به ويدّخر من الحبوب، ويجب إخراج العشر فيما سقي بالمطر والأنهار والعيون، ونصف العشر فيما سقي بنضح أو سانية، والسانية هي التي يسقى عليها سواء أكانت من إبل أو بقر أو غنم.

ولا يجب العشر في الثمار والزروع حتى تبلغ خمسة أوسق، والوسق ستون صاعاً. وقال أبو حنيفة: يجب العشر في كل قليل وكثير من الثمار والزروع. وأجمع المسلمون على أن الزكاة لا تصرف إلاّ للمسلمين، وهم المذكورون في سورة التوبة. وجوّز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وخالفه سائر العلماء، وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ التي وردت في التصدق على المشركين كما تقدم فإنما هي في التطوع لا في الزكاة المفروضة، فصدقة التطوع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة.

صدقة الفطر

هي واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات، ويخرجه من جنس قوته، أو من أفضل منه، ويجب على المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده، وكل قريب تجب نفقته عليه من الآباء والأمهات والأولاد. اهـ.

هذه هي الزكاة، وهذه آراء العلماء في الإنفاق، فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال، وبعضهم أوجب صرف ما فضل عن الحاجة، وهذان المذهبان الإسلاميان أعلى ما يتصوره العقل البشري، والإنسانية اليوم يعوزها عقول ترقي المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس

وعالم الدين أن الناس إخوته، فليبذل نفسه لهم وجميع أعماله. فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم في سبيل المنفعة العامة، ويستخرجوا جميعاً خيرات الأرض، وخيرات الصناعة والزراعة، فإذا عجز أحدهم، وهو مجدّ في عمله عن قوته، وجب إعانته، وليكن ذلك بصدق وإخلاص، وليكن الآخذ مجتهداً لا كاسلاً نائماً، وإلا حرم، وهذه التعاليم إن أظهرت في الإسلام نكون أرقى أمة في الأرض. أوليس من العجائب أن يقوم «تولستوي الروسي» الشهير فعرض أرضه على المزارعين وهي تعدّ بعشرات الآلاف من الفدادين. كيف يظهر في أوروبا نابغون في العلم وفي الإحسان، والمسلمون نائمون. اللهم ارفع شأن علمائها وعقلائها حتى يرفعوا مستواها، إنك أنت السميع العليم.

المبحث الثالث

أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين

من لي بأن يسمع المسلمون صوتي في أقاصي البلاد، ومن لي بأن ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن، ووجهته التي تربي العقول والنفوس، وترفع مستوى الإنسان إلى مصاف الملائكة، وأن يكون المسلمون خلفاء لله على عباده رحماء، لا ضعفاء جبناء، لا تتخطفهم الأمم من كل جانب. انظروا أيها الإخوان ما جاء في القرآن من الأدلة، وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسة وعلوم الطبيعة:

(١) فإن أمر بالعبادة قال في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[٢٢] ووصف إنزال الماء، وإحياء الحقول والبساتين والثمر والحب والكلأ.

(٢) وإن استدل على التوحيد قال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١٦٤] الآية، وأخذ يشرح اختلاف الليل والنهار، وسير الفلك في البحر، والسحاب والمطر والنبات.

(٣) وإن طلب منا الشكر قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤] فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدرّ والمرجان والسفن الجاريات فيه.

(٤) وإن ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨] فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر في الألوان والأشكال في الإنسان والحيوان والجبال والدواب، فانظر كيف نام المسلمون.

(٥) وإن ذكر اليوم الآخر واستدلّ على البعث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[الحج: ٥] يذكر خلق الإنسان من تراب يصير نباتاً وحيواناً بالزرع، والتغذية منه، فيكون دماً فلحماً أو ورقاً وثمراً لتغذية الحيوان بالزرع، والزرع يغتذي من عناصر الأرض وهو التراب، ثم يكون نطفة فعلقة فمضغة قطعة

متجمدة بمقدار ما يمضغ الناس في الفم من اللقمة، وهكذا، وذلك هو علم الأجنة، ولقد ظهر هذا العلم في المدارس العالية في جميع العالم.

(٦) وإن حرّض على الإنفاق في المنافع العامة، قال يصف زيادة الحسنات للمنفق بازدياد الحب في السنابل: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾[البقرة:٢٦١].

(٧) وإن ذم النفاق مثل بالليل وظلمته، والنار وإيقادها، وسرعة ذهاب نورها.

(٨) وإن مثل الكفر جعله كالظلمات، أو القرآن جعله كالمطر، أو الوعيد جعله كالرعد، أو الحجج جعلها كالبرق.

(٩) أو العدل جعله كالنظام العام في قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران:١٨].

(١٠) أو الرياء جعله كالحجر عليه تراب فأصابته ريح شديدة أطارته.

(١١) أو ذكر الإخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث.

(١٢) أو التخويف من عواقب الرياء ذكر الحدائق فيها النخيل والأعناب أصابها الزعازع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت، وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء.

(١٣) وإن ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار إذ قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾[آل عمران:٢٦-٢٧] الآية.

ففي هذه المشاهدات مظاهر العبادة، وأدلة التوحيد، ومطالب الشكر، ومبادئ الحكمة وموجبات الخشية، ودلائل البعث والقيامة، ومثال ازدياد الحسنات، ومشابهات النفاق، وما يناسب الكفر، وما يوافق العدل، وما يوضح الرياء، وما يشرح الإخلاص، وما يبين انقلاب الدول. ذلك هو الذي اتجهت إليه وجهة القرآن. عجباً لأمة نام عنها علماؤها، وقتلها وعاظها، أمة الإسلام هي الأمة التي أمرت أن تكون المزارع درسها، والحدائق علمها، والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار آياتها.

أيظن المسلمون أن تلك الأمثال والتشبيهات جاءت عبثاً؟ يا قوم، أليس الإعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شيء بكفر النعمة؟ أليس ذلك تحويلاً لوجهة النظر العلمية.

أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، إن ربكم واحد، ودينكم النظر في صنعه وعجائبه وجماله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائه، أفلا تسمعون؟ أفلا تبصرون؟ جاء لكم حكماء وعلماء كابن سينا والفارابي والغزالي والرازي، وأسمعوكم ما أقول اليوم، فأبيتم وقلتم إنكم كافرون. جاء ابن رشد بالأندلس، قال: أيها المسلمون، علم التوحيد مبناه هذه العجائب والبدائع، فانظروا في السهل والجبل والبر والبحر والشمس والقمر، فانظروا في حسابها وعجائبها، فكذبتموه وكفرتموه، وطرده أهل الأندلس، وبصقوا في وجهه، فمات طريداً وحيداً ذليلاً، ثم حمل علمه اليهود والنصارى، فارتقت أوروبا بعلمه في ثلاثمائة سنة بعد موته من أول القرن السابع إلى أواخر القرن التاسع الهجري، ثم انقضوا على المسلمين فأفنوهم أجمعين، وذلك جزاء القوم الجاهلين.

أيها المسلمون، أفكلما جاءكم عالم بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون.

أيها المسلمون، آن الأوان، وبهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعاً، وسيجيء جيل لم تشهد الأرض مثله، وينظرون في هذه العوالم التي زوّقها الله وزينها للناظرين، وجعلها بهجة العارفين، وحكمة العالمين.

أيها المسلمون، هذا هو علم التوحيد، علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والقمر لا في الكتب المصنفة المشهورة، هي والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هي مجلبة للشك، إن القرآن أمركم بالنظر في جمال صنعة الله، ودقائق حكمته، وجمال بهجته، ذلك هو القرآن، اتبعوا ما أرشد إليه، فوالله لينبغن في هذه الأمة نابغون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين، وليكونن أهدى الأمم، وأعلمهم بما في الكون، هم خلفاء الله في أرضه، هم المسلمون الصادقون، ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة، لقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أردت قراءة «العقائد النسفية» مع المرحوم صديقي الشيخ محمد جابر بعد أن أتممنا سني الدراسة، ولم نجد من العلماء من يقرؤها كما هو المطلوب، فكنا نقرأ آراء الخيالي وعبد الحكيم اللذين كتبا عليها، ونحن مبتهجون بتلك العلوم. وبينما أنا نائم، إذ رأيت كأني على شاطئ بحر، وكأن هناك سمكاً في الماء بقرب الساحل، ونور النجوم لامع على جلد السمك، فسمعت قائلاً يقول: «لم يظهر من القرآن في هذا الكتاب إلاّ كما ظهر من الفلك على جرم السمك». اهـ.

حكاية

جاء إلى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ السيد حسين الخياط، مع الأستاذ الصوفي الشيخ الجربي والأستاذ السيد حسين كان مدرساً بمكة، فلما سلم عليّ قال: إني قرأت الشريعة والتصوف، ولكن قراءة كتاب نظام العالم والأمم فتحت لي باباً كان موصداً، وقد أرسله إليّ أحد تلاميذي من أسرة العطاس بناحية جاوة، ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها، ورأيتك تقول: إن الماء قد حلل أمامك إلى عنصرين: الأوكسوجين والأودروجين، وأن هناك نظاماً بديعاً وحساباً متقناً بحيث يكون الأوكسوجين ثمانية أضعاف الأودروجين، وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء، ولطالما كنت أقول: هل رأى المؤلف هذه العجائب بعينه؟ ومن لي بأن أذهب إلى مصر فأرى المؤلف وأسمع منه ذلك؟ فأنت المؤلف، فهل هو حق؟ قلت: نعم، أنا رأيته بعيني، وأنا تلميذ بدار العلوم، ثم توجهت معه إليها وإلى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه، فقال: ما شاء الله يا مصر، قد خدمت الإسلام. فقلت له: إن مصر لا تزال طفلة في هذا الموضوع، وعلمها قليل جداً بالنسبة لأوروبا ومما قاله لي وهو سبب مساق الحكاية: أنا الآن صدّقت كلام الشيخ الشعراني إذ قال: إن الإسلام في أول مرة يكون شريعة، ثم في آخر الزمان يكون حقيقة، فقلت: وما فهمت في هذا؟ فقال: الشريعة هي الأحكام الشرعية المعروفة في الإسلام، والحقيقة هي الأنفس والآفاق، أي: معرفة علوم النفس، والنظر في هذه العجائب التي نشرحها من شمس وقمر ونبات، وهذه الكتب وأمثالها ستجعل وجهة الإسلام من الآن هذه الحقائق في الأنفس والآفاق.

مقارنة الإسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا

اللورد افبري الذي كان معاصراً لنا من كتاب الإنجليز وعظمائهم أخذ في كتابه محاسن الطبيعة في التمهيد الذي في أول الكتاب يصف القمر و النجوم والشمس وبهجتها في طلوعها وغروبها، وينقل عن العالم كنسلي أنه كان يحب البوادي، وهو مغرم بجمال الطبيعة، ويقول إنه كان يؤنسه الحصى والنحل والزهر ويتأمل في الغياض والأجمات، وهو يحاول فك الرموز والطلاسم في سفر الكائنات، وينقل عن العلامة كبل أنه كان يقول: ما أحوج الإنسان إلى أن يرسل طرفه، ويتأمل في العوالم العلوية والسفلية عوالم المجد والجمال، وبعدما سرد كثيراً من ذلك صرّح أن ذلك من قرائحهم لا من دينهم، وأن دينهم كان عقبة أخرتهم إلى الوراء إذ قال: إن الطوارئ التي حدثت في الذي ورثناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة، ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان، وأجداده هو من الإنجليز والأوروبيين من أن للغابات وللأنهر آلهة تحكمها، وأن في الماء جناً تخيفهم وتزعجهم، وأن هناك أرواحاً تغضب عليهم، ويخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات، لتوهمهم أن الأرواح الخبيثة تسكنها العفاريت والغيلان والجن والشياطين والسحرة، ثم قال: ولما بزغت شمس العلم تمزقت تلك الحجب فأصبح العلماء يبتهجون بتلك المحاسن، ثم قال: إن الأرياف مواطن الجمال، وهي السحر الحلال. اهـ مختصراً.

هاهي ذه أوروبا، وهذه عقائدها الدينية والوراثية، والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق، وخرجوا من سجن الخرافات، واستنشقوا نسيم الحرية في الحقول، ونظروا في السماوات والأرض. أولست ترى أيها الذكي أن دين الإسلام الذي شرحت لك مقاصده في هذا التفسير وفي هذه المقالة أيضاً قد أطلق عقول المسلمين من يوم البعثة النبوية، وكشف لهم الغطاء عن السماء والأرض، وأراهم الشجر والثمر والحب والزهر والفاكهة والأب، وقال: أي عبادي، هذه أرضي وسماواتي، وجناتي وأعنابي ونخيلي وجبالي وفواكهي، وحيتاني في البحر، ودري ومرجاني، وجمالي باهر ظاهر، تجليت عليكم بشمسي وبقمري وبنوري وبنجومي. فماذا جرى أيها الذكي؟ هبّ المسلمون في القرون الأولى ثم ناموا نومة أهل الكهف، ولما ظهر الأوروبيون وبهروا، قالوا لنا: إننا كشفنا الغطاء عن الأرض والسماء، ونظرنا كل يابسة وخضراء. فنقول: حقاً كان ذلك ونحن نيام، وهذا دليل على أن نبينا آخر الأنبياء، ودينه هو الباقي إلى آخر الزمان، لأنه لا عفريت يمنعنا عن هذا الجمال، ولا شيطان يخيفنا في البحار، ولا غول يهز رأسه في الظلمات، بل إن علومكم هي مقتضى ديننا، ونحن وإن كنا نمنا قروناً كثيرة سنبحث أبحاثكم ونقرأ علومكم ونعلو فيها عليكم، لأنكم قرأتموها مفكرين، ونحن نقرؤها للعقل والدين، فيكون شوقنا أعظم، وعلماؤنا أكبر، ومدنيتنا أعظم، أنتم بالنظر في الكون خالفتم كتابكم، ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطابقنا بذلك معتقدنا، وقد قال الله: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة:٣٣]، وظهوره سيكون بهذه النظرات، وارتقاؤه بهذه الآيات ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية:٣-٤] اهـ.

تذييل

لقد كان أهل الشرق كالمصريين، وأهل الهند قديماً مغرمين بالنظر في العجائب والبدائع والتفكر في إبداع الخالق، فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات، فأثرت في قلوبهم، وأحيت نفوسهم، وأيقظت عقولهم، فزينوا الدنيا بعلومهم، وزوّقوها بصناعاتهم، وهذا بتأثير أنبيائهم وحكمائهم الذين عشقوا هذا الجمال، ودونوه في الكتب، وعلموه للشعوب، فإن الجمال في المخلوقات يرتسم في النفوس، وهي تبرزه علماً وصناعة، وذلك كما ترى فيما وجد منقوشاً باللغة المصرية القديمة بتلّ العمارنة، وقد نقله إلى اللغة الألمانية والفرنسية علماؤهم، وترجم إلى العربية، وتاريخ تدوينها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو نشيد ديني:

(١) وصف الشمس الممثلة لعظمة الله: أنت العالم بأسرار الحياة، تظهر بجمالك في آفاق السماء، تشرق شمسك في الأرجاء فتملأ الأرض بجمالك، أنت الجميل العظيم البهي الذي تسطع أنواره على وجه الأرض، وتحيط أشعته بكل أقطارك التي خلقتها وملكتها بحبك، مهما بعدت عنا فأشعتك مالئة الأرض كلها.

(٢) وصف الليل: حينما تغرب شمسك يظهر المساء وينشر الظلام في الأرض كلها، وينام الناس في بيوتهم، ويندرجون تحت غطائهم، وتسكن حواسهم عن الحركة، فلا يسمعون ولا يبصرون أنت الذي تحفظ لهم أرواحهم وأمتعتهم وهم في مضاجعهم غافلون، ويرخي الليل ستوره، فتخرج الأسود من عرنها، والحيات من أوكارها، وتسكن الطبيعة كلها.

(٣) النهار والإنسان: تظهر عظمة شمسك في الأفق صباحاً فتملأ أشعتها أرجاء الأرض كلها. يطلع النهار وينجلي الظلام، فتفرح الناس بظهوره، ويستيقظون ويتوضؤون ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوسلين إليك، ثم يذهبون إلى أشغالهم.

(٤) النهار والحيوان: متى أشرقت شمسك في الأفق تستقر المواشي في مرعاها، وتزدهي الأشجار والنباتات، وترفرف الطيور تمجيداً لك، وتنبعث الحيوانات على قوائمها.

(٥) الماء: إذا أشرقت شمسك في الأفلاك سبحت في بحارها الأفلاك، وتمرح في لججها الأسماك وتتلألأ أشعتك على صفحات الماء، فما أبدعك وما أسماك.

(٦) أنت الذي خلقت نطفة الأنام، وصوّرت منها الأجنة في الأرحام، وحفظتهم ووقيتهم الآلام، ورفقت بهم في الرضاع والفطام، ووضعت لهم الحنان في قلوب الأمهات والآباء، فوفرت عليهم العويل والبكاء، ووهبت الحياة لسائر المخلوقات، وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات، ومنحتهم ما يحتاجون من قوت ومعاش، ومن غطاء وفراش.

أنت الذي تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحييه، فيصيح ويمشي عند خروجه منها تفضلاً منك، خلقت الأرض والسماوات، وأبدعت جميع المخلوقات، وأعمالك لا تحصى، وإحسانك لا يستقصى.

أنت الذي خلقت البلاد الأجنبية وسوريا وإثيوبيا ووادي النيل، وخلقت كلًّا منها في مواقعها، وسخرت لها حاجاتها ومنافعها، وخصصت لكل إنسان خاصياته، وحددت له أيام حياته. أنت الذي خلقت الشعوب مختلفة الأجناس واللغات والألوان والصفات.

أنت الذي خلقت النيل لحياة أبنائه، وأنعشتهم بعذوبة مائه. أنت الذي تسوق الأرزاق للبلدان القاصية، وتنزل الأمطار على جبالها هامية، فتنحدر المياه إلى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها، ما أجملك يا رب الأزل، وما أجمل أوامرك العالية.

أنت الذي قسمت السنة فصولاً لمصالح خلقك ونظام حياتهم، قد ارتفعت في علو سمائك لتبرز منها أشعة شمسك، وترى منها ملكوتك، أنت وحدك الذي تشرق شمسك الحية المضيئة البارزة أشعتها، قد خلقت الأرض لعبادك، ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس إلى جمالك. هذا هو الذي كان يناجي به قدماء المصريين ربهم، والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والأمم، واختلاف الألوان والألسن، فعلى المسلمون أن يفكروا ويبتهجوا بجماله.

هذا ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا في تفسير المقصد التاسع عشر في بعض المعاملات في الأموال، وهي الربا والدين والرهن.

المقصد التاسع عشر

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ

إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

إيضاح داخل فيه التفسير اللفظي

وصف الله المتعاملين بالربا أنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذي يضربه الشيطان ضرباً على غير اتساق بسبب الجنون، اتباعاً لزعم العرب وأسلوبهم في التعبير عن حال المصروع، وإنما ذلك لأنهم سوّوا بين البيع والربا، والله أحل البيع وحرّم الربا.

قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا مستحلا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ينمي ويزيد المال الذي أخرجت منه.

الربا قسمان: ربا فضل، كما إذا باع ذهباً بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة، فذلك ممنوع فيه النسيئة والتفاضل، فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقايضة وإلا فهو ربا النسيئة، والفضل والنسيئة ممنوعان، وقد فصله علماء الشريعة الغرّاء، ومن عجب أن الربا الشائع في الأمم اليوم قسم ألحق بما فصله علماؤنا، وهو اللاحق بالقرض، وهو قرض جرّ منفعة.

إن المسألة التي هي عقدة العقد وإحدى الكبر، وهي الربا، قد هزهزت الأمم هزهزة، وستكون من نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعاء، ألم تر كيف كان الاستعباد منوطاً بثلاث: ملك جائر، ورئيس ديني ظالم، ومثر شحيح طامع، هؤلاء هم الفجرة الأشرار الظلمة، فأما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[النمل:٣٤] كما يشاهد في بلاد الجزائر ومراكش وتونس، وأمثالها من الأمم التي دوّخها الفاتحون، وظلمها الملوك القاهرون، وأما الرؤساء الضالون، ففيهم قال الله تحذيراً لتابعيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١] أي مشرّعين مستبدين بالشرائع، لا يعطون أمتهم إلاّ ما تهواه أنفسهم، كما روي أن عدي بن حاتم قال للنبي ﷺ لما نزل ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١] ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: «أليس كانوا يحلون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قال: هو ذاك».

فأما القسم الثالث وهم أولو الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوي الثروة والجاه، فقد قال الله فيهم ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ ﴾ أي اعلموا ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أو فأعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله في الدنيا. وذلك الحرب إما شرعي، كما نص عليه المفسرون، من محاربة ذي الشوكة المرابي إذا لم يتب أو حبسه وسجنه وتعزيره إن لم يكن ذا شوكة، وإما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب، فيعذب ويلقى في النار كأنه كان يحارب الله ورسوله، وإما بما يستأصل الأمم ويدهورها ويزيلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة، فإنك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالي في الحكومات إذ علموا أن الظلم واقع ما له من دافع على الفقراء والضعفاء من الأمم القوية وعلة كافة رجال الأمم الضعيفة، ذلك بتحكم أرباب الأموال في نفوس الملوك والعظماء، فيكون الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وسلعة يزجونها، وبما يتحكم أرباب الأموال المرابون في العملة الضعاف، وبذلك أصبحت حياة الأمم وعرة خطرة مشتعلة الأفئدة بنار الحرب، وما موقدها في أفئدة الفقراء إلاّ أصحاب المال بنيران الذهب الوهاج المتقدة في حطب العمال، فالفقراء بها يسجرون، والأغنياء بنورها يفرحون، وستكشف الحال، ويصبح المنعم بها شقياً، والمسجور بها منعماً، ستصير برداً وسلاماً على الفقراء، وناراً وسعيراً على الأغنياء، إذا اصطدمت القوتان، واقتتلت الطائفتان، أخذ المظلومون حقهم من الظالمين في هذه الحياة، فما بالك إذا وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، فهناك الجزاء الأوفى، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم:٤٢].

كما أن الزنا عاقبت عليه الشرائع السماوية، فلما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القاتل، وهو المسمى «الإفرنجي» في بلادنا، ويسمونه «الزهري» وهو يشوه الجسم ويضعفه، وهو يعذب المريض عذاباً لا يطاق. هكذا الربا، لما أهمل الناس أمر الديانات في تحريمه، جرعت الأمم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب، وهذا الحكم يشمل سائر الأمم والأجناس والممالك، فأما ذلك الذي أكل الربا من أبناء جنسه، واستبد به، ووقفه على نفسه، وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذبين، والأغنياء ممتعين منعمين، فإن ما يلحق الأمة من فقر وأذى وجهل فاضح فإنه لا جرم بأولئك الأغنياء لاحق، فلا سبيل لسعادة امرئ ما لم يعم السعد بلاده. وإلا فكيف يتمتع بخادمه ويهنأ بصديقه وصاحبه، ويأكل الثمرات، ويعلم بنيه وبناته، فإنفاق الأموال من الأغنياء عناية بالجموع وسعادة للمجموع، ولا عزّ لامرئ إلاّ إذا أحاط السعد بأمته، فإنما هي موسيقى ذات فروع، وهو أحد فروعها، إن الإنسان مدني بالطبع، لهذا السر ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يذهب بركته ويهلك المال الذي يدخل فيه، ويضاعف ثواب الصدقات ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل الصدقة فيربيها كما يربي أحدكم مهره»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت زكاة من مال قط» ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ﴾ لا يرضى ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ مصرّ على تحليل المحرمات ﴿ أَثِيمٍ ﴾ منهمك في ارتكاب الإثم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من مستقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ اتركوا بقايا ما شرطتموه على الناس في معاملات الربا ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بقلوبكم. يروى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند حلول الأجل بالمال والربا،

فنزلت: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، فيقاتل المرابي بعد أن يستتاب حتى يفيء إلى أمر الله كالباغي. ولما نزلت هذه الآية، قالت ثقيف: لا يد لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من أن ترابوا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فلا تأخذون الزيادة ولا يماطلكم المدين ولا ينقص مالكم ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإذا وقع غريم معسر ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم نظرة ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فلينتظر الدائن مدينه إلى أن يأتي اليسر من الله والفرج للمدين ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ على المدين بالإبراء من الدين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الأجر والذكر الجميل والقدوة الحسنة والسعادة النفسية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ الآية؛ معناها ظاهر.

تنبيه: ولقد كنت كتبت ما تقدم وأنا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العامة الكبرى بنحو ثلاث سنين كما تقدم، وبقي التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣، وابتدئ بطبعه، وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤، وكان الصلح سنة ١٩١٨، ولا يزال الناس في هرج ومرج، والأمم كلها في اضطراب واختلاط فحقق الله عزَّ وجلَّ ما جاء في كتابه، وكانت الحرب وظهرت دوله «البلشفية» وهي التي قضت على دولة الروسيا وعلى الاستئثار بالسلطة والملك. ولست أقول إني أعرف كل شيء عنها أو أحرض عليها، وإنما أقول: إن وعد الله حق، والحرب التي ذكرها الله في القرآن من أجل المال قد قامت، وذلك قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

موازنة آراء علماء الإسلام في الربا بآراء الاشتراكيين

يقول علماؤنا رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إن هذه الآية من المجمل الذي يرجع في بيانه إلى الحديث الشريف، فإن قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ يفيد جواز جميع البيوع سواء أكانت فيما هو من جملة ما فيه الربا أم من غيره، وقوله: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يقتضي تحريم جميع البيوع سواء أكان فيما فيه التفاضل في النقد والنسيئة أم في غيره، لأن كل بيع يقصد به الزيادة، ولا معنى للربا في اللغة إلاّ الزيادة، فيرجع في هذا المجمل إلى الحديث الشريف، وقد ورد في الحديث بيان ما فيه الربا، وهو ستة أشياء: الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح.

والربا قسمان: ربا النسيئة، وربا النقد، ويقال له ربا الفضل، أعطى زيد عمراً عشرة دنانير إلى شهرين مثلاً ليأخذ ١١ ديناراً، وهكذا البر والشعير ونحوهما، فهذا هو ربا النسيئة. وهكذا إذا أعطاه ١٠ دنانير في الحال بما يوازنها من الذهب بأن كان حلياً وزاد عليها زيادة ما، وكان ذلك في الحال فهذا ربا النقد، ومثل ذلك ما إذا أعطاه براً أو شعيراً مثلاً عشرة أرادب وأخذ منه أحد عشر بأن كان هذا رديئاً، وكان الأول جيداً مثلاً، وكان في الحال، فذلك يقال له ربا النقد.

فأما إذا اختلف الجنس بأن أعطى ذهباً بفضة، أو قمحاً بشعير، فذلك جائز فيه التفاضل نقداً يداً بيد، ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا إلاّ ربا النسيئة، وهو المتعارف اليوم، وهو الذي قاله ابن عباس ولم ير غيره، ذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيناً، ويكون رأس المال باقياً، ثم إذا حلّ الدين طالبوا المديون برأس المال فإن تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل، فهذا هو الربا الذي كانوا يتعاملون به في الجاهلية، فحمله ابن عباس عليه، ولكن الحديث أثبت غيره، ويكون محصل الصور ثلاثة: بيع مطعوم بدراهم أو دنانير يجوز نقداً ونسيئة، بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل

فيه، لكن يكون نقداً، وكذلك الشعير مثلاً بالبر، فإذا أعطاه أردباً بأردبين جاز بشرط أن يكون حالاً، فأما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير فلا يجوز إلاَّ مثلاً بمثل نقداً، هذا ملخص ما جاء في الربا.

ولما كان هذا المقام يحتاج إلى بيان الحكمة التي حرّم لأجلها الربا، وإلى بيان تحديده والأصناف التي حرّم فيها، وجب أن نبين ذلك على ما قاله العلماء، فإن الله عزَّ وجلَّ لما قال العرب: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ لأن كلًّا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر، وترجيح أحدهما على الآخر تحكم، أجاب سبحانه بقوله: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾، وترك الأمر ولم يبين إلاَّ الحكم وحده تاركاً لعقولنا التفصيل مع الوقوف عند النص، فلنبين الحكمة التي قالوها أولاً، ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا، ثم نذكر مذاهب الاشتراكية.

حكمة تحريم الربا ورأي الإمام الغزالي

ولقد رأيت للإمام الغزالي هنا قولاً مفصلاً أختصره لك مع الفائدة فأقول: إن الذهب والفضة لا يقصدان لذاتهما وإنما هما وسيلتان إلى التبادل، فإذا كان عند امرئ جمل وعند آخر زعفران، وكل منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذي يستحقه الآخر في مقابلة ما عنده، وكان هذان النقدان حكمين فيقال: هذا الجمل يساوي ٢٠ ديناراً، وهذا الزعفران يساوي عشرين ديناراً، وشيئان يساويان شيئاً واحداً يكونان متساويين، وهذان الحاكمان من اتجر فيهما وحبسهما فقد ظلم، وكأنه حبس القاضي الذي يقضي بين الناس فيعطل مصالحهم. وهكذا المطعومات لا يجوز أن تجعل سلعاً تباع وتشترى قصداً وبالذات، فإن فعل ذلك أصبحت مقيدة في أيدي الناس، وكان الاحتكار والإضرار بالناس، والناس في حاجة إليه، والحاجة إلى الطعام شديدة، فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج، ولا يعامل على الأطعمة إلاَّ مستغن عنها، إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً، ولم يجعله بضاعة تجارة، وإن جعله تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه، نعم، بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر، هذا ملخص ما قاله الإمام الغزالي.

وأنت ترى أن هذا القول وإن كان حسناً لا يكفي لمعرفة الحكمة، فلنذكر ما قاله غيره. قال بعضهم: «إنما حرم الربا لأنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدراهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أو نسيئة خفّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلاَّ بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات».

وقال آخر: «إن الغالب أن المقرض يكون غنياً والمستقرض يكون فقيراً، فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من مال الفقير الضعيف مالاً زائداً، وذلك غير جائز». هذا أهم ما قاله علماؤنا في حكمة التحريم.

ما الأصناف التي يحرم فيها الربا؟

تقدم القول أن تلك الأصناف ستة، ولكن هذه الستة لا يعلم الناس لم خصصت. وهنا أخذ العلماء يبحثون، فأما الشافعي رضي الله عنه فقال: هذا يدل على أن المقصود بالربا هو الطعم والنقد، لأن الحديث إنَّما ورد في النقدين والمطعومات، فلنحمله على كل مطعوم قياساً على ما ذكر في الحديث،

وقال أبو حنيفة : كلا ، فإن المدار على التقدير ، وهذه الأشياء مقدرة ، أما في الدراهم والدنانير فالوزن ، وأما الأشياء الأربعة فالكيل مع اتحاد الجنس في الجميع ، فكأن أبا حنيفة راعى تلك الأشياء من حيث إنها مقدرة ، فقاس عليها كل مقدر بكيل أو وزن كالقطن والنحاس والجص والنورة . وقال آخرون كالإمام مالك : إن المدار على القوت ، لأن هذه الأربعة من الأقوات ، فيقاس عليها غيرها . ومذهب الشافعي المتقدم يدخل فيه الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة . وقال آخرون كابن الماجشون : إن كل ما ينتفع به ففيه الربا ، وهذا أعم الأقوال عند علماء الإسلام .

واعلم أن هذا القول يناسب الحكمة التي قدمناها عن بعضهم ، وهي أن المرابي قد أخذ مالاً بلا مقابل ، ولا جرم أن من أخذ الزيادة في مكيل أو موزون أو غيرهما من حيوان أو نبات أو معادن أو أرض فقد أخذ من الناس مالاً بلا منفعة تعود على نوع الإنسان ، فما الذي ناله الناس منه حتى أخذه ، إن الزارع والتاجر والصانع يبرزون للناس ما ينفعهم ، فما الذي عمله المرابي الجالس على كرسيه ، غيره يخرج من الأرض أو يصنع أو ينقل البضاعة من بلد إلى بلد ، ويأخذ في مقابل ذلك ثمناً يزيد على الثمن الأصلي ، أما هذا فلم يفعل شيئاً ، وهذه الحكمة لا تفرق بين مكيل وموزون ومعدود ، وهذا هو الأقرب للعقل وللواقع . ولما اضطربت أقوال علماء الإسلام فيما ورد عن صاحب شريعتنا ﷺ لعدم تحديده تحديداً تاماً قال ابن عمر : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا وما سألناه عن الربا ، ومقصود ابن عمر أن هذه الآية من المجملات .

ثم جاء الإمام الغزالي في مقام آخر وأبان أن كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود إنما جعلت لأجل قصور الناس وعقولهم الضعيفة وحرصهم ، وإلا فالناس جميعاً متضامنون ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ، ولا يدخر أحد شيئاً بل يعين كل واحد أخاه بما زاد عن مقدار ما يحتاج إليه ، وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية في زماننا . وقال : «من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه ، وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم ، لا يدخل هذا في فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كل كلام غير مهم ، وهم بحكم نقصانهم لا يطيقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم لا تدل على أن اللعب واللهو حق ، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا تدل على أنه غاية الحق ، وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ [محمد : ٣٧] ، بل الحق الذي لا كدورة فيه ، والعدل الذي لا ظلم فيه ، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم ، تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ، وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات» . اهـ .

فهأنا ذا ذكرت لك مسألة الربا في الإسلام، فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الربا المعروف الآن في سائر الأمم وعند الجاهلية، وهو ربا النسيئة، وانظر كيف جاء في الحديث شموله لستة أشياء في النقدين وفي المطعوم، ثم كيف توسع العلماء في القياس من مطعوم إلى قوت إلى كل ما يكال ويوزن إلى كل ما ينتفع به، وكيف كانت الحكمة، وهي تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لأعم الأقوال وهو القول الأخير. ثم انظر كيف أبان الإمام الغزالي ما هو أوسع من ذلك، وجعل الناس أطفالاً جهالاً، وأن تلك الشروط والقوانين ما جعلت إلاّ تلبية لعقولهم الضعيفة، ونفوسهم السخيفة، وإلا فالناس كلهم إخوان، فليعط كل منهم الآخر ما يزيد عن حاجته، ولعمري إن الاشتراكية المسماة بالبلشفية في البلاد الروسية عجزت عما وصل إليه الإمام الغزالي، إذ أرادت نزع الملكية العامة فعجزت، وأمرت أن تعطي لكل امرئ مقداراً معلوماً من الأرض كبلاد الصين، فإن الملك هناك محدد لا يجوز لأحد الزيادة عن الحد المعلوم فيه، هذا ما أردت ذكره في مذاهب الإسلام، فلأذكر آراء الاشتراكية:

آراء المذاهب الاشتراكية

وكيف كانت أبحاثهم قريبة ممّا ذكره علماء الإسلام

أبنا لك فيما مضى كيف ابتدأ دين الإسلام بتحريم الربا، وكيف كان رأي ابن عباس أنه لا ربا إلاّ في النسيئة، وهو المتعارف الآن، ثم جاء الحديث بستة أشياء، ثم أوسع ذلك علماء الإسلام إلى أن جعلوه في كل ما كان مالاً ما دام من جنسه سواء أكانت الزيادة في النقد أم في النسيئة، وإذا اختلف الجنس فلنبع كما نشاء، فنبيع التمر بالشعير، ونزيد كما نشاء كالذهب والفضة، وإلى هنا وقف جواد بحثهم، ولكنهم من جهة أخرى جعلوا أن هذا كله إنّما هو لأجل الضرورة في أخلاق الناس وحرصهم وجشعهم وهنا وصلوا إلى غاية من الكرم والتسامح حتى جعلوا أن ما يملكه زيد يجب أن يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه، وإلا كان عبداً بخيلاً حريصاً، فلا يكنز الإنسان ذهباً ولا فضة ولا طعاماً، بل كل ما فضل فهو للمستحق، وأنت ترى كلام الإمام الغزالي فيما تقدم، ولكن الحق أن هذا القول لا يجوز الأخذ به على علاته، فإن لكل إنسان قوة وقدرة واستطاعة لا بد من إبرازها إلى الوجود، وهذه المكارم التي ذكروها يجب أن تبحث بحثاً مدققاً لئلا يعطي الناس المجدون مالهم إلى من تكاسلوا عن العمل، هذا خطر عظيم، ولتعلم أن هذا مذكور في ثنايا الكتب، وليس هذا محل تفصيلها.

ولما كان الإسلام قد أشرب هذه المكارم شاعت الأوقاف وجعلت لذوي الحاجة، وترى أن الأوقاف في بلادنا المصرية تبلغ عشر الأملاك العامة، ولعمري أن ذلك من آثار هذه المكارم الإسلامية العامة، ومن آثارها الزيادة والصدقات العامة الواردة في الشرع، وأكبر مصيبة إسلامية أن يعطى شيء من ذلك إلى من لم يقم بما يستطيع من العمل، فأما أولئك الذين لا يعملون ويأخذون من الصدقات والأوقاف، وهم نائمون بلا علم ولا فضل، فأولئك عالة على الأمة ومصيبة على الإسلام، وقد آن أن أفصل لك آراء الاشتراكية فأقول: يقولون إن مصادر الأرزاق أربعة: (١) عمل العامل. (٢) الأرض التي نعمل فيها. (٣) رأس المال. (٤) مدير المعمل أو صاحب المشروع.

ويقولون: إن المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أو مصنوع أو غيرهما، فالغلة والحصير والمسكن والأرض التي لا تحتاج إليها تسمى عندهم مالاً، لأنك لا تقدر أن تبادل بها، أما الدراهم

والدنانير فقد قالوا فيهما ما قاله علماؤنا ؛ كالإمام الغزالي ؛ وهي أنها واسطة للتبادل وتسهيل المعاملات ، بل قالوا هم : إنها لا تسمى عندهم مالاً ، لأنها لا تنفع في طعام ولا شراب ولا مسكن ، ويقولون : إنَّما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ، ومتى كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بهما ، وأضحى من عنده قدح شعير خيراً ممن عنده قنطار ذهب ، ولقد سلكوا في التبادل الطريق التي سلكها علماء الإسلام ، فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من الغني أردباً قمحاً بأردب ونصف بعد سنة ، وكيف يأخذ عشر جنيهات بأحد عشر جنيهاً بعد زمن ما ، وبرهنوا أن ذلك ضارّ بالمجموع الإنساني ، وأن ذلك المرابي يصبح سيداً لم يعمل عملاً للمجموع ، ويصبح السادة الأغنياء مترفين منعمين ؛ والعبيد الأذلاء العمال في فقر مدقع مع الأشغال الشاقة ، فانظر كيف اتفق في التعليل وفي التحريم علماء الإسلام وعلماء الاشتراكيين ، ولكن الاشتراكيون تمادوا في الأمر إلى حدّ بعيد جداً ، فأخذوا ينظرون في أمر العمل وأمر المال ، وصاروا يقولون : إن الغني الذي عنده ما يزيد عن قوته من الحنطة وما يزيد عما يلزمه من الأرض يتعالى على العامل في المصانع وعلى الفلاح في الأرض ، ويقول لكل منهما : أنا عنك غنيّ ويمكنني أن أستعمل غيرك ، فيعمل الطرفان عنده بأقلّ القيمة ، وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران ازداد أولئك الأغنياء ثروة وأصبحوا ملوك المال والناس لهم عبيد ، وكلما ازدادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال فقراً وذلاًّ ، فأما أولئك فلا عمل لهم إلاّ الزخرف والزينة والإسراف والبذخ .

ومما زاد الطين بلة الآلات الحديثة المخترعة التي أغنت عن العمال ، فالآلة تعمل ما يعمله آلاف من العمال فيصبحون عاطلين ، ويفيض المال فيضاً على صاحب رأس المال ، فالاشتراكيون يريدون أن تكون الأعمال العامة في المصانع وفي الأرض وفي التجارة في يد الحكومات ، والناس يعملون فيها كأسرة واحدة كل على مقدار طاقته ، أما ديننا الإسلامي فقد وضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والأوقاف ، وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبرّ ، وحرم على الناس السؤال وبذل الوجه ، ولكن الأمة في العصور الأخيرة تغافلت عن وضع الأمور في مواضعها ، فكثير من الأوقاف تصرف إلى من لا يستحق ، وهذا مخالف للدين ، ولآية الصدقات التي جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ .

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام ، وسيأتي في هذه الأمة من يفكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الغرّاء ، وينظمون أوقافها وأعمالها نظاماً ينطبق على روح الشريعة ، ولا نكون مجموعاً غير منظم . وقد قال الله فينا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

الكلام على الدَّين والرَّهن

ولما حرّم الله الربا أحلّ السلم وهو البيع لأجل ، وسنّ أن يكتب ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ ويتخير المتداينان كاتباً يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ . فمن منّ الله عليه بنعمة فشكرها صرفها فيما خلقت له ، والكتابة نعمة وشكرها إجابة من التمسوها ، وذلك سنة أو واجب علينا أو كفاية ، أقوال لكلّ من أربابها وجهة ، وأقرب الأقوال أن ذلك سنة ، ولن يصح الوجوب إلاّ إذا تعيّن خطر كبير ولم يكن إلاّ من دعي لها والله أعلم .

وإذن: ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ﴾ به ﴿ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ﴾ المملي ﴿ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ ولا ينقص منه شيئاً ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ ناقص العقل مبذراً، ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ كصبي أو شيخ، ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ لخرس أو جهل باللغة ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ ﴾ قيمه؛ إن كان صبياً أو مختل العقل، أو وكيله أو مترجمه إن كان غير مستطيع ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ ﴾ من الرجال المسلمين أو رجلاً وامرأتين في الأموال خاصة عند الشافعي، وفيما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة، وليكن الشهود عدولاً ولم يكتف بالواحدة فضمّ لها الأخرى لتذكر إحداهما الأخرى. وحريّ بالشهداء أن يجيبوا إذا دعوا لتحملها ندباً أو وجوباً عينياً أو كفائياً على ما تقدم، ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ ﴾ أي: لا تملوا كسلاً ﴿ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ فإن ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أكثر قسطاً عند الله وأثبت للشهادة، وأقرب إلى أن لا تشكوا إلاّ إذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينكم من مبايعة بدين أو عين بأن تتعاطوها بينكم يداً بيد، أي: إلاّ أن تتبايعوا يداً بيد، فلا بأس أن لا تكتبوا ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ أيّ بيع، ولا نبغي للمتبايعين أن يضرا الكاتب والشاهد، فلا يكلفانهما الخروج عن مهمّ لهما، أو لا يمنعان جعل الكاتب ومؤونة مجيء الشهيد، كما لا ينبغي للكاتب والشاهد ترك الإجابة والتحريف والتغيير، فإذا كنتم مسافرين ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَـ ﴾ ليكن الاستيثاق بـ ﴿ رِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ فإن كان الأمانة ووثق كل بأخيه ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ في الخيانة وإنكار الحق، ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ أيها الشهود أو المديونون فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ تهديد.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾

أي: اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيه الدينية، ويعلمكم أحكامه المتضمنة لمصالحكم. يقول الله: ليس تعليمي لكم خاصاً بالصلاة والزكاة وما أشبهها، إن الدين لا يقوم إلاّ بمصالح الدنيا، وأنا عليم بهما فلتقوموا بالأمرين، وهذا باب واسع لفروض الكفايات التي سأشرحها في آخر السورة، وأن المسلمين يعذبون في الدنيا والآخرة إذا لم يقوموا بقسطهم في نظام الأرض وسعادة الأمم، لأن الله بكل شيء عليم، ومن علمه يعلمنا مصالح الدين والدنيا، فإذا نقصنا أحدهما خرّ الآخر صريعاً، فالمسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا نقص الدين وخسروا الدارين. وقد آن أن يرجعوا إلى رشدهم ويقرؤوا العلوم ويعرفوا الصناعة، وأنت أيها الفطن خبير بما ورد في العلم من الأحاديث والآيات، فلا نطيل بذكره، فاقرأه في البخاري وفي الإحياء، والله يهدي إلى الرشاد.

المقصد المتمم للعشرين

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو العالم بما فيهما، ولا جرم أن أخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه، معلومة عنده، مخزونة في الأفئدة، فـ﴿إِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فكفى بنفسك أيها الإنسان عليك حسيباً، ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه الأحكام والشرائع في القرآن، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ بها ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ يقولون ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أجبنا قولك ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أمرك، اغفر لنا ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع، لم يحمل الله أحداً فوق طاقته و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فمن آتاه الله مالاً، أو حباه ثروة، أو أناله قوة، أو أورثه علماً، أو منحه فطنة، فليشكر الله على نعمته برفد إخوانه، وليكن لهم شمساً تضيء ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من الخير ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ من الشر ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ ﴾ تركنا أمراً من أوامرك سهواً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ من تفريط وقلة مبالاة، وهذا دليل على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ؛ خلافاً للمعتزلة، ولولا جواز المؤاخذة عليهما لم يكن للسؤال معنى، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ عبئاً يأصر حامله، أي يحبسه مكانه لثقله، استعير للتكليف الشاق ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ كاليهود والنصارى ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ امح سيئاتنا ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ واستر ذنوبنا، والأول للكبائر، والثاني للصغائر ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ بذلك ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فمن حق المولى أن ينصر من تولى أمره. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

هاهنا يحسن الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية بإيضاح، فنقول: قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ يفيد أننا معاشر الآدميين محاسبون بما رسم في صدورنا، وما قام بأفئدتنا، فتارة يغفر لنا، وتارة نعذب على ذلك وبيانه أن أرواحنا أشبه بلوح محفوظ يرسم فيه ما يرد عليه من الحواس الخمس، وما يقوم به من فكر، فإذا مات الإنسان ظهرت له صورته الحقيقية، واطلع على جميع ما كان يتصوره في الحياة من خير وشر وعزم وكسل، وتتجلى له نفسه تجلياً واضحاً كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة، فينفر من الصور القبيحة فيها، ويفرح بالصور الجميلة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤] فجعل النفس هي المحاسبة لأنها هي المطلعة على عوراتها وقبائحها، وتفكر أيها الفطن كيف نألم في الدنيا إذا اطلع أحد على ما أضمرنا من عمل قبيح، أو نوينا من نية سيئة، ونحن نكتم أعمالنا وما نويناه، فإذا نشرت هذه الأعمال دفعة واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر، فكيف تكون حالنا؟ ذلك هو الخزي العظيم.

وتأمل في قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على أنها ولدت من غير زوج: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٣] وكيف يقول الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠]، فالكافر يتمنى لو يكون تراباً، فأما مريم فللخزي الذي يلحقها من قومها، وقد عرفت هي

وأهل بيتها بالطهارة والشرف، فالخزي والعار على مقدار المظهر، وهكذا الكافر رأى علمه جهلاً، وصالح العمل قبيحاً، فيريد أن يتوارى بالحجاب فلا يجد لذلك سبيلاً، قال تعالى: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦]، وقال: ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[طه: ١٣٤].

واعلم أن نفس الإنسان تسع جميع هذه الصور من أول الحياة إلى آخرها كما يرتسم في الهواء جميع صور الأشياء فتصل إلى أعيننا، ورسمها فيها أشبه برسم الصور في المرآة فإنها ترسم فيها بحالة لطيفة في الطبقة الأثيرية، والنفس تقبل من الصور على هذا النمط ما لا يتناهى، ولذلك ترانا نتذكر حوادث وعلوماً كثيرة مخزونة في نفوسنا، وهذه الصور لا تنسى عند النفس وإنما نسيانها في الحياة الدنيا لضعفنا هنا، قال تعالى: ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾[المجادلة: ٦] وإذا أحصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها في نفوسنا لنقرأها قراءة حقيقية، والله تعالى يحاسبنا على تلك الصور ويكون الغفران والعذاب. فكل حركة وكل فكر في النفس يدوّن فيها ويظهر لنا بعد الموت، فليحاذر المرء فالحياة قصيرة.

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ الخ فاعلم أن هذا ختام السورة المشتمل على ملخص ما فيها، وبيانه أن السورة جاء فيها أمران: وهما الإيمان والعمل، فالإيمان في أولها إذ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[البقرة: ٣] الخ ثم ذكر المنافقين والكافرين وأتى بأدلة الألوهية وذم اليهود وعدد فضائحهم، لأن مقالاتهم كانت مناقضة لإيمان المؤمنين، وهذا في الجزء الأول من السورة، وأما الجزء الثاني فإنه أبان فيه الصلاة والصيام والحج وأعمال البر من الصبر والإخلاص والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الحلف، ثم ذكر الجهاد والمحافظة على البلاد، وفضيلة الإنفاق، وترك الربا، وكيفية التعامل، فرجع الأمر إلى اثنين: إيمان وعمل، فالإيمان في قوله: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ الخ، والعمل في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ فانظر كيف كانت الخاتمة على ترتيب السورة، ثم تعجب أيضاً في ترتيب الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل، ذلك أن الله أشرق نوره على الملائكة، وأشرق منهم على الأنبياء، فالملائكة واسطة. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾[الشورى: ٥١] الخ، فالله كالشمس، والملائكة كالقمر، ونور الشمس المشرق على القمر أشبه بالوحي الصادر من الله للأنبياء بواسطة الملائكة وهنا سؤال، وهو أن يقال: أيهم أفضل الملائكة أم الأنبياء؟ وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً لا فائدة فيه، إذ لا أثر له في العقول ولا في رقي المتعلمين. فمن الناس من يقول: الأنبياء أفضل من الملائكة ومنهم من يقول: الملائكة أفضل من الأنبياء، وهؤلاء أفضل من الملائكة الأرضيين، ويقولون: النبي أفضل من غيره من الناس، ومن الصوفية من ينازع في تفضيل سائر الأنبياء على سائر الناس، بل يفصلون بعض التفصيل. ثم اعلم أن الأحوال ثلاثة: ماضية وحالية ومستقبلة، فقوله: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ الخ إشارة إلى المبدأ، وقوله: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ إشارة إلى الحال، وقوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ إشارة إلى المستقبل، وهذه الجمل أليق بأواخر الكلام كما هنا، فتعجب. وقوله تعالى: ﴿ غُفْرَانَكَ ﴾ أي اغفر غفرانك، روي في الحديث الصحيح: «إن لله مائة جزء من الرحمة قسم جزءاً

واحداً منها على الملائكة والجن والإنس وجميع الحيوانات، فبها يتراحمون، وادخر تسعة وتسعين جزءاً ليوم القيامة». فهذا الحديث يفيد أن هذا العالم المادي لا نسبة بينه وبين ذلك العالم الذي تجلى الله فيه على عباده وظهرت رحمته بأجلى مظهرها. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»، ويقول العلماء: إن كل ما علمه العبد مهما عظم في جانب كبرياء الله عزَّ وجلَّ ضئيل قاصر، فلذلك كان ﷺ يستغفر من كل مقام يصل إليه، لأن كل مقام دون مقام الجلال الإلهي.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ من شر إلى قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي لا تعاقبنا، والإصر الثقل، والطاقة اسم من الإطاقة، والعفو أن يسقط عنه العقاب، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صوناً له من عذاب التخجيل والفضيحة، والرحمة نعيم الجنة، وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ يراد به أن يستغرق العبد في جلال الله وجماله ويفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات. فهذه مراتب أربعة مرتبة ترتيباً حقاً: سقوط عقاب جسمي بالعفو، وستر الذنب بالمغفرة فلا يفتضح، ونعيم الجنان، والاستغراق في الجمال الإلهي.

واعلم أن كل امرئ مسؤول عما يطيقه من الأعمال، فأفٍّ لمن كان ذكي الفؤاد سليم العقل قوي البنية، ثم ينام عن الأعمال النافعة لأمته، وعنده قدرة تفوق غيره، وكيف ينام القادر بعلم أو بمال أو بقوة بدنية، كيف ينام عن مساعدة المجموع، الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾، وبهذا أدعو جميع الأذكياء والعلماء والأغنياء.

وأقول: فيا حسرة على من عنده علم أن يصبر ويسكت، بل لينشره ويا حسرة على من هو قادر على عمل أو نصيحة أن يذر الناس يتخبطون ولا ينصحهم، ويا حسرة على من عنده مال أن يذر الأمة الجاهلة فلا يسعى لرقيها بالطرق الشريفة العالية، وليس معنى قولي أن يعطى المال للقادرين على العمل، وإنما يسعى لهم في عمل الشركات، وينمي رأس المال ليكون أداة صالحة للعاملين من أبناء الأمة في الصناعة والتجارة مع الأجر المناسب والكسب اللائق، فيا ويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حوله. الطاقة متفاوتة، فمن الناس من يطيق نفع نفسه فقط، ومن الناس من يقدر على إسعاد أسرته، ومنهم من يقدر على إرشاد أهل بلدته، ومنهم من يقدر على إرشاد أمته، ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم، وكل من قدر على شيء من ذلك وغفل عنه أو أهمله اعتراه عند الموت من الآلام ما لا يطاق وندم، ولات ساعة مندم، وربما عذب زيد على ترك عمل لا يعذب عليه خالد، لأن هذا عذاب دائم، فيه كان يترقى إلى العلا في تلك الساحات العالية، فإذا فاز غيره وهو خائب، وقد أمكنه ذلك، تحسر حسرة لا مردّ لها، وندم ندامة الكسعي، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[ص: ٣].

واعلم أن هذه الندامة دائمة، والحسرة ملازمة، والعذاب واقع، فيا حسرة على امرئ قدر على بذل معروف وبخل به، ويا حسرة على من قدر على نفع الناس ونام عنه، إن المقام مقام ارتقاء في الحياة الأخرى والارتقاء بالأعمال، والأعمال بالإمكان، فمن أمكنه وفرط ندم على أنه لم يرتق في تلك الساحات العالية، وليس يدرك ما قلناه اليوم إلا ذو بصيرة وعقل مشرق. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦].

اختلاف العقول وواجب الحكومات الإسلامية

اعلم أيدك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم وأشكالها، فترى أن الجنس الأبيض من نوع الإنسان اتفقوا بياضاً واختلفوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو ببياض خالد، وترى لكل عينين وأنفاً وحاجبين وفماً، وقد اختلفوا اختلافاً حقيقياً بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة، هكذا عقولهم، فهم وإن اتحدوا فيها قد اختلفوا في قابليتها، وكل له استعداد يناسبه، وفي العقول من الكنوز ما إن مفاتحه ليعوزها رجال ذوو علم يضعون كلّاً في المقام الذي استعد له، لقد جعل الله الأرض مختلفة البقاع، ولا تقبل من النبات إلاّ على مقدار استعدادها، وكذلك النبات، كل له مقام معلوم، فمن النبات ما لا ينبت إلاّ تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من العكرش، ومنها ما ينبت على وجه الصخر كخضراء الدمن، وهكذا، ثم إن النباتات التي فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المحترقة بين المدارين، ولطالما دهش السياح بتلك المظاهر الجميلة، وتأملوا تلك المراعي البهيجة فيها قطائع الأنعام سارحة هائمة لا يقودها قائد ولا يسوقها سائق، والنباتات التي فيها تلك الأعضاء مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المعتدلة، والنباتات التي أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها في المناطق الباردة.

ولقد خصص الله كل أرض بعدد من النبات، فتجد في بلاد فرانسا ٨٣٠ جنساً، وفي النمسا ٦٠١، وفي لابونيا ٣٠٠، وفي مصر ٤٣٠، وفي غيانه ٦٠٠، وفي جزائر الخالدات ٢١٢.

جدول لذكر الأجناس والأنواع في بعض الأماكن

المكان	أجناس	أنواع	المكان	أجناس	أنواع
فرانسا	٨٣٠	٦٠٠٠	غيانه	٦٠٠	١٢٠٠
نمسا	٦٠١	٤١٠٠	أسلنده	٢١٠	٢٥٠
لابونيا	٣٠٠	١١٠٠	جمتيك	٥٠٠	١٤٠٠
بلاد البربر، أي المغاربة	٥٠٠	١٦٠٠	ترستان الكونا	٥٥	١١٣
مصر	٤٣٠	١١٠٠	كنري (من جزائر الخالدات)	٢١٢	٣٧١
			هيلانه	٣٥	١٦

وترى أن الحكمة خصصت لكل ما يحتاج إليه، فقلّ الهواء وكان الماء أقل منه والحبوب أقل من الماء والجواهر والمعادن أقل من الطعام، ثم الجواهر النفيسة أقل من الجميع، ثم إن الراديوم ذا القوة المدهشة الذي ظهر حديثاً نادر جداً في الطبيعة، هكذا نقول: إن الله جعل نوع الإنسان منه من خصهم الله بحسب فطرهم إلى العمل الجسمي وهم الأكثرون، وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض، وكل من كان أدق فكراً، كان أقل وجوداً، كما نشاهد في ذوي الصناعات الدقيقة، ويليهم العلماء والحكماء ثم الأنبياء، وهم أندر كالراديوم في المعادن، قضت الحكمة أن يكون لكل شيء قدر، وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات. فكما أناط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتنفس في جميع الأوقات وبالماء كل حي وقتاً دون وقت، وبالقوت في أقل من ذلك، وبالدواء أدنى من ذلك، وجعل المعادن أقل من القوت طلباً، ولم يجعل من الراديوم دراهم، ولا من الحديد أقواتاً، ولا من الحنطة بحاراً، ولا من الماء جواً يحيط بالكرة، ولا من الهواء جواً يصل إلى كرة الشمس، بل جعله إلى حدّ فوقنا.

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط، فلم يكثر من الأنبياء حتى يملؤوا القرى، ولا من ذوي الصوت الجميل والصور الفاتنة لئلا يفتتن بهم الناس، ولا جعل في كل قرية حكيماً فيلسوفاً، ولا أكثر من الأذكياء المفرطين في الذكاء، ولم يقلل من ذوي الأجسام القوية لئلا تضيع الأعمال، وإنما كنز في النفوس وفي العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة، ثم بعد أن رتب ذلك عملاً قال على لسان رسوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ليطابق قوله فعله، فذكر الوسع وذكر التكليف وجعله منوطاً بالوسع، وقال في آية أخرى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١] فرأينا لكل مخلوق عملاً يخصه، ورأينا الاختلاف في الموجودات وفي الجدول السابق في النبات فقلنا: لقد صدق قوله تعالى فعله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣] بل كل شيء عنده بمقدار. هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لا يفكرون، فيقسمون العلوم على مقدار العقول كما وزع النبات على مناطق الأرض.

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا، فجعل الجبال الشاهقة التي بين المدارين، العالية رؤوسها عن السحاب، جامعة لجميع خصائص الأرض كلها، فلما كانت مخزناً للمياه جعلت مخزناً للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها، فترى أن جميع مناطق الأرض واضحة في آن واحد على مهابط هيماليا والجبال المسماة «كردلير» فإن أعلى الجبل يمثل القطبين. وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة، وأسفله يمثل المناطق الحارة، وكل منطقة ينبت فيها ما خلقت له، فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق، ثم أعطاهم درساً أسهل، فرسم الجبل على مثال الأرض، ولما جهلوا هذا كله، قال لهم على لسان رسوله بألفاظ يفهمونها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقول الله: أنا قلت لكم في هذه السورة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة: ١٦٤] وأبنت لكم أن النظر في الأرض ونحوها يفيدكم تعقلاً، فإذا عجزتم فهاهو ذا رسولي أقول على لسانه: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣] فكما لا ينبت في المناطق الباردة بكثرة النباتات التي أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة في زهرة، هكذا لا ينبت العلم الرياضي أو الطبيعي في عقول خامدة ونفوس كاسلة، فكم خزنت لكم في عقول الناشئين في القرى والبلدان من نفائس وذخائر، كما خزنت في الجبال الذهب والنحاس والحديد، ودفنت في الأرض الفحم والماس، فغرائز العقول أي استعدادها يكفل لكم كل ما تطلبون، وهل تظنون أني أبينها لكم أكثر من ذلك.

ضربت لكم الأمثال في المناطق ونباتها، والجبال ورسومها ونقوشها، ولما عجزتم أسمعتكم هذه المعاني بألفاظ كما اسمع العميان، فماذا بعد ذلك إلاَّ أن تنظروا بأنفسكم أني آليت بعظمتي وجلالي أن لا أنزل نعمة إلاَّ بقدر، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١].

نظام الحيوان على منهج حواس الإنسان ومنافعه

ألم تروا يا عبادي أني جعلت الحيوان مخصصاً على المنهج الذي سلكته في خلقكم، ألم أقل لكم في كتابي ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم: ٣٤] ولقد أعطيتكم كل ما سألتم بقدر ونظام.

ألم تروا إلى حواسكم الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس، إن لها لمطالب فخلقت الطيور المغردة الحسنة الصوت المفرح السارّ اللذيذ لتمتع أسماعكم بجميل النغمات، وخلقت أمثال الطاووس وسائر الحيوانات والطيور الجميلة، والصور البديعة، والعجائب المفصلة في أنواعها وأجناسها تمتيعاً لأبصاركم وبهجة، ومن ذلك الدر والمرجان جعلتهما لذة للناظرين، وخلقت غزال المسك، تأخذون من نوافجه ألذ ما شمّ من الروائح، إجابة لسؤالكم إن أحببتم لذة فيما تشمون، وخلقت لكم اللبن والسمن والجبن واللحم في حيوان البر والبحر لتذوقوا لذاتها ولتغتذوا بألبانها غذاء متاعاً إلى حين، ومن ألذها العسل الذي به تتداوون وتتفكهون، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

وخلقت لكم الحرير الناعم الملمس، لتتمتع به حاسة اللمس، التي بها طلبتم أن أسعدها بلذتها، وجعلت ذلك فتنة لكم غالية الثمن، أخرجه الدود فكان زينة لكم وبهجة للامسين، وكسوتكم بما طلبتم للدفء من جلود الأنعام وأشعارها وأوبارها، وجعلتها أثاثاً لكم ومتاعاً إلى حين، وجعلت منها أحذيتكم وبيوتاً تحملونها من بلد إلى بلد آخر، كل ذلك وقاية لأجسامكم أن يهلكها الحر والبرد بما تحسون بحواس اللمس فتهلكون.

أي عبادي، ألم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس، ومطالبكم التي تطلبها حواسكم، وهل تظنون أني أقرّب الغافلين عن حقي التائهين النائمين؟ كلا، وعزتي وجلالي، لا ينال عهدي الظالمين، انظروا ماذا في السماوات والأرض أعطكم على مقدار ما تعلمون ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]. فإذا أردتم يا عبادي أن تنالوا نعمتي فابحثوا في العقول عن استعدادها كما بحثتم في الجبال عن معادنها، وفي النبات عن منابتها، وفي الحيوان عن مناسباتها من حواسكم، وليهتم أهل الحلّ والعقد بتعليم الشعب كله رجالاً ونساءً، وليقوّوا أجسامهم بالرياضات الجسمية، ثم ليصدقوا في اختبارهم وامتحانهم، ثم ليجعلوا كل طالب خاصاً بما هو أميل إليه، وإياكم أن تحيدوا عن هذا فإنه ظلم مبين.

وهل رأيتموني أنبت «النيلوفر» في الصخر أو الأرز في الجبل؟ ألم أضع كل نبات في مكانه اللائق له، وكل حيوان في منطقته؟ وفي حال تناسب منافعكم موزعاً عليها بحساب، كل هذا لأريكم كيف تستخرجون كنوز العقول، وهي أثمن ما خلقت لكم وأعز وأجمل، فشمروا عن ساعد الجد، وجدّوا حتى تظهر لكم أنواري التي كمنت في النفوس الإنسانية في رجالكم ونسائكم، ألم تقرؤوا قولي: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح: ١٧] فهذا بعض سره المصون.

هذا ولتعلم أيها الفطن أن علماءنا رحمهم الله قد نبهوا الناس لذلك، فأوجبوا على ذوي الاستعداد للفقه مثلاً أن يجدّوا فيه لنفع الأمة، فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب، فلنسر على منوالهم ولتكن لنا عقول وأسماع وأبصار، ولنفصل الصناعات والعلوم الواجبة على المسلمين.

الكلام على العلوم الواجب أكثرها أو كلها على المسلمين في هذا الزمان

العلوم الواجبة على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية، ففرض العين: هو ما يجب على كل مسلم، ويعاقب عليه إذا تركه، ويثاب عليه إذا أداه. وفرض الكفاية: ما يجب على مجموع الأمة، بحيث يعاقبون جميعاً إذا تركوه، فإذا قام في الأمة رجال به، سقط عنهم الطلب، فالواجب العيني

كمعرفة الأمور العامة في الصلاة والصوم وكذا الحج، وكمعرفة ترك الغيبة والنميمة، وكبرّ الوالدين وما أشبه ذلك، وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والإنسان، وكالضوء والمغناطيسية والحرارة والكهرباء، كذلك جميع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس المسماة «علم الأصول» وكالفروع وهو علم الفقه الذي يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء، وهذه الفروع دنيوية، وكالفروع الأخروية من الأخلاق في التصوّف، وكالمقدمات من اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والإملاء والإنشاء، وكالمتممات من علوم القراءات ومخارج الحروف وتفسير القرآن، وكمصطلح الحديث.

فإذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدمات ومتممات، ألا وإن المشتغل بالمقدمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية، والكمالات الإسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهي كاملة كالمحراث والفأس ثم تركها ولم يشق بها الأرض، ولم يستنبت بها نباتاً فهذا مغرور، فالآلات الزراعية من المحاريث والعجلات الدارسات السائرات بالبخار، والمخرجات للماء لا تغني عن إخراج الزرع، وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعاني وغيرها، إن هي إلاّ مقدّمات لعلم الدين.

الصناعات الواجبة كلها أو جلّها على المسلمين

هذه الصناعات إما أن تكون حاصلة: (١) في الماء، كالملاحين والسقائين والروّائين والشرابين والسباحين.

(٢) وإما أن تكون حاصلة في التراب، كحفار الآبار والقني والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب ويقلع الأحجار.

(٣) وإما أن تكون حاصلة في النار، كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين.

(٤) وإما حاصلة في الهواء، كالزمّارين والبوّاقين والنفاخين.

(٥) وإما حاصلة في الماء والتراب معاً، كالفخارين والقدوريين وضرّابي اللبن وكل من يبلّ التراب.

(٦) وإما حاصلة في أحد المعادن، كالحدادين والرصاصين والزجاجين والصواغين.

(٧) وإما حاصلة في النبات، نحو الكتانين ومن يعمل القنب والورق.

(٨) وإما حاصلة في ورق الأشجار وحب النبات والحشائش، أو زهر النبات ونوره، والعروق والقشور، كصناعة الدقاقين والعصارين والبزارين والشيرجيين.

(٩) وإما حاصلة في الحيوان، مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر وسياسة الدواب والبياطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم.

(١٠) وإما حاصلة في أحد الأجسام الحيوانية، كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن، كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة والجزارين والسيوريين والحذائين.

(١١) وإما حاصلة في مقادير الأجسام، مثل الوزانين والكيالين والذراعين.

(١٢) وإما حاصلة في قيمة الأشياء، كالصيارفة والدلالين والمقوّمين.

(١٣) وإما حاصلة في أجساد الناس، كالطب وصناعة المزينين.

(١٤) وإما حاصلة في نفوس الناس، وهي قسمان: عملية، كمثل ما تقدم، وعلمية، مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والإلهية.

الصنائع كلها ترجع لأمور ثلاثة: الغذاء والكساء والبناء وكلها ترجع إلى واحدة وهي حياة الإنسان

اعلم أن الله خلق النبات والحيوان والإنسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض، فالذي يكون أرفع شأناً منها نجده أكثر احتياجاً، وكلما قلت الحاجة كان أنزل، مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت في الطل والندى، وفي سائر الأرض بلا تعهد ولا فلاحة، وترى أمثال القمح والقطن يعوزها العمال والحفظ والسقي، وترى الناس يزيلون الحشائش التي ما زرعوها، وهكذا نرى ما يزاول الناس زرعه كالقثاء والعنب، فالأول له من العمل بمقدار ثمره، والثاني أرفع ثمراً، وأبقى أثراً، وأشرف مقاماً، فكان أحوج إلى العناية، فهكذا الحيوان أرفع من النبات لأنه يسعى لرزقه، والنبات لا يسعى إليه، وله حواس تهديه، والنبات غني عنها، فأما الإنسان فإنه أكثر حاجة وأعظم شرفاً، فانظر كيف سعى لغذائه كالحيوان وزاد افتقاراً عنه إلى الكساء وإلى عناية أشد بالمساكن، فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه، وأهم حاجاته هذه الثلاث:

الغذاء والكساء والبناء

أما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها، فكانت الحراثة والغرس وإثارة الأرض وحفر الأنهار وصناعة الحدادين والنجارين لصنع الآلات، ثم صناعة المعادن واستخراجها، وهذه هي الصناعات التي تتقدم الحراثة، ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترول، لتدور تلك الآلات الساقية والحارثة ويتقدم ذلك صناعات كثيرة، وهناك صناعات متممة للحب كالطحن والدق والعصر والخبز.

أما الكساء فإن الإنسان لما احتاج إلى ما تستغني عنه البهائم من اللباس إذ خلق عارياً وهنّ كاسيات، اتخذ اللباس بصناعة الحياكة، وهي لا تتم إلاّ بالغزل، وهو بالندف، والندف يتقدمه الحلج، وهذه مقدمات على الحياكة، والحياكة تتلوها الخياطة والرفو والطرز.

أما البناء فإن الإنسان يستكنّ فيه من الحر والبرد والسباع، ويخزن فيه القوت، فتتقدمه صناعات كالتجارة والحدادة وما شاكلها. وهناك صناعات جعلت للزينة، كصناعات الديباج والحرير والعطر. فهذه خلاصة ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة.

قواعد الشريعة الإسلامية في هذه الصفات

واعلم كما قاله العلامة السيوطي في كتابه «إتمام الدراية لقراء النقاية» إن الوازع الطبيعي يغني عن الوازع الشرعي، مثاله: شرب البول حرام، وكذلك الخمر، ورتب الحد على الثاني دون الأول لنفرة النفوس منه، فوكلت إلى طباعها، والوالد والولد مشتركان في الحق، وبالغ الله في كتابه العزيز في الوصية بالوالدين في مواضع دون الولد وكولاً إلى الطبع لأنه يقضي بالشفقة عليه ضرورة، هذه القاعدة نطبقها الآن على ما يحتاج له المسلمون.

فنقول: قد استبان لك أن جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الإنسان وتهذيبه ورقيه، والصناعات ترجع إلى مقصوده بالذات، وهي الثلاث المذكورة، وإلى مقدمات لها ومتممات، وبعدها تكون صناعات الزينة، فعلى رجال الحلّ والعقد في الأمة الإسلامية أن لا يتركوا صناعة ولا علماً إلاّ خصصوا لها أناساً، وليكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمي والعقلي، فيوضع كل امرئ في مركزه الذي خلق له، وأن الله قسم العلوم والصناعات على العقول، كما قسم الذكورة والأنوثة بالعدل بين الناس.

وهاهنا يرد سؤال فيقال: لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات، وجعلتها فروض كفايات، وكيف ساغ لك ذلك؟ وكيف تقرن علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء؟. أقول: إن هذه كلها فروض كفايات، وإن كانت متفاضلة في الشرف، فإن شرف العلم قد يكون لمتانة الدليل وصدقه كالهندسة، وقد يكون للحاجة إليه وعمومها وإن كان ظني الدلالة كالطب، وإما لجلال موضوعه وعظمته، كالعلم بالله وملائكته ورسله، وكذلك شرف الصناعات.

(١) إما لعموم الحاجة إليها، كالحياكة والبناء والحراثة.

(٢) وإما من جهة الصنعة نفسها، كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الاسطرلاب، ومثل صناعات من يصنعون الساعات التي تعرف الزمن، فإن شرف هذه في صنعتها، فإذا صنع الاسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جداً تساوي عشرات الجنيهات أو مئات منها، ولكن النحاس الذي فيه الصنعة يباع بدراهم معدودة.

(٣) وإما من جهة عموم نفعها مع تساوي الناس فيها غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، كصناعة الزبالين والسمادين، فإن هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعاً واحداً لامتلأت المدينة من السرقين والسماد فينغص عيش أهلها.

الوازع الطبيعي والوازع الشرعي

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ سلط على الناس الحر والبرد، والسباع والأعداء والسارقين، فاضطروا في البادية أن يتخذوا البيوت، وينسجوا الشعر والوبر، وسلط سبحانه الجوع على الناس، فكان الجوع للغذاء والحر والبرد ونحوهما للكساء، والحيوان الكاسر والأعداء وحوادث الجو للبناء. إن الله عزَّ وجلَّ لما رفع قيمة الإنسان عن الحيوان والنبات، كلفه الاستقلال في حياته، وألزمه أن يسعى لسعادته، وبدأ ذلك بتلك الغرائز التي سلطها من الجوع والعطش والإحساس بالحر والبرد والخوف من السباع، وكلما تقدم الإنسان في مدنيته ازدادت حاجاته، فلقد كان يكفيه في الفطرة الفاكهة غذاء، وورق الشجر وجلود الحيوان كساء، والمغارات مساكن.

إن الغرائز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمته أن يتخذ ذلك بلا حكومة نظامية، ولا مدارس ولا علوم، ولا يجب عليه فوق ذلك شيء بحسب المعاش الدنيوي. فلما أن اجتمعت الناس في المدن حدثت لهم أحوال واستجدت لهم شؤون، وجاءت واجبات، فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها، وربما عدت بالمئات لا سيما في هذا الزمان، ألا ترى أن السفر الذي كان يكفي أن يقال إنه على جمل أو حمار أو بغل أو سفينة أصبح الآن ذا شعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والغوّاصات والطيارات، وكل هذه تحتاج إلى الأسلاك البرقية «التلغرافية» والبرق الذي لا سلك له، وإلى علم المغناطيس والكهرباء، ونحو ذلك.

وبعد أن كان يكفي الوازع الطبيعي في تربية المرأة لولدها أن تغذيه باللبن كالحيوان، حدث اليوم حادث المدنية الذي به فسد الهواء في المدن وازدحم الناس، وضاعت الأخلاق، فوجب التعليم والتهذيب، وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات، وصار الفرد مكلفاً بشؤون خاصة على مقدار طاقته. وليس يجوز لأولي الحلّ والعقد في الإسلام أن يتركوا الأمة وشأنها، بل عليهم أن يجعلوا طوائف في

العلوم والصناعات بمقدار، فلا تزيد طائفة عن حاجة الأمة كما هو حاصل الآن، فبلادنا المصرية مسكينة تجهل الصناعات المستحدثة في أوروبا ولا تعرف إلا القليل، وهي عالة عليها فيها، ولا ترى فيها كثيراً إلا علوم القضاء والمحاماة، وعلم الفقه الإسلامي، والأمة الآن كبقية الأمم الإسلامية متروكة سبهللاً، فالمتعلمون في مدارس الحقوق والقضاء والمعاهد الدينية كثيرون جداً، يزيدون عن حاجات الأمة المسكينة الفقيرة في سائر العلوم ما عدا هذين العلمين، ويجب أن يتعلم كل ذي علم شرعي أو عقلي بعض الصناعات كالنجارة والحدادة والكهرباء تقوية لبدنه وتكميلاً لأمور حياته وحفظاً لمروءته إذا لم يجد وظيفة، وليكن تعليم السبق والرمي من أهم مقاصد جميع المتعلمين.

الفرض العيني الواجب على كل مسلم

ولعلك تقول: أليس علم الفقه واجباً على جميع المسلمين؟ فلماذا تجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء، وعلم النحو، وصناعة البخار وسير القطار.

أقول: ندع اختلاف العلماء في الواجب العيني، فإنهم لم يتفقوا، فعلماء التوحيد يقولون: الواجب العيني علمهم، والمفسرون علمهم، والمحدثون علمهم، والصوفية علمهم، وقال أبو طالب المكي: علم حديث: «بني الإسلام على خمس» الخ، والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته، وحفظ عقله ودينه، فحفظ الذات كفت فيه الغريزة، فإذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد، وإذا ترك المسكن تعرض للهلاك، وإذا رأينا من لم يحافظ على نفسه أرغمناه، وأوجبنا عليه حفظها، كمن يسكر أو يريد قتل نفسه، والمكلف به المرء اعتقاد وفعل وترك، فالاعتقاد هو الإيمان بالله ورسوله، وبقواعد الإسلام، وأن يقوم بفعل الطاعات ويتجنب المحرمات، فأما علم الفقه الذي هو الشغل الشاغل لعظماء الإسلام فقد قال الإمام الغزالي فيه: إن أحكام الجراحات والحدود والغرامات، وفصل الخصومات، وما أشبه ذلك إنَّما هي قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم، فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق، وهذه في الحقيقة حراسة للدنيا، والدنيا بها يتم الدين، فالفقه الذي عند الأمة الإسلامية إنَّما هو القانون، والقانون لحفظ البلاد والعباد، وبحفظ هؤلاء يتم الدين.

وليس يمتاز عما تقدم في الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام، فكل هذا نظر الفقيه فيه دنيوي لا أخروي، لأنه يحكم بصحة الصلاة ظاهراً، وكذا الزكاة والحج والإسلام، وهذه كلها لا نفع لها في الآخرة إلاَّ بالإخلاص والتوجه لله، فالصلاة لا نفع فيها ولا فائدة إذا كان قلب الإنسان مشتغلاً بما أهمه، والفقيه يقول: إنها صحيحة، والله يعلم أنها باطلة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤-٥].

بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا

وإن الشاب يخرج من المدارس مغمض العين ناعس الطرف، فلا يرى نجماً ولا شجراً ولا معدناً إلاَّ قليلاً منهم. قد ذكرت لك في الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة في البلاد، وقلت: إن أكثر المتعلمين من مصر مجدّون في هذا العلم، ألا ترى إلى الجامع الأزهر الذي تعلمت فيه، وإلى فروعه في دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط، وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب، وإلى مدرسة القضاء الشرعي، وإلى مدرسة الحقوق التي هي تبع الحكومة، وإلى مدرسة الحقوق الليلية التي أقامها أهل فرنسا

في بلادنا وغيرها، فهل لهذه المدارس كلها إلاّ مطلب واحد وهو سياسة الجمهور، وبعبارة أخرى، إن علم الفقه الإسلامي وأصوله الذي يراد لأجل الإفتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسي وأصوله وأصبحا علمين يقرأان، وانكب عليهما الطلاب للغرض الذي كان يسعى له طلاب المال والجاه، والأمة المصرية اليوم مسكينة فقيرة في العلوم والصناعات، أما في الصناعات فظاهر لأننا عالة على أوروبا، حتى إن نساءنا من كانت منهم غنية فالماشطة لها امرأة إفرنجية، والخائطة إفرنجية، والخادمة إفرنجية، والمرضع إفرنجية، وهذه الصناعات يحرم على الأمة أن تكون خالية منها فيعذب المسلمون قاطبة على تركها.

وأما العلوم فإننا فيها فقراء، ألا ترى أن علم الحيوان، وعلم النبات، وعلم المعادن، وعلم الفلك مفقودات في المدارس الثانوية، وقد كانت هذه في مدارسنا في أواخر القرن الماضي في النظام الذي سنه محمد علي باشا، ومن بعده أن المدارس الثانوية هي المدارس التي تعطي الشاب صورة العلوم العامة، وهذه مفقودة في البلاد إلاّ قليلاً، نعم، يقرؤون الحساب والهندسة والجبر وبعض الطبيعة كأحوال المادة الثلاثة: الصلبة والسائلة والغازية، وخواصها العامة، كالحيز وعدم التدخل إلى آخره، وكالقوى المحركة والروافع والحرارة والمغناطيسية والكهربائية الساكنة والمتحركة، ثم علم الحيل «الميكانيكا»، ولكن هذه لا تغني عن علم الحيوان والإنسان والنبات والمعدن، يعيش الشاب ويموت وهو يجهل النجوم وعجائب الفلك، ويجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها، ويجهل تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب وما أصلهم وما تاريخهم، ومن أين نزحوا، كل ذلك مجهول في الإسلام في وقتنا الحاضر، أما الأوروبيون فهم يعلمون أبناءهم ما يحتاجون إليه مما يناسب أحوالهم. فالمسلمون جميعاً يجهلون صناعة الحرب التي ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع الحياة إلاّ قليلاً عرفه بعض مواطنينا من المصريين، ولكن الجهل لا يزال مخيماً في البلاد كما خيّم في سائر البلاد الإسلامية، ثم المتعلمون عندنا مجدّون في علم الحقوق وعلم الفقه كما قدمنا، وهذا الانكباب من جهة وترك العلوم والصناعات الأخرى حرام على أولي الحلّ والعقد، بل عليهم أن يعملوا بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ويخصصوا كل طائفة بعلم أو صناعة، أما ترك الأمة سبهللاً هملاً فهو حرام نعاقب عليه في الدنيا بالخزي، ودوس الفرنج لنا بجهلنا، وفي الآخرة بجهنم وبئس القرار.

أيها المسلمون، أيها المصريون، إن التلاميذ في مدارسكم أعينهم في غطاء، إنهم يقرؤون، ولكن ماذا يقرؤون؟ يقرؤون شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها، يقرؤونها وهم متكلفون، يقرؤونها بإيجاز، تلك مقدمات الصناعات، والمقدمات غير النتائج، تلك نتف من العلوم لا تسمن ولا تغني من جوع، لا يعرفون الجمال، ولا يدرسون محاسن الطبيعة، ولا يقرؤون نظام النبات، ولا أنواع الحيوان، ولا بهاء الدنيا، ولا جمال النجوم، ولا بهجة هذه المناظر، لا يقرؤون العلم بلذة وفرح، ولا يدرسونه بانشراح ومسرة.

حكاية

منذ ١٣ سنة قال لي ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية، كانوا قد سافروا إلى أوروبا: إننا نحن الثلاثة كنا نظهر اهتماماً بجمال الزهر، وبهاء الزرع، وجمال الشجر، فقال أستاذنا ـــ الذي كان ناظراً لمدرسة الحقوق في مصر، وتشاجر مع مستشار المعارف الإنجليزي لحرمان التلاميذ من الفلسفة في

التجهيزي قبل دخول مدرسة الحقوق، ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين في مدارس الحقوق بفرانسا ـ ما لي أراكم تعشقون الزهر، وتحبون الجمال، ولم أر هذا في التلاميذ المصريين؟ فقلنا له: إننا حضرنا في سنة ١٩٠٧م على مدرس كان يعطينا مواضيع الإنشاء كلها في جمال الطبيعة فعشقناها، فقال لنا: لماذا حضرتم إلى أوروبا؟ إذا ظهر في أمة من يحببها في الجمال ارتقت سريعاً، ومثل هؤلاء تثمر كلياتهم، وهؤلاء يفتحون عيون شعبهم ويوقظونه في زمن قريب. انتهى.

أيها المسلمون، أيها المصريون، دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة، دين قدماء المصريين كما قدمت في هذا التفسير يعشق في جمال السماء والأرض، كما في النشيد الديني المتقدم، أوروبا تقدس الجمال في العوالم، فالقرآن وجميع الديانات والأمم تدرس جمال هذا العالم، ونحن نجتزئ بالقشور إلى يوم النشور، أغمض أبناؤنا أجفانهم، غطوا أعينهم وناموا، لم يدرسوا ما حولهم، نعم درسوا في كراسة المعلم، وهي وحدها التي أقفلت أجفانه وأنامته وكرّهته في العلم، ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوق الطالب إلى الدرس، وترفع نفسه إلى مستوى الحكمة والعلم، وبهجة الأنوار القدسية، ذلك هو الصراط المستقيم.

ولعمرك إن من يدرس في التجهيزي أحوال المادة الثلاثة: الصلبة والسائلة والبخارية، وخواصها العامة كالقصور الذاتي والحيز، وكونها لها مسامّ، وخواصها الخاصة كالقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة في المعادن، وكذلك القوى التي تحرك الأجسام والروافع والضغط الجوي والحرارة والمغناطيسية والكهربائية والميكانيكيا والضوء وقوانينه، إن الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم في صناعة من الصناعات، وأيضاً لم يقرؤوا علم الحيوان والنبات وغيرها، إن هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهو لم يتضلع من النثر والنظم العربيين، ويعيش حافظاً نظريات لا تفيده في الحياة، كمثل الذي حفظ الميراث والدعاوى والبينات وسائر أبواب الفقه، ولم يكن له فيه عمل ما، ثم هو يجهل ما في القرآن من الإشارات للعلوم والاطلاع على الحكمة، فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم، فلا يقام لهم في الدنيا وزن: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤]، فالتلميذ الذي يحمل الشهادة الثانوية لا يقدر على مهنة يشتغل بها، وهو مغرور بشهادته، والحق أنه قد خرج أعزل لا سلاح له، إلاّ تلك الورقة الكاذبة، فلا يمكنه الاكتساب بما علم، بل هو تعلم التوكل على الناس، فلا بد من قلب التعليم في مصر وفي المعاهد رأساً على عقب، نظاماً وشهادات وعلوماً وتلقيناً، والله هو الولي الحميد.

قال الإمام الغزالي في الإحياء: «لو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمي، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها، ويكفيه مؤونة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً في حفظه ودرسه، ويغفل عما هو مهم في الدين، وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين، بل قدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلاّ من أهل

الذمة، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، لا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به، هل لهذا سبب؟ إلاَّ أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى الأوقاف والوصايا، وحيازة مال الأيتام، وتقلد القضاء والحكومة، والتقدم به على الأقران، والتسلط به على الأعداء، هيهات هيهات، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن، ويضحك الشيطان». انتهى المقصود منه.

وأنا أقول: أيها الإمام، قد مضى نحو ٩٠٠ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب، والمسلمون تائهون جاهلون، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الإسلامية لا تزال كالعهد الذي تركت الإسلام عليه، فيها معاهد العلم الديني لا يزالون في هذا التلبيس، وتبعهم رجال المدارس الذين لا يحلوا لهم إلاَّ مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي، كل هذا للظهور وتولي الحكم والمحاماة، وأما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة إلاَّ قليلاً، فليس عندنا مبرزون فيها، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة، وسبقونا في الاقتصاد والسياسة، ثم إن المدارس عندنا تعليمها لفظي لا يعشق الشبان في العلم والبحث، فهو تعليم خال من الروح، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي.

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلباً تاماً في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية، وتدخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية في السوق، وهكذا علم الأخلاق وعلم النبات والمعدن وما أشبه ذلك، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط، وإنما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

هل في الإسلام نابغون؟

ولعلك تقول: كيف تذم التعليم في الإسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر لذي عينين؟

أقول: على رسلك، إن هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس إنَّما جاء من استعدادهم ومن دراستهم الخاصة وبيئاتهم، أما مستوى التعليم فإنه ناقص، وأهم من هذا أنه غير منظم، لم ينظر فيه إلى ما تحتاج إليه الأمة، الإمام الغزالي يقول لنا: إن البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الأطباء، ويندد على المسلمين ويقول: قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع؟ ضاع لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة.

وأنا أقول: يا ضياع المسلمين اليوم، يا ضيعة الإسلام، أيها الإمام، المسلمون لا يزالون كما تركتهم، فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤون البلاد، وكذلك المحامون والقضاة، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فإن هؤلاء في أوروبا وليسوا عندنا، وأنت أيها الإمام تقول: إن الدين ضاع، وأنا أقول

لك : إن كثيراً من أهل بلادي لا يعلمون أن هذا من الدين ، ولا يعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة ، وصناعة الطرق الحديدية ، وصناعات المعادن ، ولا يتصور أكثر الناس أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك : قد أخبرني عالم صيني أن علماء الإسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن ، فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثني ، فأصبح الإسلام في زماننا مانعاً من العلم في نظرهم ، والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليوناً .

ولقد جاءني مرة أمير يقال له جمال الدين من الهند ، ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافية والتاريخ ، فأجبته بأن العلوم كلها فرض كفاية ، وقال لي : إن علماء بلدي حرموا هذه العلوم .

وقابلني في هذا العام عالم تونسي فقال : إن بعض العلماء يقولون لا يجب شيء غير علم الفقه ، أما النظر في العالم العلوي فيكفي أن ينظر الإنسان بعينه ، وهكذا الإسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وأنا أطالب كل من وقع هذا في يديه أن يبحث في هذا الموضوع ، ويفكر بعقله ، ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ، ويرفعها لولاة الأمور ، فإنه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصاً بالفقه ، بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعاً لشجرة واحدة هي الحياة الإنسانية ، وكل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة ، فليقلب التعليم في المعهد الدينية على حسب ما قلناه وكذلك في المدارس العصرية ، وليكن للأمة حال جديدة ، فهذه الحال لا يجوز بقاؤها ، وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة ، فالإسلام وأمة الإسلام اليوم في خطر ، ولا منجى من الخطر إلاَّ بما ذكرنا ، وباتباع قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية

إذا تقرر أن فروض الكفاية تشمل العلوم والصناعات ، وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعاني وأمثالها ، وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه ، وكذا الحساب والهندسة ، والنظر في الكون ، أفلا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية ، ويقال إن هذه العلوم كلها فروض كفاية ، لا فرق بين علوم الدنيا والدين ، فإذا نظر رجال الحلّ والعقد في المجالس النيابية في أمر ما تحتاج إليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضاً للهندسة وأخرى للطب ، وللصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات ، وأن كثرة المتعلمين في البلاد في نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا ، إذا حصل ذلك فإني أراه يوافق الدين ، بل أقول فوق ذلك : إن مخالفة هذا تنافي الدين لما قرره الإمام الغزالي من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء ، الله الله عباد الله ، اتقوا الله في دينكم وأمتكم ، وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها بالفقه ، لأنهما معاً درسا هذا الفن ، ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده في الفقه ، وهكذا الهندسة ، ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان ، ثم ينظر أهل الحل والعقد في الأوقاف وتنظم نظاماً تاماً فلا تبقى مبعثرة كما هي الآن ، ويحرم الإنفاق على العاطلين ، ويعرض ما

فيها على أهل الحل والعقد، وينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة، ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها، ويأخذون من أقوالهم بما هو الأصلح للبلاد من حيث نظام الأوقاف وإنماؤها، ومن حيث الإنفاق على معاهد التعليم، وأن يكون المتخرجون منها نافعين في نظام الأمة تبع قانون معلوم ونظام مسنون، لا بالهوى والعادة، ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أما أنا فقد كتبت ما في وسعي، وهذا أنا به مكلف، وهذه بذرة سينميها العلماء، ويسقي زرعها العقلاء، ويعمل بها النواب النبلاء.

انتهى تفسير سورة البقرة

مساء الجمعة ١٣ أبريل سنة ١٩٢٣م

٢٦ شعبان سنة ١٣٤١هـ

بمنزلنا بشارع زين العابدين رضي الله عنه آمين

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الأول من كتاب

«الجواهر» في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الثاني

وأوله تفسير سورة آل عمران



فهرس الجزء الأول

خطبة الكتاب ٣
سورة الفاتحة : وبيان آيات العلوم والأخلاق فيها ٥
نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والملوك واختصاص
الحمد والعبادة بالله إطلاقاً للحرية والمساواة ٧
الشريعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس ٩
المسألة الأولى : الذرة ١١
المسألة الثانية : حبة القمح ١١
المسألة الثالثة : تربية التمرة في النخلة ١٢
المسألة الرابعة : تربية الله للؤلؤ في البحر، ويسمى الدر والجمان ١٣
المسألة الخامسة : تربية الجنين في بطن أمه ١٣
المسألة السادسة : تربية الولد باللبن ١٤
المسألة السابعة : التربية الطبية ١٤
المسألة الثامنة : التربية في المدارس والتعليم ١٥
المسألة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية ١٥
الحمد يكون على مقدار علم الحامد ١٦
معنى العالمين ١٦
العالم العلوي ١٦
العالم السفلي ١٨
عالم النبات ١٨
عالم الحيوان ١٩
علم التشريح ١٩
أسباب الحمد ٢٠
سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله في العالم ٢٠

الفاتحة أم القرآن ٢٥
مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات ٢٨
آيات العلوم والأخلاق في سورة الفاتحة ٣٢
تفسير سورة البقرة وتقسيمها إلى بابين عظيمين ٣٣
ابتداء التفسير ٣٤
المقصد الأول: مدح القرآن وبشارة المؤمنين ٣٤
المقصد الثاني وفيه غرضان: ذمّ الكافرين، وبيان حال المنافقين ٣٥
المقصد الثالث: ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين ٣٦
المقصد الرابع: نداء عام للناس أن يؤسسوا الإيمان على قاعدة النظر في السماوات والأرض........................ ٣٨
فصل آخر في هذه الحكم الكونية ٤٠
بدائع العلم........................ ٤١
تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام........................ ٤٦
الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن ٥٠
ضرب الأمثال........................ ٥٢
المقصد الخامس: كيف بدء الخلق........................ ٥٥
الكلام على السماوات السبع ٥٦
أسئلة وردت على المؤلف........................ ٦٠
المقصد السادس: خلق آدم........................ ٦٢
الله والملائكة وآدم خليفته........................ ٦٤
اجتماع خصائص الحيوان في الإنسان........................ ٦٦
تفصيل الكلام على الملائكة ٦٧
آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة ٦٨
بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل ٦٩
المقصد السابع: ذكر بني إسرائيل وأنهم ضلوا واتبعوا الشهوات، وذلك في فصلين: ٧٠
الفصل الأول: ما اقترفه قدماء بني إسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها مما
جاء في التوراة في سفر الخروج وإنزال القرآن مصدقاً، وهي عشرة يواقيت........................ ٧٠
الياقوتة الأولى: نجاة بني إسرائيل من عذاب المصريين ٧٠
مبحث الشفاعة ٧٦
إيضاح الشفاعة ٨٢
تفضيل بني إسرائيل........................ ٨٥
الياقوتة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة: فرق البحر لهم، إغراق فرعون،
إعطاء التوراة لموسى، توبة الله عليهم بعد الذنب ٨٥
الياقوتة السادسة والسابعة: تظليل الغمام، إنزال المن والسلوى ٨٧

الياقوتة الثامنة والتاسعة: الأعين المنفجرة، تعنتهم وطلبهم الشرف ٨٨
إيضاح الكلام في قوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ٨٩
الفوائد الطبية في هذه الآية ٩٢
إيضاح الكلام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ٩٤
الياقوتة العاشرة من الفصل الأول: قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم ٩٥
إيضاح هذه الآيات وعجائبها ٩٧
عجائب القرآن وغرائبه ٩٨
مراتب التصديق أربعة ١٠٦
الفصل الثاني من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة، وبه خمسة جواهر ١٠٦
الجوهرة الأولى، والثانية، والثالثة: المحرّفون لكتاب الله، المنافقون والأذكياء، الأميّون ١٠٦
الجوهرة الرابعة: مجمل الآداب المنزلة على بني إسرائيل ١٠٨
كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد ١١٠
صفة حكام الأمم الظالمة وعلمائها ١١١
وصف حربهم ١١١
الصفة العامة بعد الانحلال ١١٢
الجوهرة الخامسة، وفيها عشر زبرجدات ١١٢
الزبرجدة الأولى: قتلهم الأنبياء ١١٢
الزبرجدة الثانية: إشرابهم العجل في قلوبهم ١١٤
الزبرجدة الثالثة: دعواهم الاختصاص باليوم الآخر ١١٥
الزبرجدة الرابعة: عداوتهم لجبريل ١١٦
الزبرجدات الخامسة والسادسة والسابعة: نقضهم للعهود، كفرهم بمحمد ﷺ، اتباعهم علم السحر ١١٧
إيضاح الكلام على السحر ١٢١
ذكر ما قاله القدماء في علم السحر ١٢٤
الزبرجدة الثامنة: إيذاؤهم للنبي بلفظ راعنا ١٢٥
الزبرجدة التاسعة: تأييد النسخ بالحجة ١٢٦
الناسخ والمنسوخ ١٢٦
لِمَ كان الناسخ والمنسوخ ١٢٩
الجواب ١٢٩
الزبرجدة العاشرة: إرادتهم السوء بالمؤمنين ١٣٢
ملخص ما تقدم ١٣٣
تأمل المقصد السابع ١٣٤
الكلام على قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ١٣٥
العرائس النفائس ١٣٥

المقصد الثامن: قصة إبراهيم الخليل وإسماعيل وبناء الكعبة بعد ذكر إسحاق وبنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين برهاناً، وأخذ يؤسس الإسلام على قواعد إبراهيم ويذكر بناء الكعبة، ولم يكن دين اليهودية دين إبراهيم ولا يعقوب، ثم دعوة الناس جميعاً لدين واحد اتفق عليه الأسباط ونبذ النصرانية والتعميد، وهو عشر زمردات ١٣٩
الزمردة الأولى: طلب الإمامة لبنيه، والخلافة لذريته ١٤١
الزمردة الثانية: بناء الكعبة ١٤١
الزمردة الثالثة: تطهير البيت للطائفين والعاكفين ١٤٢
الزمردة الرابعة والخامسة: دعاؤه لأبنائه ١٤٢
الزمردة السادسة: لم يكن دين اليهودية دين إبراهيم ولا يعقوب ١٤٦
الزمردة السابعة: أن الأصل دين إبراهيم ١٤٧
الزمردة الثامنة: السلام العام ونور الحكمة ١٤٧
الزمردة التاسعة: قولهم إن إبراهيم وذريته كانوا يهود أو نصارى ١٤٨
الزمردة العاشرة: القبلة ومناسك الحج ١٤٩
بشرى للمسلمين ١٥٣
إيضاح الكلام في أمر القبلة ١٥٤
الكلام على قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ١٥٥
ما هما الكنزان ١٥٦
لغز قابس ١٥٧
هذا تحقيق في شأن الصفا والمروة ١٥٨
المقصد التاسع: ذكر الله قصص آدم وقصص بني إسرائيل ١٥٨
إيضاح الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ١٦١
اتحاد المطالب الدينية والدنيوية في هذا التفسير ١٦٣
الكلام على اختلاف الليل والنهار ١٦٣
أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة ١٦٥
عجائب العلم والسياسة في القرآن ١٦٧
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ ١٦٨
مثل المادة في تنوعها كمثل الصوت وتنوعه في الهواء ١٧٠
عجائب التنوع والتشكل في المادة الواحدة ١٧٣
لطائف في علمي الحيوان والنبات ١٧٤
اللطيفة الأولى ١٧٤
اللطيفة الثانية ١٧٥
اللطيفة الثالثة: من غرائب النباتات ١٧٥

اللطيفة الرابعة : النباتات المفترسة ١٧٥
اللطيفة الخامسة : الفجل والبصل والخس وما أشبهها ١٧٦
اللطيفة السادسة : النبات المفترس للحيوان ١٧٧
اللطيفة السابعة : أعمار الحيوان ١٧٧
اللطيفة الثامنة : القرود وتقليدها ١٧٨
اللطيفة التاسعة : عجائب الحرباء ١٧٨
اللطيفة العاشرة : ذكاء الفيلة ١٧٨
اللطيفة الحادية عشرة ١٧٩
اللطيفة الثانية عشرة : تعاون النبات والحيوان السنط والنمل ١٧٩
اللطيفة الثالثة عشرة : تعاون النبات والحيوان أيضاً الزهر والحشرات ١٨٠
تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ١٨٢
الزوبعة أو الإعصار ١٨٢
عجائب السحاب وحكمه ١٨٢
السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء ١٨٣
المقصد العاشر : تقليد الرؤساء والآباء في الدين ١٨٤
المقام الأول : الحب والعشق والشوق ، وما معنى حب الله ١٨٨
الخيال والتصور ١٨٨
العلم ١٨٨
العشق ١٨٩
حب الله ١٨٩
الشوق ١٩٠
الشوق لله ١٩٠
عجيبة ١٩١
الموضوع الثاني : الرؤساء والمرؤوسون ١٩٣
القسم الثالث في هذه الآيات الحلال والحرام ١٩٥
الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة أقوال ١٩٦
الكلام على صوف الميتة وشعرها ١٩٦
الباب الثاني من سورة البقرة وهو عشرون مقصداً ١٩٦
المقصد الأول : كمال الإنسانية ١٩٧
المقصد الثاني : القصاص ١٩٩
المقصد الثالث : الوصية ٢٠٠
واجبات الصوم ستة ٢٠١
لوازم الإفطار أربعة ٢٠٢

السنن في الصوم ست ٢٠٢
أسرار الصوم ٢٠٣
المقصد الرابع : الصوم والجهاد ٢٠٤
شروط وجوب الحج خمسة ٢١٢
شروط صحة الحج ٢١٢
كيفية الحج ٢١٣
المحظورات في الحج والعمرة ٢١٤
العمرة ٢١٥
أسرار الحج وبقية أركان الإسلام ٢١٥
المقصد الخامس : في الحج وبعض أحكام القتال وغير ذلك ٢١٧
المقصد السادس والسابع والثامن والتاسع : الخمر والميسر، اليتامى، أحكام النكاح، المحيض ٢٢٥
تحريم الدين للخمر ٢٢٨
التداوي به في الدين ٢٢٨
المدنية الحديثة والدين ٢٢٨
مطاردة المدنية الحديثة للأديان ٢٢٨
مناقضات الأمم وعجائب الإسلام ٢٣٢
تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وذكر أنها نجسة ٢٣٣
حكم الميسر ٢٣٣
المقصد العاشر : الحلف بالله ٢٣٥
تفصيل الكلام على ثلاثة مواضيع من الآيات السابقة الميسر والطهارة وصون اللسان عن الحلف ٢٣٧
ذكر بعض الميسر في بلادنا المصرية اليوم ٢٣٧
المسألة الثانية : الطهارة ٢٣٩
النظافة والصحة ٢٤٠
المسألة الثالثة : تنزيه الله عن الحلف باللسان ٢٤١
أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية ٢٤١
المقصد الحادي عشر : الإيلاء والطلاق ٢٤١
المقصد الثاني عشر : أحكام الطلاق ٢٤٢
المقصد الثالث عشر : الرضاعة وما بعدها، وفيه ثلاثة درر ٢٤٧
الدرة الأولى : تربية الولد وإرضاعه ٢٤٨
الدرة الثانية : مدّة المتوفى عنها زوجها ٢٥٢
الدرة الثالثة : الخطبة في العدّة ٢٥٢
المقصد الرابع عشر : المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها، وفيه جوهرتان ٢٥٣
الجوهرة الأولى : المتعة ٢٥٥

الجوهرة الثانية : اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها ٢٥٦
تفصيل الكلام على قوله تعالى ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ ٢٥٧
المقصد الخامس عشر : أسرار الجهاد وما فيه من قصص بني إسرائيل وأعدائهم ٢٦٢
المقصد السادس عشر : صفات الرسل ، وصفات ذات الله ، وفيها آية الكرسي ٢٧٠
المقصد السابع عشر : الإيمان بالفطرة ، ونور النبوة كالعصر الأول للإسلام ، والإيمان بالجدل كمسألة النمروذ وإبراهيم الخليل ، والإيمان بالمعاينة كمسألة الطير ، ومستقبل الأمة الإسلامية ٢٧١
المرتبة الأولى ٢٧٣
بذور القرآن ٢٧٦
المرتبة الثانية : في التوحيد ٢٧٩
المرتبة الثالثة ٢٧٩
الاتّحاد ٢٨١
القطن والقمح والبرسيم ٢٨١
لطيفة في أسرار «ا ل م» ٢٨٦
الكلام على الحيوانات الضفدعية ٢٨٨
الضفدعة ٢٨٩
تفصيل الكلام على بقاء الروح ٢٩٣
البرهان على بقاء الأرواح ٢٩٣
العلم والبدع وواجب العلماء ٢٩٧
المقصد الثامن عشر : بيان المنفق عليهم وأحوال الإنفاق ٢٩٨
تلخيص الأمثال المذكورة في الإنفاق والمنفقين ٣٠١
ما قاله العلماء في الزكاة الواجبة ٣٠٣
زكاة النعم ٣٠٣
زكاة الركاز والمعادن ٣٠٤
زكاة الذهب والفضة ٣٠٤
زكاة التجارة ٣٠٤
الزكاة في الزرع ٣٠٤
صدقة الفطر ٣٠٤
أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين ٣٠٥
مقارنة الإسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا ٣٠٨
المقصد التاسع عشر : بيان المعاملات في الأموال من الربا والرهن ونحوهما ٣١٠
موازنة آراء علماء الإسلام في الربا بآراء الاشتراكيين ٣١٣
حكمة تحريم الربا ورأي الإمام الغزالي ٣١٤

الأصناف التي يحرم فيها الربا ٣١٥
آراء المذاهب الاشتراكية وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الإسلام ٣١٦
المقصد العشرون: خاتمة السورة بالإيمان بالله ورسوله، والتكليف، والدعاء ونهايته بالنصر ٣١٧
اختلاف العقول وواجب الحكومات الإسلامية ٣٢١
نظام الحيوان على منهج حواس الإنسان ومنافعه ٣٢٣
الكلام على العلوم الواجب أكثرها أو كلها على المسلمين في هذا الزمان ٣٢٤
الصناعات الواجبة كلها أو جلّها على المسلمين ٣٢٤
الصنائع كلها ترجع لأمور ثلاثة: الغذاء والكساء والبناء وكلها ترجع إلى واحدة وهي حياة الإنسان ٣٢٥
الغذاء والكساء والبناء ٣٢٥
قواعد الشريعة الإسلامية في هذه الصفات ٣٢٦
الوازع الطبيعي والوازع الشرعي ٣٢٧
الفرض العيني الواجب على كل مسلم ٣٢٨
بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا ٣٢٨
الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة ٣٣١
هل في الإسلام نابغون؟ ٣٣١
الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية ٣٣٢